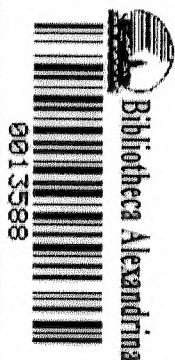


هرمان هسه

رواية

يس و غولاموند

ترجمة: أسامة منزلجي



نرسیس و غولدهوند

توسیس و غولدموند

لیف: هرمن هسه

ترجمة

أسامة منزلي

نرسييس وغولدموند /تأليف: هرمن هسه
ترجمة: أسامة منزلجي
الطبعة الأولى ١٩٩٦
جميع الحقوق محفوظة

دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع
أشرفية صحنايا
ص.ب: ٣٢١٠٥ دمشق
هاتف: ٦٧١٣٠٧٩

إهداء المترجم

إلى روح الصديق والأخ محمد أحمد بله
الذي كان توق "غولدموند" إلى الترحال
يطل من عينيه كل يوم وهو واقف على
باب محله يمسح جهتي الشارع بنظرات
متلهفة، بريئة، زائغة....

الفصل الأول

هنا في بلاد الشمال، وقبل زمن بعيد، زرع أحد الحجاج الرومان شجرة كستناء منعزلة، قوية وحيدة بالقرب من صف من أعمدة مدورة ذات أقواس مزدوجة قائمة عند مدخل دير ماريابرون: شجرة نبيلة، قوية، تملأ أوراقها معاً برقة أمام هبوب الرياح، بثقة شجاعة هادئة، وفي وقت متأخر جداً من الربيع حتى بعد أن يزهر كل شيء حولها بالخضرة وتكتسي حتى أشجار الجوز التابعة للدير باللون الخمري، تنتظر هي أقصر الليالي لترسل، من خلال بويقات الأوراق، إشعاعات براعمها الغريبة الباهتة، وفي شهر تشرين أول، بعد أن يعصر الخمر ويجمع الحصاد بوقت طويل، تسقط ثمارها الواخزة عن تاجها الآخذ بالاصفرار، ثمار لا تنضج كل عام، يتشاجر أولاد مدرسة الدير للحصول عليها، وكان غريغوري، المساعد الإيطالي لرئيس الدير يشويها على حطب موقده. وكانت الشجرة الجميلة، المترفة الرقيقة، التي تظلل المدخل إلى الدير، ضيفاً رقيقاً يرتعش، قادماً من بلاد أكثر دفئاً، وتحت بصلة تربي سرية إلى أعمدة المدخل المزوجة النحيلة، وإلى دعائم أقواس النوافذ وزخارفها، أحبها كل اللاتينيين والإيطاليين، ونظر إليها السكان الأصليون بأفواه

فاغرة كما إلى كيان غريب.

أجيال عديدة من أولاد مدرسة الدير مرت من تحت هذه الشجرة الغريبة، يضحكون، يثرثرون، يلعبون، يتشاجرون، منتعلون أو حفاة، وفق الفصل من السنة، كل منهم يحمل لوحة، أولاد يضعون زهرة بين شفاههم، أولاد يكسرون الجوز، وأولاد يحملون كرات من الثلج. وكانت هناك دائماً وفود جديدة منهم، كل سنتين تأتي وجوه جديدة، على الرغم من أن أغلبهم - بشعورهم الشعثة الشقراء - كان يشبه من سبقه. بعضهم يبقى ويغدو مترهباً، ومن ثم راهباً، ويجز الشعر الأشقر. ويرتدون الرداء الرهباني والجل، ويقرأون الكتب، ويعلمون الأولاد، ومن ثم يتقدمون في السن ويموتون. وآخرون، لدى نهاية فترة دراستهم، يأتي أبائهم ويصبحونهم إلى البيت، إلى قلاع الفرسان، أو منازل التجار أصحاب المهن الحرة، ويطلق لهم العنان ليخرجوا إلى العالم، ليسيروا سيراً طائشاً أو ليعملوا، أحياناً، وبعد أن يصبحوا رجالاً، يعودون ليلقوا نظرة على الدير يصبحون أولادهم الصغار ليتولى الآباء تعليمهم، يقفون برهة ويتسمون حين يرون شجرة الكستناء، وتتوارد الأفكار في رؤوسهم، ومن ثم يخرجون من المكان ويغيبون عن الأنظار. وفي صوامع الدير وغرف مدرسته، بين الأعمدة المزدوجة القوية ذات الحجر الأحمر والأقواس المستديرة، عاش الرهبان يعلمون، ويديرون المكان، يدرسون، ويهيمنون. هناك كان يحصل كل فرع من فروع العلم، ويورث جيلاً بعد جيل: معرفة دينية ودنيوية، الظلام والنور، وتكتب الكتب ويعلق عليها بالخواشي، وتستنبط النظم، وتجمع مؤلفات الأقدمين، ويلقى الضوء على كتب القداست، ويعزز إيمان الناس، وتبذل سرعة تصديق الناس. هناك كان يوجد كل شيء، ثمّة حيز لكل شيء، للإيمان وللتعلم، للأعماق وللسطحية، لحكمة الإغريق وللإنجيليين، للسحر الأسود وللسحر الأبيض - ولكل منها فائدته. كان هناك متسع للتوبة وللعزلة،

مكان للحياة الرغيدة، وللصحبة. والأمر يعتمد على الراهب الرئيس الذي يتولى الإدارة، وعلى النزعة السائدة، فالتى يعلو نجمها في وقت من الأوقات، تحجب الأخريات. وقد اشتهر دير ماريابرون لفترة معينة بطاردي الأرواح الشريرة والشياطين، وفي فترة أخرى بجمال ترتيلها البسيط، ثم بأب ورع كان يشفي ويصنع المعجزات ومن ثم بمرق سمك الكراكي وبفطائر كبد الأيل - وكل منها كان له زمنه. وكنت دائماً تجد وسط هذا الحشد من الرهبان والفقهاء فاتري همة ومتحمسين صائمين ومعربين، كان دائماً يوجد، هنا وهناك بين العديد ممن يعيشون ويموتون هناك، فرد، واحد منعزل عن البقية، يحبه الجميع، أو يخشونه، واحد يبدو من المختارين، ممن يبقى في البال وتدور حوله الأحاديث بعد أن ينسى بقية أفراد جيله بوقت طويل.

وفي هذه الفترة التي نحن بصدد^(١) عاش في دير ماريابرون إثنان من المنفردين المختارين، واحد متقدم في السن، وآخر شاب. فمن بين العديد من الرهبان الذين زحرت بهم الكنيسة، والمنامات، وقاعات الدرس، كان هناك إثنان، انتبه إليهما الجميع، وراقبوهما - هما الأب الرئيس دانييل والمترهبين المدرس نرسيس الذي كان قد دخل حديثاً في الرهبنة، إلا أنه، وبسبب مواهبه الاستثنائية، عين خلافاً لكل الأعراف، كمدرس، وخاصة لمادة اللغة الإغريقية. وقد حظي الاثنان، المبتدئ والأب الرئيس، باحترام واهتمام كل من في الدير. كانا محط الأنظار ومبعث الفضول، والاعجاب والحسد، وفي السر كان يدور الافتراء عليهما.

كان أغلب الأخوة يكونون الحب للأب الرئيس، ولم يكن لديه أي أعداء. كان يفيض طيبة، وتواضعاً، وبساطة. إلا أن مثقفي الدير كانوا يطعمون حبهم له بلذعة تأنيب. فيقولون إن هذا الرئيس قد يكون

(١) - تدور أحداث الرواية في القرون الوسطى. - المترجم.

قديساً، لكنه لن يكون فقيهاً قط. إن بساطته هي سمة الحكمة، لكن لغته اللاتينية بائسة، أما اليونانية فهو يجعلها تماماً.

الذين كانوا مستعدين للابتسام أحياناً لبساطة الراهب الرئيس كنت تراهم أكثر استعداداً للافتتان بنرسيوس - الفتى المذهل، الشاب الوسيم ذو النطق الأنيق لليونانية، وحسن السلوك وقوة التأثير الخليقين بفارس، والعينين النفاذتين الهادئتين لمفكر، والشففتين الرقيقتين، الجميلتين، المحددتين بصرامة، الذي كان يجذب منطقته الألعبي العلماء إليه. وكل الآخرين تقريباً أحبوه لصفاته ونبله. لقد فتن الكثيرين: كثيرون لم يستأثروا لكونه دائماً شديد الهدوء وضابط النفس، وفائق الكياسة.

رئيس دير ومترهب، وكل على طريقته، كان يحمل دلائل على اتصافه بنعمة خاصة. كل على طريقته سيطر، كل منهما عانى من ألمه الخاص، وكل منهما انجذب إلى الآخر، وشعر بقربه إليه أكثر من أي من نزلاء الدير.

إلا أن أياً منهما لم يعثر على الآخر، على الرغم من بحثه عنه، ولا استطاع أن يتخلى عن تحفظه في حضور الآخر. فكان الرئيس يعامل الراهب المبتدئ بلطف جم، بكل مداراة رقيقة، يوبخه كما يوبخ المرء أخاً أصغر سناً، أخاً أصغر رقيق الصحة بشكل غريب، وربما مبكر النضج بشكل خطير يدعو للقلق. وكان المبتدئ يولي كل أمر يصدر عن الرئيس وكل نصيحة انتباهه، وبرضوخ تام، ولم يكن يناقش قط، أو يتهم، وإذا كان حكم مقدمه عليه صحيحاً، وكان كل ما ينتابه هو غواية الفخر، استطاع أن يخفي نقيصته هذه بصورة تامة. ولم يكن ثمة أي شيء يمكن أن يؤخذ ضده. كان كاملاً، لكنه متحفظ. وكان الوضع كما يلي: أنه لم يكن بوسع إلا قلة خلاف المتقنين أن يكونوا أصدقاء مقربين له: وأن تميزه الخاص كان يسرله ويكتنفه من كل جانب، كرياض صرصر.

ذات مرة، وبعد أن اعترف، قال له الرئيس: "وأنا يا نرسييس مذنب لأنني أصدرت عليك أحكاماً متهورة. لقد حسبتك متغطرساً، ولعلي أجحفت في حقك. إنك شديد الانعزال يا أخي، لك معجبون كثرون، ولكنك بلا أصدقاء. أتمنى لو أجد ذريعة لأعنفك قليلاً. لكني لا أجد. كنت أود لو أرى منك عصياناً كما يفعل الشبان الذين في سنك بسهولة. ولكن لا ييدر عنك أي عصيان. أحياناً يا نرسييس تثير قلقي".

التفت الشاب بعينه السوداوين إلى الرجل العجوز:

"أبت إنني قبل أي شيء لا أريد أن أسبب لك الحزن. ثم لعلني أكون متغطرساً. أتوسل إليك أن تعاقبني على ذلك. إنني أحياناً أتوق إلى معاقبة نفسي. أرسلني إلى معتزل يا أبت، أو دعني أقوم بعمل أخ عادي". أجاب الرئيس: "أنت صغير جداً على كليهما، أيها الأخ العزيز، وتتمتع بموهبة رائعة يا بني، في الحديث وفي الفكر. وبإسناد مهام أخ عادي إنما أسيء استخدام هذه المواهب الراقية وأدنسها. أنت خلقت لتكون مدرساً أو عالماً. فهل هذا ما تتمناه لنفسك؟"

"سامحني يا أبت، لست واثقاً تماماً مما أريده. سوف أستمع دائماً بدراسة العلم، وكيف لا؟ لكني لا أعتقد أن التعلم سيكون المجال الوحيد لأداء الخدمة. قد لا تكون رغبات الإنسان هي التي تقرر مصيره وتحركه، قد يكون مسيراً".

ازداد الرئيس جدية، إلا أن وجهه العجوز ابتسم وهو يجيب: "إنني وفق ما تعلمت أن أعرفه عن البشر وجدت أننا في شبابنا نميل جميعاً إلى أن نطلق على رغباتنا اسم مقدرات. فما هو المقدر لك حسب شعورك؟".

أغمض نرسييس عينيه السوداوين نصف إغماضة حتى غابت داخل ظل رموشه، ولم يجر بجواب. وران صمت طويل.

قال الرئيس بلهجة آمرة "تكلم يا بني". وبصوت منخفض، وعينه

مطرقتان إلى الأرض، بدأ نرسيس إجابته:

"أشعر يا أبت، أنه مقدر لي قبل كل شيء أن أعيش في هذا الدير. أعلم أنني سأصبح راهباً، أو قسيساً، أو نائباً للرئيس، وربما رئيساً للدير. إنني زاهد في المناصب الرفيعة، لكنني أعرف أنها سوف تسند إلي".

ران الصمت على الإثنين.

سأله العجوز بنبرة شك "ما الذي يمنحك هذا الاعتقاد؟ بغض النظر عن ثقافتك ما الذي يسمح لك أن تقول هذا؟".

كان نرسيس بطيئاً في الإجابة: "لأنني أحمل في داخلي إدراكاً لعادات البشر وتقلبات أمزجتهم: ليس ما أتصف به أنا وحدي، بل ما يتصف به الآخرون. هذه الخاصية لدي تجبرني على خدمة البشر بالسيطرة عليهم. ولو لم يكن هناك نداء داخلي يجذبني إلى الرداء الكهنوتي لأصبحت قاضياً، حاكماً".

أوما الرئيس موافقاً "لعل الأمر كما تقول، ولكن هل أقيمت الدليل على مقدرتك الشخصية هذه على معرفة البشر وأقدارهم بأي شاهد؟ وهل أنت مستعد لإعطائي مثلاً على ذلك؟".

"نعم أنا على استعداد".

"جيد، إذن - وبما أنني لن أقدم على أن أتطفل محققاً إلى قلوب الأخوة دون علمهم، فرمما تقول أنت لي، أنا رئيسك، ماذا تعرف عني؟".

رفع نرسيس ناظريه ليثبتهما على متقدمه.

"أهذا أمر يا أبت؟".

"نعم، أنا أمرك".

"من الصعب أن أقول، يا أبت".

"وأنا أيضاً، أيها الأخ، أجد من الصعب علي أن أمرك بالطاعة في هذه المسألة. لكنني أفعل. هيا تكلم، إذن".

رفع نرسيس رأسه وهمس قائلاً :

"إنني لا أعرف إلا القليل عنك، يا أبت. أعرف أنك أحد خدام الرب، أنك تفضل رعي الماعز، أو قرع الجرس إيداناً بيد صلاة الفجر في صومعة للتنسك وحل الفلاحين من خطاياهم، على أن تمارس سلطتك كرئيس لدير ضخم. أعرف عن تفيانيك في حب سيدتنا العذراء، وأن معظم صلواتك موجهة إليها. أحياناً تصلي كي لا تبعد دراسة اللغة الإغريقية وفروع المعرفة الأخرى الأرواح عن الرب ليكونوا تحت رعايتك، وتصلي في مرات أخرى كي تصبر على غريغوري، مساعدك. وأحياناً تصلي لتحظى بنهاية هادئة. في هذا الأمر أعتقد أن نداءك سيسمع، وأن نهايتك ستكون هادئة".

ساد الصمت التام ردهة مقر الرئيس الصغيرة، إلى أن بادر العجوز أخيراً بالكلام. فأجاب بصوت ودود :

"أنت حالم وصاحب رؤى. حتى الرؤى التقية الصافية يمكن أن تخدعنا. إنني لا أثق بها، وعليك أن لا تفعل. والآن، أيها الأخ الحالم، هل تستطيع أن تفهم كيف لي أن أشعر بكل هذا في قلبي؟"

"يا أبت، أفهم أنك تفكر به بطريقة حسنة جداً. وإليك رأيي :

"إن هذا الفقيه الشاب في وضع على جانب من الخطر، لقد رأى رؤيا، ولعله يكثر من التأمل، وربما لآخر في أن أفرض عليه كفارة، وسوف أفرض مثلها على نفسي. بهذا كنت تفكر لتوك".

نهض الرئيس واقفاً، وصرف الراهب المبتدئ وهو يتسم.

قال: "هذا حسن. لا تحمل رؤياك على حمل الجسد، أيها الأخ الشاب. إن الرب يتطلب منا أكثر من الرؤيا بكثير، فلنقل إنك أسعدت رجلاً عجوزاً بقولك له إنه سيحظى بمئة هينة، وإن قلب الرجل العجوز ابتهج برهة من الوقت لسماعه وعودك. وهذا يكفي. غداً، بعد قداس

الصباح الباكر، ستتلو مجموعة من الصلوات، وستتلوها باتضاع وورع، وكذا سأبلى أنا. والآن انصرف، يا نرسييس، لقد قلنا ما فيه الكفاية".

في يوم آخر اضطر الرئيس دانييل لإصدار الحكم الفصل بين نرسييس وأصغر الآباء المعلمين سناً، للذين لم يتوصلا إلى الاتفاق على نقطة معينة في خطة التدريس. فقد ألح نرسييس، بكل حماس، على ضرورة إحداث تغييرات سنية، واستطاع زيادة على ذلك، أن يدافع عنها على أسس مقنعة. من الأب لورينز، يحدوه ما يشبه الحسد، رفض أن يوافق عليها، حتى بات يتبع كل اجتماع بينهما انزعاج، وتجهم، وصمت، حين يفتتح نرسييس، الذي يشعر أنه على حق، الموضوع من جديد. وأخيراً قال له الأب لورينز المتألم:

"حسن يا نرسييس فلننه جدالنا. أنت تعرف أن في هذا الموضوع أنا من يجب أن يقرر وليس أنت. وعليك أن ترضخ لإرادتي، وأنت لست زميلاً لي في التدريس، وإنما مساعدي، ولكن بما أنه يبدو أن هذه القضية تنوء بثقلها عليك، وبما أنني أقل منك معرفة ومواهب، على الرغم من أنني متقدمك، فلن أدعي أن الكلمة الأخيرة هي لي، بل لنأخذ خلافنا إلى أبنائنا الرئيس، ونسأله أن يحله بيننا".

وهذا ما فعلاه، واستمع الرئيس دانييل إلى هذين الفقيهين، بكل لطف وجد، وهما يتجادلان حول تدريس قواعد اللغة. وبعد أن فرغ كلاهما من إعلان أفكاره، نظر إليهما العجوز نظرة فكهة، ثم هز رأسه الأبيض قليلاً وهو يقول:

"أيها الأخوين العزيزين، لا أعتقد أن أيّاً منكما يفترض أنني أعرف أكثر منكما في هذه الأمور. إن مما هو جدير بأكثر ثناء بنرسييس أن المدرسة تقع في مكانة شديدة القرب من قلبه، وإنه على هذا يعمل على تحسين خطة التدريس. ولكن إذا كان متقدمه يرى خلاف ذلك، فإن

على نرسيس أن يمثل له ويلزم الصمت، بما أنه لا وزن لأي تحسين يستحدث في المدرسة إذا كان سيودي بالجو الطيب من النظام والطاعة الذي يسود المقر. إنني أضع اللوم على نرسيس لأنه لم يتمكن من السيطرة على نفسه، وأمنيقي لكما أنتما العالمان الشابان أن لا تنقدا مطلقاً وجود متقدم أقل ذكاءً منكما. فهو أفضل فريسة للغرور".

بهذه المزحة المرححة صرفهما، إلا أنه حتماً لم يهمل في الأيام التي تلت مراقبة الإثنين عن كثب، ليكتشف بنفسه إن كان ساد بينهما السلام والوثام من جديد.

ثم حدث أن ظهر وجه جديد في الدير، الذي شهد وجوهاً كثيرة جداً تأتي وتذهب، وأن هذا الوجه الجديد لم يكن من النوع الذي يمر دون أن يلفت الانتباه ويُنسى سريعاً بعد رحيله، كان فتى صغيراً، وكان والده، الذي أحضره، في أحد أيام الربيع، قد أعلن منذ زمن طويل عن وصوله، ليدخله إلى مدرسة الدير. فربطاً حصانيهما تحت شجرة الكستناء، وخرج البواب من البوابة لمقابلتهما. رفع الفتى نظره إلى الأغصان العارية الساكنة للشجرة، وقال: "لم أر شجرة مثل هذه حتى الآن. إنها شجرة جميلة نادرة، أتمنى لو أعرف اسمها".

لم يبال الوالد، العجوز، ذو الوجه الشاحب، المحدّد بعناية، بكلمات ابنه الصغير. لكن البواب فرح بمجيء الصبي فأخبره باسم الشجرة. فشكره الصبي الصغير بأدب جم، ومد له يده وقال له:

"اسمي غولدموند، وسأنتمي إلى هذه المدرسة". ابتسم البواب وفاد القادمين الجديدين عبر البوابة ومنها ارتقوا الدرج الحجري العريض. دخل غولدموند الدير دون وجل، شاعراً أنه هنا قابل مخلوقين، الشجرة والبواب، ويمكنه بسهولة أن يصادقهما.

استقبلهما الأب مدير المدرسة، وقرابة المساء استقبلهما رئيس الدير

بنفسه. وقدم هذا الفارس، الذي يعمل في خدمة الامبراطور، ابنه غولدموند إلى هذين الاثنين، ودُعي للسنزل بعض الوقت في مقر الضيوف. لكنه قبل هذا الامتياز فقط لليلة واحدة، قائلاً إن عليه أن يعود في اليوم التالي. وقدم للدير على سبيل المنحة أحد الحصانين اللذين حملهما إليه، فقبل الرهبان. وكان حديثه مع القساوسة متملقاً بارداً، إلا أن الأب المدير والأب الرئيس نظرا بعين السرور إلى غولدموند المتسم بالاحترام، والصامت، لقد بث هذا الصبي الجميل الحسن التنشئة السرور في نفسيهما للتو. وفي اليوم التالي راقبا، بقليل من الأسف، الوالد وهو يركب مطيته عائداً، وكانا سعيدين جداً باحتفاظهما بولده. وأخذ غولدموند لمقابلة أساتذته، وأعطى سريراً في منامة الدارسين. وقد استأذن من والده وسيده بالمغادرة وفي عينيه خوف وإجلال، ووقف يحدق إليه وهو يتعد، وإلى أن غاب الحصان والراكب عن الأنظار من خلال القوس الضيق في جدار الساحة الخارجية، بين المطبخ ومخزن الحبوب. وعلقت دمعة على رموشه الذهبية الطويلة حين استدار، لكن البواب، الذي مكث هناك بانتظاره، ربت على كتفه بتعجب.

قال مواسياً "لا تحزن، يا سيدي الصغير. أغلب من يأتون إلى هنا يبدأون بقليل من الحزن على أبيهم، أو أمهم، أو أخوتهم. ولكن قريباً ستري! ستكون حياتك هنا طيبة كما في أي مكان آخر".

قال الفتى "شكراً لك، يا أخي البواب، ولكن لا أم لي ولا أخوة، ليس لي غير والدي".

"حسن هنا ستجد رفاقاً في اللعب والدرس، وألعاباً جديدة لم تعرفها من قبل، وأشياء أخرى. ستري ذلك سريعاً. وإذا احتجت إلى إحداها تحبها حباً خاصاً، تعال إلي".

ابتسم غولدموند "أوه، شكراً جزيلاً يا أخي البواب. والآن، إذا

أردت أن تكون صديقي، أرني بسرعة الحصان الصغير الذي حملني إلى هنا، أود أن أحييه، ولأرى إن كان بدوره سعيداً بمقامه هنا".

قاده البواب من فوره إلى الاسطبل، القريب من مخزن الجبوب. وكان المكان وقت الغسق الرخي يفوح برائحة الجياد الحادة، وبرائحة الشوفان وروث الأحصنة، وعثر غولدموند على حصانه البني الصغير في مربطه، الحصان الذي حمله إلى الدير. وعانق صدر عنقه بذراعيه، وسرعان ما تعرف على سيده، ومد نحوه رأسه، ووضع غولدموند وجنته على الجبين الواسع المنقط للفرس، وراح يداعبه بلطف ويهمس له في أذنه "رعاك الله يا بليس، يا حصاني الصغير، أيها الشجاع. كيف حالك؟ أما زلت تحبني؟ هل تفكر في منزلنا؟ هل ملأت بطنك بالطعام؟ صديقي بليس، يا حصاني الصغير، يا صديقي، ما أسعدني ببائك معي. سأتي دائماً لأراك".

أخرج من محفظته قطعة خبز — وجبة الإفطار التي احتفظ بها لحصانه واقتطع منها ليعطيه. ثم استأذن بالانصراف، وتبع البواب خلال ساحة الفناء، الفسيحة مثل رقعة السوق في مدينة كبرى، وأضحت أكثر امتداداً بما نما من أشجار الزيزفون حولها. وعند البوابة الداخلية شكر البواب ومد له يده، ثم اكتشف أنه لم يعد يعرف الطريق إلى صفه المدرسي، مع أنهم بالأمس بينوا له الاتجاه. ضحك قليلاً واحمر وجهه خجلاً، واستدار ورجا البواب أن يدلّه، وكان سعيداً جداً للقيام بذلك. وهكذا انضم غولدموند إلى رفاقه، الذين كانوا مجموعة من الفتيان والأولاد من الطبقة الأرستقراطية يجلسون على المقاعد، فالتفت الصبي إلى الراهب المبتدئ المدرس، نرسيس، وقال "أنا التلميذ الجديد غولدموند". حياه نرسيس باقتضاب، وأشار له، دون أن يبتسم، إلى مكان في المقعد الأخير، وتابع من فوره إلقاء درسه.

جلس غولدموند. دهش لاكتشافه أن المدرس صغير جداً في السن، ولا يكبره إلا ببضع سنين، ودهش أيضاً، وكان سعيداً جداً لأنه وجد أن هذا المدرس شديد الوسامة، والوقار، وعلى قدر كبير من دماثة الخلق، ومع ذلك كان فاتناً وجديراً بحبه. لقد كان البواب لطيفاً جداً معه، ورئيس الدير رحب به بكل ود، وهناك في مربطه يقف "بليس"، يحمل معه شيئاً من روح المنزل، وها هنا الراهب الشاب الرائع، رصين كفقيه، راق كأمر، بصوته البارد الصافي، يفرض نفسه على سامعيه. أنصت غولدموند بسعادة، دون أن يفهم ما يقال. شعر بسكينة. لقد حل بين أناس صالحين، وكان مستعداً أن يبادلهم حباً بحب، وأن يجتهد ليجعل منهم أصدقاء.

في هذا الصباح وهو في سريره، بعد أن استيقظ، شعر بانزعاج شديد، كان ما يزال مرهقاً من طول الرحلة، واضطر إلى البقاء وهو يتمنى رحلة موفقة لوالده. أما الآن فكل شيء على ما يرام وهو سعيد. وراح يملئ بصره من الأستاذ، تبهجه قوته ونحوه، وعيناه الباردتان، المتوهجتان مع ذلك، وشفاته المرسومتان بصرامة اللتان تلفظان كل مقطع لفظي بوضوح تام، وصوته المحلق الذي لا يناله تعب.

ولكن بعد انتهاء الدرس، وقد انتفض الدارسون الضاحجون واقفين، استيقظ غولدموند ليدرك، يسربله الخجل، أنه كان يغط في النوم منذ وقت طويل. ولم يكن هو الوحيد الذي لاحظ ذلك، لقد رآه أيضاً المجاورون له على المقعد، وراحوا يتهايمسون عنه مع رفاقهم. وما إن غادر الأستاذ غرفة الدرس حتى أحاط الرفاق الصاخبون بغولدموند. قال أحدهم يتسم ساخراً "ألم تستيقظ بعد؟".

وتهكم آخر "يا له من فقيه. هاكم واحد سيغلو منارة مشعة في الكنيسة. أول درس جعله يغط في النوم".

واقترح ثالث "احملوا البؤ إلى سريره"، وقفزوا ليحملوه من ذراعيه وساقيه، ورفعوه عالياً، وهم يصيحون ساخرين.

سببوا له من الخوف قدراً جعل غولدموند يستشيط غضباً وراح يكيل الضربات لمن حوله في كل الاتجاهات، محاولاً تحرير نفسه وتلقى بعض اللكمات، إلى أن انتهى الأمر به إلى الانطراح أرضاً، على الرغم من أن أحدهم كان ما يزال يمسك به من قدمه، فرفسه ليتخلص منه، وسرعان ما اشتبك معه في قتال. كان عدوه فتى طويل القامة، قوياً وتجمهر الجميع لمشاهدة المعركة. لكن غولدموند احتفظ بثباته، وسدد إلى عدوه القوي عدة لكمات، واكتسب من بين رفاقه بعض الأصدقاء حتى قبل أن يعرف أي منهم اسمه الكامل. وفجأة إذا بهم يفرون هارين ولتو ظهر الأب مارتين، الأخ الأستاذ، ووقف ينظر إلى أسفل نحو غولدموند الذي بات وحيداً. حذق بارتياح إلى الفتى، الذي أفشت عيناه الزرقاوان ارتباكاً، وقد احمر وجهه قليلاً وبدأ عليه الفزع.

سأله: "حسن، وكيف الحال معك؟ أنت غولدموند - أليس كذلك؟ هل كان أولئك الشياطين يسببون لك أي أذى؟".

قال الصبي "أوه، لا إني أحتفظ بمكانتي معهم".
"ولكن مع أي منهم؟".

"كيف لي أن أقول. إني لا أعرف أحداً هنا. أحدهم تشاجر معي".
"أوهو! وهل هو الذي بدأ؟".

"كيف لي أن أعرف؟ لا. أعتقد أنني أنا من بدأ. لقد استفزوني فثار غضبي".
"حسن يا سيد، هذه بداية جيدة. إسمع، إذا تشاجرت مرة أخرى في قاعة الدرس سوف تجلد لذلك. والآن - اذهب لتناول الغداء".
وقف يتابع غولدموند بنظره ويتسمم، والصبي يهرول هارباً، مرتبكاً ليلحق بالآخرين محاولاً، وهو يركض أن يمسد شعره الأشقر بأصابعه.

غولدموند نفسه وافق على أن أول إنجازاته في الدير كان على
جانب كبير من التهور ويدل على التمرد. شعر بالخزي، وهو يبحث
على رفاقه لينضم إليهم على الغداء. إلا أنهم رحبوا به بينهم بكل
احترام، وأقام سلام الفرسان مع عدوه، ومنذ ذلك اليوم أصبح محبوباً
جداً من رفاقه.

الفصل الثاني

على الرغم من أن غولدموند صادق الجميع إلا أنه لم يعثر على الفور على صديق صدوق. لم يكن بين رفاقه من شعر أنه حميم وقريب منه، مع أنهم جميعاً اكتشفوا مدهوشين في هذا المقاتل الشجاع الذي يكيل الضربات يميناً ويساراً، رفيقاً مسالماً جداً.

والآن بدأ هذا الفتى غولدموند يكافح ليصبح أفضل دارس في المدرسة. وكان هناك إثنان في الدير شعر بحب لهما، وكانا يشيعان السرور فيه ويملكان عليه أفكاره، وكن لهما إعجاباً وتبجيلاً عميقين: هما الأب رئيس الدير دانييل والمدرس المبتدئ نرسييس. كان يرى في الرئيس شخصاً مقدساً، بعبادته البسيطة والطيبة، بإرادته المتواضعة، يعطي أوامره وكأنه يودي خدمة، ولطفه وهدوئه الصامتين - كل هذا جذب غولدموند إليه. وكان يتمنى أكثر من أي شيء أن يكون خادماً خاصاً لقداسته، كان الفتى الصغير يود أن يقدم له، كتقدمة دائمة، كل ما به من اندفاع للتضحية، ومشتاق إلى أن يتعلم منه كيف يعيش حياة عنيفة ونبيلة، حياة منسجمة مع القداسة. هكذا كانت إرادته، وهكذا كانت رغبة والده وهكذا أمر، وكأنه أمر من عند الرب. ومع أن لا أحد في

الدير لاحظ ذلك إلا أن هذا الفتى الدمث المتورد شعر وكان عبثاً يثقل على كاهله، أشبه بحمل سري للتكفير. حتى الأب الرئيس لم يلاحظه، على رغم أن والد غولدموند ألمح إليه، مبدئياً بوضوح رغبته في أن يبقى ابنه في الدير إلى الأبد. وبدأ أن ثمة وصمة خفية تلوث مولد غولدموند وتستلزم التكفير عنها. لكن الفارس لم يثر إعجاب الرئيس الذي رد رداً مجاملاً غاية في التملق على كلماته الباردة المتغترسة نوعاً ما، دون أن يولي اقتراحاته الكثير من الانتباه.

الشخص الآخر الذي أثار حب غولدموند كان أنفذ بصيرة، وقد فهم أكثر من غيره عن كل شيء. لكن نرسيس نكص. لقد أدرك تماماً البراءة التي طار بها العصفور الذهبي نحو. لقد عرف، هو المتوحد في كيانه الرائع، أنه هو نفسه يشبه غولدموند، مع أن الوالد كان في كل شيء خارجي عكسه تماماً. كان نرسيس أسمر الوجه نحيله، وكان غولدموند متفتحاً ومشعاً كزهرة. كان نرسيس مفكراً ومخللاً، وغولدموند حالماً وطفلاً. لكن الأشياء التي يشتركان بها كان بإمكانها أن تتجاوز الفروق. كلاهما كان أشبه بالفارسان ومرهفاً، كلاهما منعزل بدلائل ظاهرة عن بقية أقرانه، بما أن كل منهما تلقى تحذير القدر الخاص.

لقد اشترك نرسيس بحماس في هذه الروح الغضة التي يعرف سبلها وقدرها المكتوب تمام المعرفة. وأشرق غولدموند سروراً للرأى أستاذة المفكر الرسيم، لكن غولدموند كان مذعوراً، والطريقة الوحيدة التي خطرت على باله ليرضي بها نرسيس كانت أن يرهق نفسه في الجهد والاجتهاد كما يجدر بطالب بارع صبور، وما كبجه كان أكثر من مجرد الحياء: لقد كبج حبه لنرسيس شعوره أن هذا المعلم يشكل خطراً عليه. كيف يسعه أن يقبل رئيس الدير الورع والطيب بأفكاره وفي الوقت نفسه أن يبقى على حب هذا الطالب المرهف، نرسيس المثقف، الثاقب البصيرة؟.

إلا أنه عمل بكل ما لديه من طاقة شابة على أن يتبع هذين

المتنافرين. وقد سببا هما الإنسان الكثير من المعاناة، وكثيراً ما شعر غولدموند، خلال الأشهر الأولى له في المدرسة، باضطراب عظيم في فؤاده، وتمزق عقله شر تمزق بين هذا وذاك بحيث وصل إلى حد الإغواء الموجه بتك الدير، أو إلى أن يلجأ إلى التقاتل مع أقرانه ليهديء من غليان حاجته الداخلية وليشبع جوعه. لقد كان هذا الرفيق الطيب الطيب يشتعل غضباً لسماع كلمة وقحة، أو مزعجة صغيرة، ويهتاج لغير ما سبب ويثور ثورة عارمة لا ينجح في إخمادها إلا بعد صراع مرير، ومن ثم يدير ظهره لمعذبيه في صمت، يعلوه شحوب الموت وهو مغمض العينين. بعد ذلك يهرع إلى المذاود، باحثاً عن فرسه "بليس"، ويميل بخده على جبينه، ويجهش بالبكاء من كل قلبه. هذا الألم كان يستحوذ عليه بشكل بطيء، وأخيراً أصبح ظاهراً للجميع. فغارت وجنتاه، وأصبحت غالباً ما ترى عينيه كليتين، والضحكة التي كانت تبهج برنينها الجميع عزت باضطرابه.

هو نفسه لم يكن يعرف ما ينقصه. في أعرق أعماقه كان يرغب في أن يغدو فقيهاً طيباً جديراً بالثقة، وأن يقبل بسرعة في صف الرهبان المبتدئين، وأن يبقى هكذا حتى الممات، أحد أخوة الدير الهادئين المكرسين. كان يعتقد أن كل مواهبه وقوته تكمن في هذه الأهداف المسالمة البسيطة، ولم يكن يفكر في أساليب أخرى للكفاح ولا كان يعرفها. لذا كم بدا له أمراً غريباً وقاسياً أن تحقيق هذا الشيء، هدفه العادل والرصين، على ذلك القدر من الصعوبة. وكان بين حين وآخر يستولي عليه القنوط عندما يشعر أنه مذنب برغبات آثمة، بتكاسل في الدراسة، بأحلام اليقظة، بتخيلات كسولة أو بالإغفاء في غرفة الدرس، وأصبح يعصاب بنفاذ صبر من أستاذ اللغة اللاتينية وينخرط في شجارات لا أساس لها مع رفاقه. أما ما كان يسبب أشد الاضطراب في روحه فمعرفة أن حبه للأب الرئيس دانييل لا يمكن أن ينسجم مع ميله الآخر

لنرسييس، مع أنه كان متأكداً طوال الوقت من أن نرسييس يحبه، ويشاركه آله، ومستعد للتخفيف منه. وكان تفكير نرسييس منشغلاً بغولدموند أكثر بكثير مما كان يحلم به هذا الأخير. كان يتمنى لو أن هذا الصبي المحبوب النضر، صديقه، يرى فيه جزءه المقابل والمكمل له، تاق للنفاذ إلى روحه، لقيادته، لإنارة عقله، ورعايته وإبرازه إلى الوجود إلا أن أسباباً عديدة منعت، وكان يعرف كل هذه الأسباب: فأشد ما أعاقه كان ازدرأوه للعديد من الرهبان والطلاب في الأديرة التي تجعل من تلاميذها ورهبانها المبتدئين أشخاصاً مفضلين. وكثيراً ما شعر، باشمزاز بعيون الرجال الكبار في السن النهمة مسلطة عليه، وكثيراً ما قابل عرض صداقتهم ومداعباتهم برفض أحرس. الآن بات يعرفهم بشكل أفضل. هو أيضاً شعر أن لديه رغبة ملحة في أن يرعى الفتى الجميل غولدموند ويوجهه، أن يبعث ضحكته المشرقة الصافية، أن يمشط شعره الباهت اللون بلمسة أصابع رقيقة. لكنه لم يكن ليفعل ذلك قط. فبوصفه أستاذاً مبتدئاً، مشرباً بهيبة مدرس، ولكن دون أن يحظى بمنصب أستاذ وسلطته، اعتاد على تعقل واحتراس خاصين، فحافظ على مسافة كبيرة بينه وبين الطلاب الذين لا يصغرونه إلا بسنين قليلة، كما لو أنه يكبرهم بعشرين سنة: كان دائماً يكبح وبكل صرامة أي إعجاب خاص يشعر به نحو أي تلميذ، في حين أنه مع أولئك الذين يمتقتهم مقتاً فطرياً كان يجبر نفسه على معاملتهم بعناية وإنصاف خاصين. كانت خدمته موجهة إلى العقل، ولأجله كرس حياته الصارمة بكاملها، ولم يكن يستسلم لخطيئة الفخر، والابتهاج بمعرفته وحصافته المتوقدة إلا بينه وبين نفسه، في لحظات تكون أفكاره أقل حذراً. لا - مهما كان ما ستقدمه له أي علاقة صداقة مع غولدموند، فإن مثل هذا الارتباط سيكون على جانب من الخطر: يجب أن لا يدعه يلمس جوهر حياته، المكيف لخدمة الروح عبر الكلمة، حياة مرشد متأمل هادئ، يقود تلامذته، وليس فقط هم، إلى مرام أرقى

للإدراك، غافلاً عن سروره أو ألمه.

كن قد مضى على غولدموند عام أو أكثر وهو في المدرسة. كان قد اشترك في ألعاب كثيرة مع أقرانه تحت ظلال أشجار زيزفون الفناء الخارجي وتحت شجرة الكستناء المحيية القائمة بالقرب من البوابة، ألعاب الكرة وألعاب الحرامية، والشجار بكرات الثلج. والآن حل الربيع، إلا أن غولدموند كان مثبط الهمة وضجر، دائماً يؤلمه رأسه، وفي المدرسة يجد مشقة في مقاومة النعاس، فقط لمتابعة الدرس كما يجب.

وات مساء جاءه أدولف، ذاك الطالب الذي كان أول لقاء له معه شجاراً، وكان، خلال هذا الشتاء، قد بدأ دراسة إقليدس معه. حدث ذلك خلال الساعة التي تلي وجبة العشاء، ساعة اللعب، حين يلعب الطلاب في مناماتهم، يتسامرون في غرف الدرس، وإذا شاؤوا، قد يتمشون في الباحة الخارجية.

قال أدولف وهو يحسك بذراعه ويهبط معه درج الدير "غولدموند، لدي ما أقوله لك، شيء سيضحكك. أنت طالب نموذجي ولا بد أنك ترغب في أن تصبح أسقفاً، لذا عدني وعداً صادقاً قبل أن أخبرك به بأنك ستكون صاحباً صدوقاً ولا تفه بكلمة منه للأساتذة".

على الفور وعده غولدموند بذلك. في دير ماريابرون ثمة كلمة شرف تجمع الطلاب معاً وكلمة شرف بين الرهبان تعلمهم، وأحياناً كان هذان الفريقان يشتبكان. أما هنا، كما في كل مكان آخر، يسود القانون غير المكتوب ويطغى على المكتوب، ولم يحصل قط، منذ أن أصبح طالباً، أن خرق قانون وكلمة شرف من هذا النوع.

دنا أدولف منه وهو يهمس، وخرجا من البوابة وولجا تحت أشجار الزيزفون. قال: إن هنا تجتمع فرقة من الأصحاب ذوي عزم مخلصين وإنه هو، أدولف، قائدهم. وقد أخذوا من الأجيال المبكرة، واعتادوا أن

يتذكروا، شيئاً فشيئاً، أنهم هم أنفسهم لن يصبحوا رهبان أبداً، وهكذا، فإنهم، ذات ليلة، سيتحررون من حبسهم ويتوجهون سراً إلى القرية. وهذه متعة ومغامرة لا يمتنع عنها أي طالب حقيقي، وإنهم، وتحت جناح الظلام، سوف يعودون من جديد.

قال غولدموند "لكن البوابات ستكون موصدة".

طبعاً البوابات ستكون موصدة. ولكن هذا هو ملح عملية الهروب، ثمة ممرات سرية سوف يعود منها المغامرون، وتلك لن تكون المرة الأولى التي يفعلون بها هذا.

ظل غولدموند يتذكر عبارة الطلاب: "الذهاب إلى القرية"، وكثيراً ما سمعهم يرددونها. وكانوا يعنون بهذا هروب التلاميذ ليلاً للممارسة صنف المتع والمغامرة. وهذا الانتهاك كان يعني ضرب مبرح بالسوط من الآباء. لكنه كان يعلم جيداً أن تحدي مثل هذه العقوبة يعتبر، بين أولئك المصممين من نزلاء دير ماريا برون، مصدر فخر، وكان من قبيل الاحترام الفائق لأي شخص أن يطلب منه المشاركة في مثل هذا الانتهاك.

كان يمكن أن يجيب "لا" ويهرع عائداً عبر البوابات إلى سريره، ويشعر بالاكتئاب والسقم. لقد كان رأسه يؤلمه طوال النهار، ومع ذلك ها هو الآن يشعر بفقدان السيطرة أمام أدولف. ومن يدري؟ لعل هناك في الخارج مغامرات، شيئاً جميلاً وجديداً ينعشه ويخرجه من ملله، ومن ألم رأسه ومن ألم حزنه واكتنابه، إنه هروب مختلس ومحرم إلى العالم، ومشين قليلاً، ومع ذلك فقد يكون تنفيساً، سبيلاً إلى السعادة. وقف ينصت إلى كلام أدولف، وفجأة ضحك وأجاب "نعم".

تسللاً خفية هو وأدولف تحت جناح ظلال أشجار الزيزفون على أرض الفناء الفسيح، المعتم لتوه، وكانت بواباته الخارجية قد أرتجت. قاده رفيقه إلى مطحنة الدير، وهناك، في الغسق، كان من السهل بمكان

أن يهربا دون أن يسمعهما أحد، تحت غطاء قرعة الدولاب، وبعيدا عن العيون. وتسلقا بمشقة ودخلا إليها من النوافذ وهبطا على ركام زلق رطب من ألواح الخشب، وكان عليهما أن يجرا أحدهما إلى الخارج، ويمداه عبر الجدول ليعبرا عليه. وأصبحا خارج السجن، وألفيا نفسيهما واقفين معاً على طريق عالية، تمتد حتى تبهت في الشفق، داخل الغابة المظلمة. كل هذا كان مفعماً بالسرية والإثارة، وأعجب غولدموند كثيراً.

كان هناك أحد الرفاق بانتظارهم عند طرف الغابة، يدعى كونيارد: وبعد انتظار طويل جاء آخر مسرعاً لينضم إليهم: إنه إيرهارد. تقدم الأربعة مخترقين الغابة، فوقهم صراخ طيور الليل، ونجمتان تتألآن في المدى البعيد، تذران بالمطر وصافيتان، تطلان من بين سحب ساكنة. كان كونيارد يثرثر ويضحك، وأحياناً كان الآخرون يشاركونه الضحك، لكنهم مع ذلك كانوا يشعرون بالرهبة والخوف من الليل، وكانت قلوبهم تخفق بقوة في صدورهم.

في الطرف الثاني من الغابة وفي غضون ساعة قصيرة من الزمن، وصلوا إلى إحدى القرى. بدا كل شيء نائماً، والجملونات البيضاء الواطئة للمنازل كانت تومض بوهن في قلب الظلمة، يظللها بشكل مستعرض بروافد خشبية قائمة. لم ير نور في أي مكان. وقادهم أدولف إلى الأمام مارين بالمنازل الصامتة، اجتازوا سياجاً وتلاً فإذا بهم يقفون في حديقة، تعلق بأقدامهم التربة الرخوة للمسالك، ثم يهبطون الدرج خلسة، ويتوقفون عند جدار منزل. نقر أدولف على المصراع، انتظر ثم عاد فنقر من جديد: تحرك أحدهم في الداخل، وسرعان ما سلط شعاع من الضوء من خلال الشقوق: فتح المصراع وراحوا يصعدون واحداً إثر آخر من النافذة، وإلى مطبخ، ذي مدخنة يعلوها السخام وأرضية ترايبسة. على حاجب الموقد وضع مصباح زيتي صغير، وقد علا فتيله الرفيع لذب

خافت. كانت هناك فتاة قروية ضامرة الجسم، مدت يدها مرحبة بالوافدين الجدد، وخلفها، تسلل من قلب الظلام شخص آخر، امرأة شابة بمجذائل فاحمة طويلة. وكان أدولف قد أحضر لهما هدايا، نصف رغيف من طحين الدير الأبيض وشيئاً ملفوفاً بورق البرشمان، لعله حفنة من البخور المسروق، حسب اعتقاد غولدموند، أو شمع ذائب من شموع المذبح، وما إلى ذلك. انسلت المرأة ذات المجذائل عائدة إلى الظل، واتجهت لتلمس طريقها، لا يهديها ضوء، إلى الباب، وطال غيابها، لكنها عادت مع إبريق حجري رمادي اللون، مرسوم عليه أزهار زرقاء، ناولته لكونراد، فشرب، ومرره إلى الآخرين: شرب الجميع، وكان عصير فاكهة قوي.

جلسوا معاً على خفق اللهب الخافت، الفتاتان على مقعدين صغيرين صلبين بلا ظهر، وحولهما، على الأرض الترابية، الطلاب يتهايمسون ويرشفون عصير الفاكهة، وكان أدولف وكونراد يديران الحديث وبين الفينة والأخرى كان أحدهم ينهض ويداعب عنق القروية الضامرة وشعرها، ويهمس بأسرار في أذنيها، إلا أنهم لم يمسوا قط الفتاة ذات المجذائل. قال غولدموند في نفسه، لعل الكبرى هي الخادمة في المنزل، والصغرى، الجميلة هي الابنة. لكن الأمر كان سواء بالنسبة له، بما أنه لم يكن في نيته قط أن يعود ثانية إلى هنا. إن زحفهم خفية من المطبخ وتسللهم خلال الغابة المظلمة، كان حدثاً نادراً وممتعاً، وإن يكن ينطوي على خطر. صحيح إنه برمته محرماً، إلا أنه لم يشعر بأي ندم لخرقه أحد القوانين. لكنه شعر أن هذه الزيارة للفتيات ليلاً خطيئة. ومع أنه قد لا يعني أي شيء بالنسبة إليه، الذي سيغدو راهباً ويحيا عفيفاً، فإن كل اتصال بالفتيات هو أمر شرير تماماً. لا، لن يعود أبداً إلى هنا! ومع ذلك أخذ قلبه يخفق أسرع فأسرع على خفق ضوء المطبخ البائس.

أخذ رفاقه يتفاخرون أمام الفتاتين، يجتهدون في إثارة رعبهما

بأقتباسات لاتينية صغيرة ينعمون بها حديثهم. وأثار الثلاثة إعجاب الفتاتين بهم، وأخذوا يزحفون مقتربين منهما أكثر فأكثر. ويتفوهون بكلمات غزل صغيرة خبيثة مع بعض المداعبات، مع أن أقصى ما جرؤوا على أخذه كان قبلة خفيفة. وبدوا أنهم يعرفون بدقة ما المسموح به لهم، وبما أن كل حديثهم كان همساً، كان المشهد برمته ينطوي على حماقة، على الرغم من أن غولدموند لم يشعر أنه كذلك. اكتفى بالجلوس متربعاً بسكون تام على الأرض، شخداً إلى ارتعاش الضوء الخافت، دون أن يتبادل كلمة واحدة مع أي منهم. أحياناً كان يسترق نظرة من زاوية عينه، بما يشبه الرغبة، إلى مداعبات الآخرين الخائفة. ثم يسلط نظره بصرامة أمام أنفه. لكنه في سريره كان سيسره لو أنه لم يتعرف على أي منهم، ما عدا الفتاة الصغيرة السمراء، على الرغم من أنه حرّمها هي خاصة على نفسه. إلا أن إرادته خذلته مراراً وتكراراً حين كانت تهيم عيناه عائدتان لتستقرا على عذوبة وجهها الهادئة، فيجد أن عينيهما مثبتتان عليه لا تتزحزحان. كانت جالسة تحديق كالمفتونة.

مرت قرابة الساعة وكانت أطول ساعة مرت على غولدموند - وقد انتهى الطلاب من إلقاء نكاتهم وعباراتهم باللاتينية، وهذا الجو، وجلسوا يلفهم شيء من الارتباك. تشاءب إيرهارد. وحذرتهم الفتاة الضامرة من أن الوقت قد حان للرحيل. نهض الجميع واقفين، ومد الجميع أيديهم لهذه الفتاة الخادمة، وكان غولدموند آخرهم. مدوا أيديهم للصغيرة، ومن جديد كان غولدموند هو الأخير. قاد كونيارد الطريق خلال النافذة، ثم إيرهارد وأدولف من بعده؛ ولكن حين همّ غولدموند باللاحاق بهم شعر بيد تستقر على كتفه وتعيده. ولكن لم يكن بوسعه أن يملك. ولم يملك إلا بعد أن وجد نفسه في الحديقة، ولم يحول بصره. أطلت ذات الجداول السوداء من النافذة.

همست "غولدموند" فتوقف.

سألته "ألن تعود؟". بالكاد احتاج صوتها الحي أن يلتقط نفساً. هز غولدموند رأسه نفيًا. مدت ذراعيها إلى الأمام وضمت رأسه بين يديها، فاستشعر راحتي يديها الصغيرتين الدافئتين على صدغيه ومالت أكثر، حتى اقتربت عيناها السوداء من عينيه. همست "عد" ولمس فمها فمه بقبلة طفولية.

اندفع مخترقاً الحديقة لينضم إلى الآخرين، متعثراً بالمسالك، جارحاً يده بشجرة ورد، واجتاز سياج الوتل، وركض خلال القرية ليلحق برفاقه، وإرادته تأمره "إياك أن تعود ثانية"، وكان قلبه يتنهد قائلاً "غداً غداً!"

لم يفاجئ أحد طيور الليل تلك، وسزت الظلمة عودتهم. وصلوا إلى سور الدير، وعبروا الجداول، وارتقوا ليدخلوا إلى المطبخ ثم مشوا متمايين تحت أشجار الزيزفون ومنها إلى الفناء، وهكذا، عن طريق ممرات سرية، ومن فوق أسقف الملحق، ومن خلال النوافذ ذات الأعمدة المزروجة، إلى منامتهم.

في صبيحة اليوم التالي كان نوم الطويل إيرهارد من العمق بحيث أن رفاق غرفته اضطروا إلى إيقاظه بضربه بالوسائد. وصلوا جميعاً في الوقت المحدد لإقامة القداس المبكر، ولتناول الحساء الصباحي، ومن ثم إلى المدرسة. ولكن في المدرسة كان غولدموند شديد الشحوب حتى أن الأب مارتن سأله إن كان مريضاً. رماه أدولف بنظرة تحذير، فأجاب بأنه لا يشعر بأي ألم.

قراءة الظهيرة، وخلال درس اللغة اليونانية، لم يرفع نرسييس عينيه عنه. هذا الأستاذ أيضاً لاحظ أن غولدموند مريض، لكنه لم يسأله عن شيء واكتفى بمراقبته عن كثب. بعد انتهاء الدرس ناداه، وتفادياً لمراقبة بقية الطلاب، حمّله رسالة إلى المكتبة. وإلى هناك تبعه.

قال: "غولدموند، هل أستطيع أن أساعدك؟ أرى أنك بحاجة إلى مساعدة ما. لعلك مريض. إن كنت كذلك ندعك ترتاح في الفراش، ونأمر لك بحساء المرض، وكأس من النبيذ. لم تكن متبهاً لدرس اللغة

يونانية هذا اليوم".

انتظر طويلاً رده. رفع الفتى الشاحب بصره ونظر إليه بعينين مرتبكتين، نكس رأسه، ثم عاد فرفعه، وجاهد بشفتين مرتعشتين كي يصنع كلمة. كن جهاده لم يثمر عن جواب. وفجأة هبط بحركة جانبية، وأسند جبينه لمي مقراً، بين وجهين من خشب السنديان للملاكين صغيرين، وانفجر في احصفة من البكاء، حتى أن نرسييس في غمرة حيرته وخجله، أدار وجهه عنه بعض الوقت، ثم عانق الفتى الباكي وأنهضه.

قال: "إهدأ! إهدأ!" بصوت أرق مما كان غولدموند حتى ذلك الحين لسمعه منه "amice" ^(١) ابك ما تشاء، وسرعان ما ستستنفذ كل موعك. فاهداً - واجلس: لا داعي للكلام. أرى أنك عانيت ما فيه كفاية. لعلك كنت تكافح طوال فترة الصباح لتقف معتدلاً ولا تدع حداً يلاحظك. إبك - هذا أفضل ما بإمكانك فعله. أنفذ ما لديك بهذه سرعة، وبات بإمكانك أن تقف من جديد؟ تعال معي إذن، إلى جناح لرضي للتعمد، وغداً ستستيقظ وتكون قد تحسنت. تعال يا بني".

قاده برفق إلى جناح المرضى، متجنباً المرور بغرف الطلاب، ووضع به صومعة هادئة، وماده على أحد السريرين الشاكرين وبينما بدأ بولدوموند ماعناً، يخلع ملابسه، ذهب لينادي على الأخ الطبيب ويخبره ن الفتى مريض. وكما وعد توجه إلى قاعة الطعام وطلب له حساءً شراباً منها، وكان الطلاب المصابون بمرض غير خطير يعتبرون هاتين المادتين الـ beneficia هبة عظيمة من الدير.

استلقى غولدموند في السرير وجاهد كي يستعيد اتزان عقله. قبل ساعة من الزمن كان يمكن أن يدرك بوضوح سبب شدة إرهاقه في ذاك اليوم. الصراع المخيف المحتدم في قلبه الذي جعل عينيه حمرانين جداً، ورأسه مفرغاً.

^(١) - : amice يا صديقي.

إنه الجهد المهلك، المتكرر، الذي يبذله، في كل دقيقة، لينسى الليلة التي قضاهها خارج الدير، أو بالأحرى ليس الليلة بحد ذاتها، بما حدث فيها من تسلق زلق لجدول المطحنة، والمسير المهيب الطائش داخل الغابة المظلمة، والركض هنا وهناك أثناء تجاوز الأسبيجة والخنادق، والدخول من النوافذ، واختراق ممرات — وإنما لحظة واحدة منها : تلك اللحظة الوحيدة من الليل حين وقف في الظلام، عند عتبة نافذة المطبخ، يحس بأنفاس الخادمة ويسمع كلماتها، ويلمس يدها، ويتعرف على قبلتها على شفثيه.

والآن أضيف إلى كل هذا رعب آخر، ومعرفة جديدة. لقد شاركه نرسييس بما يعتلج في صدره. نرسييس يحبه، وله في تفكيره مكان، هو، الرقيق والحكيم، الأستاذ ذو الشفتين الساخرتين، الجميلتي التكوين. لكن غولدموند كان أحمق وذرف الدموع أمامه، خجلاً، لا يقوى على نطق كلمة واحدة، لقد وقف يجهش أمام عينيه. وبدل أن يفعل ما كان يأمل أن يفعله، بإخضاع هذا الشاب المثقف باستخدام أنبل الأسلحة، الفلسفة، واللغة اليونانية، ومآثر الروح، واتباع المذهب الرواقي القيم، أخذ يرتجف وينشج كالطفل. إنه لن يغفر لنفسه هذا أبداً. لن يتمكن بعد الآن من النظر في عيني نرسييس دون الشعور بالخجل. ومع ذلك، فمع دموعه ذهب أسوأ جزء من حزنه. إن هذه العزلة، والسرير المريح، شفياه، فنصف الألم الممض الذي يعانيه مصدره اليأس، وخلال ساعة من الزمن جاء أخ عامل مع الحساء، وقطعة من الخبز الأبيض، وكأس صغيرة من الخمر، خمر من النوع الذي يحتسيه الطلاب في أعياد الميلاد. أكل غولدموند وشرب، وسرعان ما أتى على نصف ما في الطاس، إلا أنه، وقبل أن ينهي، أزاحه جانباً، وجاهد ليعود إلى التفكير. لكنه لم يتمكن، فأمسك بطاس الحساء وأتى على ما فيه حتى آخره. بعد ذلك، حين فتح الباب برفق، وتسلسل نرسييس إلى الداخل ليعود الطالب المريض، كان غولدموند قد استغرق في النوم، وعاد التوردد إلى وجنتيه. فوقف نرسييس بعينين فضوليتين، يرنو إليه بهدوء، بما يشبه الحسد. لقد أدرك أن غولدموند

ليس مريضاً، وإنه لا حاجة إلى إرسال خمر له في صباح اليوم التالي. الآن وقد رفع الحظر، يمكن أن يصبح صديقين. اليوم كان الفتى هو الذي احتاج إليه، وكان قادراً على تقديم خدمة له. في المرة القادمة قد يكون هو الجانب الأضعف، الطرف المحتاج إلى الحب، والمواساة، والعون، وعندئذ سيتلقاهم من هذا الطالب، إذا ما وصل الأمر إلى هذه المرحلة.

الفصل الثالث

غريبة كانت الصداقة التي نشأت بين نرسييس وغولدموند، صداقة لم ترض إلا القليلين، وأحياناً، كان يبدو أنها تثير استياء الأصدقاء. كان على نرسييس المفكر في أول الأمر، أن ينوء بالعبء الأثقل. فبالنسبة إليه كان كل شيء يداخل في خيانة الفكر، حتى الحب. وفي الحب القائم بينهما كان هو الروح المرشدة، وكان هو وحده بينهما، ولفترة طويلة، ماركساً لأعماق، واتساع، ومعني علاقتهما. وعلى الرغم من أنه كان شعباً، لكنه ظل وحيداً أماً طويلاً، مدركاً أن صديقه، لن يكون له في الواقع إذا لم يرشده إلى معرفة ذاته. لقد استسلم غولدموند لهذا الحب الجديد، بفرح متلهف، عابثاً دون وعي منه كالطفل. ونرسييس المسؤول والواعي، تقبل قدرهما السامي، وتفكر فيه ملياً.

كان نرسييس، بالنسبة إلى غولدموند، مصدر ارتياح وحرية. إن أول رغبة كامنة فيه أيقظها مرأى خادمة جميلة وقيلة منها: انتعشت كل أشواقه التي تنتظر الإشباع، لكنه ذعر حتى اليأس، ونكص. وكان أعظم مخاوفه هو أن كل ما حلم به في حياته حتى ذلك الحين، وآماله وإيمانه بهيمته، والمستقبل الذي شعر أنه مقدر له، بات مهدداً من جذوره بخطر تلك القبلة التي منحت

له عند النافذة، ومرأى عيني الخادمة السوداوين. إنه بعد أن قرر له والده أن يكون راهباً، بقبوله هذا الأمر من أعماق قلبه، ملحقاً بكل طاقة عنفوانه الشاب إلى العفة البطولية التقية، أدرك، عن طريق هذه اللمسة العابرة، هذا النداء الأول من الحياة لأحاسيسه، أدرك أن هنا يكمن عدوه وإبليس، أن النساء هن مصدر غوايته الأسوأ والدائم.

أما الآن فبدأ أن القدر قد خسف لنجدته، الآن، وهو في ذروة احتياجه، كشفت هذه الصداقة أمام توقيه حديقة مزهرة، أقيمت فيها مذابح جديدة لتبجيله. هنا بإمكانه أن يحب دون ملامة، محولاً كل نيران الحب المحفوفة بالمخاطر إلى لهب قرباني نقي.

ولكن حتى في فترة مبكرة من صداقتها قابل معوقات غير منتظرة، وغريبة، وبرودة مفاجئة، ومطالب مرعبة. كان مما يتنافى وطبيعته تماماً أن يرى في صديقه تناقضاً وتضاداً. فقد تبدى له أن ما ينقص هو فقط الحب، فقط تفان مطلق وصادق، يجعل إثنين في واحد، ويمحو كل الفروق، لبناء جسر بين كل التناقضات. ومع ذلك فكم كان عنيداً ووثاقاً، واضحاً ومتصلباً، هذا الرئيس. فقد كان يرى أن هبات الحب الطبيعية وغير الضارة، التشرذم المتمتع معا في فيافي الصداقة والرغبة، بدت أشياء مجهولة، ولم يسع إليها أحد من قبل. هذا الاستمتاع في طرق دروب لا تؤدي إلى مكان، في الهيام الحالم دون هدف، في الرفض واللاحتمال. صحيح أنه حين كان غولدموند مريضاً انزعج، وأنه في شؤون المدرسة والتعلم قدم له يد المساعدة والنصح، في العديد من النقاط: كان يشرح له فقرات صعبة في الكتب، ويفتح له ممرات جديدة في عوالم النحو والصرف، والمنطق، والفلسفة، إلا أنه لم يكن قط يبدو راضياً حقاً، ولا كان على اتفاق مع صديقه. والحق أنه كثيراً ما ظهر وهو يؤنبه، ويستخدم كلماته على سبيل السخرية.

شعر غولدموند أن هذا أكثر من حذقة، أكثر من قضية إنه شخص

أكبر سناً وأكثر حكمة، يستعرض قوته: وأن ثمة ما هو أعمق بكثير يكمن وراءه، إلا أنه لم يتمكن من سبر عمق ذاك الشيء، وهكذا كانت الصداقة غالباً ما تسبب له الاضطراب والحزن. كان نرسييس في الواقع يعرف تماماً ما هو الجزء القيم من غولدمونند، ولم يكن أعمى عن جمال الفتى النضر الرقيق، وطاقته على الحياة وحماسه لها، وشبابه الواعد الحيوي، ولا كان متحذلقاً ليغذي الروح الفتية الغضة باللغة اليونانية، أو أن يقابل حبه البريء بالمنطق. بل لقد دلل هذا الفتى ذا الشعر الأشقر وغالى في ذلك، وبدا له ذلك خطراً، بما أن الحب لم يكن في حالته الطبيعية، بل كان معجزة. شعر أنه حتى يجب أن لا يشبع روحه بهذه النضارة، أن لا يسمح لعاطفته أن تضلله ولو لحظة نحو المتع الحسية. لأنه إذا كان غولدمونند يرى أنه مرهون حياة الرهينة والتكشف، للجهاد مدى الحياة سعيًا وراء القداسة، فإن نرسييس قد خلق لمثل هذا النمط من الحياة، ولم يكن يسمح له إلا بالحب بأسمى معانيه، ولم يكن نرسييس يصدق أن لدى غولدمونند أي نداء باطني لحياة الدير. إنه دون غيره، يستطيع أن يستشف ما في قلوب الناس، وهنا، هو يستشف في روح من يحب بصفاء مضاعف بإدراك. لقد سبر أعماق طبيعة غولدمونند، التي كان يدرك تماماً، على الرغم مما بينهما من اختلاف، أنها نصفه الآخر، الضائع، ولقد رأى أن هذه الطبيعة تعاني من ضغط الحجز، بدأ بتخيلات الفتى الزائفة، وأخطاء في تنشئته، وأشياء لا بد أنه سمع والده يقولها، كشفت منذ زمن بعيد النقاب عن كل ما يحيط بالسر البسيط لهذا العقل الفتي، لذا كان واجبه واضحاً: أن يكشف السر لحامله، أن يحرر روحه من قشرتها الخارجية، ويعيد هذه الطبيعة إلى ذاتها. ستكون مهمة صعبة، والأدهى من ذلك، ربما، أنه بفعله هذا سيكون عليه أن يخسر أعز صديق لديه.

ببطء، وبعبارة متناهية، اقترب من غايته. مرت شهور قبل أن تقوم

أية محاولة بينهما لاختبار صداقتهما، لإجراء أي فحص دقيق. لقد كانا متباعدين كثيراً. فبالرغم من الصداقة، كان التوتر على أشده. كان أحدهما مبصراً، والآخر أعمى، وهكذا مضيا معاً، يداً بيد. أن لا يعرف الأعمى شيئاً عن عماه يشكل عزاءً له وحده. وقد جرب نرسييس القيام بانقضاضه الأول، بمحاولة اكتشاف التجربة التي أدت إلى ضعف غولدموند وبكائه، اللحظة التي قربت ما بينهما. وكان الاكتشاف أسهل مما كان يظن. وقد ظل غولدموند يشعر لوقت طويل بالحاجة إلى الإعتراف بوقائع تلك الليلة، لكنه ما كان ليأتمن في هذا غير رئيس الدير دانييل، ولم يكن الرئيس كاهن اعترافه. لذا حين ذكّر نرسييس صديقه، في اللحظة التي وجدها مناسبة لذلك، بالمناسبة الأولى التي أدت إلى عقد أواصر صداقتهما، وأتى برفق على مقاربة أسباب ذاك الحزن، أجابه الفتى دون إبداء أي رفض :

"أتمنى لو أنك كنت كاهناً مكرساً، إذن لاعتزفت لك. كان سيسعدني أن أتحرق من إثم ما، وأن أكفر عنه بكل سرور. ومع ذلك لا يمكنني أن أفضي به إلى كاهن اعتراف".

وبحذر اقترب نرسييس أكثر، لقد عثر على دربه.

بادر بالقول، على سبيل المحاولة "أتذكر في ذلك الصباح حين بدا عليك المرض، لا يمكن أن تكون قد نسيت، بما أن ذلك اليوم شهد بداية صداقتنا. إنه لا يبارح ذاكرتي. لعلك لا تعيه، أما أنا فقد شعرت بعجزتي الشديد في ذاك اليوم".

أجاب غولدموند غير مصدق "أنت عاجز! إنني أنا العاجز: أنا الذي كان يجب أن أقف هناك وأجهش بالبكاء وأجاهد كي أنطق بكلمة واحدة، إلى أن بدأت أخيراً أعوي كطفل وليد. آه! ما أزال أشعر بالخجل حين أفكر بذلك! حسبت أنني لم أعد أقوى قط على أن أريك وجهي بعدها. كم أكره التفكير

في أنك رأيتني وأنا في حالة تدعو إلى الرثاء!".

عانقه نرسييس بخذر شديد.

قال: "أنا أفهم شعورك بالخجل من ذلك. أنت الشاب الشجاع الرائع يقف ويكي أمام صديقه - بل أكثر من ذلك، أمام أستاذه. وهذا ينافي طبيعتك. واعتقدت أنا أنك كنت مريضاً. حتى أرسطو لو كان أصيب بالبرد لتفوه بأقوال غريبة. لكن السبب طوال الوقت لم يكن المرض، ولا حتى الحمى، ولهذا تراك شعرت بذلك الخجل الشديداً ومن يخجل لأنه يرتعش من أثر الحمى؟ أنت خجلت لأن ثمة شيئاً قهرك، لأن عدواً غلبك. هل كان قد حدث أمر غير عادي عندئذ؟".

لم يجبه غولدموند على الفور. ثم قال ببطء: "نعم، كان أمراً غير عادي. دعني أفترض أنك كاهن اعترافي. على كل حال، لا بد أن يأتي يوم وأبوح به".

بعينين مسالتين أخبر صديقه قصة تلك الليلة. فرد عليه نرسييس وهو

يتنسم:

"الحقيقة هي أنه ممنوع من "الذهاب إلى القرية". إلا أننا قد نرتكب العديد من المنوعات، ولا نكاد نزعج أنفسنا حتى بالتفكير فيها. أو قد نعترف وننال الغفران. وهكذا نتحرر من الاحساس بالذنب. فلم لا تشترك ككل طالب آخر تقريباً، في مثل هذا الهروب الصغير؟ أهو بهذا السوء؟".

استخدم غضب غولدموند، وصب سيل عارم من الكلمات:

"إنك في الحقيقة تكلمني كمتحذلق. أنت تعلم علم اليقين ما حدث في القرية. طبعاً أنا لم أعتبر خرق عدد من قوانين الدير، والهروب مع بضعة من التلاميذ ذنباً عظيماً - ولكن حتى هذا التصرف يسيء إلى الاستعداد لحياة الرهبنة".

هتف نرسييس بحدة: "كفى. هل تعلم، يا اميكل، إنه بالنسبة لأعظم

القديسين كانت مثل هذه المخالفات ضرورية؟ ألم تسمع أن أقصر الطرق إلى القداسة قد تكون عيش حياة عريضة شهوانية؟".

قال غولدموند مدافعاً عن نفسه "أوه، يكفي. ما أردت قوله هو أن ما أثقل على كاهلي في ذلك اليوم ودفعني إلى البكاء ليس خرقى لأي قانون، بل شيء آخر، إنها الفتاة! انتابني شعور لا يمكنني أن أنقله إليك، شعور بأنني لو كنت استسلمت لتلك الغواية، لو أنني للحظة مددت يدي لأمسها، لما تمكنت من العودة إلى هنا، كان ذلك الجحيم ابتلعني، كالمستنقع، ولما أفلت منه قط. وأحسست أنها ستكون نهاية كل الأحلام الجميلة، وكل فضيلة، وكل حب للرب، ولطيبته".

هز نرسيس راسه في تأمل عميق.

قال وهو يزن كلماته: "إن حب الرب ليس دائماً يعادل حبنا للفضيلة. آه، لو كان الأمر بهذه السهولة! نحن نعرف ما هي الطيبة، فهي مكتوبة. لكن الرب لا يكمن فقط فيما هو مكتوب يا بني. إن وصايا العشر هي أضال جزء منه. إننا قد نحفظ الوصايا عن ظهر قلب، ومع ذلك نظل أبعد ما نكون عن الرب".

قال غولدموند متذمراً "ولكن ألا ترى ما أعنيه؟".

"أرى دون شك. إنك تشعر أن في النساء، في الحب الشهواني، علة كل ما ترى أنه "إثم" و"الحياة الدنيا". وتعتقد أنك غير مؤهل لارتكاب كل الآثام الأخرى. أو، إذا ما ارتكبتها، لا تثقل عليك بهذه الصورة، ويمكن الاعتراف بها والتكفير عنها، إلا هذا الاثم".

"نعم، هذا ما أشعر به".

"كما ترى، أنا أفهمك، وهذا لا يعني أنك على خطأ تام. وقصة حواء والأفعى حتماً ليست حكاية بلا مغزى. ومع ذلك، يا اميعة، فأنت مخطئة. ربما كنت ستكون على حق لو أنك الرئيس دانييل، أو

قديس شفيح، مثل قديسك كريسوستوم، أو لو كنت أسقفاً أو كاهناً، أو حتى راهباً صغيراً متواضعاً، لكنك لست أياً منهم. أنت طالب شاب، وحتى لو رغبت في البقاء هنا في الدير إلى الأبد أو أراد والدك ذلك نيابة عنك، فأنت لم تنذر نفسك بعد، لم تتكسر. فإذا ما تعرضت اليوم، أو غداً للغواية من قبل امرأة جميلة، وتركت لها المجال لإغوائك، فلن تكون بهذا قد حنثت بأي عهد، أو دنست أياً من المقدسات".

هتف غولدموند بحق شديد: "صحيح أنه لا يوجد عهد مكتوب، ولكن يوجد واحد غير مكتوب، وهو الأكثر قداسة. إنه العهد الذي أخذته على نفسي. ألا ترى أن ما يمكن أن يصبح بالنسبة إلى الكثير من الآخرين لا يصبح بالنسبة لي؟ ألست أنت نفسك غير مكرس؟ أنت لم تقسم على أن تعيش حياة عفة، ومع ذلك فلا يمكن أن تلمس امرأة. أم هل أنا مخدوع بك؟ هل أنت حقاً كما تبدو؟ ألست كما أظنك؟ ألم تقطع أنت أيضاً في قلبك عهداً منذ زمن طويل، على الرغم من أنك لم تجاهر به، أمام أخوتك ومتقدميك؟ ألا تشعر أنك ملزم به إلى الأبد؟ لست إذن مثلي؟".

"لا، يا غولدموند، أنا لست مثلك، أو بالأحرى لست كما تظنني. صحيح أنني أخذت على نفسي عهداً أخرساً - هنا أنت علي حق - لكنني في غير هذا لا أشبهك في أي شيء. اليوم سأقول لك شيئاً أعتقد أنك ستذكره ذات يوم: إن لصداقتنا معنى واحد، هدفاً واحداً لا غير - وهو أنني سأبين لك إلى أي مدى أنت تختلف عن صديقك".

وقف غولدموند في مكانه تسربله الحيرة. كان للنظرة في عيني نرسييس، ولنبهة صوته، من القوة ما لا يمكن مقاومته. ولكن لماذا قال نرسييس هذه الكلمات؟ لم يكون قسم نرسييس الصامت أمتع من قسمه؟ أترأه لا يرى فيه غير طفل، لا يستحق غير أن يُستفز ويكون عرضة للتندر؟ ومرة أخرى أغارت عليه كل إرباكات علاقتهما الغريبة وحزنها.

لم يعد يخامر نرسييس أي شك حول طبيعة غولدموند السريّة. إن

حواء، الأم الأبدية، تكمن خلفها. ولكن كيف حدث أن فتى بهذا الجمال والمرح، يبور بالحيوية والرغبة الغضة، يواجه في داخله مقاومة بهذه المرارة؟ لا بد أن ثمة شيطاناً يعمل عمله فيه، أو غفريته خفياً سمح له أن يجزىء هذا المخلوق النبيل رغماً عنه، في جوهره وفي حافزه الأساسي الذي يحيا به. حسن إذن - يجب تسمية هذا الشيطان، أن يطرد ويصبح مرثياً للجميع، وبعد إنجاز هذا العمل، يمكن قهره.

في ذلك الوقت أخذ رفاق غولدموند يهملونه، باضطراب، وينبذونه، أو بالأحرى، وإلى حد ما، كانوا هم من شعروا أنه ينبذهم ويتجنبهم. لقد أزعجت صداقته لرئيس الجميع. وكان النمامون، الذين أحبوا أحد الصديقين، قد افترؤا على هذه العلاقة وقالوا إنها شر مناف للطبيعة. ولكن حتى أولئك الذين رأوا بجلاء أنه ليس هناك أي شر يستدعي الاستنكار هزوا رؤوسهم مع ذلك استهجاناً. لم يقبل أحد بعلاقة هذين الاثنين. وقد قالوا إنهما بهذه الصداقة الحميمة نأيا بنفسيهما عن الأخوة جميعاً، فأمثالهما لا يرقى إلى مستوى هؤلاء النبلاء، وشخصيتيهما لا تتلاءمان وروح الجماعة، وروح الدير الخيرية، ومضادتان للمسيحية.

بدأت الإشاعات الدائرة حول الاثنين، والتذمر والافتراءات عليهما تصل إلى أسماع الأب الرئيس دانييل. كان قد راقب الكثير من الصداقات بين الشبان، وهو الأربعيني الملازم غالباً لمعتزله. ولهذين الاثنين مكانتهما المرموقة في الحياة العامة للدير، تارة يكونان هدفاً للمزاح وطوراً مصدرراً للخطر. وكان هو يبقى بعيداً يراقبهما عن كثب، دون أي تدخل مباشر. ومثل هذه الصداقة الاستثنائية الحميمة نادرة، وهي حتماً لا تخلو من خطر. ولكن بما أنه لم يكن يشك في نقائهما، فلم يقف عائقاً في طريقهما. ولو لم يكن لرئيس كما هو، يتموضع في منتصف المسافة ما بين الطلاب والرهبان المدرسين، لما تردد الأب الرئيس في إصدار أوامر في حقه للتفريق فيما بينهما. كان يسىء إلى غولدموند أن ينأى بنفسه عن

الاختلاط بأقرانه، ويعاشر شخصاً أكبر منه سناً، وأستاذاً. ولكن هل من العدل إعاقته نرسييس، المثقف، الشاب المتفرد والتميز بذكائه، نرسييس المساوتي له، وليس يفوقه، بشهادة كل أخ آخر، إعاقته سيره في الطريق التي اختارها، إعاقته رسالته في التعليم؟ ولو لم يظل نرسييس متفوقاً في تدريسه، ولو أن صداقته تسببت في تكاسله، لعمل الأب الرئيس على الفور على التفريق بينهما. ولكن لا يمكن إيراد أي دليل ضده، ليس هناك غير الإشاعة، وارتياب الآخرين الغيور. ثم إن دانييل كان واعياً لموهبة نرسييس الفذة، وفي معرفته الثاقبة، الغريبة، وربما المتجرئة للبشر. ولم يكن يعلي كثيراً في تقدير هذه المواهب. كان من الممكن أن يُعجب بمواهب الآخرين أكثر مما لو أنها وجدت في صديقه ميرة خاصة، وفهمه أكثر من أي شخص آخر. من ناحيته لم يلاحظ في غولدموند أي شيء غير عادي، إلى جانب سحره وجماله، غير قادر من حماس متلهف، شبه رصين، من هذا الطالب الشاب، لاعتبار الدير الذي ينزل فيه ضيفاً، بيتاً له، واعتبار نفسه هو راهباً معترفاً به. ولم يكن يخشى أي خطر من أن يستحث هذا الحماس المؤثر ولكن الغرور يحرضه. أما أشد ما كان يخشاه على غولدموند من أصدقائه فهو أن يلوث نرسييس روح الفتى بشيء من التكبر الثقافي وبسوداوية الروح، على الرغم من أن الخطر بالنسبة لهذا الطالب بالذات، لم يكن من الفداحة بحيث تقع مثل هذه المجازفة، لا، لا يمكن أن يدع الريبة تساوره، ولا أن يساو جاحداً لوضع ذوي الأرواح العظيمة هؤلاء تحت رعايته.

لقد تفكر نرسييس مطولاً في أمر غولدموند. إن مقدرته على فهم أنماط الشخصيات البشرية ورغباتها وتميزها قد حققت هدفها مع الطرف الآخر منذ زمن طويل. ولقد عثر لثوه على ما كان يبحث عنه. إنه يفهم توهج الشباب هذا وتوقده كل الفهم. إن غولدموند يحمل كل

ما يدل على أنه رجل قوي وفائق الموهبة، خصب في جسده وفي عقله، أو على الأقل يدل على رجل ينطوي على قدرة فذة على الحب تكمن رغبته وسعاده في أنه سريع التوهج، وأنه يحمل في جنباته موهبة نكران الذات. ولكن لماذا كان هذا الكيان الغض، المخلوق ليكون عاشقاً، هذا الشاب ذو الإدراك المرهف، القادر على الحب، وينتشي أيما نشوة وبشكل كامل لشم عبير زهرة، أو لاستقبال شمس الصباح، أو لمراى حصان، أو سرب من العصفير، أو لسماع مقطع موسيقي — أقول لماذا يتشبث بصرامة برغبته في أن يغدو كاهناً ومتقشفاً؟

تفكر نرسييس في هذه القضية مطولاً. كان يعرف أن والد غولدموند هو الذي حرض هذه الغاية في الفتى. ولكن أما كان قادراً على خلق الرغبة لديه؟ أية شعوزة مارسها على ولده لجعله يؤمن بذلك النداء الداخلي وكأنه واجب؟ وأي نوع من الرجال هو هذا الوالد؟ على الرغم من أنه كثيراً ما يدير دفعة حديثهما عن عمد إليه وكثيراً ما كان غولدموند يتحدث عنه، فلم يكون نرسييس صورة واضحة لهذا الوالد: لم يتمكن من رؤيته.

أليس هذا أمراً غريباً ومريباً؟ وحين كان غولدموند يحكي عن سمكة السلمون التي اصطادها وهو طفل، أو يرسم فراشة بالكلمات، ويقلد صرخة طائر، ويتحدث عن أحد الرفاق، ويحكي عن كلب أو عن متسول، كانت صورهم تبعث، حتى لتكاد ترى. لكن حين كان يتكلم عن والده لا يحدث أي شيء. لا، لو كان الوالد حقاً شديد القوة والسلطان على حياة غولدموند المبكرة، لتمكن صديقه من وضعه بشكل أفضل. بما لا يقاس، لأعاده إلى الحياة باستمتاع جم. لم يكن نرسييس كبير احترام لهذا الأب: لقد أزعجه ذاك الفارس، وأحياناً كان يشك في أن يكون هو بالفعل والد غولدموند. لقد كان صنماً أجوف. ومع ذلك فمن أين له كل ذاك السلطان؟ كيف تمكن من أن يملأ روح غولدموند بأحلام دخيلة تماماً على أعماق أعمق الفتى؟

كان غولدموند غالباً ما يفكر في نرسييس، فبالرغم من تأكده من

حب صديقه العميق، ظل هناك شك مضجر، دائم في أن هذا الصديق إنما يعامله وكأنه طفل. فما معنى أن يكرر نرسييس على مسامحه كم أنهما مختلفان عن بعضهما؟ في حين أن هناك ما هو أفضل من مجرد التفكير، وهذا الطالب لا رغبة لديه في التفكير الممعن، وهناك أشياء كثيرة تملأ بها الأيام الطويلة الصافية. وكثيراً ما كان يختفي مع الأخ البواب، لأنه يكون معه على سجيته، ويتملقه لكي يسمح له بامتطاء بليس، فرسه من جديده، وكان الإثنين الوحيدان من العامة اللذان يقيمان في الدير شجانه كثيراً، الطحان وابن الطحان. معهما كان يطارد القضاعات في جدول المطحنة، أو يخبز معهما رغيفاً من خبز الأسقف الرائع، الذي كان غولدموند يميز شذاه وعيناه مغمضتان من بين كل الأطعمة التي يتناولونها. ومع أنه كان لا يزال يقضي ساعات طوال مع نرسييس كانت تبقى منها الكثير يستعيد خلالها المتع السالفة والعادات. وكان يستمتع بالمشاركة بالقاداس الصادح، وبصلاة المساء، بالتزئيل مع جوقة الطلاب، وكان يحب أن يتلو صلواته بثمان المذبح، وينصت إلى لغة الكنيسة اللاتينية المهيبة، وأن يراقب، من خلال غمامة البخور، بريق الزخارف وأردية الكهنة أثناء أداء القداس، وأن يحدق عالياً إلى الصور الجليلة ذات التقاطيع الصارمة للقديسين المعلقة على طول أقواس صحن الكنيسة: الأنجيليون، وكل منهم ممسك بحيوانه، والقديس يعقوب بقبعته وعصاه في طريقه إلى الحج.

هذه الصور كانت تجذبه، فببتهج إذ يشعر، من خلال أطرها الحجرية أو الخشبية، بنشوء فهم سري في عقله، وإذ يعتبرها، كما هو سائد، أنصاره ومير شديه وحماته في حياته، الخالدين المطلعين على كل شيء. وكان أفضا يشعر بما يشبه الحب، أو الجذاب عميق، خفي، نحو الأعماق، والكتابة المنقوشة، فوق النوافذ ومدخل الأبواب، وكل زخرفة في المذابح، ونحو الأكابيل الجميلة المنحوتة بدقة، نحو السويقات، والأغصان، والأزهار. وأجسام من الأوراق الخضراء النامية، تنبجس

نافرة من حجارة كل وطيدة^(١)، مضمفورة بإصرار شديد وبحيوية. لقد بدا له سرا عزيزاً وعويصاً أن توجد هنا، خارج الطبيعة الأم، نباتاتها وحيواناتها، هذه الحياة الثانية الخرساء، التي ابتكرها البشر، والبشر أنفسهم من الحجارة: الناس، والحيوانات، والنباتات، كلها من الحجر والخشب، وكثيراً ما كان يمضي ساعة حرة في نسخ هذه الرسوم المزخرفة، من حيوانات ووجوه بشرية، وتكتلات من الأوراق الخضراء، وأحياناً كان يبذل جهداً مضيقاً ليعيد رسمها في مخيلته، أو معتمداً على أحصنة وأزهار حقيقية، وأقنعة أناس أحياء.

كان يحب الأغاني التي يرتلوها في كنيسة الدير، خاصة ترتيلة مريم العذراء: الخفة المتجهمة الوثيقة لتلك الترانيم، وهي تعود لتتكرر مراراً وتكراراً، ترجع التساييح وانبحاسات التضرع. وكان إما يتبع ما تشيعه من قساوة بالغة بصلواته، أو أنه يهمل ما تعنيه الكلمات ويولي انتباهه فقط لإيقاع الموسيقى الفخيم ساحماً لتأثيرها أن يتغلغل فيه، بنغماتها العميقة، الطويلة المناسبة بابتهاال هادر، مدو، يعيد الثقة بورع في الحب. إنه من صميم قلبه لم يكن يحب التعلم، ولا انطوى على أي ميل لدراسة قواعد اللغة والمنطق. مع أن لتلك المواضيع جمالها الخاص، لقد كانت روحه تشتاق إلى الصورة وإلى عالم هدير الترتيل.

كان بين حين وآخر يتغلب على ابتعاده عن رفاهه، فمما يثير الحزن والضجر أن يطول مقامه وسط البرد واليأس. وفي المدرسة كان يدفع جار عابس له إلى الضحك، أو يغري رفيق غرفة صامت بالثرثرة ليلاً في المنامة، ويكافح طوال ساعة لاكتساب المحبة، وليستعيد بهذا بضع عيون ووجوه، وقلوب. وقد كوفت هذه الصداقة المعروضة عليه مرتان، وعلى كره شديد منه، باقتراح الذهاب "إلى القرية" ثم تولاه الخوف، ونكص متقوقعاً داخل ذاته، لا، لن يذهب بعد الآن "إلى القرية". لقد نجح في نسيان ذات الشعر الأسود، لم يعد يفكر فيها مطلقاً - أو نادراً ما يفعل.

(١) - الوطيدة: قاعدة العمود أو التمثال.

الفصل الرابع

ظل سر غولدموند صامداً أمام الحصار الذي ضربه نرسييس حوله. وطويلاً اجتهد نرسييس، أو هكذا بدا، وبدون أية نتيجة، أن يمنح ذاك الشيء المخبأ صوته المميز وأن يعلم تلميذه الكلمة التي يتغلب بها عليه. ولم يكن غولدموند في أحاديثهما يعطي صورة واضحة لمنزله، للحياة التي خرج منها لينضم إلى الدير. كان قد تكلم عن والد مبهم الشخصية، محترم غاية الاحترام، ولكن التصوير كان غير واضح، وحكى حكاية غامضة عن أم، توفيت منذ زمن بعيد ونسيت ولم يتبق منها غير اسم بالكاد يُذكر ولا شيء آخر.

كان نرسييس قد توصل بالتدريج، وهو المستشف الماهر لشخصيات الآخرين، إلى أن يرى في غولدموند أحد الذين اضطروا إلى أن يفقدوا جزءاً من حياتهم، ولا يستطيعون، بقوة حاجة ما أو سلطة سحرية ما فيهم، أن يفكروا في أمور معينة وقعت في ماضي حياتهم. وجد أنه لن يكسب شيئاً عن طريق الإرشاد أو الاستجواب، وجد أنه أفرط في الوثوق بقوة العقل، وتفوقه بالكثير من الكلام العقيم النافه. لكن حبه لغولدموند لم يكن عقيماً، ولا عاداتهما في الإكثار من التلاقي

كانت كذلك. وعلى الرغم من الأعماق التي تسببت في تباعهما إلا أن كل منهما تعلم الكثير من صحة الآخر. وقد تكونت بينهما ببطء، إلى جانب لغة العقل، لغة أخرى، لغة الإشارات ولغة الروح، وكأنا ينهض بين بنائين، طريق عال مخصص لعبور سائقي العربات، ثمر منه مخفات، ويمكن للراكين أن يعدوا متقلين من مكان إلى آخر، وتوجد حوله أزقة عديدة، ودروب بين الحقول في اتجاهات متعددة، وممرات مستترة يلعب فيها الأطفال، ودروب تحت الأشجار يتمشى عليها العشاق، وأثار قطط وكلاب غير واضحة. وشيئا فشيئا عثرت مقدرة غولدموند السحرية على الإفصاح عما يجول في خاطره بلغة الصور على سبيل الوصول إلى أفكار صديقه، متسللا إلى كل ما يقال بينهما: وهكذا تعلم نرسييس، بدون مساعدة الكلمات، أن يرقق بنفسه وأن يفهم الكثير عن طبيعة غولدموند وتصورات. وعلى ضوء ذلك، وببطء، امتد جسر من الحب، بين الروحين، ووجدت الكلمات طريقها إليه. وأخيرا، وبينما هما جالسان في المكتبة يوم عيد، ودون توقع مسبق، أثير حديث قادهما إلى قلب مغزى صداقتهما، وأضاء كامل امتدادهما إلى المستقبل.

جلسا يتناقشان في علم التنجيم، العلم المحرم، وغير المتداول في الدير. قال نرسييس أنه من المضيي تنظيم أصناف البشر المختلفة المتعددة، بصفتهم المقدورة، ومقاديرهم، وتنسيقها طبقاً لنمطيهما. وهنا انفجر غولدموند قائلاً :

"أنت لا تتكلم إلا عن الفروق! لقد أخذت أدرك ببطء أنها تؤلف غرابة أطوارك أنت. إنك حين تتحدث عن هذا الفرق الشاسع القائم بيننا أشعر أنه لا يكمن إلا في توقك الشديد الغريب إلى العثور على فروق".

قال نرسييس: "أجل. لقد أصبت كبد الحقيقة. هذا ما أقصده - أي أن الفروق لا تكاد تعني لك أي شيء، بينما هي أهم شيء بالنسبة إلي. إن طبيعتي هي طبيعة العالم، والفرع الثقافي الذي يلائمني هو العلم. والعلم، وسأستخدم كلماتك أنت، ما هو إلا السعي الحثيث الغريب وراء الفروق. وليس هناك من تعريف أفضل له. وبالنسبة إلى العلماء ليس ثمة ما يفوق

التعريف الواضح للفروق في الأهمية. فمثلاً، إن العثور على الدلالات التي تميز كل إنسان عن كل ما عداه من البشر إنما هو معرفته".

فقال غولدموند "ولكن كيف. هذا يعني أن الإنسان الذي يتنعل حذاء فلاح هو فلاح، ومن يضع تاجاً على رأسه هو ملك. هذا هو معنى مفهومك عن الفروق! ولكن هذا يمكن للأطفال أن يعرفوه، ولا داعي للجوء إلى أي علم".

قال نرسييس "ولكن حين يرتدي الفلاح والملك رداءً موحداً لا يعود الأطفال يميزون فيما بينهما".

قال غولدموند "ولا العلم أيضاً".

قال نرسييس "ربما يستطيع. أعترف أن العلم ليس أكثر حذاقة من طفل: إلا أنه أشد صبراً. وهو يعمل بدقة أكبر، ويرى ما هو أبعد من مجرد فروق واضحة".

قال غولدموند "وكذا يفعل كل طفل حاذق. يمكنه أن يتعرف على الملك من مظهره وهيبته. ولكن لنكن واضحين: أنتم المثقفون الكبار معترفون بأنفسكم، ودائماً تظنون أننا أقل ذكاءً منكم. إن في إمكاننا أن نشحذ فطنتنا دون الاستعانة بالعلم".

قال نرسييس "يسعدني أن أرى أنك لاحظت ذلك. وسرعان ما ستلاحظ أيضاً أنني لا أعني البراعة والمكر حين أتكلم عن وجود فروق فيما بيننا. أنا لا أقول: "إن فطنتك أكثر حدة، أو أنك أفضل أو أسوأ من". إنني فقط أقول: "أنت لست أنا".

قال غولدموند "هذا يمكن فهمه بسهولة. ولكنك لا تكتفي بالحديث عن الفروق في المظاهر الخارجية: أنت تتحدث عن وجود فرق في المصير والمقدر. لم، مثلاً، يكون قدرك مختلفاً عن قدري؟ أنت، مثلي، مسيحي، ونحن الاثنان عازمان على أن نعيش حياة الرهبان، وأنت مثلي، ابن لأبينا الطيب المتربع في السماء. وهدفنا واحد - السعادة الأزلية، وعزمنا واحد - العودة إلى رحاب الرب".

قال نرسييس: "حسن جداً. صحيح أنه في كتب التعاليم كل إنسان مساو لأي إنسان آخر. لكن الأمر مختلف في الحياة. أعتقد أن تلميذ المخلص الحبيب إلى قلبه الذي أراح رأسه على صدره، وذاك التلميذ الآخر الذي خانه، لم يُقدَّر لهما مصير واحد".

قال غولدموند "أنت سوفسطائي يا نرسييس، ولن نلتقي، أنت وأنا، في سيرنا على مثل هذه الدروب".

قال نرسييس: "لا وجود لدرب يمكن أن نلتقي عليه يا غولدموند".

قال غولدموند "لا تقل هذا يا نرسييس".

قال نرسييس: "أنا جاد فيما أقول، ليس مهمتنا أن نلتقي، إلا بقدر ما هي مهمة الشمس والقمر، أو البحر واليابسة. نحن الإثنان، يا صديقي، شمس وقمر، بحر ويابسة، ليس قدرنا أن نغدو شخصاً واحداً، بل أن يرى كل منا الآخر على ما هو عليه، أن يعي ذلك ويجلّه في الذي أمامه، أن يجد فيه إنجازاً واكتماله".

أطرق غولدموند رأسه، مدحوراً، وغمر الحزن وجهه. أخيراً أجاب قائلاً:

"ألهذا كنت دائماً تسخر من أفكاري؟".

تردد نرسييس في إعطاء رده. ثم قال، بصوت قاس، واضح:

"نعم، هذا هو السبب. يجب أن تتعلم أن تصبر عليّ يا عزيزي غولدموند، لأنني لم آخذ أفكارك على محمل الجد. صدقني إنني أولي كل نبرة في صوتك، وكل إيماء منك، وكل ابتسامة ترتسم على وجهك انتباهي ودراستي. كل ما يبدو فيك جوهرياً وضرورياً أراه حقيقياً. فلماذا إذن يجب أن أفسح لأفكارك مكانة التشريف في عقلي - أنت يا من تمتلك عدداً كبيراً من المواهب الأخرى؟".

ابتسم غولدموند بحزن وهو يقول: "لقد سبق أن قلت إنك دائماً تعتبرني طفلاً".

لكن نرسييس كان ما يزال صلياً "إن بعضاً من أفكارك تبدو لي أفكار طفل. ولكن تذكر ما قلناه قبل قليل، إن الطفل المتوقد الذكاء ليس بحاجة إلى أن يكون أغبى من إنسان مثقف. فقط عندما يتكلم الأطفال عن العلم يحتاج المثقفون إلى أن ينصتوا إليهم بجدية".

ونفذ صبر غولدموند: "ولكني حين لا أتكلم في العلم تهزأ مني! تتكلم وكأن كل تقوأي ورغبتي في إحراز تقدم في دراستي، وتوقّي لأكون راهباً ليس أكثر من هذر".

نظر إليه نرسييس برصانة شديدة. وقال: "حين تكون غولدموند حقاً فإنك لا تهذر. إنني لا أتوق إلى أي شيءٍ قدر توقّي إلى الإحاطة بك يا غولدموند إحاطة تامة. أنت لست راهباً - ولا مثقفاً. يمكن للمثقفين وللرهبان أن ينحتوا من خشب أكثر خشونة. أنت تتخيل أنك أقل ثقافة مني، وأن إلمامك بالمنطق قليل، ولست تقيماً كفاية. لا شيء من هذا صحيح. كل ما في الأمر أنك لا تمثل ذاتك كما يجب".

على الرغم من أن غولدموند عند هذا الحد من حديثهما غادر صديقه، متخبطاً في حيرته، غاضباً منه في سريره، فلم تمر أيام قليلة حتى شعر برغبة في مواصلته. وهذه المرة نجح نرسييس في أن يبين له، مستعيناً بصورة حية واضحة، خليق به هو أن يستخدمها ويقبلها، الفرق الحقيقي بين طبيعتهما.

لقد كان نرسييس قد بدا فظاً بكلامه: أما اليوم فشعر أن غولدموند قد أنصت إليه بلهفة أكبر، سمح لكلامه أن يغوص أعمق في روحه، وسرعان ما بدأ يهيمن عليه. وأغواه نجاحه الذي أحرزه بقول حتى أكثر مما كان ينوي أن يقوله: وأفسح المجال لفصاحته كي تدفعه إلى الأمام.

قال: "اسمع، إنني لا أتفوق عليك إلا في يقظتي، في حين أنك نصف يقظ، وأحياناً تكون حياتك كلها حلم، إنني أسمّي الرجل يقظاً الذي يدرك، بمعرفة وفهم واعين، مدى عمق وضخامة الطاقات الكامنة في روحه، وكامل القوة، والرغبة والضعف الدفينة في أعماقه، ويعرف كيف

يقدر نفسه حق قدرها. إن المهمة التي تقرب أحدنا من الآخر، والهدف النهائي والغاية من صداقتنا، هي أن تتعلم مني كيف تفعل ذلك. إن الطبيعة والذكاء فيك يا غولدموند، والإدراك الواعي وعالم الأحلام، متباعد واحدتهما عن الآخر. لقد نسيت طفولتك التي ما زالت تكافح لتنهض من أعماق كيائك، لتتملكك. وسوف تظل دائماً تسبب لك العذاب حتى توليها انتباهك. ولكن كفى: استيقظ، كما قلت لك، فأنا أتفوق عليك. هنا أنا أقوى منك. لذا فأنا قادر على تقديم يد المساعدة إليك. ولكن في كل ما عدا ذلك، يا amice أنت ملكي، أو بالأحرى سوف تصبح كذلك بعد أن تعرف نفسك".

ظل غولدموند ينصت إليه جيداً إلى أن قال "لقد نسيت طفولتك". حين سمع هذا أجفل وارتد وكان سهماً اخترق جسمه، إلا أن نرسيس لم يلاحظ ذلك وكان يتكلم، كعهده دائماً، وعينه نصف مغمضتان، أو يحدق إلى المدى البعيد النائي، وكأنما إذا لم يكن يرى جيداً تأتية الكلمات بسهولة أكبر. لم يلاحظ ارتعاشة شفتي غولدموند، ولا الشحوب الذي بدأ يحتل وجهه.

أخذ غولدموند يتلعثم قائلاً "تفوق علي - أنا؟"، فقط رغبة منه في أن يدلي بجواب ما: شعر وكأن جسمه كله قد أصابه الوهن.

وانتهى نرسيس إلى القول: "إن الحالمين والعشاق والشعراء، يتفوقون في أغلب الأشياء على أمثالي من المفكرين، لقد ورثت طبيعتك من أمك. وأنت تحيا الحياة حتى الثمالة. لقد خلقت كي تحب بكل قواك، كي تعرف الحياة وتذوقها بكاملها. أما نحن المفكرون، فغير قادرين على أن نحيا بنصف استمتاعكم أنتم وبواقعية كلية، على الرغم من أننا غالباً ما ندو أننا نهديكم. إن حياتنا هي حياة هزيلة مجذبة، أما اكتمال الوجود فمن نصيبكم، من نصيبكم نسغ الثمار، وحديقة العشاق، ومباهج الجمال الممتعة. بيتكم هذه الأرض، ومنزلنا هو فكرتنا عنها. الخطر الذي يدهمكم هو أن تغرقوا في عالم الأحاسيس، وخطرنا هو تلهفنا إلى أن نتنفس في أصقاع خالية من

الهواء، أنت شاعر، وأنا مفكر. أنت تنام على صدر أمك، وأنا أبقي ساهراً في البراري. علي تشرق الشمس، وعليك يشرق القمر، وبصحبته كل النجوم. أحلامك كلها فتيات وأحلامي ملأى بفتيان".

كان غولدmond ينصت إليه جاحظ العينين، وكان نرسيس يتكلم بما يشبه الانغماس الخطابي. وكان الكثير من كلماته ينغرز، كالخناجر في قلب صديقه، وأخيراً امتقع وجه الفتى وأغمض عينيه، وحين رأى نرسيس، غولدmond شاحباً شحوب الموتى، لم يسعه إلا أن يهمس:

"ذات مرة انفجرت أحجش بالبكاء أمامك، كما تذكر. يجب أن لا يحدث هذا ثانية. لن أغفر لنفسى، ولن أسامحك أيضاً. أسرع الآن، اتركني! دعني وحدي! لقد وجهت إلي كلاماً فظيلاً".

كان نرسيس سقم القلب. لقد حملته أفكاره بعيداً، وجد أنه يحسن الكلام أكثر من المعتاد. إلا أنه الآن أدرك، فزعاً، أن ثمة فيما قاله لتوه شيئاً سدد ضربة مميتة إلى صديقه، وأنه بشكل ما نفذ إلى صميمه. ووجد من الصعب عليه أن يغادره في مثل هذا الوقت. لذا تلكأ لبرهة من الزمن، إلى أن تلقى إنذاراً من العبوس المرتسم على جبين غولدmond. ثم انطلق وهو في حال من التشوش العظيم، تاركاً صديقه وسط العزلة التي كان بحاجة إليها. ومع أن غولدmond بكى، إلا أن دموعه لم تكن كافية لإطلاق الحزن المكبوت في روحه في قلب آلام جرحه البليغ، ويأسه التام، من وجود أية وسيلة لألمه - وكان صديقه قد سدد فجأة طعنة إلى قلبه - وقف وحيداً، يلهث لهائلاً عميقاً: وضافت أنفاسه كما في حشريحة الموت، وشحب لون وجهه، وتدلّت يداها على جنبه. إنه الألم القديم في روحه، وشعوره أن عليه أن يشهد أمراً مريعاً، أمراً قد يكون مخيفاً إلى حد لا يحتمل. والآن لم تعد هناك نوبات بكاء عنيفة لتخفف من أسى عقله. يا أم الرب المقدسة، ما هو إذن؟ هل طراً جديداً؟ هل أصابته ضربة قاتلة؟ هل قتل إنساناً؟ ما هذا الكلام الفظيع الذي كانا يتبادلانه؟

كان يلهث كمن جرع سماً، ويكاد ينفجر بفكرة أن عليه أن ينفذ عنه شيئاً قاتلاً، شوكة غرزت في قلبه. خرج من الغرفة بخطى متعثرة، ناشراً ذراعيه إلى الأمام كسباح، وهام دون وعي منه، في أشد أجزاء الدير سكونا وفراغاً، وطرق الأروقة، وهبط الدرج، ثم إلى الهواء الطلق. كان قد وصل إلى قلب الدير، إلى مركزه، وانتشر عبر الورد في الجو الدافئ تحت الضوء الممتع، وقد أصابه الصقيع.

كان نرسيس عندئذ قد فعل دون قصد منه ما كان يرغب عن وعي ولوقت طويل في عمله: لقد سمى الشيطان الذي يتلبس صديقه ثم طرده، فقد أثارت إحدى كلماته سراً مكنوناً في صدر غولدموند، فانتفض شيطانه متألماً. وهام نرسيس طويلاً بين غرف الدرس بحثاً عن صديقه، لكنه لم يعثر عليه.

وقف غولدموند في ظل الأقواس المفتوحة على حديقة الدير الصغيرة: ومن فوق العمود راحت رؤوس ثلاثة من الحيوانات، لكلاب أو لذئاب، ترميه بنظرة شذراء. واضطرم الألم في رأسه، لا يجد له طريقاً للتنفيس، أو للتخفيف. وتشبث رعدة أشبه برعدة الموت بمنجرتة: رفع بصره، لا يدري ماذا يفعل، فرأى فوقه، على تاج أحد الأعمدة، رؤوس الحيوانات الثلاثة، فبدا له على الفور وكأن ثلاثة رؤوس متوحشة رابضة تكشر وتعوي، داخل أحشائه.

وأدرك وهو يرتعش وقال: "يجب أن أموت الآن وفوراً". ثم أردف وهو يرتجف خوفاً "أن أفقد عقلي وبعد ذلك سوف تفتسني هذه الحيوانات". غاص وهو يهتز ويرتعش، وجثم عند أسفل العمود، وتعاضم ألمه حتى وصل إلى حده النهائي. دفن وجهه بين يديه، فساد الظلام الذي تاق إليه في عقله.

كان رئيس الدير قد أمضى نهائياً. كان راهبان عجوزان قد مثلاً أمامه، نكدين، يتبادلان التعنيف، ويتقاذفان الافتراء على مسمع منه هو، رئيسهما، يتذرمان حول خلاف قديم، تافه، ما يزال يعتمل فيهما،

وليد حقد متبادل، وإذا به الآن يعود ليثور فيهما إلى حد النزاع المرير. وأنصت مطولاً إلى مشاحناتهما، وعاتبهما ولكن دون إحراز نجاح يذكر، وأخيراً صرفهما عنه بقسوة. وكل منهما يحمل كفارة ثقيلة. ثم هبط، وقد شعر بالإرهاق، ليصلي في صحن الكنيسة، فأدى صلاته، ثم نهض دون أن يشعر بالانتعاش، ومشى متقدماً إلى داخل الدير، على هدى عبير الورد الخفيف، ليتوقف برهة ويشم الهواء.

عثر على الطالب غولدموند ممتدداً على بلاط الأرض فاقداً وعيه، فأخذ يحدق إليه وقد تملكه الرعب والدهشة من سكون الموت الذي بدا عليه، وشحوب وجنتيه، وكان جسمه الغض عادة يثور بالحياة. لا شك في أن هذا اليوم هو يوم شؤم، وجاء هذا ليزيد الأمور سوءاً حاول أن ينهض الفتى، لكنه وجد أنه أضعف من أن يقوم بهذه المهمة. فتنهد، وانطلق ليستدعي إثنين من الأخوة الشبان، ليرفعوه ويحملوه إلى جناح المرضى، وأرسل في طلب الأب آنسيلم، الطبيب، وأخيراً استدعى نرسييس للمثول أمامه، فعثروا عليه على الفور، ولبي النداء.

سأله "أكنت تعرف قبل الآن".

"عن غولدموند؟ نعم يا أبت. أخبروني أنه مريض، أو أنه جرح نفسه، ورأيتهم يحملونه".

"نعم عثرت عليه في حالة إغماء، ممدداً في مكان لا يسمح له بالتواجد فيه. في الجزء الداخلي من الدير: وهو ليس جريحاً، وإن كان فاقد الواعي، وهذا لا يعجبني. أشعر أن لك يد في الأمر، أو على الأقل تعلم علة ما حدث. لهذا تراني أرسلت في طلبك. تكلم".

أعطى نرسييس، ببروده المعتاد في حديثه ومظهره، تقريراً مختصراً عما قاله لغولدموند، وكيف أن ثمة قوة خفية تفعل فعلها فيه. فهز رئيس الدير رأسه منزعجاً.

قال: "هذا كلام غريب"، واجتهد كي تخرج كلماته هادئة "لقد رُسِفت لتوك حديثاً وكأنه هجوم على روح أخرى. بل أكاد أقول أنه

هجوم عنيف يشنه راهب متقدم، أو كاهن اعتراف. لكنك لست المتلقي
لاعتراف غولدموند. بل لست مؤهلاً لتلقي أي اعتراف: أنت لست
مكرساً لذلك! فكيف تسمح لنفسك أن تتكلم مع هذا الطالب وكأنك
تخطئ بترخيص روجي لإرشاده في أمور لا يتمتع إلا كاهن الاعتراف
بقدرة فيها؟ وكما ترى، كانت النتيجة شريفة".

أجاب نرسيس بهدوء ولكن بثبات "ما زال الوقت مبكراً جداً يا
أبت للحكم على النتيجة. لقد ذهلت قليلاً للأثر العنيف لما قلته، لكني لا
أشك في أن نتيجة كلامي مع غولدموند هي أنه ستشفيه".

"سوف نرى. لم أستدعك لتتكلم عن هذا الأمر، وإنما عن ما فعلته
أنت. ما الذي حملك على قول ما قلته لهذا الطالب؟".

"إنه صديقي، كما تعلم. وأكنُّ له حباً خاصاً، وأشعر أنني لم أفعل
ذلك إلا بدافع شعوري أنني أعرفه أفضل مما يعرف هو نفسه".

ارتعش الأب الرئيس وقال: "إنك تتمتع بمواهب مميزة، وآمل أن لا
تكون قد استخدمتها لتسبب أذى دائماً. هل غولدموند مريض؟ هل هو
مصاب بالحمى؟ هل يمضي لياليه أرقاً، أم أنه لا يأكل كما يجب؟ هل
يشكو من ألم جسدي؟".

"لا، لقد كان جسمه صحيحاً حتى هذا اليوم".
"وما عدا ذلك؟".

"كان عليل الروح يا أبت. كما تعلم لقد وصل منذ وقت طويل إلى
السن التي يتصارع فيها البشر مع شهواتهم الحسية".
"أعلم أنه في السابعة عشرة".

"بل في الثامنة عشرة يا أبت".

"الثامنة عشرة. إذن، هو في سن متأخرة بما يكفي. إلا أنها مجرد
صراعات طبيعية، يواجهها كل إنسان في حياته. ولا تستدعي منك أن
تقول عنه أنه عليل الروح".

لا، أيها الأب المقدس، هي بحد ذاتها لا تستدعي ذلك، ولكن روح غولدموند كانت عليلة مسبقاً، ومنذ زمن طويل، لذا فإن مثل تلك الصراعات تعتبر أشد خطراً عليه من غيره. أعتقد أنه الآن يعاني لأنه نسي جانباً من ماضيه."

"فعلاً. أي جزء منه إذن؟"

"أمه، وكان متعلقاً بها. إنني لا أعرف عنها أكثر منه. كل ما أعرفه هو أن بعضاً من حزنه دفن معها. يبدو أنه لا يعرف أي شيء عن أمه. يعرف فقط أنه فقدوها في وقت مبكر، لكنه يجعلني أشعر أنه يخجل منها، مع أنه لا بد ورث عنها أغلب مواهبه، بما أن لا شيء مما يخبرني به عن والده يدل على أن ذاك الوالد يمكن أن يكون قد أنجب مثل هذا الابن الوسيم الحسن. لا شيء مما أقوله لك هو مجرد أقاويل يا ابنتي، لقد استنبطت استنتاجاتي من دلائل معينة."

هذه الكلمات الأخيرة أثارت تفكير الأب الرئيس. في أول الأمر بدا له نرسيس أحمق، ومتعجرفاً، بل إن ابتسامة صغيرة ارتسمت على شفتيه وهو ينصت. وأخذ الآن يفكر في والد غولدموند، الفارس ذو الوجه الداوي والأسلوب المميز في الحديث، وتذكر، وهو يفتش في ذاكرته، بعض الكلمات، التي قالها عن أم الفتى. قال إنها سببت له العار، وهربت منه، الصورة التي تركها في ذهن الفتى هي أنه يجتهد كي يحو كل ذكرى لآثام يمكن أن تورثها له. وقد نجح في ذلك، كما قال الفارس، وبات ابنه مستعداً لتكريس نفسه للرب، للتكفير عن الخطايا التي ارتكبتها أمه في حياتها.

لم يبلغ انزعاج الأب من نرسيس هذا المبلغ من قبل. ومع ذلك، كم كان هذا المفكر مصيباً، كم يبدو على معرفة عميقة بصديقه! وأخذ يستزيد من استجوابه حول كل مجريات حديثهما.

"لم يكن في نيّتي قط أن أثير في غولدموند الهم الثقيل والألم اللذين يغيران عليه. لقد ذكرته بأنه لا يعرف نفسه، وقلت له أنه نسي أمه وفتره

طفولته. ولا بد أن شيئاً في كلامي نفذ إلى روحه، وغاص عميقاً في ظلمة نفسه التي كنت أكافح طويلاً لبلوغها. وبدا كأنما خرج عن طوره: أخذ يحدق إلي وكأنه لم يعد يعرفني، وكأنه نسي اسمه هو. كنت كثيراً ما أقول له أنه قد نام ولم يحدث قط أن استيقظ بشكل كامل. والآن استيقظ، وليس هناك أدنى شك في ذلك".

بعد ذلك صرف دون كفارة، ولكن أمر بالامتناع عن مقابلة صديقه في الوقت الحاضر.

أوصى الأب آنسيلم بتمديد الفتى على السرير، ثم نجلس إلى جانبه ليرعاه. ورأى أن من الأفضل عدم استخدام أية وسائل قوية لإعادة غولدموند إلى وعيه، وقال العجوز في نفسه، وهو يرمقه بعينين حانيتين متغضبتين، يبدو عليه شحوب الموتى. ثم جس له نبضه، ووضع يده على قلبه. قال في نفسه، - يجب اتخام هذا الفتى بوجبة لذيذة ضخمة، أو بحزمة من الحميض، أو ما شابه. كلهم متشابهون! ولم يتمكن من النظر إلى لسانه.

كان آنسيلم كلفاً بغولدموند، وإن لم يكن يحتمل صديقه نرسيس ذاك المبتدئ الممتلئ عجباً، الأصغر سناً من أن يغدو مدرساً بأي حال. إنه مصدر أذى! نرسيس هذا يجب أن ينال نصيبه من هذا الحادث المؤسف السخيف. ما حاجة هذا الطالب الدمث النضر، ذو القلب المنفتح الفطري، إلى معاشرة ذاك المتحدلق المتغطرس، المختال بلغته اليونانية التي يعتبرها أهم شيء في العالم!

بعد ذلك بوقت طويل، وحين فتح الأب الرئيس باب جناح المرضى، وجد الأب العجوز آنسيلم ما يزال يرنو إلى مريضه بقلق. يا له من وجه لا تشوبه شائبة، جميل وغيض. ومع ذلك فكل ما وسعه أن يفعل أن يجلس ويتأمله، ويود بقوة لو يعيده إلى الحياة، لكنه عاجز عن تقديم أي عون. يمكن أن يكون الفتى بحق يعاني من مغص، وسوف يصف له الراوند مع شراب منبه. ولكن كلما طال تأمله لتلك القسمات

المشوهة الشاحبة، زادت ريبة الأب آنسيلم. لقد سبق له أن مر بمثل هذه التجربة! على مدى حياته الطويلة جلس مرات عديدة مع أولئك المسوسين بالشياطين. وتردد حتى بينه وبين نفسه، على صياغة كل ما يدور في عقله: يجب أن يترث ويمحص قبل أن يتكلم، لكنه أخذ يفكر بتجهم، إذا كان هذا الفتى المسكين قد أصيب بلعنة ساحر، فليس علينا أن نبتعد كثيراً في بحثنا عن المجرم: وهو الذي سيكشف لنا الأمر كله! اقترب الأب الرئيس من السرير، ومال برفق على الفتى، ورفع أحد جفنيه.

سأل "هل تستطيع أن ترفعه؟".
"أفضل أن اترث قليلاً. إن قلبه سليم. يجب أن لا يقترب منه أحد".

"أهو معرض لخطر الموت؟".
"لا أعتقد. لا وجود لجروح على جسده، أو أي أثر لضربة أو لسقوط. فقط أغمي عليه. لعله الغص. إن الألم الممض قد يسلبنا الوعي. ولو كان قد تسمم لظهرت أعراض حمى. لا، سوف يستعيد وعيه وحياته".
"ألا يمكن أن يكون السبب هو عقله؟".

"لا أظن ذلك، ألم يعرف أي شيء عنه؟ لعل أحداً سبب له رعباً: كتشيع خبر موت، أو وجه له إهانة أو انخرط في شجار عنيف معه. إذن لاتضح كل شيء".

"إننا لا نعرف أي شيء. احرص على أن لا يدخل عليه أحد. أرجوك لا تغادره حتى يستيقظ يا أبت، فإذا أصبحت حالته خطيرة نادني، حتى وإن كان في منتصف الليل".

وقبل أن يرحل الأب الرئيس العجوز عاد فمال على الفتى، وتذكر الفارس، والده، واليوم الذي ترك فيه هذا الصغير الجميل ذو الشعر الأشقر هنا ليدرّس في الدير، وتولع به الجميع على الفور. هو أيضاً فرح لقدمه. لكن نرسيص أصاب في أمر واحد: إن الفتى لا يشبه أباه في شيء. أواه، ما

أكثر الحزن في العالم! ما أشد عبث وعقم كل طموحاتنا! هل أهمل العناية بهذا الفتى المسكين؟ بل هل تلقى اعترافاته بأذان صاغية؟ هل كان صواباً أن لا يعرف هذا الطالب حق المعرفة، في هذه الدار، غير نرسييس؟ هل يستطيع نرسييس أن يساعده وهو المتبدىء الغر، ولا هو براهب ولا بكاهن مكرس؟ هو، صاحب الأفكار والآراء المفعمة بالخطرسة، والملووعة بالحققد؟ الرب وحده يعلم إن لم يكن نرسييس هذا نفسه قد أسيء تدريبه منذ زمن طويل: الرب وحده يعرف إن لم تكن طاعته كلها بمجرد قناع، إن لم يكن في قلبه أكثر من وثنين. وعلى الأب الرئيس أن يكون ذات يوم مسؤولاً عن كل ما يمكن أن يصيب هذين الإثنين.

حين أفاق غولدموند كان الظلام قد حل. كان مصاباً بدوار ورأسه خال من الأفكار. شعر أنه يستلقي على سرير، ولكن لم يعرف أين. اجتهد كي يتذكر، لكنه لم ينجح. كيف وصل إلى هنا: من أي بلد غريب ذي آفاق معرفة جديدة؟ لقد زار مكاناً بعيداً نائياً، رأى فيه مناظر رائعة نادرة، رهبة لا يمكن نسيانها. ومع ذلك فما هو ينساها كلها. أين كان ذلك؟ ما ذاك الشيء الذي برز أمامه، شديد الكآبة، هائل، يشع جمالاً، ومن ثم عاد فتلاشى؟ حاول جاهداً كي يغوص في دخليته، إلى الأعماق التي خرج منها ذاك الشيء. ماذا كان؟ ثمة سرب من الصور العقيمة تحوم حوله. يكاد يرى رؤوس حيوانات ثلاثة من رؤوس الكلاب، واشتم نفحة من عبير الورد. ما أشد الألم الذي ألم به! أغمض عينيه. ألم رهيب! وغاص في النوم.

ثم استيقظ ورأى الشيء الذي كان يبحث عنه، من خلال ضباب من الأحلام يتبدد بسرعة: رأى الصورة، فانكمش على نفسه في نوبة ألم واستمتاع. رأى - وعيناه مفتوحتان - المرأة المضيئة، الطويلة القامة، ذات الشفتين الحمراوين الممتلئتين، وقد طيرت الرياح شعرها: إنها أمه! وفي تلك اللحظة سمع صوتاً، أو خيل إليه أنه سمعه، يقول ما يلي: "لقد نسيت طفولتك". أنصت وفكر، ثم تذكر. إنه صوت نرسييس. نرسييس! وفي

لمح البرق تبدى كل شيء أمام عينيه، رآه كله. انجلي كل شيء رآه، أمي، أمي! لقد سويت جبال من القمامة والأرض، جفت محيطات من النسيان: مرة أخرى سطعت عليه ابتسامة من العينين المشرقتين الزرقاوين للمرأة المفقودة، الشبيهة بملكة، إن جمال صورتها يفوق الوصف.

الأب آنسيلم، الذي كان قد أغفى وهو جالس على كرسيه، بجانب السرير، استيقظ. سمع الفتى يتحرك ويتنفس. نهض غولدموند برفق، وسأل "من هناك؟".

"لا تخف إنه أنا الأب آنسيلم. سأشعل الضوء".

أشعل الفتيل، فأضاء وجهه اللطيف المتغضن.

سأله الفتى "ولكن هل أنا مريض؟".

"لقد وقعت مغشياً عليك يا بني. هات يدك لأجس نبضك. كيف تشعر؟".

"أشكرك أيها الأب آنسيلم. أنت شديد اللطف معي. لا أحتاج إلى شيء إنني فقط مرهق".

"لا شك في أنك مرهق، وسرعان ما سيغلبك النعاس من جديد. ومع ذلك، خذ أولاً جرعة من النبيذ المتبل، ها هو جاهز بانتظارك. وسوف نشترك في شرب كأس واحدة نخب صداقتنا، يا ولدي".

كان حاضراً بإبريق من شراب مسكر، وغلي الماء ليمزج معه قهقهه الطبيب قائلاً "أنت وأنا غططنا في النوم طوال تلك الفترة الطويلة. سوف تقول إنني جراح ممتاز ولا يليق بي أن أسهر على مريض، وعجوز جداً ولا يسعني أن أنظر مستيقظاً للقيام بذلك. كما ترى - كلنا بشر. والآن دعنا نشرب هذا الرحيق السحري معاً. لا شيء يضاهي جودة شرب نخب مشترك في الليل "في صحتك".

ضحك غولدموند، وتقارع الكأسان، وشاركه الشراب. إن هذا الشراب المسكر الحار المتبل بكبش قرنفل والنشور، ومحلى بشمندر

سكري رائع، لم يشرب في حياته شراباً أطيب منه مذاقاً.
تذكر كيف أنه مرض مرة واحدة من قبل، وسهر نرسييس على راحته: أما الآن فيقوم الأب آنسيلم بهذه المهمة، وهو شديد اللطف والرفقة. وشعر برغبة في الضحك، فكل شيء رائع ولذيذ، ها هو مستلق ليلاً بالقرب من مصباح وكأس نبيد فارغة مع طبيب عجوز.
قال الأب: "هل تشعر بمغص؟".
"لا".

"وأنا الذي قلت أنك تعاني من مغص! إذن لا شيء بك. مد لسانك. حسن، مرة أخرى يبرهن العجوز آنسيلم على أنه أحق! غداً ستبقى في سريرك، وسأتي وأعودك. هل أنهيت شرب النبيد؟ أمل أن يفيدك! فلتر، ما يزال هناك قليل منه. حسن، إذا ما تقاسمنا بالتساوي سيكون نصيب كل منا كأس أخرى. أخيراً بثت الخوف في قلوبنا يا غولدموند. إنك تتمدد في الدير كالجثة. والآن هل أنت متأكد من أنك لا تعاني من مغص؟".

ضحكا واشتركا في شرب البقية الباقية من خمر الفتى المريض: أرسل غولدموند الهادىء من عينين صافيتين نظرة كلها سعادة وجبور. وغادر العجوز ليأوي إلى سريرته. وظل غولدموند مستلقياً يقظاً فترة أخرى. وتصاعدت الرؤى من جديد داخله، مرة أخرى عادت إلى الحياة في روحه صورة والدته المتوردة بشعرها الأصفر. وملك عليه حضورها كيانه كله، كالريح العذبة التي تهب عبر حقل التبن، كنسمة دفة، كنسمة حياة، ورقة، وشجاعة. آه، يا أمه كيف أمكنني أن أنساك؟.

الفصل الخامس

على الرغم من أن غولدموند كان دائماً يعرف شيئاً عن أمه، إلا أن مصدره الوحيد كان حتى ذلك الحين قصص الآخرين عنها. كانت صورتها قد تلاشت من ذاكرته. وكان دائماً يخفي عن نرسيس، من الشيء القليل الذي اعتقد أنه يعرفه عنها، جزءاً. وأصبحت "الأم" فكرة محرم عليه تداولها في الحديث. لقد كانت في وقت سابق راقصة جميلة، وجامحة، نبيلة، لكنها متحدرة من أسرة دنيئة وفاسدة. وقد انتشلها والده، أو هكذا قال لابنه، من حمأة الفقر والعار. ولما لم يكن متأكداً من كونها مسيحية عمد إلى تعميدها وهداها إلى الإيمان، ثم تزوجها، وجعل منها سيدة محترمة. إلا أنها بعد مرور بضع سنين من الرضوخ له، ومن الحياة المنضبطة، عادت إلى ألاعيبها القديمة وممارساتها، من إثارة الشقاق، وإغواء الرجال، فكانت تغيب عن منزلها على مدى أيام وأسابيع متواصلة، حتى ساءت سمعتها ووصفت بالساحرة، وأخيراً، خرجت ولم تعد، على الرغم من أن زوجها غفر لها مراراً، وأعادها إلى حظوته.

استمرت سمعتها السيئة سائدة فترة بعد ذلك، مثل نار شريرة تومض إثر عبور مذنب، إلى أن حمدت بدورها، دون أن تخلف أي أثر، وشيئاً

فشيئاً شفي زوجها الطيب من سنين عديدة من الرعب والريسة، والعار، والمفاجآت المتوالية. وبدل حبه لزوجته الفاسقة بحبه لابنه الذي كان يشبه أمه في وجهه وهيئته. وشاب شعر الفارس وبات ثائباً، وأخذ يغرس في نفس غولدموند الإيمان بأن عليه أن يضحي بنفسه تكفيراً عن أمه.

هكذا كان يتحدث والد غولدموند عن زوجته الضائعة، على الرغم من أنه لم يكن من السهل دفعه إلى التحدث عنها، وحين أودع غولدموند الدير أعطى الأب الرئيس لمحا عن فحوى الأمر. وكان ابنه على علم بكل شيء، ولكن على أساس أنه مجرد حكاية شريرة وضيفة وعليه أن يطرحها من ذهنه وإلى الأبد: وبذل قصارى جهده لينسى.

ولكن ما فقدته بحق ونسيه كان ذكره الحقيقية الخاصة عن أمه. تلك الأم الأخرى المختلفة، في روحه، لم تكن مبنية من أقاويل الفارس، أو من الإشاعات المتطرفة المتكتمة التي يروجها الرجال من الخدم. هذه الحقيقة الواقعة، التي كان يراها بقلبه، سرعان ما نسيها، إلا أن صورتها الآن، نجمة طفولته، قد أخذت تبرز.

ذات يوم هتف قائلاً لصديقه "لا أدري كيف نجحت في نسيانها. لم أحب في حياتي أحداً كما أحببتها، حباً متوقداً، غير محدود. ولم أجل أحداً قط قدر إجلالي لها، ولا رأيت من يضاهاها جمالاً. إنها بالنسبة إليّ الشمس والقمر. ويعلم الرب كيف كان يمكن إخماد حبي المشرق في ذهني لها، لأجعل منها في نهاية المطاف تلك الساحرة الشريرة الشاحبة التي لا شكل لها. كما أضحت بالنسبة إليّ وإلى أبي لسنين عديدة".

بعد ذلك بفترة قصيرة كان نرسييس سينهي فترة التزهين، وسرعان ما سيخلع عليه الرداء الكهنوتي ويرسم كاهناً. كان موقفه من صديقه قد تغير، على الرغم من أن غولدموند، الذي كان، قبل أن يصاب بالإغماء، يشعر بالغضب من أسئلة نرسييس وتحذيراته، بوصفها تتم عن حذقة وغطرسة تثيران الضجر، بات الآن، ومنذ أن أعاد الألم إليه ذاكرته، مفعماً بالامتنان المشدود باستمرار لمهارة مدرّسه وحكمته. ما أعمق ما كان هذا المثقف الحاذق يغوص داخله: ما أشد دقة سبره لألمه الدفين! وأيضاً ما أشد مهارته في

شفائه! وليس فقط لم يخلف إغماءه أي أثر عليه، بل إن اشتياقاً بدا وكأنه قد ذاب عن طبيعته، هو توق رصين تافه ليغدو قديساً، رصانة معينة، أو عبث من المغالاة في التقوى! هو إيمانه بأن من واجبه الإلزامي أن يكون أشد رهينة من الرهبان أنفسهم. وأصبح غولدموند أكبر سناً وأصغر سناً في وقت واحد منذ اليوم الذي اكتشف فيه ذاته الحقيقية. وكان مديناً بالشكر لنرسييس من أجل كل هذا.

لكن نرسييس كان منذ بعض الوقت قد غداً شديد التعقل مع صديقه فأصبح يراقبه بتواضع، وليس كما في السابق كمدرّسه والمتقدم عليه، على الرغم من أنه كان قد اكتسب مريداً متلهفاً على الدرس. إلا أنه رأى أن ثمة منبعاً خفياً يمنح غولدموند مواهب حرم هو منها إلى الأبد. وقد أوكل إليه أمر تنميتها، في حين أنه لم يحظ بأي نصيب منها. وأسعده أن يرى صديقه وهو يتكامل ويتحرر، ومع ذلك كانت سعادته مزوجة بالحزن. شعر أنه مجرد قشرة، ويجب التخلص منها: درّجة يجب تخطيها على سلم الكمال: وتراءت له العاقبة القريبة لعلاقتهما، التي أثلجت قلبه بسعادة غامرة. وكان ما يزال يعرف غولدموند أكثر مما كان يعرف هذا الفتى نفسه، الذي على الرغم من أنه استعاد معرفته بروحه، وكان على استعداد أن يتوجه إلى حيثما تقوده، إلا أنه لا يعرف بعد الطريق التي ستشير إليها. إلا أن نرسييس أدرك أن درب صديقه يمر من أصقاع ما كان هو ليجرؤ قط على اجتيازها.

بات غولدموند أقل رغبة في التعلّم، كان قد فقد كل لطفة على الانخراط في أي مناظرة. أصبح الآن في أحاديثه يعرب عن خجله من العديد من مناظراته السابقة.

في تلك الأثناء بما أنه لم يعد مترهبناً، أو بسبب ما فعله لغولدموند، بعثت تلك الأيام الأخيرة في نرسييس شعوراً بحاجته للانعزال، ولحاسبة الذات، askesis ولممارسة العبادة، حافزاً قوياً لمزيد من الصيام، ولتلاوة صلوات مطولة، وللإكثار من الاعتراف، ولتحميل نفسه كفارة طوعية. وبذل غولدموند أقصى جهده لمشاركته في هذا الميول، فمنذ أن شفي أضحت غرائزه أشد حدة. وعلى الرغم من أنه حتى ذلك الحين لم تكن لديه

أدنى فكرة عما يخبئه له المستقبل، فقد كان يتضح له كل يوم، وأحياناً يهز الرعب قلبه، أن قدره الحقيقي بات الآن وشيك الحدوث، وأن زمن الراحة والبراءة قد ولى، وأن الحياة فيه قد نهضت لملاقاة قدره. كانت النذر أحياناً تبدو حيلٍ بالسعادة، فتحرمه من نوم الليل، مثل مداعبة لذيدة مربكة، إلا أنها كثيراً ما كانت سوداء مفرعة.

عادت أمه، المنسية منذ زمن بعيد، إلى الظهور من جديد، جالبة معها سعادة غامرة، ولكن إلى أين يغويه نداؤها الشبيه بصفارة الإنذار بالتوجه؟ إلى الانطلاق إلى عالم الجهول، إلى الافتتان إلى الحاجة، أو ربما إلى الموت. لا يمكن أن تعيده إلى الأمان، إلى سكينه مدارس الدير ومناماته، وحياة الصحبة الطويلة مع الرهبان: ليس في نداءها أي أثر لنبرة الأوامر التي يصدرها إليه والده، والتي ظل ردحا طويلاً من الزمن يحسب أنها تمثل رغباته هو. إلا أن هذا الشعور الجديد، القوي أحياناً، والحاد، والمفعم بالحياة، مثل أي إحساس في جسد غولدموند، أيقظ كل ما لديه من تقوى فأخذ يصب، بتكرار صلوات عديدة لأم الرب المقدسة، باتجاه السماء كل ما يعتل فيه من انفعال راق نبيل، مما أعاد إليه ذكرى أمه. إلا أن العديد من تلك الصلوات كان ينتهي برؤية أحلام مستحوذة غريبة ملؤها الفرح والانتصار، هي أحلام يقظة للأحاسيس نصف الواعية، رؤى للمخلوقة التي لها في كل أحاسيسه نصيب، وبعد ذلك إذا بالعالم الأم يمتد حوله، بكل عطوره، ورغباته العارمة، تناديه الحياة بصوتها المبهم، وإذا به يرى عيني أمه الأعمق من البحر، السرمديتين كرياض الجنة، كهدهدة بكلمات بلا معنى، رقيقة. أو بحق مفعمة بكل ما في الأحاسيس من رقة: فيغدو مذاق الحياة حلواً ومالحاً على شفثتها، وينسدل شعر أمه الحريري حوله، يحف بلطف على فمه وعينييه المتلهفتين، ولم تكن أمه فقط مثال النقاء، ليس فقط ذروة في رقة الحب ووعدا صافيا نقيا، بالسعادة المستبشرة، وداخلها، في مكان ما تحت المغريات، اختبأ كل اصطخاب العالم وظلمته، كل طمع وخوف، وإثم، وحزن متذمر غاضب، وكل ولادة، والجنس البشري كله.

ويتوه ابنها في خضم هذه الأحلام، في النسيج المتشابك لأحاسيسه المتقدة بالحياة. وما عاد إلى الحياة في ذاكرته، كما السحر، كان أكثر من

الماضي الذي أحبه، وطفولته ورقة أمه، ولألاء فجر حياته: إنها تلك الأفكار الحليى بما هو آت من وعود وتهديدات، ومغريات وأخطار. كان أحياناً يستيقظ من رؤيا أمه في آن واحد على صورة العذراء وامرأة فاتنة، يملأه إحساس مروع بالذنب، وبأنه دنس المقدسات، وأهان الرب، وأنه موت لن يقوم منه ثانية. وفي أحيان أخرى يرى كل شيء متناغماً متحرراً. تمتد من حوله الحياة مملأى بأسرارها: حديقة سحرية تنمو فيها أشجار مسحورة، وأزهار أكبر من أي أزهار في العالم، وأغوار غامضة، عميقة. ومن بين الأعشاب تلمع عيون حيوانات مجهولة، وتنزلق أفاعي قوية، ملساء على الأغصان، من كل فرع فيها تتدلى عناقيد من ثمار لينة تتلألأ، حين يقطعها تنتفخ في يده، وتفرز نسغاً دافئاً لزجاً، مثل دم، أو تكون لها عيون، تنزلق بحركة مأكرة. ويميل على إحدى الأشجار ويتحسس جذعها، ويجذب غصنا إلى أسفل ليملي منه بصره، ويتلمس ما بين الغصن والسويق، ثمّة كثة من الشعر الشعث الكثيف، مثل شعر تحت إبط الإنسان. وذات مرة حلم أنه هو نفسه قديسه الشفيح، كريستوم المقدس^(١)، ذو اللسان الذهبي، الذي كان فمه من ذهب، تخرج منه كلمات من ذهب، وكانت الكلمات سرباً من العصافير الصغيرة، ترتفع وتخلق مبتعدة بمجموعات متلاثلة.

وذات مرة حلم أنه بلغ مبلغ الرجال، إلا أنه ظل يجلس على الأرض كالأطفال، ويأخذ الغضار ويعجنه شأن الأطفال، إلى أن يتخذ الغضار أشكالاً: حصاناً صغيراً، ثوراً، امرأة صغيرة. تشكيل الغضار هكذا كان يبهجه، وكان يزود رجاله ونساءه الصغار بأكبر أعضاء تناسلية أمكنه تشكيلها، لأن ذلك كان يبدو له، في الحلم عملاً بارعاً جداً. ثم مل من لعبته، فنهض وتركها، ثم شعر فجأة بشيء يقف خلفه، شيء ضخم لا يصدر صوتاً، فالتفت فإذا به يرى، وقد امتلأ رعباً وذهولاً عظيمين، ولكن أيضاً مع شيء من السرور من عمله، يرى أن رجاله ونساءه

(١) - جون كريستوم (٣٤٦-٤٠٧م) بطريك يوناني، أسقف القسطنطينية ما بين

(٣٩٨-٤٠٤م). يوم الاحتفال به هو ٧ كانون الثاني.

الصغار من الغضار قد أضحوا ضحاً ودبت الحياة فيهم. أخذت العمالقة الخرساء القوية تتقدم حتى تجاوزته، وهي تنمو وتنمو أثناء سيرها، وخرجت إلى العالم، شاهقة كالأبراج.

كان يحيا في عالم الحلم حياة أكثر واقعية من الواقع. ولم تعد المدرسة والفناء، والمنامة، والمكتبة، وكنيسة الدير، غير سطح الواقع، غشاء خارجي يرتعش، يكسو عالم صور الأحلام، الذي هو أعمق تكثيف للحياة. إن أي شيء تافه جذير بأن يمزق هذا الحجاب، رنين كلمة يونانية، وسط سياق درس مضجر، نفحة عطر تبعث من محفظة الأب آنسيلم، جامع العقاقير النباتية، المملوءة بالأعشاب، أو نظرة إلى كتلة الأوراق الخضراء المشابهة فوق أقواس إحدى النوافذ، مثل هذه الأشياء التافهة، يمكن أن تبدد الوهم المسمى الواقع، تفتتح تحت سلامه الرصين الأعماق المدوية، والسيول، وذرى العالم المرسوم في ذهنه المتوجة بالنجوم. وكان يمكن لحرف ابتدائي باللغة اللاتينية أن يحدد شكل عيني أمه المتقدتين، وأن تفتتح نغمة ممدودة في ترتيل السلام المريمي بوابة داخلية في الفردوس، ويغدو حرف اللغة اليونانية، حصانا خائباً، أو أفعى تزحف إلى أعلى منزلقة وهي تحتفي وتظهر بين الأزهار، إلى أن تغيب ويبقى هو يحرق إلى صفحة كتاب قواعد اللغة المضجرة.

لم يكن قط يخبر بهذا أحداً، ما عدا أنه كان بين الحين والآخر يُلمح لترسيس. وذات مرة قال له "أعتقد أن كأس زهرة أو دودة منزلقة صغيرة على درب في الحديقة تفصح عن أمور، وتخفي غيرها كثير، تفوق كثيراً ما تحتويه آلاف الكتب الموجودة في المكتبة العامة. يحدث كثيراً، وأنا أكتب حرفاً باليونانية، مثل ثيتا أو أوميغا، أن يكفي أن أحرف حركة قلمي، فيمتد شكل الحرف، ويتحول إلى سمكة، وأجدني في الحال، أسترسل في التفكير في كل الجدارل والأنهار في العالم، في كل ما هو رطب، وبارد، في الحر الذي كتبته هومر، في المياه التي سار عليها بطرس مقرباً من المسيح. أو قد يصبح الحرف عصفوراً، ينمو له ذيل، فينشر ريشه، ثم يندفع طائراً. حسن يا نرس، لا أعتقد أن مثل تلك الأحرف تثير فيك أي تفكير. أما أنا فأقول

لك ما يلي: إن الرب يكتب العالم بها".

قال نرسيس حزينا: "إنني أجلها أيما إجلال، إنها أحرف سحرية، ويمكنها أن تبعث أي حلم. ولكن، للأسف، لا يمكن الاستعانة بها في تعلم العلوم. إن الفكر يجب التعريفات، والأشكال الواضحة، ويحتاج إلى الثقة برموزه الدالة على الأشياء: إنه يجب ما هو كائن، وليس ما سيكون، لذا لا يحتمل أن يسمى حرف أوميغا أفعى أو حرف ثيتا عصفورا. والآن يا غولدموند، هل تؤمن بما قلته لك، بأن علينا أن لا نجعل منك قط عالماً؟".

"آه، نعم، لطالما اتفق غولدموند معه، ولطالما وطّن نفسه على ذلك".

قال ويكاد يضحك: "لم أعد آبه للسعي لتحصل علمك، الآن بات شعوري نحو كل علمك وذكائك هو نفسه ما كنت أحس به ذات يوم نحو والدي. كنت أعتقد أنني أحبه حبا جماً، وآمل أن أكون مثله، ووثقت بكلامه ثقة عمياء. لكن والدتي عادت، لتبين لي ما هو الحب الحقيقي، فتقلصت ذكرى والدي حتى التلاشي حين ظهرت صورتها. وهذا أزعجني، حتى درجة الكراهية. والآن أكاد أعتقد أن التعلم كله يشبه والدي، إنه موجه لكراهية أبي، وإنه لا ينطوي على أي حب، وهكذا بدأت أكرهه قليلاً".

على الرغم من أنه قال كل هذا مازحاً، إلا أنه لم يتمكن من رسم أية ابتسامة على وجه صديقه الحزين. تفحصه نرسيس بصمت، وكانت نظراته أشبه بالمداعبة. ثم قال:

"أنا أفهمك جيداً. الآن لم نعد بحاجة إلى الجدل: لقد وعيت، وبت ترى الفرق القائم بيننا، الفرق بين رجال يشبهون والدهم وأولئك الذين تحدد مصيرهم امرأة، إنه الفرق بين الروح والعقل. وأيضاً الآن سرعان ما ستدرك أن حياتك في الدير، وتوقك لتغدو راهباً ليس غير خطأ، أداة في يد والدك استخدمها ليزيل عنك ذكرى والدتك. أو ربما فقط كوسيلة للانتقام منها. أم أنك ما زلت تتوهم أن قدرك هو أن تبقى هنا لتمضي حياتك كلها؟".

تفكر غولدموند برهة، متفحصاً يدي صديقه النحلتين، الرقيقتين
البيضاوين، الناعمتين ولكن المصممتين. وكان يمكن لأي ناظر أن يميز
فيها يدي راهب.

رد بصوت بطيء مغرد "لا أدري". صوت كان قد بدا يستخدمه في
الكلام منذ بعض الوقت، صوت بدا كأنه يتوقف بعد كل مقطع لفظي.
"كيف أشرح لك؟ قد تصدر حكماً قاسياً قليلاً على والدي. لقد عرف
الكثير من الحزن. ولكنك قد تكون محقاً في هذه النقطة. لقد أمضيتُ
سنين كثيرة في هذا الدير، إلا أنه لم يأت قط لزيارتي. إنه يأمل مني أن
أمكث هنا إلى الأبد. ولعل من الأفضل لي لو أفعل هذا، ما دمت أنا
أيضاً قد تعودت دائماً أن أتمنى ذلك. لكنني اليوم لم أعد أعرف نفسي،
ولا أعرف ما هي رغباتي الحقيقية، وأمنياتي. في وقت من الأوقات كان
كل شيء يبدو سهلاً جداً، سهلاً لحفظ الأحرف في كتاب قواعد اللغة:
أما الآن فلم يعد أي شيء سهلاً، ولا حتى تلك الأحرف. لم أعد أعرف
ما هو مقدر لي، ولا أريد أن أفكر في الأمر الآن".

أجابه نرسييس: "ولا أنت بحاجة إلى ذلك. قريباً ستتضح الدرب
أمامك. وقد بدأت ذلك بإعادتك إلى أمك، وسوف تقربك منها أكثر
مما أنت الآن. أما بالنسبة لوالدك فإن حكمي عليه ليس قاسياً جداً. هل
تشعر برغبة في العودة إليه؟".

"لا، يا نرسييس، لا يجب أن أفعل ذلك، ولو شعرت باستطاعتي أن أفعل
ذلك، لفعلته، حالما أنهيت من المدرسة. أو حتى ربما الآن، ما دام لم يكن قط
في نيتي أن أغدو فقيهاً مثقفاً. لقد تعلمت ما يكفي من اللغة اليونانية ومن
اللاتينية ومن الرياضيات. لا، لا أريد أن أعود إلى والدي".

أخذ يحدق إلى الفراغ بلا هدف. ثم هتف فجأة:

"ولكن ما هذه الخدعة التي تستخدمها لإعادة استجوابي مراراً وتكراراً،
بكلمات تضيء عقلي، وتجعلني أستبطن دخيلتي؟ وها أنا فقط بسبب سؤالك

عما إذا أردت العودة إلى والدي أدرك أنني لا أريد. كيف تفعل ذلك؟ وكأنك على علم بكل شيء. لقد علمتني أشياء كثيرة عن صداقتنا لم أكن أعلم بها حين سمعتها، وفيما بعد صارت تبدو مفعمة بالمعنى وبالأهمية، أنت من قال لي أنني استمدت حياتي من والدي، وأنت أول من اكتشف أنني خاضع لسحر، وأني قد ضيعت ذكرى طفولتي. كيف توصلت إلى هذه الدرجة؟ هل يمكنني أن أتعلم منك هذا أيضاً؟".

ابتسم نرسييس وهز رأسه.

"لا، amice، هذا لا يمكنك أن تتعلمه مطلقاً، ثمة أناس في وسعهم تعلم أشياء كثيرة، لكنك لست منهم. لن تكون أبداً متلقياً للعلم. وما حاجتك إلى ذلك؟ لست بحاجة إليه. إنك تتمتع بمواهب أخرى، تفوق ما لدي: أنت أكثر ثراءً، وإن لم تكن قوياً مثلي، وحياتك ستكون أصفى من حياتي، وأقوى. غالباً لا ترغب في فهمي، وتعيد من جانب إلى آخر مثل مهر غر. والأمر لم يكن دائماً سهلاً، لا بد أنني أملك. لكنك كنت غافلاً، وكان يجب أن أنبهك. بل إنك كنت تتألم لجرّد تذكيرك بأمك، وكان الملك من الفداحة إلى درجة أنهم عثروا عليك ممدداً شبه ميت في الجزء الداخلي من الدير. وكان عليّ أن - لا، كفاك تمسيداً لشعري! لا، كفى أقول لك! لا أحتمل ذلك".

"إذن أنت تعتقد أنني لن أكون قط متلقياً للعلم! وسأظل طوال حياتي غيباً، كطفل".

"سيظل هناك أناس تتعلم منهم. لقد علمتك، أيها الطفل قدر استطاعتي، وقد انتهى الدرس الآن".

هتف غولدموند "أوه لا، لم نبلغ هذا المستوى من الصداقة بسبب ذلك. أي نوع من الصداقة تلك، التي تنتهي عند أول معلّم يصادفنا. هل طالت معرفتك بي بحيث بتّ أثير فيك الضجر؟ هل مللت صداقتي؟".

أخذ نرسييس يتمشى جيئةً وذهاباً بخطى سريعة، مطرق البصر، ثم توقف أمام صديقه.

همس له "دعني وشأني. أنت تعلم حق العلم أنك لا تثير ضجري".

وأخذ يحدق إليه وكأنما مرتاباً، ومن ثم عاد يتمشى جيئةً وذهاباً، وتوقف من جديد، وحدق إلى غولدموند، بعينين صارمتين تطلان من وجهه المتجهم. وبصوت كله تصميم، صاف ومنخفض قال: "اسمع يا غولدموند، لقد كانت صداقتنا صداقة جيدة، كان لها هدف معين، وقد بلغت، ومنذ الآن أنت مستيقظ من شبه غيبوبتك. ولكن الآن لم يعد لديك ما تنجزه. ما زالت أهدافك غير واضحة، ولم يعد بمقدوري أن أرشدك ولا أن أصحبك. اسأل أمك، اسأل خيالها، وانصت. إن أهدافي ليست مبهمة ونائية، إنها هنا من حولي في الدير، تتطلب جهوداً جديدة في كل ساعة. يمكنني أن أكون صديقاً لك، ولا يمكنني مطلقاً أن أحبك. أنا راهب، وقد أخذت عهداً بالالتزام أمام الرب. وقبل أن أقدم نذري الأخير سوف أطلب إعفائي من منصبى كمدرس، لأعتزل وأصوم وأكفر عن خطاياي. وخلال تلك الفترة يجب أن لا أنطق بكلمة واحدة، ولا حتى معك".

فهم غولدموند. أجاب بنبرة حزن :

"إذن فستفعل الآن ما كان يتوجب علي أن أفعله لو أنني انخرطت في سلك الرهبنة. ولكن بعد أن تنتهي فترة اعتزالك، وصومك، وسهرك، وصلاتك المقررة، ماذا تنوي بعد ذلك؟".
أجابه نرسييس "أنت تعرف".

"نعم، بعد بضع سنين ستصبح مدير المدرسة، وربما المشرف على نفقات المدرسة. سوف تحسن أسلوب التعليم، وسوف تضيف رقايع جديدة إلى المكتبة: وربما ستؤلف أنت نفسك كتباً. أليس كذلك؟ تهز رأسك نفيًا. ماذا ستفعل إذن؟".

ابتسم نرسييس ابتسامة حزينة "أتسألني ماذا سافعل في نهاية المطاف؟ من يدري؟ قد أموت وأنا مدير للمدرسة، أو رئيس للدير، أو أسقف. كله سواء. ولكن ما أهدف إليه هو ما يلي: أن أكون دائماً حيث أستطيع أن أخدم بشكل أفضل، حيث يجد مزاجي، ومواهي واجتهادي تربته الأجود ليعطي أينع ثماره. هذا هو هدي الوحيد في الحياة".

قال غولدموند "إنه هدف الراهب الأوحده. أليس هذا ما ترمي إليه".

قال نرسييس: "آه نعم، وهو هدف موضوعي تماماً. إن الراهب قديقضي حياته في تعلم اللغة العبرية، أو قد يكرس نفسه لوضع الحواشي على مؤلفات أرسطو، أو أن يزخرف كنيسة الدير، أو أن يغلق على نفسه ويجلس ليتأمل في الرب، أو مائة شيء وشيء آخر. لكن ولا واحد منها هو الهدف النهائي. وأنا لا رغبة لدي في مضاعفة ثروات الدير، ولا في إجراء الإصلاح على سلك الرهبنة، أو على الكنيسة. إن ما أريده هو أن أخدم الروح التي تسكنني، كما أفهم أو امرها ولا أكثر. فهل هذا يعتبر هدفاً".

تفكر غولدموند في كلامه، ثم قال :

"أنت على حق. هل وقفت كثيراً عائقاً في طريق تحقيقك له؟".

"عائقاً؟ أوه، يا غولدموند، لم يقدم إنسان يد العون لي أكثر مما فعلت أنت. إنك تضع صعوبات في طريقي، ولكنني لست من النوع الذي ينكص أمام الصعوبات. لقد تعلمت منها جميعاً، وبشكل ما تغلبت عليها".

قاطعته غولدموند بنبرة ساخرة :

"تغلبت عليها كلها. ولكن قل لي ألم تكن، بمساعدتك لي وإعادة ذاكرتي إليّ، وتحرير روحي، وبالتالي استعادتني لصحتي - ألم تكن بذلك بحق تخدم الروح؟ ألم تسلب الدير مبتدئاً مطيعاً متحمساً، ولعلك أوجدت عدواً للروح، يفعل ويشعر بشكل يناقض كل ما تعتبره مقدساً؟".

قال نرسييس بجدية رصينة: "ولم لا amice ؟ لا زالت معرفتك بي قليلة! صحيح أنني أفسدت داخلك راهباً واعداء، وفتحت مكانه درباً قد يقودك إلى مصير راق. ولكن حتى لو أنك أحرقت هذا الدير الجميل كله غداً وأحلتة أنقاضاً، أو بثت إشاعة فاضحة في كل أرجاء العالم، فلن أشعر ولو للحظة بندم لأنني ساعدتك في ذلك".

أحاط كتفي غولدموند بيدين وديتين :

"اسمع يا غولدموند الصغير، إن هذا أيضاً يشكل جزءاً من طموحي! وسواءً أصبحت مدرساً أو رئيس دير، كاهن اعتراف أو أي شيء آخر،

فلا أرغب قط في أن أكون من النوع الذي حين يصادفني رجل قوي، رجل ذو قدر عال ومقدرة حقيقية أجدني غير قادر على فهمه، وأجدني أضحيت عدواً له في قلبي، وغير قادر، إن أردت، على تعزيز أهدافه. وأقول لك ما يلي: قد يؤول بنا الحال أنت وأنا إلى هذا المال أوداك، وقد يقابلنا حسن الحظ أو سوءه، إلا أنك لن تفتقد مساعدتي لك، إذا طلبتها بصدق، وشعرت في قرارك بحاجة إلي، بما أن يدي لا يمكن أن ترفع ضدك مطلقاً".

كان لهذه الكلمات رنين الوداع، وقد كانت بحق نذيراً سبق افتراقهما. وبينما وقف غولدموند يرنو إلى صديقه، بوجهه الحازم وعينه اللتين تبدوان وكأنهما تتجاوزانه بنظريتهما، شعر، دون أدنى شك، أنهما الآن لم يعودا أحياناً ورفيقين، ولا صنوين: إن نمط حياتيهما قد باعد فيما بينهما للتو. وهذا الرجل الذي يواجهه ليس حالماً، ويعمل - كما عليه أن يفعل - على خدمة مبدأ خفي حول التذكير بالمصير: إنه راهب نقش اسمه على الرق الرسمي، متقبلاً واجباته الصارمة وقانونه، جندي يعمل لخدمة السلك الرهباني، والرب والكنيسة. أما الآن فإن غولدموند بات يعرف حق المعرفة أن لا مكان لأمثاله هنا: إنه بلا منزل، وعالم الجاهول ينتظره، وهكذا كان حال أمه: لقد غادرت المنزل والبلاط، الرجل والطفل، الصحة وكل الأوقات الجميلة، والنظام والترتيب، والمهابة، والواجب، لتنطلق في العالم المتقلب المتزاي، وفيه غرقت دون شك. لم يكن لها هدف محدد، مثله. الأهداف وضعت للآخرين، وليس له. آه، كم كان نرسييس دقيقاً في رؤية كل هذا، ومنذ زمن بعيد: كم كان محقاً.

بعيد هذا سرعان ما بدا أن نرسييس قد تلاشى من حياته، وكأنه اختفى فجأة. وتولى أستاذ آخر إعطاء دروسه، وظل مقرأه في المكتبة العامة خالياً. إلا أنه ظل يحوم في المكان، ولم يختف تماماً، فيرى أحياناً يمر بسرعة بين أرجاء الدير، وأحياناً أخرى يسمع صوته الهامس في مذبج جانبي، وهو راكع يصلي على بلاط الأرض. لقد لجأ إلى معتزله للوفاء

بقسمه النهائي، وكان معروفاً عنه أنه يحافظ بصرامة على صيامه، وينهض ثلاث مرات أثناء الليل ليؤدي الطقس الديني. كان ما يزال موجوداً، لكنه شبه غائب في عالم آخر، ويمكن رؤيته، وإن نادراً، ولكن لا يمكن الاتصال به. لم يكن بإمكانهما تبادل الحديث، وهكذا لم يعد بينهما أي شيء، وعلى الرغم من أن غولدموند كان متأكداً من أنه سيعود، وسيجلس من جديد إلى طاولته، إلى مكانه على مائدة الدير، سيسمع صوته ثانية في المدرسة، إلا أنه لن يعود قط كما كان. إن نرسييس لم يعد ينتمي إليه.

وهكذا، بينما هو يفكر بهذا، أخذ يتضح له أن نرسييس وحده جعله يحب الدير والرهبان، بدروسهم في قواعد اللغة والمنطق، ودرسهم، وفطنتهم. إن نرسييس هو الذي أضفى على كل هذا معناه: إن قدوة نرسييس جذبت انتباهه، أصبح هدفه أن يكون مثل نرسييس. صحيح أن رئيس الدير كان موجوداً، وأن غولدموند كان أيضاً يجله، لقد أحبه أيضاً، ورأى فيه قدوته، لكن الآخرين، المدرسين، ورفاقه من الطلاب، والمنامات، وأرجاء الدير، وقاعة الطعام، ودروس الأعراب وتمرينه، وخدمة الرب - أي كل ما يتصل بماريا برون - يبقى بلا معنى من غير نرسييس. لماذا لا يزال موجوداً هنا؟ إنه ينتظر تحت سقف هذا الدير وكأنه واق غير مؤكد من المطر، يحتمي تحت أية شجرة أو سقيفة، ضيف ما يزال يتوانى بسبب جفوة العالم.

منذ ذلك الحين وأيام غولدموند لم تعد أكثر من وداع متردد. وأخذ يسعى وراء كل الأشياء التي لها معنى بالنسبة إليه، كل ما بات يحبه في الدير، وبدأ يدرك، مذهولاً، مدى قلة الذين سيتركون لديه أي ألم لفراقهم من بين الوجوه المحيطة به. هناك نرسييس ورئيس الدير دانييل، والطبيب اللطيف، الطبيب الأب آنسيلم، ثم، ربما هناك أيضاً صديقه، الأخ الحمال، وربما الطحان، جارهم المرح. ولكن حتى هؤلاء لا يبدوون

حقيقتين تماماً. ومن الأصعب بما لا يقاس أن يقول وداعاً لتمثال العذراء الحجري الضخم في الكنيسة، وللرسل القائمين فوق قوس الممر. كان يقف طوال ساعة متواصلة ليتفحصهم، أو يتفحص النقش الدقيق، الجميل، لموقف الخورس، أو يحرق إلى نوافير الدير وإلى العامود بما يحمله من ثلاثة رؤوس الحيوانات، وفي الباحة كان يتكئ على أشجار الزيزفون والجوز. قريباً ستغدو كلها ذكرى، كتاب مصور صغير في قلبه. ومنذ الآن، وهم ما زالوا يحيطون به، بدأوا يتلاشون ببطء. سوف يرافق الأب آنسيلم، الذي يحب صحبته، لجمع العقاقير النباتية، أو يتجاذب أطراف الحديث مع العاملين في المطبخة الذين يدعونه أحياناً إلى علية المطبخة، لمشاركتهم وجبة من السمك المشوي، والنيبذ. إلا أن ذلك يبدو له منذ الآن غريباً، وشبه ذكرى. وهناك، في عتبة الكنيسة وصومعته، اتخذ نرسييس، الذي انسحب ليصوم ويصلي، حجم شبح، وبهذا الشكل أيضاً كان هذا الواقع يتبدد من حوله: كان كل شيء يزفر بأنفاس الخريف والماضي.

لم يبق الآن غير شيء واحد له قيمة: وجيب قلبه العنيف، لهفة رغبة ملحاح داخله، فرح ورعب أحلامه. إلى هذه بات الآن ينتمي، ولها عليه أن يستسلم، وبينما هو يجلس بين رفاق صفه، ويبدو عليه أنه يدرس، يغوص في أعماق ذاته، وينسى وجود رفاقه، ويفرق في تيار قلبه الهادر، ويسمح لدوامته أن تجرفه معها، إلى قاعها العميق الذي يرجع صدى موسيقى قائمة، إلى أعماق غامضة تضح بصخب وأحداث سحرية كلها تنادي عليه بأصوات أمه، ولها عيون تشبه عيني أمه.

الفصل السادس

ذات يوم استدعى الأب آنسيلم غولدموند إلى صيدليته، وهي عبارة عن غرفة صغيرة تعبق برائحة ذكية، وكان يشعر وهو فيها بالإلفة. وعرض عليه الرجل العجوز نبتة جافة، وضعت بعناية بين صفيحتين من ورق البرشمان، وسأله إن كان يعرف اسمها، وإن كان باستطاعته أن يصفها له. وهي تنمو هناك في الحقول. قال غولدموند نعم، يعرفها حق المعرفة، إن اسم النبات هو حشيشة يوحنا. وسئل أن يذكر كل خواصها، وبدأ الراهب العجوز راضياً عن إجاباته. ثم أمر الطالب أن يخرج بعد ظهيرة ذاك النهار ويجمع حزمة من تلك النباتات الطبية، وأعطاه وصفاً دقيقاً للأماكن التي تحب أن تزهر فيها. قال "سوف تحصل على نصف نهار من اللهو للتزويج عن أحزانك، ولا تخسر شيئاً بعنائك، ولا أظنك تعترض على ذلك. إن بعض الدرس مطلوب لمعرفة مواصفات الأعشاب معرفتك لكل كتب قواعد اللغة السخيفة خاصتك".

شكره غولدموند لاسناد هذه المهمة الممتعة إليه لقضاء بضع ساعات في قطف الزهور، بدل التملل على مقعد الدرس: ثم، وعلى أمل أن تكتمل المتعة، طلب أن يقترض حصانه "بليس" من الأخ السائس وبعد تناول وجبة

الغداء، أخرجه من مربطه. سهل له محبياً، فقفز إلى ظهره، وانطلق خاباً، في وجه النهار الصيفي الدافئ يملؤه الطرب. وتنقل هنا وهناك طوال ساعة من الزمن، يستنشق الهواء المنعش وعبير الحقول، وكان فرحه لا يقدر بامتطائه جواده. ثم تذكر مهمته الأصلية، فانبرى يفتش عن المكان الذي وصفه له الأب آنسيلم. وحين عثر عليه ربط فرسه في ظل شجرة قبقب، وراح يكلمه بعض الوقت، وأطعمه خبزاً، ومن ثم انطلق لجمع النباتات الطبية حيث يوجد شقق في الأرض المراحة، زرعت بكل نوع من أنواع الأعشاب ذات سويقات صغيرة حمراء فاتحة، ولا تزال عليها بتلاتها الأخيرة، الباهتة اللون، وارتفعت للتو العديد من قرنات البذور الناضجة بين البيقية الزاوية، والهندباء البرية، الزرقاء زرقة السماء، وعصا الراعي المنقطعة: وعطاءات خضراء اللون تجري رائحة عادية على كومة من الحجارة بين حقلين، وهناك، أيضاً، ارتفعت أول الأحجار الصفراء من عشبة يوحنا المزهرة، وبدأ غولدموند يقطف هذه الأخيرة.

بعد أن جمع ملء ذراع جلس ليستريح على كومة الحجارة. كان الجو حاراً. وأخذ ينظر باشتياق إلى الظل الأزرق الغامق، الذي يحدد الغابة النائية، مع أنه كان لا مانع لديه أن يتعد عن نباتاته وعن "بليس"، جواده، الذي كان لا يزال في استطاعته أن يراه من مكان جلوسه. لكنه ظل جالساً على كومة الحجارة، ساكناً تماماً، متمنياً أن يرى عطاءة تمر من أمامه، ويشم ما جمعه من حشيشة يوحنا، ويباعد ما بين بتلاتها الصغيرة ليدخلها ويرى المئات من الرؤوس المدببة في كل منها.

قال في نفسه "ما أروع أن يكون لكل ورقة من هذه الوريقات التي تعد بالآلاف سماء كاملة مرصعة بالنجوم لتختبئ فيها". كان كل شيء حوله من قبيل المعجزة واللغز، العطاءات، النباتات، الأحجار، كلها معاً! لقد استبد العجز بالأب آنسيلم، الذي كان يحبه حباً جماً، فلم يعد قادراً على الخروج لجمع الأوراق النباتية: سكن الألم الروماتيزمي ساقيه،

وباتت الآن تمر عليه أيام عديدة لا يأتي خلالها بأي حركة على الرغم من أن أياً من نباتاته الطبية لم يكن قادراً على شفائه، لعل أيامه باتت معدودة، وستظل أعشابه وهي في خزانته تبعث عبرها حتى بعد وفاة الأب آنسيلم. إلا أنه يمكن أن يعيش أيضاً سنين عديدة، عشر سنين أو عشرين سنة، وهو يحمل الشعر الأبيض الخفيف نفسه، والتجاعيد المشوشة نفسها تحت عينيه: ترى كيف سيكون عليه شكل غولدموند بعد عشرين سنة؟ آه، ما أصعب فهم أي شيء، وكم يثير من الشجن، على الرغم من جماله الشديد. في الحقيقة لا أحد يعرف أي شيء. الناس يعيشون، يمضون في مشارق الأرض ومغاربها ويتغلغلون في غاباتها، ثمة الكثير من التحدي والكثير من بشائر النجاح، والكثير من المشاهد التي تثير اشتياقنا: نجم مسائي، زهرة الجريس الأزرق، بحيرة نصف مغطاة بالقصب الأخضر، عيون الوحوش، وعيون بشرية، ودائماً يبدو وكأن حدثاً جديداً سيقع، شيئاً لم يشاهد من قبل لكنه يثير الشوق إليه، وكأن ستاراً سيزاح عن وجه العالم، إلى أن يخمد زخم الانفعال، ولا يبقى أي شيء، ويظل الغمز دون حل، والسحر الخفي محجوباً، بحيث أن الناس، في نهاية المطاف، يتقدمون في السن، ويصبح شكلهم مضحكاً، مثل الأب آنسيلم، أو حكيماً مثل رئيس الدير دانييل، على الرغم من أنهم قد يظلون في الحقيقة لا يعرفون أي شيء، يظلون ينتظرون، يرهفون أسماعهم.

التقط قوقعة حلزون فارغة، كانت قد تدحرجت واقعة، مع قرقعة، عن حجرة، وأضحت دافئة تماماً بفعل الشمس. أمعن النظر، وهو مستغرق في التفكير، في الخطوط الحلزونية المثلمة، وفي الالتواء الغريب للتاج الصغير، في المسكن الفارغ الهش، بإضاءاته اللؤلؤية. أغمض عينيه، ليتعرف عليه فقط بأصابعه، وتلك لعبة قديمة كثيراً ما يلعبها مع نفسه: حمل القوقعة برفن بين أصابعه وأخذ يلامسها بلطف مرة بعد مرة، دون أن يضغط عليها، مبتهجاً

بكل شكل يلسمه، بكل سحر الأشياء المادية. كان يرى أننا نحيل، بعقولنا، إلى رؤية كل شيء ونتفكر فيه، وكأنه مادة مسطحة، ليس لها غير طول وعرض. وبشكل ما شعر أن هذا يشير إلى غياب أي نوع من المعرفة ولا جدواها، إلا أنه لم يتمكن من الإمساك بفكرته، وتحديد لها. انزلت صدفه الحلو من بين أصابعه: أحس بنعاس شديد، ورغب في الإغفاء. مال رأسه إلى الأمام على نباتاته، فهبت نفحة قوية من عبرها، بما أنها أخذت تدبل، وهكذا أغفل تحت أشعة الشمس. احتشد النمل على حذائه، وحزمة الأعشاب الذابلة مستلقية على ركبته. وكان "بليس" يعض على شكيمته ويصهل وهو واقف تحت شجرة القيقب.

ثم أخذ أحدهم يقترّب قادماً من الغابة البعيدة، كانت قروية صبية، ترتدي ثوباً بلون الأزرق الفاتح الباهت. وتعصب شعرها الفاحم بمنديل قرمزي اللون، وقد لفحت شمس الصيف وجهها، وتومض بين شفيتها زهرة منشور حمراء، ثم توقفت لتتنظر إلى النائم، وأطالت وقوفها على مسافة منه، تنفح به، بفضول، وبكثير من الرية: ثم بعد أن اقتنعت من أنه مستغر، في النوم، اقتربت منه بحذر، على قدمين حافيتين. وزال عنها خوفها منه. هذا النائم الوسيم يهيج ناظرها، الآن لم يعد يبدو لها خطراً. كيف وصل إلى هنا إلى عمق الحقول؟ وفهمت، وهي تبتسم أنه إنما كان يقطف الأزهار، وأن أزهاره، قد نالها الذبول.

فتح غولدموند عينيه، عائداً من غابة من الأحلام. الآن بات رأسه مستنداً على وسادة وثيرة، هي حجر امرأة، وثمة عينان غريبتان، دافئتان وبنيتان، ترنوان إلى عينيه المتسائلتين الناعستين. لم يجفل، لا يوجد خطر، والنجمتان البنيتان الدافئتان تسطعان عليه. ابتسمت المرأة لاندھاشه، وفي ابتسامتها رأى رقة شديدة حتى أنه أخذ هو نفسه فجأة يبتسم. قربت فمها من شفيتها المزتين عن ابتسامه، وفي لمح البرق تلاقت شفاههما، وتذكر غولدموند من جايده تلك الليلة في القرية، وفكر في الخادمة

الصغيرة، وفي ضفيريها الفاحمتين. لكن قبلتها لم تكن قد انتهت بعد، ظل فمها مستقراً على فمه، يسكب حبه، يغريه يداعبه، إلى أن تضامت شفاههما أخيراً بقوة نهمة، مضرمة النار في دمه، ليجري مندفعاً في جسمه، بينما أخذت المرأة السمراء تعلمه بحركات خرساء صبور فن الحب، تاركة له أن يفتش عنها ويعثر عليها، تاركة حبها ليضطرم فيه ومن ثم أخلدته.

هذه النشوة الوجيزة الصافية ومضت برهة بينهما ثم انطفأت متوهجة كلهب ذهبي خاطف، ثم انطوت على نفسها، وخمدت. استلقيا معاً مغمضي العيون، وارتاح رأسه على صدر المرأة القروية. لم يتبادلا أية كلمة: لم تحرك عضلة في جسمها، واكتفت بمداعبة شعره، وتركته ليعود ببطء إلى وعيه. وأخيراً فتح عينيه.

قال: "أنت؟ من أين أتيت؟"

أجابته: "أنا ليزا".

كرر الاسم بعدها باستمتاع "ليزا، ليزا، أنت فائقة الجمال".

مالت بفمها على أذنه وقالت:

"ألم يسبق لك أن عشقت؟"

هز رأسه نفيًا. ثم اعتدل في جلسته وراح يحديق فيما حوله، عبر

الحقول وإلى السماء.

هتف: "أوه، كادت الشمس تغرب، يجب أن أعود".

"إلى أين؟"

"سأعود إلى الدير. إلى الأب آنسيلم".

"في ماريابرون؟ هناك تعيش؟ أوه، ابق معي قليلاً".

"ليت كان باستطاعتي".

"ابق إذن".

"لا، لا يجوز. والآن بات علي أن أقطف المزيد من هذه".

"ولكن هل أنت راهب من الدير؟".

"لا، ولكنني طالب، ولن أبقى هناك. هل أستطيع أن آتي إليك يا ليزا؟ أين تعيشين. أين منزلك؟".

"ليس لدي مكان معين، يا قلبي. ولكن أخبرني باسمك. إذن يطلقون عليك غولدموند. هات قبلة، يا ذا الفم الذهبي. وبعد ذلك تذهب".

"أليس لديك مكان معين؟ فأين تنامين إذن؟".

"إذا أحببت أنام معك في الغابة، أو على التبن. تعال هذه الليلة".

"أوه، نعم سأتي أين أجذك؟".

"أستطيع أن تنعب مثل بوم صغير؟".

"لم أجرب ذلك قط".

"حسن حاول الآن".

حاول فضحكت بسعادة.

"حسن، تعال إلي هذه الليلة، خارج الدير، إذن، وصح كبوم صغير، وسأكون بانتظارك. إذن، فقد أعجبك، يا ذا الفم الذهبي الوسيم؟".

"أوه، ليزا، نعم، أنت تعجبيني كثيراً. سأتي. ليحفظني الرب: يجب أن أذهب الآن".

نحب غولدموند على صهوة جواده اللاهث عائداً إلى الدير، وفرح لأنه وجد الأب آنسيلم منشغلاً جداً. فقد كان أحد الأخوة يخوض في جدول المطحنة، فجرح قدمه بحجر صوان كان فيه.

الآن يجب أن يبحث عن نرسييس. سأل عنه الأخ الخادم على مائدة العشاء في قاعة الطعام. قال الأخ، لا، إن نرسييس لا يرغب في تناول أي شيء على العشاء في ذاك المساء. لقد كان صائماً طوال النهار، ولا بد

أنه نائم، لأنه سيقوم ليتعبد آناء الليل. وحث غولدموند خطاه. إذن، فإن صديقه، خلال فترة توبته واعتزاله، كان يمضي ليلاليه في صوامع التائبين، في الجزء الداخلي من الدير. توجه إلى هناك، دون أن يحسب حساباً للقوانين، ووقف على باب صومعة نرسييس وأخذ ينصت. ولكنه لم يسمع أي صوت آت من الداخل. فدخل على أطراف أصابع قدميه. ولم يخطر بباله قط أن كل هذا محرم عليه تحريماً تاماً.

وهناك، على حشية قش ضيقة، كان نرسييس يستلقي، أشبه بجثة ممددة في العتمة، متبسة، على ظهره، ووجهه النحيل الممتقع اللون يواجه السقف. ويداه متشابكتين على صدره. لكنه لم يكن نائماً، فكانت عيناه مفتوحتين واسعاً. حذق إلى غولدموند، دون أن يفوه بكلمة، ليس بغضب، بل دون أن تظهر عليه أي دلالة على الحياة، وبدا منعزلاً تماماً عن الأمور الخارجية، وغارقاً في التأمل خلف الزمن. لقد كان يعاني آلاماً فلم يتعرف على صديقه، ولا فهم ما قاله له.

"نرسييس، نرسييس، ساحني لأنني أيقظتك. لكني أفعل هذا عبثاً. أعلم أنه ممنوع عليك أن تكلمني، ولكن أتوسل إليك أن تغفر لي هذا، وأجب".

اعتدل نرسييس، وطرف بعينه برهة دهشاً. وكان العودة إلى الحياة تكلفه جهداً كبيراً.

سأله بصوت ميت "أهذا ضروري؟".

"نعم، ضروري جداً. أنا هنا لأودعك".

"نعم، إذن فهو ضروري. لا يمكن أن تكون قد حضرت إلي إلا لأمر جلل. تعال الآن، واجلس بجاني. تكفي ربع ساعة، وبعدها تبدأ أول جولة من عبادة الليل".

جلس، خيلاً، ومضنى على لوح الخشب: واقترب غولدموند إلى جواره.

قال بصوت الآثم "ساحني". إن هذه الصومعة، وهذه الحشية القش، ووجه نرسييس المنهك من وطأة التركيز وقلة النوم، وعينيه شبه الغائبتين عن وعي العالم، كل هذا أنبأه بوضوح بأنه شخص مزعج.

"ليس هناك ما يستدعي الغفران. لا عليك مني. لا شيء ينقصني. تقول إنك أتيت تستأذني في الرحيل. إذن فسترحل عن الدير؟".
 "نعم، في هذا اليوم بالذات. آه، كيف اشرح لك الأمر؟ إن كل شيء قد تقرر فجأة".

"أجاء والدك؟ أم بعث برسول منه؟".

"لا، لا أحد. الحياة ذاتها جاءتني. سوف أغادر خلصة، دون إذن من رئيس الدير أو من والدي. سوف أفر من الدير، يا نرسييس وأجلب العار عليك".

أطرق نرسييس وحقق إلى أصابعه البيضاء، البارزة، نخيلة كالأشباح. من كم رداء الكهنوت الواسع لم ترتسم أي ابتسامة على وجهه المرهق، الصارم، لكن ما يشبه الابتسامة تبدت في نبرة صوته، وهو يجيب قائلاً:
 "amice، إن حياتنا قصيرة جداً. أخبرني بكل ما أريد معرفته. وليكن ذلك بأشد ما باستطاعتك من إيجاز ووضوح. أم هل أقول لك أنا ما حدث لك؟".

قال غولدموند متوسلاً "قل لي".

"أنت عاشق يا فتى، وقد تعرفت لتوك على امرأة".

"لا أدري كيف يتسنى لك دائماً أن تعرف ما يجري لي".

"الأمر سهل. إن وجهك وهيئتك، o amice، يفضحان كل ما يدل على الثمالة التي يسميها الناس والوقوع في الحب. ولكن أرجو أن تخبرني أنت بالأمر".

لمس غولدموند كتف صديقه بحركة تنم عن حياة.

"أنت الذي أخبرني. ومع ذلك ففي هذه المرة يا نرسييس لم تحسن

التعبير ولم تلتزم الدقة. إن هذا الأمر يختلف تماماً عن حالة الثمالة." لقد استلقيت هناك وسط الحقول، وأغفيت وعندما استيقظت كان رأسي مستنداً إلى ركبتي امرأة، جمالها من الروعة بحيث أحسست أن أُمي قد رجعت إلي، وأعادتي إلى رحمها. وهذا لا يعني أنني نظرت إلى هذه المرأة وكأنها أُمي. كانت عيناها ذواتا لون بني غامق، وشعرها فاحماً، أما شعر أُمي فكان ذهبياً كشعري، وكان وجهها مختلفاً اختلافاً تاماً. ومع ذلك كانت هي. نادت علي، وكانت تلك المرأة رسولتها، وقد أراحت رأسي على حجرها، وقبلته بنعومة وكأنه زهرة، وكانت رقيقة معي، شديدة الرقة حتى أن قبلتها الأولى جعلتني أشعر وكأن في داخلي شيئاً قد ذاب، إلى أن سرى في كل جسمي ألم رائع. وعاد كل اشتياق سبق أن أحسست به في حياتي، وكل الأسرار والمخاوف اللذيذة التي كانت هاججة داخلي، عادت إلى الحياة، وقد تغيرت وتجددت وأصبح لها معنى آخر. وخلال وقت قصير جعلتني أشعر أنني كبرت سنين كثيرة. الآن زادت معرفتي، أصبحت فجأة متأكداً من ذلك تماماً: من أنني الآن لم أعد أستطيع أن أعيش هنا، ولا حتى يوماً آخر في هذا الدير. سوف أهرب حالما يهبط الظلام."

أنصت لرئيس وهز رأسه.

قال: "لقد تكشف لك ذلك فجأة، ولكن هذا ما كنت أتوقعه دائماً سوف أفكر فيك كثيراً. وسأتوق إلى إعادتك، amice، هل أستطيع أن أقدم لك أي مساعدة؟".

"نعم، إن كان باستطاعتك، قل كلمة لصاحلي للأب الرئيس، حتى لا يصدر في حقّي حكمٌ مبرّم. أئتما الإثنين الوحيدان في الدار اللذان تهمني أفكارهما، ورأيهما السيد. أنت وهو".

"أعرف. أهذا كل شيء؟".

"نعم، ولكن سأطلب منك ما يلي: حين تفكر فيّ في وقت لاحق،

صلّ لأجلي. شكراً لك يا نرسيس...".
 "على ماذا يا غولدموند؟".

"على ما أبديته من صبر، وعلى صداقتك. وأيضاً على أنك أنصتَ إليّ اليوم، في حين أن كل ما هو خارجك يتسم بصعوبة بالغة. وشكراً لك، أيضاً، لأنك لم تحاول أن تعيقي".

و لم أفعل؟ أنت تعرف رأيي في كل هذا. ولكن إلى أين ستذهب يا عزيزي غولدموند؟ هل وضعت أمامك هدفاً، أيها الذهاب إلى امرأتك؟".

"نعم، سوف آخذها معي. لا هدف غيرها لي: أنها تتنقل، لا منزل لها، أو هذا ما تقوله، لعلها غجرية".

"فهمت. ولكن اسمع يا غولدموند: قد تكون طريقك معها قصيرة جداً. أعتقد أنه يجب ألا تثق بها ثقة عمياء. لعل لها زوجاً أو عشيرة. من يدري بأي وجه سيستقبلونك".

مال غولدموند أكثر على صديقه، وقال :

"أعرف كل هذا، وإن لم أقلب التفكير، حتى الآن، فيه. ولكن كما قلت لك، لا هدف لي آخر. إن هذه المرأة لا تمثل لي هدفاً، على الرغم من رقتها الشديدة ومعاملتها اللطيفة لي. وإذا كنت ذاهباً إليها فذلك ليس إكراماً لها، وإنما لأنه يتوجب علي ذلك، لأنه يناديني".

تنهد ثم صمت، جلسا متلاصقين، حزينين، ولكن سعيدان بمعرفتهما أن صداقتهما لن تنتهي قط. وعاد غولدموند إلى الكلام فقال :

"لا تنظر إلي وكأنني أعمى تماماً ومتهور. أنا سعيد بذهابي لأنني متأكد من أنني لا أستطيع أن أبقى، لأنني اليوم رأيت معجزة، لكني لا أخدع نفسي، أو أتخيل أن الحياة خارج هذه الأسوار ستكون كلها سرور ومتعة. أستطيع أن أشعر أن طريقي ستكون شاقة، ولكن سواء أكانت شاقة أم هينة، فأمل أن تكون جميلة. رائع جداً أن أعشق امرأة

وأعرفها، وأمنحها الحب. لا تضحك مني إذا بدا لك ما أقوله من قبيل الجنون. ولكن قل لي ما يلي: أن أحب امرأة، وأدللها بحبي، وأضفر جسدي مع جسدها، وأشعر أن نفسي ملكها - أي كل ما تسميه "حالة حب"، الشيء الذي يبدو أنك تزدريه قليلاً - ما الداعي إلى ازدرائه؟ إنه بالنسبة لي دربي إلى قلب الحياة".

"آه، نرسييس، يجب أن أتركك الآن. أنا أحبك، يا نرسييس، وأشكرك شكراً جزيلاً لتخليك عن النوم اليوم إكراماً لي. صعب علي كثيراً أن أودعك. هل ستسنانني؟"

"لا تحزن من أجل هذا، أو تحزني يا غولدموند. لن أنساك أبداً. سوف تعود إلي. سأصلي كي تعود، وسأكون بانتظارك. وإذا ما وجدت في أي وقت أن الظروف تقسو عليك، تعال إلي، أو إرسل من طرفك رسولاً. سدد الرب خطاك وحفظك، يا صديقي".

ونهب واقفاً. عانقه غولدموند. لم يتبادلا القبل، كان يعرف أن صديقه ينفر من أي مداعبة، إلا أنه مسد على يده.

اكفهرت الظلمة. أوصد نرسييس باب صومعته خلفه، وسار قاطعاً الدير قاصداً الكنيسة، وصنّده يقرقع على بلاط الأرضية. راقب غولدموند بعينين مفعمتين بالحب، القامة النحيلة تبتعد عنه ثم تغيب داخل إحدى انعطافات الرواق، تبتلعها ظلمة الكنيسة الفاعرة الفم. ما أشد اضطراب كل شيء، وروعته وعصيانه على الفهم. ثم هذا أيضاً، كم هو مرعب وغريب: أن يأتي صديقه في مثل هذا الوقت، وهو منهك حتى شفا الموت من طوال الصيام وعمق التأمل، ليسمر أحاسيسه إلى صليب، مطأطأ الرأس رضوخاً لقانون الطاعة الصارم، مصمماً على أن لا يخدم إلا الروح، مقدماً جسده أضحية على مذبحه، وأصبح ¹ minister

^(١) تعني: راهب الكلمة المقدسة

verbi divini قلباً وقالباً. يتمدد هناك كجثة هامدة، شبه ميت من فرط الإرهاق، أبيض الوجه، نحيل اليدين شاحبهما، ومع ذلك مستعد أن يولي تعاطفه المتفهم، الصافي للصديق الذي لا يزال يعلق بجسده، وشعره عير امرأة. بل ومستعد للتضحية بفترة الراحة الوحيزة التي تفصل ما بين صلوات التوبة، ليستمع إلى أمنياته. ما أروع أن يوجد في العالم مثل ذاك الحب! الحب المملوء روحانية وفرحاً منزها عن الأنانية. ما أشد اختلاف ذاك الحب عن حب اللحم والدم المغمور بأشعة الشمس، الثمل، والمتهور. ومع ذلك فكلاهما حب. أواه، الآن غاب نرسييس عنه، بعد أن بين له مرة أخرى، وبوضوح تام، خلال الساعة الأخيرة التي أمضيهاها معاً، مدى تباعد البون بين طبيعتهما. والآن سيركع نرسييس أمام المذبح على ركبتين متألمتين، تلبية لنداء يدعوه ليقوم آناء الليل ويتعبد ولا يسمح له بالنوم إلا ساعتين، أما هو، غولدموند فسيستل هارباً ويقابل ليزا في مكان ما تحت الأشجار، ليمارسا معاً من جديد لعبة الحيوانات الممتعة. ولو كان نرسييس لقال في ذلك كلاماً فذاً. ولكنه ليس نرسييساً. إنه ليس مؤهلاً لحل الألغاز الصعبة المعسولة، بكلام فذ يشرحها: كل ما في استطاعته أن يفعله هو أن يسير في دربه المجنون بوصفه غولدموند، دون أن يعرف إلى أين سيوصله، كل ما كان في وسعه أن يفعله هو أن يستسلم لقدره، وأن يحب صديقه المكرس للصلاة في الكنيسة المعتمة حباً لا يقل عن حبه للدفع الرقيق ليزا التي تنتظره.

أما الآن، وألف اشتياق تتصارع في قلبه، وهو يتسلل من تحت أشجار الدير، ويرتقي المطحنة ليهرب منها، لم يسعه إلا أن يتسسم لدى تذكره فجأة تلك الليلة قبل وقت طويل، وكان مع كونراد، حين استخدمنا هذا الممر السري ذاته للهروب من الدير، متسللين معاً "إلى القرية". كم كان خائفاً على الرغم من كل الإثارة، وهما يزحفان، واحداً إثر آخر، من خلال الفتحة الصغيرة! والآن سيمر خارجاً منها إلى الأبد،

إلى دروب خطيرة، أكثر خطراً عليه بكثير، إلا أنه الآن لا يشعر بأي خوف، ولا يحسب أي حساب لرئيس الدير، ونسي الأخ الحمال، والمدرسين.

هذه المرة لم تكن هناك ألواح خشب في المطحنة، لذا كان عليه أن يعبر دون جسر. فتجرد من ملابسه، ورمى ثيابه إلى الضفة الأخرى، ونزل إلى جدول المطحنة المدموم، البارد العميق، حتى صدره في المياه الثلجة. وعندما عاد فارتدى ملابسه رجعت أفكاره إلى نرسييس. عندئذ شعر بجحش شديد، وأدرك بوضوح، في تلك اللحظة، أنه لم يفعل إلا ما قاده الآخر إلى فعله وتبأ له به. عاد إلى ذاكرته ذاك النرسييس الحاذق، الساحر، بوضوح تام، ذاك المفكر الذي تلفظ أمامه بكثير من الحماقات، الصديق الذي فتح له عينيه على ثمن مثل هذا الألم الحاد في ساعة مصيرية. كاد يسمع من جديد بعض الأقوال التي أدلى بها له صديقه نرسييس، وكأنه يلقيها أمامه: "أنت تنام على صدر أمك، وأنا أرسل ناظري إلى الصحراء". "أحلامك كلها تدور حول الفتيات، وأحلامي عن الفتیان".

شعر برهة من الزمن أن قلبه قد تجمد، وقف وسط الليل، وحيداً، يملؤه الخوف: خلفه الدير، المنزل الزائف، ولكنه أحبه ومكث فيه طويلاً.

ولكن مع الخوف انتابه إحساس آخر: إن نرسييس منذ الآن وإلى الأبد، لم يعد متقدمه ومرشده، الصديق الذي يستخدم عينيه بالنيابة عنه. واليوم يشعر أنه ضل الطريق إلى بلد وعليه أن يعثر فيه على طريق وحده، ولا وجود لنرسييس ليرشده. وفرح لإدراكه أنه يعرف هذا: كان يخجله ويدخل الاضطراب إلى قلبه أن يعود بفكره إلى أيام دراسته. الآن اتضحت الرؤيا أمامه، لم يعد تلميذاً ولا طفلاً.

جميل أن يعرف: ومع ذلك، ما أصعب الرحيل. ما أصعب أن يتذكر نرسييس، وهو راكع هناك على ركبتيه في الكنيسة المعتمة أن لا يبقى

لديه ما يمنحه إياه، أن لا يكون قادراً على مساعدته، وأن لا يعني له أي شيء. أن يغادره لفترة طويلة، وربما إلى الأبد، أن لا يتحسسه بعد الآن، أو يسمع صوته، أو ينظر في عينيه الجميلتين الصافيتين.

انطلق، وطرق الدرب المحصاة. وعلى مبعده مائة خطوة عن الدير توقف، أخذ شهيقاً، ثم أطلق صرخة تشبه إلى حد بعيد صرخة بوم. فأجابه صراخ بوم آخر، قادماً من جهة الجدول، عن بعد.

وخطر له أن يقول "إننا ننادي على بعضنا كما تفعل بقية الحيوانات". وتذكر ما دار بينهما من حب في مساء ذلك اليوم. عندئذ فقط تذكر بجلاء كم كانت قليلة الكلمات التي تبادلاها، كيف أنه لا هو ولا ليزا خطر لهما أن يتكلما إلا بعد أن فرغا من الحب. حتى بعدئذ كانت كلماتهما سريعة وغير ذات أهمية.

ما كان أطول أحاديثه مع نرسييس! أما الآن، فيبدو أنه قد ولج عالماً لا قيمة فيه للكلمات، حيث التخاطب بصرخات الطيور، ولا كلام. كان مستعداً لهذا، ما دام منذ اليوم لم تعد به حاجة إلى الكلام أو إلى الأفكار، هو محتاج فقط إلى ليزا، إلى مداعباتها المشيرة دون كلام، إلى شهوتها وإشباعها المتلهف.

كانت ليزا قد وصلت باكراً، واقتربت نحوه قادمة من الغابة. فمد كلتا ذراعيه ليلمسها، ومسد على رأسها يديين حانيتين، رقيقتين، وشعرها، ونحرها، وكتفيها، وجسدها البض النحيل حتى وركيها. انزلقت ذراعه ملتفة حول خصرها، ومضيا معاً دون أن ينطقا كلمة واحدة، ولا هو فكر في أن يسألها إلى أين تقوده. كانت خطواتها وثقة، متقدمة داخل الغابة، وكان يواجه بعض الصعوبة في مجاراتها، وبدت كأن عينيها تريان الظلام، مثل عيني الدلق أو الثعلب، وواصلت طريقها دون أن تتعثر مرة واحدة أو أن تضرب رأسها في الأغصان الخفية. تركها تقوده إلى الجزء الأكثف من الغابة، خلال الليل، إلى أماكن سرية،

مسدودة دون كلام، في أرض خالية من الأفكار. لقد غفت أفكاره كلها، حتى الأفكار التي تدور حول بيته، والدير، وتفكيره في نرسيس.

وإصلاً تقدمهما دون أن يتبادلا كلمة واحدة داخل الغابة المظلمة، عبر الطحالب ذات النمو الرقيق وكتل الجذور القاسية. أحياناً، من بين قمتي شجرتين باسقتين غير كثيفتين كانت تومض بقعة نائية من السماء بضياء شاحب، ثم يعود الظلام دامساً. كانت الأغصان تضرب وجنتيه، والعليق يعلق على ملابسه، ويعيق تقدمه. وكانت هي، في كل مكان، تعرف وجهتها دون أن ترتكب أي خطأ، دون أن تفقد أثرها، ونادراً ما توقفت، نادراً ما تخلفت. وبعد طول مسير خرجا إلى ساحة مكشوفة، فامتدت سماء باهتة أمامهما وحولهما تظلل أشجار صنوبر تفصل بين مساحات كبيرة، وامتد واد مكسو بالمروج. وخاضا في جدول ماء صغير يجري بصمت. هنا في هذا المكان المكشوف ساد هدوء أعمق مما كان داخل الغابة: فلا خشخشة بين الشجيرات، ولا حيوانات تجري مسرعة أو طيور تصرخ لتعكر صفو الليل، ولا فروع تتكسر، وتوقفت ليزا بالقرب من كومة قش.

قالت: "سنمكث هنا".

استقرا معاً على التبن، في أول الأمر سعدا بجلوسهما، جنباً إلى جنب ليستريحاً، وتمددا على طولهما ينصتان إلى صوت الصمت، وقد نال جسديهما قدر من التعب، يشعران بالعرق يحف ببطء على جبينيهما، وبالبرودة على وجنتيهما. جثم غولدموند سعيداً بإرهاقه، ثم قوس ركبتيه على سبيل الهزل، وعاد فمدد ساقيه، مستنشقاً أنفاس الليل، وعبق التبن، بدفعات طويلة عميقة، لا يفكر في ماضٍ أو مستقبل. ولم يترك نفسه تنغمس في الحب إلا على مراحل بطيئة بتأثير من دفء حبيته الساحر وعبرها، بالرد، قليلاً، قليلاً، على ملامسات يديها بمداعبات منه، سعيداً لأنها هي أيضاً بدأت تتنشي، وتلوى مقتربة منه، لا، لا حاجة هنا إلى اللجوء إلى

الكلام والأفكار، كان يدرك بوضوح ما يلزم للحصول على هذه البهجة، إنه النسخ الشاب الذي يسري في جسده، وجمال الحسنة الرقيق، الصافي، ودفعها الممتع ونهمها المثبت، ومعرفته على الفور أنها تطلب منه أسلوباً آخر في الحب مغايراً لما عرضته عليه في وضوح النهار، إنها الآن لن تعلمه ولن تغويه، بل ستظل مستلقية مشدودة الأعصاب، بانتظار أن تتلقى انقضاضه ورغباته المشبوبة. استلقى هادئاً، وترك دفق اشتياقها الجنسي يتغلغل في جسده، وتزايد اللهب الصغير برقة، وإثارة، ليغدو حياة راقصة فيهما معاً، محولاً مكان نوم العجر إلى قبة من البهاء المتوهج بقوة، منتشرة لتشمل الليل الواسع الصامت كله. وحين مال فوق وجه ليزا وهم بتقيل شفيتها في الظلام، رأى فجأة وميضاً شاحباً ضائعاً يحيط بعينيها وجبينها: توقف متسائلاً، إلى أن تكثف التوهج الخفيف بسرعة. ثم فهم، والتفت. كان القمر المتسلل قد تسنم كبد السماء المفتوحة فوق فرج الغابة، الطويلة، السوداء المنتشرة وأخذ يراقب الضوء الشاحب يزداد متدفقاً برفق، هبوطاً عبر جبينها ووجنتيها، فوق نحرها الدافئ المدور، وهمس معبراً عن بهجته في أذنها: "آه - ما أجملك!"

ابتسمت، وكأنها تمنحه هبة: ارتفع معتمداً على مرفقه. راح يزبح عنها بلطف ثوبها، ويساعدها في طرحه جانباً، ويزيل عنها قشرتها إلى أن كشف عن صدرها وكتفيها فسطعت وسط الليل الرقيق، البارد. وواصل، كابحاً افتتاحه، تتبّع الطيف الشفاف بعينه، وشفته على امتداد جسدها، يقبلها، ويتأملها. كانت مستلقية كالميتة، كالمسحورة، عيناها مغمضتان، وعلى وجهها سيماء التهذيب البالغ، وكأن جمالها في تلك اللحظة كان قد انكشف، حتى بالنسبة لها للمرة الأولى.

الفصل السابع

بينما ضوء القمر يتسلل ممتداً على الحقول، ويعلو أكثر فأكثر، ساعة بعد ساعة، كان العاشقان يستلقيان معاً على سريرهما النفيس، غائبان في متعهما، يستيقظان ويغفوان، وحين يستيقظان، يلتفت كل منهما نحو الآخر، ليضربا من جديد النار بينهما، وليندجا ليغدوا شخصاً واحداً، ثم يعودان إلى النوم من جديد. وبعد أن انتهيا من عنقاتهما الأخيرة، همدا مرهقين، ليزا بوجهها مدفوناً في التبن، وغولدموند ممدداً على ظهره، يرنو عالياً إلى درب التبانة. وانتفض داخل كل منهما حزن عميق، أشاحا بوجهيهما عنه لائذين بالنوم. وحين أفاقا رأى غولدموند ليزا مشغولة بترتيب شعرها الطويل، فتابعها برهة من خلال عيني ناعستين. أخيراً قال: "استيقظت منذ الآن؟".

التفتت إليه بحفلة، وكأنه فاجأها وأفزعها، وقالت وفي صوتها المنخفض نبرة من إحساس قليل بالذنب "يجب أن أتركك الآن. لم أقصد أن أوقظك".

"لكني استيقظت الآن، أعلينا أن نرحل على الفور إذن؟ ليس لدينا منزل".

قالت ليزا "نعم، نعم، لدينا. أنت قدمت من الدير".
 "لن أعود إلى الدير مطلقاً. أنا مثلك، أنا وحيد ولا مأوى لي. طبعاً
 سأتي معك".

أشاحت بوجهها عنه.

"غولدموند. لا يمكنك أن تأتي معي. يجب أن أذهب إلى زوجي.
 سوف يضربني لأنني غبت طوال الليل. سوف أخبره أنني ضللت طريقي،
 وطبعاً لن يصدقني مطلقاً".

هنا تذكر غولدموند كيف تنبأ نرسيس بهذا. وها قد تحقق.

نهض واقفاً ومد لها يده.

"لقد ارتكبت خطأ، ظننت أننا يجب أن نبقى معاً إلى الأبد. ولكن هل
 تعمدت أن تتركيني نائماً لترحلي دون مزيد من الكلام؟".

"أوه، حسبت أنك ستسيء الفهم، وإنك ربما ضربتني. إن زوجي
 يضربني، ولكن هذا من حقه، وفق القانون. ولم أرد أن تضربني".

ظل قابضاً على يدها.

قال: "ليزا، لن أضربك أبداً. لا اليوم، ولا في أي وقت آخر. ألا تفضلين
 أن تأتي معي على أن تعودتي إلى زوجك الذي يضربك؟".

أفلتت منه وابتعدت.

صرخت بصوت منتحب "لا، لا، لا!". ولما كان يشعر في سريره أنها
 تكافح كي تبتعد عنه، وأن ضرب زوجها لها أحلى عندها من كلماته
 العذبة، حرر يدها، وطفقت تبكي. إلا أنها وهي تبكي كانت تركض.
 هربت منه وهي تضع يدها على عينيها المخضلتين ولم يصف أية كلمة
 أخرى، وتابعها وهي تبتعد. وأشفق عليها في نفسه، وهو يراها تعدو عبر
 المروج المجزوة حديثاً تبعدها عنه قوة ماء، مبهولة تناديها، وبجرد إحساسه
 بهذا ألحبت تفكيره. أشفق عليها، وأيضاً أشفق على نفسه، قليلاً: يبدو أن
 حظله قد خانته هذه المرة، جلس وحده، يشعر أنه مهجور، حزينا مهزوماً.
 لكنه كان ما يزال مرهقاً ويتوق إلى النوم. ولم يكن قد شعر قط بمثل ذلك

الإرهاق. لاحقاً سيتاح له الوقت للحزن: وأغمضت عيناه من تلقاء نفسها، ولم ينهض إلا بعد أن ارتفعت الشمس إلى سمت السماء، وأشرق عليه وأيقظته.

الآن بعد أن نال كفايته من الراحة، قفز ناهضاً وهرع إلى الجدول، فاغتسل وشرب. ثم بدأت الذكريات تتوافد عليه، على شكل صور أشبه بأزهار من أرض غريبة، أعادته إلى حديقة الليل البهيجة، إلى أحاسيس الرقة والجمال. فتبعها واقتفى أثرها وهو يقطع الحقول على غير هدى: استعاد كل متعة أحس بها، لمسها مرة بعد مرة واستمتع بها. كم من حلم أثارت فيه هذه السمراء الجميلة، كم برعماً أزهى على يديها، كم رغبة قلقة بعثت لديه، كم أيقظت فيه من أشياء.

امتدت أمامه غابة وأرض بور، أرض مراحة وغابة قائمة اللون، وبعدها كانت الطواحين، والقلاع، والقرى، ومن ثم بلدة مسورة. الآن بات العالم أخيراً مفتوحاً أمامه، جاهزاً لأخذه بين أحضانه، لمنحه نصيبه من المتعة والالم: لم يعد تلميذ مدرسة، يحدق إلى العالم من خلال نوافذ ضيقة، ودربه ليست نزهة صيفية نهايتها عودة ثانية. إن الأرض الشاسعة هي واقعه، وهو جزء منها، وفيها يكمن قدره، وسماؤها سماؤه، وتقلبات حالها من تقلباته. إنه كيان صغير في عالم واسع، يجري في الحقول كأرنب بري، ينطلق مسرعاً في طريقه عبر أهدية خضراء وزرقاء، كدودة بيضاء، ولا وجود لجرس ليجره خارج سريره، ويرسله إلى الكنيسة والمدرسة ولتناول الطعام. كم هو جائع! نصف رغيف من خبز الشعير، وطاس من الحليب، وطبق من الحساء - يا للذكريات الساحرة! بطنه تعوي كالذئب. ثم وصل إلى حقل مزروع بالذرة الصفراء، تنتصب نصف ناضجة: أخذ يقشر الكيزان بأسنانه وأصابعه، ويقضم الحبوب الصغيرة اللامعة بتلذذ، جمع المزيد، المزيد من كيزان الذرة، وحشا بها كل جيوبه. ثم عثر على ثمار بندق، ماتزال خضراء كثيراً، كسر قشورها باستمتاع، ومنها أيضاً جمع.

مرة أخرى دخل منطقة حراجية: من أشجار الصنوبر، مع بعض أشجار السنديان والدردار هنا وهناك، وهنا وهناك عثر على الكثير من

عنب الأحرار، ثم توقف، وجلس ليرتاح. رأى أزهار الجريس الزرقاء تنمو وسط تجمعات خشنة هزيلة من عشب الغابة، وررفت فراشات بنية مشرقة مارة به، ومن ثم اختفت في طيران مشتت. في مثل هذه الغابة عاشت القديسة جنيفيف، التي كان يحب النظر إلى وجهها. كم كان يود لو يتحدث معها. لعل هنا في الغابة ثمة ملاذ، حيث يقبع راهب عجوز مسدل اللحية في تجويف بين الصخور أو في كوخ مضفور من أغصان النبات. وقد توجد مراقد على الفحم في هذه الغابة، ومع هؤلاء القوم يسره أن يقضي وقته. قد يكونون من اللصوص، ومع ذلك فلن يؤذوه. كان يسره أن يقابل أناساً، من أي نوع كانوا. لكنه كان يعرف أن سيره على غير هدى في هذه الغابة سيطول - اليوم، غداً وأياماً عديدة قادمة، دون أن يقابل أحداً. يمكنه أيضاً أن يقبل هذا، إن كان هو قدره. إن المغالاة في التفكير أمر سيء، ومن الأسهل تقبل الأشياء حسبما تتوارد. سمع طائر نقار الخشب ينقر وحاول أن يلاحقه خلسة. حاول طويلاً، وعبثاً أن يعثر عليه ببصره، وأخيراً نجح، وجلس هناك القرفصاء برهة يراقبه وهو يثقب الشجرة التي يقف عليها ويدقها في عزلة، يحرك رأسه المشغول متباهياً هذه الجهة وتلك. لماذا لا يملك لغة ليستخدمها في التخاطب مع الحيوانات؟ كان سيسره أن يحكي نقار الخشب هذا، ويقضي معه سحابة النهار، ويسمعه يتحدث عن عمله بين الأشجار، عن حياته وأصدقائه. آه، ليت في وسع الإنسان أن يغير شكله! إنه يذكر كيف كان يحفر أشكالا، في أوقات فراغه، على الخشب مستخدماً قلم السمّة، لأوراق شجر وأزهار، وأشجار، وحيوانات، ولرؤوس بشرية، وكثيراً ما كان يمارس هذه اللعبة على نفسه فيعمل، مقتفياً في ذلك قليلاً أسلوب الرب سبحانه، على تكوين مخلوقاته حسب هواه، مضيفاً على كأس الزهرة عينين وفماً، محولاً الأوراق الخضراء الناتئة في غصن إلى أصابع بشرية، أو يثبت رأس إنسان على قمة شجرة. هذه اللعبة كانت

تشيع فيه البهجة على مدى ساعات، وهو يرسم خطأً ويترك نفسه على سحيتها ليفاجأ حين يتشكل له ورقة خضراء أو رأس سمكة، ذيل ثعلب أو حاجباً في وجهه. الآن بات بإمكانه أن يجوب العالم، كما قال لنفسه، بالسهولة نفسها التي كانت تتحول بها خطوطه التي يرسمها عابثاً إلى أشكال. تمنى غولدموند لو يغدو طائر نقار خشب، ولو ليوم واحد ربما، أو لشهر، ويعيش متسناً قمم الأشجار، محمواً فوق ذرى الجذوع الملساء. ينقرها بمنقاره الحاد القوي، ويتوازن عليها مستعيناً بريش ذيله. لكان تكلم بلسان نقار خشب ونبش الطييات من لحاء الأشجار. ورن وقع ضرب المنقار عذباً في أذنه.

قابل غولدموند حيوانات عديدة وهو يشق طريقه داخل الغابة، قابل الكثير من الأرناب البرية تنطلق بسرعة كالسهم خارجة من بين نبات السرخس لدى اقترابه منها، بيضاء اللون تحت أذيالها الصغيرة. ومرة، في فسحة صغيرة، صادف أفعى طويلة ملتفة، لكنها لم تنزلق مبتعدة، فلم تكن أفعى حية، كانت مجرد جلد خاو، تناوله وأخذ يتفحصه. كان مغطى بكامله بزخارف جميلة، بنية اللون وخضراء، وبرزت الشمس، فإذا بالجلد هش كنسيج العنكبوت. شاهد طيور الجنبلة بمناقيرها الصفراء، تحديقاً إليه من خلال عيون صغيرة خائفة، سوداء، مدورة، ثم تطفر منطلقة أسراباً، قرية من الأرض. وكانت هناك طيور أبو الحناء، والدوري، وفي مكان ما من الغابة كانت هناك بركة ماء، مستنقع عميق آسن، مياهه غليظة مخضوضرة، تعج فوقها عناكب مسرعة بانشغال ومثابرة، يلاحق بعضها بعضاً كالمنسوسة، منهمكة بنشاط غامض، يحوم فوقها يعسوبان ينطلقان إلى هنا وهناك بأجنحة زرقاء غامقة.

ومرة، بعد هبوط الليل، شاهد شيئاً - أو ربما لم يكن ثمة أي شيء، وإنما كان مجرد حركة سريعة واهتزاز بين الشجيرات القصيرة، سمع صوت تكسير أماليد، وصوتاً مكتوماً لزجة تحفر، ورأى حيواناً ضخماً، لا تكاد تبدو ملامحه، ينخر بين الأوراق الخضراء ويندفع بعنف، لعله أيل، لعله خنزير

بري، لم يكن متأكداً. توقف فترة طويلة، يلهث من الخوف، وأذناه منتصبان من الرعب، ينصت لضرب القدمين المسرعتين المكتوم، وبعد أن عاد كل شيء إلى هدوئه، ظل ساكناً مشدود الأعصاب، وقلبه يخفق بقوة.

لم يتمكن من العثور على سبيل للخروج من الغابة، فكان عليه أن يمضي الليل فيها. وبينما هو يبحث عن مكان يأوي إليه، ويجمع كومة من الطحالب ليصنع سريراً، حاول أن يتصور حاله إذا لم يتمكن من إيجاد مخرج من الأدغال، واضطر إلى العيش فيها، إلى الأبد. ورأى أن ذلك سيكون أمراً فظيلاً. وأخيراً أخذ يعتاد على العيش على أكل ثمار العليق، بوسعه أن ينام على كومة من الطحالب إذا أراد، ولا شك في أنه سينجح قريباً في بناء كوخ، أو ربما، أيضاً، أن يضرم ناراً. أما البقاء وحيداً إلى أبد الأبد، تحيط به جذوع الأشجار الساكنة، الهاجعة، لا رفاق لديه غير الحيوانات، يندفعون مارين أمام ناظره، لا يستطيع أن يتبادل معهم أي كلمة - سيكون ذلك شيئاً لا يحتمل بشكل محزن. لا يرى أي إنسان آخر، لا يقول أسعدت مساءً أو أسعدت صباحاً، أن لا يتبادل مطلقاً النظر في وجوه إنسانية مع عيون إنسانية، أن لا يرى فتاة أو امرأة، أو يشعر بقبلتها، أو يمارس معها لعبة الشفاه والأعضاء، السرية الممتعة - أه، يا لها من فكرة بغیضة. وقال في نفسه، إن كان هذا هو قدره فيجب أن أسعى كي أتحوّل إلى حيوان، إلى دب أو أيل، وإن كنت بهذا إنما أسخر من روحي الخالدة. إن التحول إلى دب وعشق دبة، ليست بالحياة السيئة، على الأقل ستكون حياة أفضل بكثير من الاحتفاظ بعقله وأفكاره، وكل ما يجعل منه إنساناً، إلا أنه سيعيش وحيداً، بلا حب، حزناً.

استغرق في النوم على سرير الطحالب، أنصت بفضول وخوف، إلى أصوات ليل الغابة، العديدة الجديدة، المبهمة والغريبة. هؤلاء هم رفاقه الآن، وعليه أن يقبل الإقامة معهم، أن يعتاد عليهم جميعاً، أن ينافسهم، وأن يتأني في معاملتهم: الآن بات مساوياً للغزلان والثعالب، وأشجار الصنوبر والتنوب، يجب أن يحيا حياتهم، أن يشاركهم في الشمس والهواء، أن ينتظر معهم بزوغ النهار، أن يجوع معهم وأن يكون ضيفاً بينهم.

ثم استغرق في النوم، وحلم بحيوانات وبشر، أضحي دبا، والتهم ليزا وهو يمارس الحب معها. وفي قلب الليل أفاق مرعوبا لا يدري لماذا، يستشعر حزنا رهيبا في قلبه، ظل مستلقيا وقتا طويلا يتفكر في قلق. ثم تذكر أنه أوى بالأمس وهذه الليلة، دون أن يتلو صلاته. فنهض وركع بجانب سرير الطحالب وتلا صلاة المساء مرتين معا، واحدة ليلية الفائتة وواحدة لهذه الليلة. وسرعان ما عاد يستغرق في النوم.

عند انبلاج ضوء النهار استيقظ مذهولا، ولم يتذكر أين هو، وسرعان ما خف خوفه من البرية، وهكذا اتكل على حياة الأدغال، وقلبه مفعم بفرح جديد، وإن ظل يسعى للعثور على سبيل للخروج منها، وواصل تشرده، ووجهه يقابل وجه الشمس. ومرة عشر على درب يشق الغابة، درب مطموس، وقد نبت عليه قليل من النبات، وكانت الغابة من حوله تتألف من جذوع أشجار الصنوبر العتيقة والضخمة جدا، تسمق مستقيمة نحو السماء. وبعد أن سار مسافة قصيرة تحت هذه الأشجار أخذت تذكره بأعمدة كنيسة الدير الضخمة في ماريابرون، التي كان قبل وقت قريب، قد شاهد نرسييس يغيب داخلها. متى كان ذلك؟ أكان حقا فقط قبل يومين؟

ظل يهيم على وجهه في الغابة ثلاثة أيام وثلاث ليال. ثم أسعده أن يجد أنه قد عاد إلى عالم البشر، إنها أرض محروثة ينبت عليها الشوفان والشعير، وثمة مروج، أبعد قليلا، شاهد عليها، هنا وهناك، ممرا بين الحقول. قطف غولدموند بعض الجاودار وأخذ يمضغه، ورجبت به أرض محروثة بكل ود، وكان كل ما يشاهده يبت فيه الشجاعة ويصادقه. بعد طول تشرّد تحت الأشجار، الدرب الضيق، والتيس، ونبات القنطريون العنبري الغض المرتعش. قريبا سيقابل بشرا من رجال ونساء. وبعد وقت قصير شاهد أرضا محروثة، وقد أقيم عند حافتها صليب، فركع تحته وتلا صلاة.

قاده الدرب الملتف حول انعطافة رابية، إلى ظل شجرة زيزفون، وهناك سمع، تملؤه البهجة، طرطشة مياه جدول، وهي تتدفق من خلال أنبوب خشبي إلى حوض: شرب من هذا الماء النмир اللذيذ، ورأى تملؤه السعادة، تكتلا من الأسقف القشية المتلاصقة بين الأشجار العتيقة،

ونبات العليق الذي توجد بينه ثمار ناضجة مبكراً. ولكن أبعد كثيراً من كل هذه المشاهد الودودة تنهى خوار بقرة، دافئاً ورقيقاً كما لو أنه صوت إنساني مرحباً.

استطلع حول الكوخ الذي رحبت به منه البقرة. فوجد أمام باب المنزل صبيّاً صغيراً أحمر الشعر أزرق العينين جالساً على التراب: وإلى جواره إبريق من الصلصال، مملوء بالماء، وكان الصبي يصنع، أيضاً بالماء والتراب معاً، أقراصاً من الطين، وقد تلتطخت ساقاه العاريتان بالطين. كان يعجن الطين بسعادة وحرصاً، ويراقبه وهو يسحق خارجاً من بين أصابعه، ويصنع منه كراتاً صغيرة، ويستعين بذقنه لتساعده في العمل.

قال غولدموند بهدوء "حفظك الرب يا بني الصغير". ولكن حين رفع الصبي بصره ليرى الغريب فغرفاه واسعاً ليطلق صرخة، وتغضنت تقاطيع وجهه الصغير، واندفع مبتعداً إلى باب المنزل، وهو يعوي. تبعه غولدموند إلى المطبخ، فألقى الضوء خافتاً جداً، حتى أنه للوهلة الأولى لم يتمكن من رؤية أي شيء بوضوح، بسبب قدومه من نور الشمس الساطع. ولكن توجهاً للحرص ألقى تحية مسيحية لكل أرجاء المنزل. فلم يحظ بجواب، حتى بعد أن سمع صوتاً رفيعاً عجوزاً يجأر، متحدثاً ليهدىء من روع الصغير. وأخيراً خرجت امرأة عجوز ضئيلة الحجم في الظلام، تظلل عينيها لتميز الرجل الغريب.

قال غولدموند "حفظك الرب يا أماء، وليبارك كل القديسين وجهك الطيب. منذ أيام عديدة لم أقابل كائناً بشرياً".
ألقت عليه العجوز نظرة مأكرة بسيطة.
وسأله مرتابة: "ماذا تريد؟".

قدم لها غولدموند يده، وداعب يدها قليلاً.
"أردت أن أقول "حفظك الرب" يا أماء الصغيرة، وأن آخذ قسطاً قليلاً من الراحة هنا في مطبخك، لأساعدك في إضرام نارك. ولا أمانع إذا

قدمت لي كسرة خبز، ولكن لا داعي للعجلة".
رأى مقعداً، مسنداً إلى الجدار، فجلس عليه ليرتاح، بينما كانت
العجوز تقطع من رغيفها قطعة لتعطيها للصغير، الذي بات متلهفاً
وفضولياً، وإن كان مستعداً للانفجار في نوبة بكاء، وللهررب، ووقف
إلى جوارها، يحدق عالياً إلى الغريب. قطعت قطعة أخرى، وقدمتها
لغولدموند.

قال: "شكراً لك، جزاك الرب".

سألته: "أعدت لك خاوية إلى هذا الحد؟".

"ليس من هذا، هي ممتلئة بثمار العليق".

"إذن، كل. من أين أتيت؟".

"من ماريابرون، من الدير".

"أنت كاهن؟".

"لا، وإنما طالب مسافر".

أنعمت نظرها فيه بشيء من السخرية والبساطة، ورأسها يهتز قليلاً
فوق عنقها العجوز المجدد النحيل. وتركته يمتصغ لقميتين وأعادت الصغير إلى
نور الشمس. ثم رجعت، وكلها فضول، لتسأله:
"ألديك أخبار؟".

"قليلة جداً يا أماء. هل تعرفين الأب العجوز آنسيلم؟".

"لا، ولكن ما باله؟".

"إنه مريض".

"مريض؟ أهو يحتضر؟".

"ربما من يدري؟".

"حسن، فليمت إن كان لا بد. يجب أن أطهو الحساء. ساعدني في
تقطيع الصُّرم".

ناولته زنداً من خشب الصنوبر، جُفِّف جيداً على الموقد، وفأساً. قطع

لها كل الضَّرم الذي تحتاجه وراح يراقبها وهي تضعه على الرماد، تنحني فوقه، تميل وتقر، إلى أن اشتعلت عيدان الإضرار. وأخذت تكوم ما لديها من غصينات الصنوبر، بطريقتها الخاصة، الدقيقة والسرية، فوق ألسنة اللهب، وتلظت النار بوضوح في الموقد المفتوح، ووضعت فوقه قدراً كبيراً أسود اللون معلقاً من مسمار صدئ فوق حجر الموقد.

توجه غولدموند، تلبية لأوامرها، إلى الغدير لجلب الماء. وقشّدت الحليب من دلائها، ثم جلست تراقب على ضوء الغسق الملبد بالدخان تراقص ألسنة اللهب، ووجه العجوز، الجعد، البارز العظام، يتنقل جيئة وذهاباً فوقه، وسط الوهج الأحمر. وعلى القرب، من خلال الجدار الخشبي، كان يسمع الأبقار وهي تندافع وتحتك في زراعتها. كان كل شيء يشيع فيه سروراً عظيماً. كل شيء هنا كان جميلاً وطيباً، يحدّثه عن السكينة، وعن بطن شبعانة: ثمّة شجرة الزيزفون وإلى جانبها الغدير، واللّهب المتقافز تحت القدر، وحركة الأبقار المضطربة وهي تعض على شكائهم وتخن، وصوت احتكاكها الأخرق بالجدار. وكانت هناك في الجوار عزتان، وزريّة للحنازير، هكذا قالت له العجوز، في الجانب الآخر للكوخ. قالت إنها جدّة سيد البيت، والجدّة الكبرى للصبي الصغير الذي زعق. اسمه كونو: كان يتجول داخلاً خارجاً، لكنه لم يفه بأي كلمة، ويرفع نظرة مدعورة إلى غولدموند، وإن كان قد كف عن العويل. ثم جاء رب البيت وزوجته، وتملكه ذهول تام لدى رؤية هذا الغريب. في أول الأمر بدا الرجل فظاً، إذ قبض بقوة على ذراع الطالب مرتاباً، وجره إلى الأمام ليتمكن من رؤية وجهه في ضوء النهار. إلا أنه بعد ذلك ضحك، وصفعه على كتفه، ثم دعاه إلى الدخول لتناول الطعام. جلسوا جميعاً، وجعلوا يغمسون الخبز في وعاء الحليب، إلى أن انخفض مستوى الحليب، فتناول رب البيت الوعاء وراح يشرب. وسأل غولدموند إن كان بمقدوره أن يمكث معهم حتى الصباح وينام كضيف تحت هذا السقف. قال الرجل، لا، لا مكان له هناك، ولكن في الخارج يوجد ما يكفي من القش، ويمكنه بسهولة أن يصنع منه سريراً.

وضعت الزوجة ولدها الصغير إلى جوارها، ولم تسهم بأي كلمة في الحديث. لكنها وهي تتناول الطعام ازدادت عيناها فضولاً ولم تعد تشبع من

النظر إلى هذا الطالب الشاب المليح: شعره وعيناه على حد سواء فتنوها، ثم رأت عنقه الأبيض، الرائع، وجمال يديه النبيل، وهما تتحركان برشاقة إلى هذه الجهة وتلك. إن هذا الغريب هو من سكان المدن ومن النبلاء، وشاب غض. أما أكثر ما جذبها إليه وفتنها فصوته الرجولي الشاب، الذي بدا وكأنه يغني لها، دافئ النغمات، وهو يناشدهم، وكان عذبا كمداعبه. وودت لو أنه يمكث مدة أطول لتنصت إليه.

بعد فراغهم من تناول الطعام توجه رب البيت إلى زريبة الأبقار للقيام ببعض العمل. وخرج غولدموند ليغسل يديه في الجدول الجاري، ثم جلس على حافة الحوض المنخفض، لينعش وجهه وينصت إلى خرير المياه. كان مرتبكا، لقد نال كل ما احتاج إليه من هؤلاء القوم، ومع ذلك لم تكن به رغبة في مغادرتهم الآن. ثم جاءت الزوجة مع إبريقها، وضعت تحت النبع ليمتلىء. وقالت بصوت منخفض:

"إذا مكثت هذه الليلة، فسأحضر لك لقمة لعشائك. هنالك خلف حقل الشوفان الباسق، ثمة كومة من القش، ولن يتم إدخاله قبل الغد. فهل ستمكث؟"

أمعن النظر في وجهها المنمش، وراقب ذراعيها القويتين وهي ترفع الإبريق، وشعر بكل الدفء العارم الذي تفيض به عيناهما الواسعتان الصافيتان. ضحك وهز رأسه موافقا، وسرعان ما غابت عن نظره، مع إبريقها المترع، داخل إطار الباب. مكث لبعض الوقت، سعيد القلب، ينصت إلى تدفق الغدير ويشكرها: ثم ولج إلى الكوخ، يبحث عن رب البيت، ومد له وللمجدة العجوز يده مودعا، مقدما شكره لهما. كان الكوخ يعبق بروائح الدخان والسخام، والحليب. قبل دقيقة كان يعتبره منزله الخاص، ومأواه، وإذا به الآن يغدو مكانا غريبا. قدم تحياته ثم غادرهما.

بعد منطقة الأكواخ عثر على كنيسة صغيرة، وبالقرب منها أيكة جميلة، ومجموعة من أشجار السنديان العتيقة القوية، وتحتها مرج. توقف برهة في ظلها، متنزها بين جذوعها الشخينة. قال في نفسه، ما أغرب الطريقة التي تعشق بها النساء، حقا إنهن لا يحتجن إلى الكلمات. وهذه المرأة التي لم تحتج

معه إلى كلمة واحدة، لتخبره عن المكان الذي عليه أن يقابلها عنده، أما كل الباقي فقبل دون استخدام أي كلام. كيف عبرت له؟ بالعنين، وبكرة خاصة في صوتها المنخفض، ومن ثم، بشيء آخر، بانثاق معين، رقة تشع من كل جسدها، هي دلالة يعرف بواسطتها كل الرجال والنساء دون إفصاح أن كل منهم مصدر سرور للآخر. كان كل شيء غريباً غريبة لغة سرية، ومرهفة جداً، ومع ذلك تعلمها بسهولة شديدة، كان قلبه يطفر فرحاً لدى تفكيره في الليلة القادمة، ويشتاق لحجيء الوقت الذي سيتعرف فيه على طريقة هذه المرأة القوية، الذهبية الشعر، في ممارسة الحب، كيف ستستجيب أطرافها للمساته، وكيف ستتحرك مع حركته وتقبله: لا شك في أنها ستكون مختلفة كثيراً عن ليزا.

أين ليزا الآن يا تيرى، بشعرها الفاحم المنساب، وبشرتها السمراء، وفخذيها القصيرين، السريعي الحركة؟ هل ضربها زوجها؟ ما أسرع ما حدث كل ذلك وانتهى، إن المتعة تنتظر في كل شارع، متعة عابرة، ملتبهة سريعة الزوال. إنه مسربل بالخطيئة، والزنا، وقبل زمن ليس بالبعيد كان يفضل أن يتحرر على أن يحمل ضميره مثل هذه الخطيئة، ومع ذلك ها هو، ينتظر بحجيء المرأة الثانية، رائق القلب، مطمئن البال. أو لعله، ربما، ليس مطمئناً، على الرغم من أنه لا الشهوة العارمة ولا الزنا هما السبب في شعوره أحياناً بالقلق والكآبة: بل شيء آخر، لا يعرف له إسماً، هو شعوره بذنب لم يفعل أي شيء يبرره، حزن يجلبه البشر معهم إلى العالم. لعله ما يسميه اللاهوتيون بالخطيئة الأولى: لعله كونه حياً، من يدري! نعم، في الحياة ذاتها يكمن نوع من الذنب، وإلا، إن لم يكن الأمر كذلك، فما الذي يدعو رجلاً نقياً مثل نرسيس إلى الانهماك في التوبة، وكأنه مجرم؟ بل لماذا يجبر حتى هو، غولدموند، على رؤية هذا الذنب متجذراً عميقاً في ذاته؟ أليس سعيداً؟ أليس قوياً وشاباً، أليس حراً كأبي طائر يخلق في السماء؟ ألا تعشقه النساء؟ أليس رائقاً أن يدرك أنه، هو عشيقهن، بإمكانه أن يمنح أي امرأة يعيشها المتعة العميقة نفسها التي يعيشها هو نفسه؟ لم إذن لا يشعر بسعادة غامرة؟ لماذا يتصاعد أحياناً هذا الحزن الغريب العميق داخله، ليفسد عليه سعاداته الغضة الطائشة بقدر ما تفسدها حكمة نرسيس وعفته — لم لمسة

الخوف هذه، وهذا التوق الشديد إلى الماضي؟ ما ذاك الذي يدفعه كثيراً إلى التفكير، يقدح زناد أفكاره، على الرغم من معرفته جيداً أنه ليس بمفكر؟

ومع ذلك فالحب ممتع. اقتلع زهرة أرجوانية من بين العشب، ورفعها أمام عينيه، وراح يمعن النظر في داخل الكأس الضيق، الذي تمتد عليه العروق بكل اتجاه، حول المدقات، دقيقة كالشعر. يا لحركة الحياة، ترتعش بالرغبة، بين أحضان امرأة على جبين المفكر! آه، لم على البشر أن يلموا بأي قدر من المعرفة؟ لم يستحيل عليه أن يتكلم مع هذه الزهرة؟ بل إن الحديث غير متاح بين إثنين من البشر: إذ من أجل أن يطلع كلٌّ على أفكار الآخر يحتاجان إلى لحظة من السعادة المميزة، من الصداقة الحميمة، وإلى رغبة في الإنصات. لا، من حسن الحظ بحق أن الحب لا يحتاج إلا نادراً إلى الاستعانة بالكلام، وإلا لأضحى الحب ذاته مريراً، مفعماً بسوء الفهم والجنون. يا لعينا ليزا، نصف المعمضتان، من نشوة الاستمتاع، كيف بدتا وكأنهما تحتضران من فرط المتعة، لا يظهر منهما غير بريقين رقيقين من بياضهما من خلال شق رفيع من الرموش المرتعشة: إن عشرة آلاف كلمة فصيحة، أو كلمات الشعراء لن تكفي للتعبير عن ذلك الاحساس. لا شيء - لا شيء، على الإطلاق، يمكن الإفصاح عنه حقاً، أو التفكير فيه من بدايته، وحتى نهايته، ومع ذلك فكل منا يتوق دائماً إلى الكلام، كل منا يشعر بلهفة لا تُحمد للتفكير.

راح يتفحص وريقات الزهرة الصغيرة، تنهض، واحدة فوق أخرى، على طول الساق، وقد رُبّت بشكل عجيب جميل. إن أشعار فرجيل جميلة، وهو يحبها، ولكن لفرجيل أشعار كثيرة لا يبلغ جمالها نصف جمال هذا التكوين اللولبي في الوريقات على طول الساق، ولا صفائه، ومع ذلك فقد نظمت براعة، وهي مفعمة بالمعاني وبالبهجة. أي مخلوق رائع ونبيل ومسترع بالفرح هو ذاك الكائن البشري الذي يمكنه أن يصنع زهرة مثلها. ولكن لا أحد يستطيع ذلك، لا بطل، ولا امبراطور، ولا بابا، ولا قديس.

نهض حين مالت الشمس نحو الغروب، ليوحي عن المكان الذي حددته له المرأة. وهناك مكث ينتظرها. الانتظار ممتع، حين يعلم طوال الوقت أن ثمة امرأة، تنبض بالحب، في طريقها إليه.

جاءت ومعها صرة بيضاء، حزمت داخلها رغيفاً كبيراً من الخبز وقطعة من اللحم المقدد. حلت العقد وفتحتها.
قالت له: "هذا لك. كل".

أجابها: "فيما بعد، أنا جائع إليك، وليس إلى الخبز. آه، أريني الجمال الذي أحضرتني".

كانت قد أحضرت له ما يشبعه من الجمال، شفتين قويتين نهمتين وأسنان براق، وذراعين قويتين، لفحتهما أشعة الشمس، لكنها تحت ملابسها، بدءاً من أسفل عنقها، كانت بيضاء البشرة وبضة. لم تكن تعرف من الكلمات إلا قليلاً، لكنها من عمق حنجرتها كان باستطاعتها أن تغرد بلحن يتسم بغواية واضحة، وهي تشعر لمستى على بشرتها، ويداه وقد أضحتا أشد حساسية ورقة من أي شيء عرفته في حياتها كلها، إلا أن هزتها رعشة البهجة وخرخرت كقطعة. كانت قد تعلمت بعض أساليب ممارسة الحب، أقل مما لدى ليزا، إلا أنها كانت تمنح حبها بقوة رهيبية، وكأنها تنوي أن تسحق قلبه. كانت تمجور نهماً، كطفل، وبسيطة وتشعر بالذنب، على الرغم من كل ما تتصف به من قوة، وكان غولدموند معها سعيداً جداً.

ثم رحلت عنه، انتزعت نفسها بعيداً عنه وهي تطلق تنهيدة، فلم تكن تجرؤ على التواني. وظل غولدموند هناك وحيداً، سعيد وفي الوقت نفسه حزين. ومضى وقت طويل قبل أن يتذكر الخبز واللحم المقدد وشرع يأكل وحده، وكان الظلام حالاً.

الفصل الثامن

مضى وقت طويل على غولدموند وهو يتنقل، ونادراً ما كان ينام في المكان الواحد مرتين، وفي كل مكان كانت تعشقه النساء وتسترضيه، ولفحته أشعة الشمس، ونحل جسمه من المسير الطويل المجهد والغذاء الهزيل. وكثير من النساء كن يغادرنه عند الفجر، وعديد منهن كن يبيكين، إلا أنه كثيراً ما فكر قائلاً:

"لماذا لم يحدث قط أن أياً منهن لازمته؟ لماذا، ما دمن أحبينني إلى درجة أنهن حرقن عهود زواجهن ليشبعن حاجتهن إليّ خلال ليلة من الزمن، أكان لزاماً عليهن أن يهرعن عائدات إلى أزواجهن، الذين لاشك في أن معظمهن يخشين أن يسوطهن؟".

ولا واحدة منهن توسلت إليه بحق كي لا يغادرها، أو طلبت منه أن يأخذها معه: لم تبد أي منهن استعداداً لمشاركته متعه، وحاجته إلى حياة التشرد، إكراماً للحب. ولا هو تاق حقاً إلى عرض ذلك عليهن، أو ألح بالفكرة على أي من عشيقاته، وحين اختبر قلبه وجد أن حريته عزيزة جداً عليه، ولم يعد يذكر خليلة واحدة مهما بلغت حلاوتها لم ينسها بالتي تلتها. ومع ذلك فمن المحزن قليلاً والمخير أن يكون الحب في كل

مكان يحل فيه سريعاً خاطفياً، الحب الذي يمنحه وذاك الذي يتلقاه معاً، وما إن يشتعل حتى يخمّد.

أهذا كل شيء؟ أهكذا يكون الأمر دائماً وفي كل مكان؟ أم أن الذنب كان يقع عليه: ألعله يكون من النوع الذي، على الرغم من أن المرأة قد تهيم بجماله، فإنها لا ترغب في المكوث معه، أكثر من فترة وجيزة، بلا كلام، فوق كومة من القش أو على الطحالب؟ لأنه يعيش كمشرّد وهنّ، الآمات في بيوتهنّ، ترعبهن فكرة العيش حياة دون منزل؟ أم أن اللوم كله يقع عليه، وأن الخلل يكمن في جماله، الذي على الرغم من أن النساء يهرعن إليه كما إلى دمية، ويعانقنها بقوة، ثم يعدن أدراجهن إلى أزواجهن، حتى وإن كان السوط ينتظرهن؟ إنه لا يدري.

إلا أنه لم يحل من تلقى الدروس من النساء. صحيح أنه كان يجذب أكثر إلى العذارى الصغيرات، فهن أصغر سنّاً من أن يتزوجن، ولعله استغرق في اشتياقه إليهن، ولكن مثل أولائي العذارى في الأغلب بعيدات عن متناوله، بأنهن محميات، مدلات وخجلات. ولكن من النساء أيضاً يمكنه أن يتعلم: فكل منهن تترك له شيئاً منها، أسلوباً في التقبيل، إمعاء، الطريقة التي تدافع بها عن نفسها، أو تستسلم له. وكان باستطاعة غولدموند أن يجاريهن في أي أسلوب يتبعنه، بلهفة ومرونة أي طفل، وعلى استعداد لأن يستجيب لكل غواية. ولم يكف جماله وحده قط لجذبهن إليه بسهولة كبيرة: بل كانت طريقته في جعل نفسه طفلهن، منفتح الذهن، فضولياً وبريئاً في شدة اشتياقه، واستعداده التام للإذعان لكل ما تطلبه منه المرأة. كان يصبح، دون إدراك منه، وفي كل علاقة حب منفصلة، كما حلمت أن يكون عليه، تحقيقاً أكيداً لكامل اشتياقها الدفين، رقيقاً وصبوراً مع واحدة، ومتلهفاً يتلظى ناراً مع أخرى، أحياناً يكون طلقاً وبريئاً كفتي في آخر فترة عذريته، وفي أحيان أخرى متفنناً ومخططاً. كان مستعداً للعبث أو للعراك، للتنهد أو للضحك، ليكون

شديد الحياء، أو للوقاحة. لم يفعل أي شيء لا ترغب فيه المرأة، لا شيء مما لا تكون هي نفسها قد استدرجته إليه أولاً. وهذه الميزة هي التي كان يلاحظها العديد منهم، من سريعات الفهم، وتشعر بها على الفور، وهكذا بات أثيرهم.

بهذه الطريقة تعلم الكثير. فهن لم يكتفين، خلال فتره قصيرة من الزمن، بتعريفه على أساليبهن المتنوعة، فنونهن في الحب، وجعله بارعاً ذا تجربة واسعة، بل تعلم أيضاً أن يعي تعددية النساء: اعتادت أذنه على أنواع الصوت الإنساني، وكانت رنة الصوت مع العديد منهن تكفي ليعرف بدقة حاجات إحداهن وحدود عاطفتها. وكان في كل مرة يلاحظ ببهجة متزايدة وجود طرق لا حصر لها لبروز الرؤوس بين الأكتاف، وانتواء جبين بكثة من خصلات الشعر، وتحرك رضفة الركبة من تحت ثوب. تعلم أن يتحسس في الظلام، بأصابع متلمسة، الأنواع الكثيرة لشعر النساء، أن يميز نوع بشرة من آخر. وحتى في ذلك الحين كان قد بدا يدرك أن هذا التثقيف لأحاسيسه هو الهدف الحقيقي، الخفي، لكل تجوالاته، وأنه فيها يتركز تفكيره الأعظم، وهي تجره من علاقة حب إلى أخرى، بحيث أن قدرته على التمييز قد ازدادت رهافة وتضاعفت، وبات استخدامها أعمق. لعل هذا كان مرماه الأبعد، أي أن يتوصل إلى أن يبرع في فهم النساء وفي شؤون الحب بأنماطها واختلافاتها التي لا تعد، كما يبرع بعض الموسيقيين، في عزف ثلاث آلات موسيقية أو أربع، أو أكثر. ولكن ما الغرض وراء كل هذا، إلى ما يقوده، إنه لا يدري.

على الرغم من تحصيله قدرًا كافيًا من اللغة اللاتينية وعلم المنطق، إلا أنه لم يكن يتفوق في أي منهما: أما في الحب، وأسلوب ممارسته فكان موهوباً. هنا كان في استطاعته أن يتعلم دون أي مشقة، لا ينسى شيئاً، وكل درس يتلقاه يستقر إلى الأبد في ذهنه.

وذاث يوم، وكان قد مضى عليه على الطرقات عام أو عامان، وصل غولدموند إلى قلعة تخص فارساً ثرياً، لديه ابنتان شابتان. حدث

ذلك في أواخر الخريف. وقد أوشك الصقيع أن يبدأ بالظهور، بعد غروب الشمس، وكان في الشتاء الأخير قد ذاق منه الأمرين. وكان مضطرب البال قليلاً يفكر في أشهر الصقيع القادمة تلك، وهو يطلب الزاد والمأوى في القلعة، فالشتاء لا يرأف بالمتشردين. وقد وجد هنا حسن الاستقبال، وحين علم الفارس أن هذا المتشرد من المتعلمين، ويحسن قراءة اللاتينية واليونانية، أرسل في طلبه إليه ورفعته عن مستوى مائدة الخدم، وعامله معاملة الند له. وجلست الابتان مطرقتي العيون، الكبرى في الثامنة عشرة، وأختها بالكاد بلغت السادسة عشرة، وهما ليديا وجوليا.

في اليوم التالي أراد غولدموند أن يتمادى معهما، فلم يجد سبيلاً إلى كسب حب أي من تينك العذراوين الرائعتين، الذهبيتي الشعر، وبدأ له أنه لا وجود لامرأة أخرى في القلعة تدفعه إلى المكوث إكراماً لها. لكن الفارس جاء إليه، بعد الإفطار، وانفرد به جانباً، في غرفة أثبت لتلائم غرضاً معيناً. راح العجوز يكلم الشاب بتواضع عن حبه للعلم وللكتب، وعرض عليه صندوقاً مملوءاً بلفائف المخطوطات الرقية كان قد جمعها، وصنع طاولة خاصة للقراءة، مزودة بأقلام وصفائح من أجود أنواع الورق. هذا الفارس الوقور، كما اكتشف غولوموند لاحقاً، كان مثقفاً منذ شبابه، إلا أنه تناسى علمه والتفت إلى الحياة الدنيا، وإلى الاشتراك في الحروب، إلى أن أتاه ذات مرة وهو مريض أمر من الرب أن ينسى ماضيه المشين، وينطلق في رحلة حج. ووصل بعد سفر مضن إلى روما، بل وإلى القسطنطينية ولما عاد وجد أن والده قد توفي، والبيت وقد خلا من ساكنيه، فاستقر فيه واتخذ له زوجة، التي فقدتها منذ زمن، فأنجبت له ابنتيه، والآن، في مستهل مرحلة شيخوخته، انكب على تدوين سرد أمين لكل ما شاهده في ترحاله. ونجح فقط في وضع البدايات الأولى، إلا أن لغته اللاتينية، كما اعترف للمتشرد، تعاني من ثغرات عديدة، وتعيق كل

ما يجهد لسرده. وقدم لغولدموند ملابس جديدة واستضافه فترة طويلة، مقابل أن يصحح له ما كتبه. وكان عليه أن يعيد نسخ البداية من جديد، وأن يساعده فيما تبقى من الكتاب.

حدث ذلك في الخريف، وكان غولدموند يعلم ماذا يعني الشتاء بالنسبة للمتشرد. ولا يمكنه أن يرفض ثوباً جديداً. أما ما أسعد شبابه أكثر من أي شيء آخر فالتفكير في أنه سوف يسكن ولفترة طويلة مع الابنتين الشابتين، فوافق دون طويل تدبر. وفي غضون بضعة أيام أمرت مدبرة المنزل بفتح خزانة ملابسها: كان يوجد فيها قماش رائع بني اللون طويل، ومنه صنع له ثوب وقلنسوة. وكان الفارس يرغب في أن يكون الرداء أسود اللون، وأن يفصل بشكل يليق بطالب علم، لكن الضيف لم يلتفت إلى هذا الكلام، وعرف كيف يجعله يغير رأيه: وهكذا حصل على ثوب رائع جديد، بدا فيه وسطاً ما بين الوصيف والصياد، وذو لون يتماشى مع لون بشرته.

ومع اللغة اللاتينية أيضاً، سارت الأمور على أيسر ما يكون. قرأ معاً ما كان كتب سابقاً، ولم يكتف غولدموند بتصحيح كل الكلمات الخطأ الكثيرة، والأخطاء التي ارتكبها سيده في تشكيل أواخر الكلمات، وإنما كان يكوّن، هنا وهناك، من فقرات الفارس القصيرة غير المتقنة، جملاً متناسقة سلسلة الإيقاع، متماسكة البناء،^(١) consecutio temporum صافية، وغمرت البهجة الرجل العجوز، شعر بامتنان غير محدود. وكانا في كل يوم يقضيان على الأقل ساعتين في العمل معاً. في هذه القلعة (وكانت في واقع الأمر أقرب شهاً بالمزرعة المدعمة ببعض التحصينات) ووجد غولدموند الكثير مما يقضي به وقته. كان يخرج مع الآخرين في كل رحلة صيد. وتعلم إطلاق القوس والنشاب من هاينريش، الصياد، وعقد صداقات مع كل كلاب المكان، وبات في مقدوره امتطاء صهوة

(١) مترابطة الإيقاع.

الجواد كلما أراد. ونادراً ما كان يبقى وحيداً، فهو إما يتحدث إلى كلب أوفرس، أو مع هاينريش أوليا، زوجة البواب، وهي سيدة عجوز بدينة، تتصف بصوت رجولي وحب للمزاح، أو مع الراعي ومربي الكلاب. كان في وسعه أن ينتهز فرصة مع زوجة الطحان التي تقطن خارج الأسوار، إلا أنه نأى بنفسه عنها، متظاهراً بالبراءة.

كان يبهجه رأى الصبيتين، وكانت الصغرى هي الأجل، والأكثر حياءً وصعوبة في الإرضاء حتى أنها بالكاد كانت تتبادل كلمة مع غولدموند. وكان هو مع الاثنتين شديد التهذيب والتحفظ، إلا أن الاثنتين كانتا تدركان قربهما. وبادرت الصغيرة بأخذ الخطوة الأولى نحوه، متحدية الحياء. وسلكت ليديا الكبرى سلوكاً غريباً مع غولدموند، يتراوح ما بين الاحترام والتهكم، وكأنه مسخ علم مثير للعجب: كانت تطرح أسئلة فضولية كثيرة حول أسلوب حياتهم في الأديرة، ولكن كانت دائماً تمتزج بشيء من المزاح، وبندرة تأنيب تصدر عن سيدة رفيعة الأصل واثقة من نفسها. وكان يرضخ لكل نزواتها، مبدئاً احترامه لليديا بوصفها مولاته، ولجوليا بوصفها راهبة صغيرة تقيّة، وكلما استمال هاتين الفتاتين، أثناء قص حكاياته وحديثه حول الدير، لإطالة فترة مكوثهما المعتادة بعد وجبة العشاء، أو حين تقول ليديا، أثناء قضاء نزهة في الفناء أو الحديقة، كلمة عابرة وتهكم منه قليلاً، شعر أنه قد أحرز بعض التقدم.

ظلت أوراق فصل الخريف عالقة حتى وقت متأخر من ذاك العام بأغصان شجرة الدردار السامقة النامية في الفناء. وظل الورد يُرى وقتاً طويلاً في الحديقة. ثم، ذات يوم، كانت زيارة، فقد جاءهم فارس حار ترافقه زوجته ومعهما تابع. وقد أغراهم اعتدال الفصل بالخروج في رحلة الاستجمام غير المعتادة هذه، إلى مكان بعيد جداً عن منزلهم، وها هم قد قصدوا القلعة، ملتسمين استضافتهم آناء الليل. وقبولوا بالترحاب، وعلى الفور نقل سرير غولدموند من غرفة الضيوف إلى الغرفة التي يقوم فيها

بعمل الكتابة، وأعد سرير له لينام عليه، الوافدون الجدد. وذبح الدجاج وبعث برسول يطلب السمك من المطحنة. سر غولدموند لكل هذا اللغط والاحتفال، وللتو لاحظ نظرات السيدة الغريبة النهمة إليه. إلا أنه لم يكذب على صوتها وتصرفاتها مبلغ ما أثاره فيها من سرور واشتياق، وعلى العكس لاحظ أيضاً، بفرح متزايد تبدل سلوك ليديا بشكل كامل، وكيف أصبحت أشد هدوءاً وتحفظاً، وشرعت تراقبه مراقبة لصيقة وهو مع الضيفة، وحين أخذت قدم السيدة، على مائدة العشاء الفخيم، تتلمس طريقها من تحت الطاولة، إلى قدم غولدموند، لم يكن عبثاً وحده ما أثار سعادته، بل فرح أكثر بكثير بالغضب المكبوت وضبط النفس اللذين تحكما في ليديا وهي جالسة تراقبهما معاً، بعينين فضوليتين تتطايران شرراً. وأخيراً ترك سكينة تقع منه تحت سطح الطاولة، وهكذا انحنى ليلتقطها، وداعب قدمي خليلته الجديدة وساقياها: ثم استقام من جديد، ورأى كم شحب لون ليديا، وكيف عضت على شفتيها أثناء روايته القصص عن الدير، على الرغم من شعوره أن السيدة الغريبة كانت أقل تحمساً لسماعها من سماع صوت الراوي ولكنته. وجلس الآخرون ينصتون: الفارس، مولاه، بكرم جم، والآخرون بوجه كأنما قد من خشب، على الرغم من أن حرارة كلمات الشاب وصلته. لم تكن ليديا قد سمعت مثيلاً لتلك الفصاحة: كان يزهر، وارتعشت الرغبة وملأت الجو، وأشرقت عيناه، وكان صوته يفيض بهجة: لقد كان يستجدي الحب، هذا ما شعرت به النسوة الثلاث، كل على طريقتهما: الصغرى جوليا باتخاذها موقف الدفاع المذعور عن النفس في وجهه، وزوجة الفارس بتوردها من السعادة وليديا بألم أصابها في قلبها، ألم سببه الشوق الدفين، وبجهدا الهش الذي بذلته للاحتماء منه، وبغيرة حادة ضيقت وجهها ثم اختنقت خلف عينيها. شعر غولدموند بكل هذه الانبثاقات، هذه الاستجابات السرية إلى كفاحه. لقد تدفقت عائدة إليه،

أفكار الحب اندفعت كعصافير محومة حول رأسه، عصافير حطت على يده ثم عادت ترفرف من جديد، تتقاتل مع بعضها وتتناقر. وبعد الانتهاء من تناول وجبة العشاء انسحبت جوليا (وكان قد مضى على الغسق وقت طويل) وهي تمسك شمعة الأسل على حامل حديدي، باردة وهادئة كمتدينة. وظل الآخرون جالسين ساعة أخرى، الفارسان يناقشان شؤون الامبراطور والأساقفة. بينما راحت ليديا تنصت، ووجنتها ملتهبتان، إلى كل الحديث التافه المرح الذي يغزل بين غولوموند والسيدة، وهما يرسلان تحت الكلمات البراقة شلة من النظرات ونبرات الصوت المتشابكة، وإيماءات صغيرة يتبادلانها، مثقلة بدلائل الحب. استنشقت ليديا هذا الهواء بنهم، وأخذت ترتعش حين علمت، أو شعرت، كيف أن ركبة غولدموند تحف، من تحت الطاولة، على ركبي السيدة المحترمة. كانت كل لمسة يقوم بها تحترقها كنصل خنجر. فيما بعد جافاها النوم، وأمضت الرده الأكر من الليل يقظة تنصت إلى قلبها يضرب بقوة، واثقة من أنها سمعتهما، في مخيلتها، يكملان ما هو محرم عليهما، رأتهما مضطجعين متشابكين، وسمعت صدى قبلاتهما، وخافت، وإن ثمنت لذلك أن يحدث، أن يداهما قريباً الفارس الغريب على حين غرة، ويسدد إلى صدر هذا الغولدموند الcatiff طعنة نجلاء.

في اليوم التالي اكفهرت صفحة السماء، وهبت ريح رطبة، لكن الضيف على الرغم من كل محاولات الاقناع، بدوا لا يطبقون صبراً للانطلاق من جديد. ووقفت ليديا تراقبهم وهم يركبون، شددت على أيديهم وثمنت لهم رحلة موفقة، وهي لا تكاد تدري أنها فعلت ذلك، بما أن كل إحساسها كان متركزاً في عينيها، وهي ترى يد غولدموند موضوعة على قدم السيدة، ليساعدها في امتطاء جوادها الصغير: قبضت اليد على القدم، عريضة ومتينة، وأطبقت برهة على حذاء السيدة.

رحل الضيوف، وبات على غولدموند أن ينصرف إلى أداء واجبه الكتابي. وفي غضون نصف ساعة من الزمن عاد يسمع صوت ليديا المتعجرف، وهي تنادي على الساسة في الفناء، وقرقرة الخوافر وهم يخرجون جوادها الصغير من مربطه. تقدم سيده من النافذة، وأرسل بصره ثم ابتسم، وهز رأسه، ووقفاً معاً يراقبان ليديا وهي تمتطي. في ذلك اليوم صدأت لغتهما اللاتينية، وكان تقدمهما فيه أقل من ذي قبل ووجد المثقف صعوبة في التركيز. فصرفه سيده، بكل ود، قبل الموعد المعتاد.

أخرج غولدموند جواده، بعيداً عن عيون أهل القلعة، إلى الفناء، وامتطاه وانطلق بين أنياب رياح الخريف، عبر أرض سبخة بنية اللون، لا يني يسرع. وشعر بجواده يزداد دفئاً من تحته، وألهب دفأه دمه. قطع أرض بور وسبخات، وأراض محصورة ومراحة، نما عليها عشب قصير وبردي، في الصباح المنعش الغائم، ماراً بأجمات من "جار الماء"، مخترقاً غابة أشجار الصنوبر المظلمة، وخرج منها من جديد إلى أرض سبخة خالية بنية اللون. ومن فوق جبين هضبة بعيدة، محددة بوضوح أمام السماء الشاحبة، الملبدة بالغيوم، رأى شكل ليديا الصغير، تعلو ظهر جوادها القصير البطيء الخبب. نخس حصانه ليتمكن من اللحاق بها، ولكن حالما أدركت أن ثمة من يتبعها، ساطت جوادها فخب مسرعاً، وابتعدت عنه. كانت تختفي عن النظر على فترات ثم يعود فيراها من جديد، بشعرها المرفرف في وجه الريح. أسرع الحصان يخب خلفها، كصياد، وخفق قلبه بقوة وهو يستحثه ببعض كلمات التشجيع الصغيرة الرقيقة، مستمتعاً بمشهد الريف أثناء انطلاقه، بنبات "جار الماء"، والحقول المنحدرة، وأجمات القبقب، وحواف البرك الطينية دون أن تغيب طريدته عن ناظره.

حين علمت ليديا أنه أدركها كفت عن الهروب، وتركت جوادها يعود إلى السير. ولم تلتفت إلى ملاحقها. وواصلت سيرها، بكبرياء،

وكأنما وحدها، وكأنها لا تشعر بوجوده، وكأن شيئاً لم يحدث. اقترب بجواده حتى جاورها، وسار الحيوانان يهدوء على قدم المساواة، على الرغم من أنهما كانا مع راكبيهما متقدين بفعل المطاردة. قال لها برقة "ليديا".

لم تجب.

"ليديا".

ولم تنبس بشفة.

"ما أجمل رؤيتك وأنت تركبين عن بعد. كأن شعرك أشبه ببرق ذهبي من خلفك. آه، كم كان منظرُك جميلاً. فكرة رائعة أن تركضي أمامي: لقد بين لي هذا لأول مرة أنك يمكن أن تحبيني قليلاً. لم أكن أعرف هذا، وحتى مساء أمس كنت ما أزال أشك في الأمر. الآن فقط، وأنت تحاولين الهرب مني، بدأت فجأة أفهم. يا حبيبتى، يا جميلتي، لا بد أنك مرهقة! ألا نرتاح؟".

قفز مترجلاً وأمسك بلجامها، حتى لا تهرب منه مجدداً: كان وجهها شاحباً شحوب الثلج وهي تنظر إليه، وحين حملها لينزلها طففت تبكي. وجلست، وهي تغالب نشيجها، بشجاعة، إلى أن تغلبت عليه. وبادرت بالقول: "آه، لم أنت شرير؟"، كان صعباً عليها أن تخرج كلماتها.

"أنا شرير؟".

"أنت فاسق يا غولدموند. دعني أنسى الكلمات التي قلتها لتوك: إنها كلمات مشينة، ولا يليق بك أن تقول لي مثل هذه الأشياء. كيف دار بخلك أنني يمكن أن أحبك؟ فلننساها، ولكن هل سأنسى ما رأيته مساء أمس؟".

"مساء أمس؟ ماذا رأيت عندئذ؟".

"أوه، كفاك ادعاءً وكذباً علي! إن كل ما فعلته مساء أمس مشيناً وفضلاً، ووقع أمام عيني، مع تلك المرأة. غولدموند، ألا تعرف العيب؟ إنك حتى داعبت ساقها تحت الطاولة - طاولة والدي - أمام عيني! والآن وبعد أن رحلت أتيت تلاحقني. إنك دون شك لا تعرف ما هو العيب".

كان غولدموند قد ندم لتوه لأنه تكلم قبل أن يساعدها على التزلج عن جوادها. ما أحقه إذ لم يمكس لسانه، في الحب لا لزوم للكلمات. لم يزد، بل ركع إلى جوارها، ولما كانت جميلة جداً وحزينة، سرعان ما ألفى نفسه يشاركها كربها. حتى هو شعر بأنه يدعو إلى الرثاء. ولكن على الرغم من كل ما قالت له ضده، استطاع أن يلمح الحب بادياً في عينيها. حتى الحزن المرتسم على شفثيها المرتعشتين كان حباً، كان يصدق عينيها أكثر من كلماتها. لكنها كانت بانتظار جوابه. والآن، ولما لم يدل بأي جواب، تدلت شفة ليديا أكثر من ذي قبل، والتمعت عيناها بالدموع، وحدثت إليه، ثم كررت سؤاله: "إذن فأنت لا تعرف العيب؟".

أجابها باتضاع: "ساعيني، هذه مسائل لا يتكلم عنها أحد. اللوم كله يقع علي، فساعيني. لقد سألتيني إن كنت لا أعرف العيب، نعم، لا شك في أنني أعرف العيب: لكني أحبك، أحبك، ولا عيب في الحب، لا تغضبي".

وكأنها لم تسمع شيئاً مما قاله. جلست، بوجهها الحزين، ترنو إلى البعيد وكأنها وحدها. إنه لم يمر بمثل هذا من قبل: كل ذلك نتج عن التفوه ببضع كلمات.

أسند وجهه برفق على ركبته، وعلى الفور استسلمت لمستها له. لكنه ظل قلقاً وحزيناً، وهي أيضاً بدت أشد حزناً من أي وقت آخر، تجلس بسكون، تلزم الصمت، وتحقق إلى البعد، بعيداً عنه. كم أصبح

الجو ثقيلاً الآن! وأي غم! لكن ركبته تألفت مع خده، ولم تكن بها رغبة في إبعاده عنها. ووجهه المغمض العينين مرتاح عليها. وبجركة بطيئة، أخذ يقرب جسدها المشوق الرائع منه، ويعجب باستمتاع مرتعش بمدى الكفاءة التي تكمل بها هذه الركبة الرقيقة الغضة تقوس أظافر أصابعها الجميل، المتين، وتبرزه. واستكان إليها مطبقاً عليها، تاركاً خده وشفتيه يتحدثان بلغتهما الخاصة: أخيراً أحس بلمسة يدها: كعصفور صغير، حي، حط على شعره. أحس "بيدها الممتعة". ما أشد خوف مداعبتها له، وكأنها طفلة! لطالما تفحص يديها من قبل، وأعجب بهما، حتى بات يحفظهما كيديه، بأصابعهما الطويلة، التي تستدق باتجاه الأسفل نحو أظافرهما الوردية. والآن، هذه الأصابع المستدقة راحت تتحدث بحياء، وهمس مع شعره، وكانت كلماتهم ناعمة، نهمة، كلمات أطفال، وكانت كلمات في العشق. استكان راسه بامتنان، وراح يحك يدها بنجدة وعنقه، وأخيراً تكلمت:

"يجب أن نذهب، حان الوقت".

رفع رأسه ونظر عالياً إليها، وقبل برقة الأصابع النحيلة.

قالت: "انهض، أرجوك، الآن، يجب أن نعود إلى المنزل"، وأطاعها على الفور: نهضا معاً، وامتطيا حصانيهما وانطلقا.

كان قلب غولدموند مترعاً بالسعادة. ما أجمل ليديا، وما أنقاها وأرقها، كطفلة. لم يصل به الأمر إلى حد تقبيل وجنتيهما، ومع ذلك شعر بسكينة عارمة وارتياح. انطلقا بسرعة، ولم تلتفت إليه، فجأة، إلا بعد أن وصلا إلى الفناء، أمام بوابة القلعة، لتقول له "ما كان يجب أن نعود معاً. يا لجنوننا". وفي آخر لحظة، قبيل بحبيء صبية الاسطبل راكضين، همست بسرعة بكلمات ملتبهة "قل لي، هل ضاجعت تلك المرأة في الليلة الفائتة؟".

هز رأسه نافياً عدة مرات، ومال ليربت على الحصان. وبعد ظهريرة ذاك النهار، وبعد خروج والدها للتنزه بالحصان، اجتمع العاشقان في

غرفة العمل.

وعلى الفور سألته: "أحقاً ذلك؟". ودون أن تزيد فهم عما كانت تسأله.

"إذن لِمَ لعبت تلك اللعبة الفظيعة لتستميلها إليك؟".

قال: "فعلت هذا من أجلك. صدقي كنت أتمنى عشرة آلاف مرة أن أداعب قدمك بدل قدمها. إن قدمك لم تأت إلي قط من تحت الطاولة لتسألني أن أحبها".

"أتحبني يا غولدموند؟".

"أوه، نعم".

"ولكن كيف سينتهي؟".

"كيف لي أن أعرف يا ليديا؟ ما همنا، أستطيع فقط أن أسعد بحبك، أما ما سيؤول إليه الأمر فلا يهمني. إن قلبي يطفر حين أراك على صهوة الجواد، أو أسمع صوتك، أو أحس بأصابعك تتغلغل في شعري. وسوف يملأني الفرح حين سأتمكن من تقبيلك".

"غولدموند، لا يحق للرجل أن يقبل غير عروسه، إذن، لم يخطر هذا ببالك من قبل؟".

"لا، لم أفكر في هذا قط. ولم أفكر؟ أنت تعلمين قدر ما أعلم أنك لا يمكن أن تكوني عروسي".

"هكذا إذن، وبما أنك لا يمكن أن تكون زوجي، وتبقى إلى الأبد إلى جانبي، فمنتهى الشر منك أن تحدثني عن الحب. هل خطر ببالك حقاً أن في وسعك أن تغويني؟".

"إنني أفكر في أي شيء يا ليديا إلا فيك. إنني أفكر أقل كثيراً مما نظنين. وأنا لا أطلب الكثير. فيما عدا أن تمنحيني ذات يوم قبلة. لقد أكثرنا من الكلام، وعلى العشاق أن لا يتكلموا قط. أعتقد أنك لا تحبينني يا ليديا".

"هذا الصباح قلت عكس هذا".
 "أنت تصرفت تصرفاً معاكساً حينئذ".
 "أنا؟ ماذا تعني؟".

"أولاً انطلقت مبتعدة حين رأيته أقترب، فاعتقدت أنك أحببتني، وعندما بدأت تجهشين بالبكاء حسبت أنك تبكين حباً. وارتاح رأسي على ركبتيك، وداعبته، فظننت أن ذاك حب. أما الآن فلا أرى منك أي رقة".
 "إنني لست من النوع اللعوب الذي تداعب قدمها من تحت المائدة. ويبدو أنك لا تعرف إلا ذلك النوع من النساء".
 "لا، ما شاء الله، أنت أجمل بكثير، وأرقى".
 "ليس هذا ما عنيت".

"لا، ولكن هذا صحيح. ألا تدركين كم أنت جميلة؟".
 "لدي مرآتي".

"ألم تنظري قط فيها لترى جبينك يا ليديا؟ وكتفيك وأظافر أصابعك الصغيرة، ومن ثم ركبتيك؟ وهل رأيت كيف أن كل هذه الأشياء متناسقة مع بعضها، كيف أن لها كلها الشكل الطويل الجميل نفسه؟ هل رأيت ذلك؟".

"ما أجمل كلامك يا غرلدموند! لا، لم أره من قبل، ولكن الآن بعد أن أخبرتني، صرت أراه. إسمع، أنت رجل فاسق، وقد جئت لتجعل مني امرأة تافهة".

"كنت أتمنى لو أجعل منك امرأة تافهة جداً، ولكن ما الذي يدفعني إلى أن أجعلك تافهة؟ أنت جميلة، وأريدك أن تزي جمالك. أنت تلزمني بأن أفعل ذلك بالكلام، ولكن في استطاعتي أن أقول بألف طريقة أفضل. بالكلام لا أعطيك أي شيء، بالكلام لا أعلم منك شيئاً، ولا أنت تتعلمين من".

"ما الذي يمكن أن أتعلمه منك إذن؟".

"بل أنا أتعلم منك، يا ليديا، وأنت تتعلمين مني. لكنك ترفضين، ولا ترغبين إلا في حب رجل واحد، الرجل الذي سيغدو زوجاً لك. فيفرح لمراك ولا يتعلم شيئاً، ولا حتى يقبلك".

"إذن، أيها الأستاذ المثقف، سوف تعطيني دروساً في التقبيل؟".

ابتسم، على الرغم من أن هذه الكلمات لم تسره، ولكنه شعر أن خلف هالة الوقاحة الزائفة التي تحيط بها ثمة اشتياق مفاجيء وسط بتولتها، وصراعها للتخلص من شهرتها.

ولم يرغب في الرد عليها. ابتسم، وعانقت عيناه عينيها المضطربتين، وبينما هي مستسلمة، مع أنها أبدت مقاومة، للافتتان الكامن داخلها، مال بوجهه ببطء إلى اسفل إلى أن تلاقت شفاههما. ثم ضغط على فمها برقة متناهية، فأجابته بقبلة من بتول صغيرة، وتباعداً، وكأنما بدهشة متعذبة، حين رفضت شفاته أن تتركها. وتابع شفيتها وهما تتراجعان وتغويانه برقة، إلى أن تلاقت من جديد، بتزدد، وعلم المفتونة، دون إكراه، أن تمنح القبلات وتبادلها، وأخيراً مالت برأسها، وقد نالها التعب، على كتفه. تركه يرتاح هناك وهو سعيد، يستنشق عبير الشعر الذهبي الطويل، ويهمس بكلمات صغيرة لمواساتها، متذكراً كيف تعلم ذات يوم حين كان ذاك الطالب البريء، على يد ليزا العجرية. كم كان شعر ليزا فاحماً، وكم كانت بشرتها سمراء، كم أحرقتها أشعة الشمس، بينما عشبة يوحنا الذابلة تنشر عبيرها! أما الآن، فما أبعد الصورة المعروضة أمامه! كل شيء ذبل سريعاً، كسرعة إزهاره: انتصبت ليديا ببطء من جديد واقفة، وقد تبدلت تعابير وجهها واتسعت عيناها، عينا عاشقة جادة.

قالت: "دعني أذهب يا غولدموند، آه، يا حبيبي، لقد أطلت المكوث معك".

كانا في كل يوم يجدان ساعة سريعة يقضيانها معاً، ووهب

غولدموند نفسه كلها لحبه الجديد. إن حب هذه الفتاة يرقص في قلبه ويهدى من غلوائه. وكثيراً ما كانت تدور في ذهنها فكرة واحدة، أن تبقى يديه بين يديها على مدى ساعة، تنظر في عينيه، ثم تغالبه بعد أن تمنحه قبلة طفل. وفي أوقات أخرى كانا يتبادلان قبلات قصيرة، وحتى في تلك الأثناء قد لا يلمس جسدها. وذات يوم، رغبة منها في أن تمنحه متعة عظيمة، كشفت له، وهي تصارع نفسها، والحجل يصبغها بسمرة شديدة، عن صدرها: حلت صدرها في حياء، لتزيه الثمرتين البيضاوين الصغيرتين المستترتين خلفه: وحين ركع وقبلهما عادت فأخفتها بعناية، وما تزال وجنتها، وكامل عنقها، تصبغها حمرة قرمزية. كانا يتحادثان ولكن وفق النمط الحديث، ليس كما فعلاً في لقائهما الأول، حين أخذتا يختار عان أسماء عديدة ويتخاطبان بها. حكّت له عن طفولتها، وأحلامها وألعابها. وغالباً ما كانت تقول أيضاً أن حبها كان شريراً، لأنها وغولدموند لا يمكن أن يتزوجا. كانت تذكر هذا بصوت خفيض، مدعن، وتزين حبها بهذا الكرب السري. وكأنه حلية مبهرجة، أو كأنها كانت تضع خمراً أسود.

ولأول مرة يدرك غولدموند أن امرأة تحبه، وليس فقط تشتهي.

ومرة قالت له ليديا:

"أنت شجاع جداً، ومرح جداً. ولكن عميقاً في عينيك لا أرى أثراً للفرح. لا أرى غير الحزن، وكأن عينيك تفهم أن لا وجود للسعادة، وإنه لا يبقى بين ظهرائنا طويلاً أي محبوب أو أي شيء جميل، عينك أجمل عينين يمكن أن يحملهما رجل، وأكثرها حزناً. أعتقد أن السبب يعود إلى أنه لا بيت لديك. لقد أتيت إليّ من الغابة، وذات يوم سوف تعود إليها من جديد، لتنام على الطحالب، وتجوب الطرقات. أين بيتك الحقيقي إذن؟ بعد أن تذهب يبقى لدي أب وأخت، وسأوي إلى غرفتي البرجية التي لها نافذة، أجلس فيها وأذكرك: ولكن بعد الآن لن يكون لي بيت."

تركها تتكلم، وكان يتسم لها في أغلب الوقت. على الرغم من أن كلماتها كانت أحياناً تحزنه. ولم يعد يلجأ إلى الكلام ليواسيها. وبات يكتفي بالملاحظات الصغيرة الرقيقة، ويضم يديها إلى قلبه، ويهمهم بسحر ناعم في أذنيها، كما تهدد الحاضنات الأطفال الرضع عندما يكون. ومرة قالت له ليديا: "أود كثيراً أن أعرف ماذا سيحل بك يا غولدموند، وهذا التساؤل لا يكاد يفارقني. لن تكون حياتك سهلة، ولن تشبه حياة بقية الناس. آه، كم أتمنى لك السعادة! كثيراً ما يخطر ببالي أنه يجب أن تكون شاعراً، رأسه مملوء بالأحلام والحكايات، ويحسن التعبير عنها بالكلام الجميل. وإلا فإنك ستجوب العالم، وستقع كل امرأة تقابلها في غرامك، لكنك ستظل طوال الوقت وحيداً. الأفضل لك أن تعود إلى ديرك، إلى الصديق الذي حكيت لي عنه كثيراً. سوف أصلي لأجلك، لكي لا تموت وحيداً في الغابة".

كان في وسعها أن تنفوه بمثل هذه الأشياء بأعمق رصانة، بعينين كأنهما لا تريان العالم من حولها. لكنهما في أغلب الأحيان كانا مرحين، يقطعان الأراضي الخريفية البنية اللون على صهوة جواد، تحبزه أحاجي لتضحكه، أو ترشقه بالعصي وبشمار البلوط.

ذات ليلة استلقى غولدموند ينتظر مجيء النوم، وقلبه مثقل بهم جاد جديد: يخفق متزعجاً ثقيلًا، مملوءاً بالحُب، ينوء بالحدة والحزن. كان يسمع رياح تشرين الثاني تصر في الفياقي، وكان قد اعتاد منذ فترة طويلة على الاستلقاء بعض الوقت قبل أن ينام، أما الآن فالنوم يأبى أن يواتيه. راح يهمس، كعادته ليلاً، بأغنية لمريم العذراء:

أنت الجمال الكامل يا مريم،

يا من لا تشوبك شائبة،

أنت إسرائيل الخصبة،

أنت نصيرة الخاطئين^(١)

غاصت هذه الأغنية داخل عقله مثل موسيقى عذبة: إلا أنه ظل يسمع في الخارج هدير الرياح، تحكي حكايات عن القلق والترحال، عن غابات شتائية، عن كل مغامرات المتشردين القاسية، وفكر في ليديا، ثم في نرسيس وفي أمه: لقد كان القلب المضطرب يفيض حزناً.

ثم نهض واقفاً بجفلاً، وراح يحرق غير مصدق؟ لقد فتح الباب، ومن قلب الظلمة، برزت ليديا بقميص نوم أبيض طويل، تتقدم دون ضجيج على الحجارة اللوجية، حافة القدمين، لتصل إلى سريره. كانت قد أغلقت الباب بهدوء تام، وها هي تقرب لتجلس إلى جانبه.

همس قائلاً "ليديا، يا زهرتي البيضاء، يا ظبيتي الصغيرة. ليديا كيف أتيت إلي؟".

قالت "لن أمكث أكثر من دقيقة. أردت فقط أن أطمئن على نوم حبيبي غولدموند، حبيبي ذو القلب الذهبي".

تمددت إلى جواره، ومكثا في سكون، وقلباهما ينفقان بقوة. سمحت ليديا الساحرتين أن تتسللا إلى حيث تشاءان حولها، إلا أنها فوق ذلك كله ظلت ترفضه. وبعد برهة من الزمن أبعدت يديه عنها، وتسلفت عائدة. صرَّ الباب، وقرقعت الرياح السقف، وبدأ كل شيء مسحوراً يلفه الغموض، والسرية، والحزن، والوعيد، والوعد. لم يدر غولدموند بماذا يفكر، أو ماذا عليه أن يفعل. وبعد أن نام فترة قصيرة من النوم المضطرب، عاد فأفاق ليجد وسادته مبللة بالدموع.

بعد بضعة أيام عاد الشبح الرقيق إلى الظهور له، ليستلقي إلى جانبه مدة وجيزة، كما فعل من قبل. همست له، وهو يضمها بين ذراعيه، وكان لديها الكثير ليقوله، لتأسى عليه، وأنصت إليها برقة، وهي مستلقية وذراعه اليسرى تطوقها، بينما باليمنى راح يداعب ركبته.

(١) الأصل باللاتينية.

قالت، وهي تضغط وجنتها على وجنته، بصوت خفيض: "صغيري غولدموند، يحزنني أنني لا أستطيع أن أمنحك نفسي. وسرنا الصغير هذا، سعادتنا الصغيرة، لن تدوم. لقد بدأ الشك يساور جوليا، وسرعان ما ستحملني على أن أبوح لها بالأمر، وإلا ستخبر أبي به. ولو أنه يجدهني معك هنا على سريرك، فأه يا صغيري غولدموند، ستسوء أموري. وسيكون على حبيبتي ليديا أن تقف وتبكي، أن ترفع ناظريها إلى الأشجار، وتراقب صغيرها ذو القلب الذهبي مشنوقاً، وسرعان ما ستأوه الريح وهي تمر خلاله. آه، اهرب، يا حبيبي - اهرب فوراً: من الأفضل أن لا تدع والدي يقبض عليك، فيربطك ويوثقك إلى شجرة. لقد سبق أن شاهدت للتو أحدهم وقد شنق، كان لصاً. لا أتصور أن أراك مشنوقاً يا صغيري غولدموند، فاهرب بعيداً الآن، وانسي. آه، لا ينبغي أن تموت، يا حبيبي غولدموند، لا يمكن أن تأكل الطيور عينيكَ الزرقاوين، آه، لا، يا عزيزي، يجب أن ترحل، ويا ويلي بعد ر - بلك!".

"تعالى معي يا ليديا".

ابتسمت وقالت: "ما أجمل هذه الفكرة، آه، أي فكرة جميلة مريحة أن اهرب معك لنجوب العالم. ولكن لا أستطيع. لا يمكنني أن أتحمّل النوم في الغابة والاستلقاء في الحقول ليعلق القش في شعري. لا يمكنني أن أفعل ذلك، لا يمكنني أن أجلب العار لأبي. لا، لا تقل شيئاً، ما هذه إلا أحلام. لا أستطيع أن أفعل هذا. لا أستطيع أن أفعلها إلا إذا ما أستطيع أن أكل من صحن قدر، أو أن أنام مرتدية أسماً، أو أن ازحف كالقمل. آه، لا، نحن الإثنين ولدنا للحزن، وكل ما هو رائع وجميل محرم علينا. غولدموند يا حبيبي الصغير المسكين، سينتهي بي الأمر أن أراك مشنوقاً. بعد ذلك سأسجن وأرسل إلى أحد الأديرة. يجب أن تهرب يا حبيبي، وأن تعود لمضاجعة الغجريات وزوجات الفلاحين. آه، ارحل! ارحل قبل أن يقبضوا عليك ويشدوا وثاقتك. لن نكون سعداء أبداً أبداً".

داعب ركبته برهافة متناهية، ولمس برفق بكارتها.
 "يمكننا أن نبلغ السعادة يا زهرتي الصغيرة".

قالت "لا، لا، لن تفعل! هذا محرم علي! لعلك أيها الغجري الصغير،
 لن تفهم أبداً. إلا أنني أعتبر بنتاً شريرة، وقد ارتكبت خطيئة. لقد جلبت
 العار على المنزل بأكمله، ولكن مع أنني ارتكبت ذلك، إلا أنه في مكان
 ما من رוחي ما أزال أحتفظ بكبريائي كما كنت، كبرياء لم تصب بأي
 كسر. يجب أن تتركها لي، وإلا فلن آتي وأستلقي بجوارك".

لم يكن يرفض أن ينفذ أي أمر، أو رغبة، أو أي تلميح برغبة منها.
 وكان هو نفسه مبهور من تأثيرها الكبير عليه. إلا أنه كان يتألم،
 فأحاسيسه لم تشبع، وكثيراً ما كان قلبه يصارع عبوديته. أحياناً كان
 يجاهد كي يفضها عنه، ثم يسعى باللجوء إلى الكثير من الكلمات
 المعسولة للتودد إلى جوليا الصغيرة، وإن كان قد بات الآن على كل حال
 من دواعي الضرورة القصوى إبقاءها في الظل قدر الإمكان.

إلا أن جوهر قوة هذه الفتنة التي أسرت بها كلا الأختين أحاسيه
 جعله، وهو مذهول، على بينة من الفرق بين الرغبة والحب. في أول
 الأمر كان يشتهيها معاً بشكل متعادل، كان يشواق إليهما معاً، إلا أنه
 وجد أن جوليا هي الأعذب، وأنها ستكون الأكثر إمتاعاً في السرير،
 كان يغازلها معاً دون تميز، ودائماً يفكر فيهما معاً.

والآن تمكنت ليديا منه، فأحبها إلى درجة أنه بات يستنكر حتى
 فكرة أن يمتلكها امتلاكاً تاماً. أصبحت روحها أليفة لديه وحببية، وكان
 يجد فيها، بما تتسم به من رقة وحزن طفوليين توأماً لروحه. وكان غالباً
 ما يصاب بالدهشة وبالفرح الغامر عندما يرى كيف يعبر جسدها عن
 جوهرها، أنت تتكلم وتتصرف على طريقتها الخاص، تطلق حكماً أو
 رغبة، فإذا كلماتها التي لها شكل روحها، تبدو مصاغة بالصورة نفسها
 التي تمثل في أصابعها وعينيها. هذه اللحظات، الشبيهة بإلهام القوانين

والأشكال الأساسية الذي تكون بها جوهرها، روحاً وجسداً، كانت غالباً ما تثير لطفة غولدموند للإمساك ببعض من جمال هذا التكوين، واحتجازه. وجاهد، على صفحات كثيرة من الورق كان، فيما بعد، يخفيها بحرص، كي يستعيد بالقلم ذكرى الشكل العام لرأسها، وركبتها، ويديها، وانحناء حاجبيها.

أصبحت جوليا مصدر خطر. وعلى الرغم من معرفتها التامة في أعماق قلبها بأنفاس الحب التي تزدد في صدر أختها، مع أن أحاسيسها كلها كانت تجرّها إلى هذا الفردوس، إلا أن عقلها العنيد رفض أن يدعها وشأنهما. كانت تعامل غولدموند بعدائية متوترة وبرود، إلا أن عينيها، في لحظات من الفضول غير حذرة، كانتا تهيمان وتحوّمان حول جسده. وغالباً ما كانت رقيقة جداً مع ليديا؛ وأحياناً كانت تتسلل إلى السرير معها، وتلمح لها بكلام عن الحب والمعرفة الدنيوية يملؤها الجشع والفضول الصامت، تحديقاً بامعان شديد نزوي إلى هذا الشيء السري، المحرم والمرتبب. ومن ثم تلمح بسلطة تقريباً إلى أنها اطلعت على سر ليديا وأنها تشمئز منها لذلك. هذه الطفلة النزوية المحبوبة، التي هي بهجة وعائق، انقضت على فرح الحبيين القصير الأمد، وراحت تتجسس عليهما بخيال جامح نهم، مدعية أحياناً أنها لا تعلم أي شيء، وفي أحيان أخرى تجعلهما يدركان أنها مصدر خطر. وكانت قد كفت عن التصرف كطفلة، وأصبحت مصدر قوة. وعانت ليديا منها أكثر مما فعل غولدموند، الذي لم يكن يرى جوليا إلا على مائدة الطعام. ولم يرغب عن علم ليديا أن غولدموند كان واعياً لجمال جوليا، بما أنها غالباً ما ترى عينيه تقيمانها. ولم تكن تقوى على الكلام، فذلك أمر صعب جداً، وعلى جانب كبير من الخطورة. يجب أن لا تستفز جوليا وأن لا يثار غضبها. وأسفاه، إن أي يوم أو ساعة قد يشهد اكتشاف جهما، نهاية هذه السعادة المخيفة التي انتزعت بصعوبة، وربما ستكون نهاية مفجعة.

كان غولدموند كثيراً ما يتساءل لماذا لم يحاول على مدى تلك الفترة الطويلة أن يهرب من جديد. كان صعباً عليه أن يعيش كما يعيش الآن. يجب مكافأ وإن كان بلا أمل، سواء في سعادة دائمة مباركة أم في تحقيق قصير الأمد لم يكن قط، حتى ذلك الحين، ممنوعاً على رغباته: وكان طوال الوقت مهتداً بخطير ممت. آه، لم عليه أن يبقى ليتحمل كل هذا الاشتياق المكظوم والكبت الأعمى. أليست هذه المشاعر النبيلة والحيرة تناسب الرجال الأثرياء التقليديين، الأمنيين، رجال يعيشون كامينين في بيوتهم الدافئة؟ أليس للمتشردين الحق في أن ينأوا بأنفسهم عن مثل كل هذه الجحاملات وأن يضحكوا منها؟ لقد كان هذا من حقه، وكان حقاً منه أن يبحث عن نوع من الاحساس بالأمان المنزلي في هذا القصر، وأن يدفع ثمن ذلك ألماً مبرحاً وهماً.

مع ذلك تريث وتحمل الألم عن طيب خاطر، واجداً في ألمه نوعاً من السعادة. وكان صعباً وبلا معنى أن يحب بهذا الشكل، المخفوف بالأخطار والمملوء بالعوائق، إلا أنه كان رائعاً. إن في الجمال الحزين القائم لهذا الحب، وفي جنونه ويأسه، عظمة: لكل ليلة أرق ثقيلة مشحونة بالاشتياق المضطرب جماها: أيامه كانت كلها مفعمة بالبهجة النادرة حين يستشعر ارتعاشات الرغبة على فم ليديا، والاستسلام التائه في نبرة صوتها، وهي تحدته عن حبها ومخاوفها. وفي غضون بضعة أسابيع كان الحزن قد تسرب إلى وجهها، الذي كان يسره أيما سرور أن يتابع خطواته بقلمه وكان يشعر أن هذا الأمر وحده، وهو يفعله، هو الشيء الأهم، وأنه خلال تلك الأسابيع القليلة طرأ عليه تغير وكبر سنين عديدة، واكتسب خبرة وإن كانت أقل براعة إلا أنها أكثر عمقاً، وأنه ليس أسعد حالاً، لكنه أغنى كثيراً في الروح. أنه لم يعد فتى غراً بأي حال.

قالت له ليديا بصوتها الرقيق التائه :

"يجب ألا تحزن إكراماً لي، يا غولدموند، لا أود إلا أن أكون مصدر

سعادة لك وفرح. ساحني لأنني لطخت قلبك بحزني. إنني في كل ليلة يراودني أغرب حلم. يتراءى لي دائماً أنني أهيم في برية غارقة في الظلمة وهائلة ويتعذر علي أن أصفها لك، وأراني أمشي فيها وأمشي، أبحث عنك. ولا أجذك أبداً. وأعرف أنني فقدتك. لذا فيجب أن أواصل المسير إلى الأبد بحثاً عنك. ثم عندما أفيق أقول لنفسي: آه، ما اسعدني إذ أعلم أنه ما زال موجوداً معي، وأنه ما زال في وسعي أن أراه بضعة أسابيع أخرى أو أيام، وسيان لدي ما دام معي".

وذات صباح، بعيد بزوغ الفجر، استيقظ غولدموند وظل مستلقياً يفكر برهة، تحاصره صور حلم ولكن دون أن يربط بينها منطق أو معنى. كان قد حلم بنرسيس وبأمه، وكان لا يزال يرى طيفهما بوضوح أمامه. وبعد أن نفّض عنه هذه البقايا من الأوهام لاحظ نوراً جديداً غريباً في الغرفة، يتلألأ بنوع آخر من الصفاء من خلال النافذة الصغيرة المستديرة، المحفورة عميقاً في جدارها. قفز ناهضاً من سريره وهرع ليطل منها: رأى زخرفة النافذة البارزة، والفناء، وأسقف الاسطبل، ومن ثم كامل امتداد الريف بعد ذلك، يومظ بنور أبيض مزرق أمام ناظره، إنها بواذر ثلوج العام وقد غطتها كلها. هذا التناقض مع ما عكسه قلبه من اضطراب حار للعالم الهاجع الساكن، أقلقته. بأي هدوء مؤثر وخشوع كان المستنقع والغابة، والتل والأرض المحروثة، تستسلم للشمس أو للريح، والمطر، والثلج، والقحط. بأي ألم رقيق جميل انخنت أشجار الدردار تحت عبء شتائها الأبيض. ألا يستطيع البشر أن يرقوا إلى هذا المستوى من الصبر، ألا يتعلمون سر السكينة. خرج يتجول في الفناء، شارد الذهن، يخوض في الثلوج، يملأ يديه منها، ثم انتقل إلى الحديقة وراح ينعم النظر من خلال سياج نبات جنبه الرباط العالي في شجيرات الورد المكدسة بالبياض.

على مائدة الإفطار تناولوا حساء الجريش، وكان الجميع يتسامرون حول أول سقوط للثلج. وكان الجميع، وحتى الخادמות، قد خرجوا

إليه. هذا العام تأخر سقوطه، واقترب عيد الميلاد. وحكى الفارس عن
أراض في الجنوب لا يسقط فيها الثلج.

ولكن ما جعل هذا اليوم الأول من الشتاء يوماً لا ينسى في حياة
غولدموند لم يقع إلا في وقت متأخر من تلك الليلة. كانت ليديا وجوليا
قد تشاجرتا، إلا أن غولدموند لم يسمع بذلك. وبعد أن ساد السكون
والظلام المنزل، تسللت ليديا كالاعتاد إلى سريره، وتمددت إلى جانبه
بصمت والتصقت به، لتشعر بوجيب قلبه. كانت حزينة، تفيض بالدمع
جرا خيانة جوليا، لكنها لم تصل إلى حد مصارحة حبيبها، وتعكير
صفوه بخزنها. واستلقت ساكنة، بالقرب من قلبه، وكان من وقت لآخر
يهمس لها ويداعبها، ويمرر أصابعه خلال شعرها. وفجأة - لم يكن قد
مضى وقت طويل عليهما - أخذ جسدها يرتعش من رأسها وحتى
القدم، فاعتدلت في جلستها مستقيمة كالسهم، مفتوحة العينين. ثم أخذ
الخوف يظهر على غولدموند نفسه وهو يراقب باب غرفة النوم يفتح
ببطء، ويرى شخصاً، لم يتعرف عليه في أول الأمر من شدة الرعب،
يتسلل متقدماً من سريره. ولم يتمكن، إلا بعد أن أصبح بجوار سريره،
ويخيم عليهما، وقلبه يخفق بقوة، من أن يرى جوليا. تركت العباءة التي
كانت تلتفح بها حول قميص نومها، تنزلق إلى الأرض. غاصت ليديا إلى
الخلف، وكأن ثمة من سدد إليها طعنة، وهي تطلق أنة، وتتشبث
بغولدموند. وتكلمت جوليا تخاطبهما، باستمتاع وخبث، وإن كانت
كلماتها ترتعش، وهي تهجس:

"لقد قررت أن لا أظل نائمة وحدي، فإما أن تضماني إلى سريركما
لنغدو ثلاثة أو أذهب الآن وأوقظ أبي."

أجابها غولدموند وهو يزيح الغطاء: "حسن، تعالي إذن، وإلا تجمادت
قدميك حتى التحجر."

وولجت زحفاً، وكان صعباً عليه أن يفسح لها مكاناً، بما أن ليديا
كانت متمددة كالميتة، ورأسها على الوسادة. ثم استلقى الثلاثة جنباً إلى

جنب، غولدموند في الوسط وحسنا على كلا جانبيه، ولم يتمكن للوهلة الأولى من أن يطرد التفكير في أن هذا كان، ليس منذ وقت طويل، أقصى ما يرغبه قلبه. وشعر، بوقار وخوف، وإن باستمتاع سري، بكفل جوليا يلامس جنبه.

عادت تقول: "كان يجب أن أرى بنفسى مدى وثارة ونعومة هذا السرير، الذي تتلف أخفى للتسلل خلسة إليه".

أخذ غولدموند يحف وجنته برفق على شعرها، ليهدها، ومرر يده البارعة على طول كفها وركبتيها، كما يداعب الرجال القطط، وشعر بسحرها يتسرب إلى أحاسيسه، ولم يعد توقيره لها يطبق أية مقاومة. إلا أنه ظل طوال الوقت يجتهد كي يطمئن ليديا، فيهمس لها في أذنها بهمسات حب صغيرة، إلى أن أوصلها أخيراً وببطء إلى الحالة التي رفعت عندها رأسها، والتفتت إليه. فقبلها دون أي صوت على عينيها وفمها، على الرغم من أن يده، وهو يفعل ذلك، كانت تخفف من روع أختها، وعلت نبرة الخطر الغريب لهذه اللحظات في عقله إلى ذروة لا تحتمل. لقد أطلعت يده اليسرى على الحقيقة وهي تتعرف على فتنة جسد جوليا المتوقعة الهادئة، بحيث أنه بات في وسعه الآن أن يتحسس وللمرة الأولى ليس فقط كل بهجة هذا الحب المرة ويأسه الذي شده إلى ليديا، وإنما أيضاً مدى حمقه. وبدأ يفكر في أن عليه، وهو يمنح شفثيه لواحدة، ويده للأخرى، إما أن يجبر نفسه على التخلي عن ليديا، أو أن يتخلى عنهما معاً، ويرحل بعيداً. لقد كان حبه لها بأسلوبه ذاك، ومن ثم تخليه عنها، بلا أي معنى وجائر.

تأوه في أذن ليديا: "حبيبة قلبي، إننا نتألم دون داع. في وسعنا نحن الثلاثة أن نسعد. فلن فعل ما ينادي به دمننا".

ارتجفت لدى سماعها كلامه هذا وابتعدت عنه، فوثبت رغبته لتلاقي

الأخرى، وبدأت يده تمتعها أيما متعة حتى أنها استجابت لمداعبتها بأنات طويلة مرتعشة. وعندما سمعت ليديا هذا انقبض قلبها، وكان سماً قطر فيه. نهضت، وأزاحت الغطاء، ووقفت على قدميها، وصرخت عالياً:

"هيا بنا يا جوليا".

ارتجفت جوليا: فحدة هذه الصرخة المفاجئة، العالية إلى درجة كافية لجلب الوبال عليهم جميعاً، قد نبهتها إلى الخطر الخدق بهم، فنهضت بهدوء. إلا أن غولدموند، المخدوع والمجروح في كل أحاسيسه، أسرع بالتمسك بها بينما هي تنهض، وراح يقبل ثدييها، ويهمس لها بكلمات تغلي بالرغبة:

"غداً، يا جوليا، غداً".

وقفت ليديا بثوب نومها حافية القدمين، يقرص أصابعها القر على بلاط الأرض العارية. أمسكت بعباءة جوليا وتلفعت بها: فعلت ذلك بحركة ملؤها إحساس بالضعة والألم، شعرت به أختها، حتى وهما في الظلام، مما أثار في قلبها، وأعادهما صديقتين من جديد. وتسلفتا معاً عائدتين على أطراف أصابع أقدامهما. واستلقى غولدموند، يتميز غضباً، ولم يجرؤ على التنفس إلا بعد أن ساد المنزل صمت القبور.

هكذا ارتد أولئك الثلاثة عن إقامة تلك العلاقة الشاذة الغريبة ليغوصوا في التأمل والوحدة. فحتى الفتاتان، وهما مستقلتان لم تجداً كلاماً تتبادلانه، وظل الأرق ملازمهما، يلفهما التحدي والصمت. وبدا كأن روح الصراع وسوء الحظ، وشيطان العزلة، والفوضى، واضطراب الأرواح الرهيب، قد أطلقت في هذا المنزل. ولم يرد النوم أجفان غولدموند إلا بعد منتصف الليل بوقت طويل، وكذا كان حال جوليا وحتى انبلاج الفجر، وظلت ليديا مستلقية لا تعرف النوم، يملؤها

الأسى، إلى أن بزغ نور النهار الشاحب زاحفاً على الثلج. نهضت على الفور، وارتدت رداءها، وركعت طويلاً أمام صليها الخشبي الصغير، وصلت حتى سمعت وقع خطى والدها على الدرج. فخرجت إليه وناشدته أن ينصت إليها. فقد عزمت، دون أن تبذل أي جهد لفصل انفعالين في خلدها، هما الغيرة، وحرصها على بكاره جوليا، عزمت على أن تضع حداً لكل هذا. كان غولدموند وجوليا ما يزالان نائمين حين سمع الفارس من ليديا كل ما رأت أنه يجب أن يعرفه. ولم تذكر الجزء الذي يخص جوليا.

عندما التحق غولدموند، في الساعة المعينة، بغرفة عمل سيده، ألقى الفارس وهو يرتدي كالمعتاد الثوب الصوفي الغليظ وينتعل خفه، ومنهمك في إعداد ما سيكتبونه سحابة النهار، وكان يرتدي جراب سيفه، وسترة جلدية طويلة بلا كمين، وأدرك على الفور ماذا يعني ذلك بالنسبة إليه.

قال الفارس بلهجة آمرة: "اعتمر قبعتك، وسوف نتمشى قليلاً معاً".

تناول غولدموند قبعته عن المسمار، وتبع سيده هبوطاً على الدرج، وخرجوا إلى الفناء، ثم نحو البوابة. سحقا أقدامهما الثلج المتجمد قليلاً. كان نور الصباح المائل إلى الأحمر، ما يزال شاحباً في السماء. واصل الفارس سيره صامتاً، والشباب في أعقابها يلتفت بين الفينة والأخرى ليرفع بصره نحو القلعة، إلى نافذة غرفته الصغيرة، والأسقف والقباب المائلة المغطاة بالثلج، إلى أن اختفى كل شيء في البعد. إنه لن يرى بعد الآن تلك النافذة أو تلك الأسقف، لن يرى بعد الآن ورشة عمله أو مكان نومه، لن يرى ثانية ابنتي الفارس. لقد كان ومنذ زمن طويل قد وطن نفسه على أن يفكر في هذا الفراق المفاجيء، لكن قلبه الآن كان مترعاً بالأسى، وبدا الفراق حزناً مضاً.

ظلاً يسيران هكذا ساعة، والفراس في المقدمة، وكلاهما صامت، وبدأ غولدموند يفكر في مصيره. لقد كان الفراس مسلحاً، ولعله سيسدد إليه الضربة القاضية، ومع ذلك فلم يثبته الخوف. إن الخطر المحقق ليس فادحاً: كل ما يحتاج إليه هو أن يطلق ساقيه للريح، وسيخلف وراءه رجلاً عجوزاً، يمتشق سيفاً، لاحول له ولا قوة. لا، لا خطر على حياته. لكن هذا المسير الصامت خلف الرجل العجوز المهيب، وهذا الاستسلام الأخرس من جانبه لقيادته، كان يزداد إيلاماً مع كل خطوة، وأخيراً توقف الفراس.

وهذر قائلاً: "والآن سوف ترحل وحدك، وستواصل السير في هذا الاتجاه، وتعيش حياة التشرد كما عشتها في السابق. وإذا رأيتك بالقرب من منزلي مرة أخرى فسوف أرميك بسهم قاتل. لا أريد متشرداً. كان يجب أن أكون أحكم في أن أدع شاباً في ميعة الشباب يجاور ابنتي. ولكن إذا ما جرؤت على العودة، فستكون تلك نهايتك! والآن اذهب وليغفر لك الرب خطاياك".

بدأ وجهه، بلحيته الشائبة، في وسط ضياء الثلج الخافق الحي، ميتاً مطلقاً. ظل واقفاً هناك ينتظر كشبح، ولم يتحرك قيد أنملة من موقعه حتى غاب غولدموند عن ناظريه خلف الراية.

كان الوهج الأحمر قد اختفى عن صفحة السماء، ولم تظهر الشمس، وانهمرت من حوله رقاقات ثلج متباطئة تدوم.

الفصل التاسع

كان غولدموند يعرف هذا البلد من عدة زيارات له. فبعد تلك البحيرة المتجمدة ثمة حظيرة يملكها الفارس، وأبعد منها أرض يستأجرها فلاحون لديه بينهم أصدقاء. وقد يضطر إلى اللجوء إلى بعضهم بحثاً عن إيواء ومنامة، أما أي شيء آخر فيمكن أن ينتظر إلى الغد. وشيئاً فشيئاً عاد إليه تقديره القديم للحرية والانطلاق في مغامرة جديدة، وكاد لفترة من الوقت أن ينساه. صحيح أن في هذا اليوم الشتائي حقاً كانت فكرة البدء بمغامرات تشيع إحساساً مصبغاً وغير محمساً، وصحيح أنها ستكون موجهة، يرافقها الجوع، وصعبة، إلا أن ضرورتها غير المقيدة، القاسية كانت بمثابة عنصر مسكن، وكادت تكون بلسماً، لأحاسيسه المتبلدة ولكل ما في قلبه من تشوش.

ظل يركض إلى أن ناله الإرهاق. وقال لنفسه، لا ركوب خيول بعد الآن. آه، ما أرحب العالم! كان الثلج قد توقف تقريباً عن الهطل. وعانى البعد. بدت أرتال غير منتظمة وكأنها تتداخل والسحب الرمادية فوقها، وسكون يمتد مترامياً أكثر فأكثر، ليليل حتى نهاية العالم. ما هو مصير ليديا الحائفة المسكينة الآن؟ كان يرثي لحالها من أعماق قلبه، وكان يفكر فيها بخنان وهو مستلق ليرتاح بجانب جدول متجمد، تحت شجرة دردار منعزلة. جسد دا. ديان

البرد يخره، فنهض واقفاً، وقد تيبست أوصاله، وشيئاً فشيئاً انتقل من المشي إلى الركض تقريباً، فقد بدا الضوء الكليل الباهت وكأنه قد خبا.

لم يكن يفكر في أي شيء، وهو يقطع حقولاً خالية. ما الذي يمكن أن يجنيه من الأفكار أو المشاعر، مهما كانت جميلة ورقيقة؟ يجب أن يبقى دافئاً، وأن يجد ملجأ في مكان ما يمضي فيه الليل وأن يظل نشطاً، كثعلب أو دلق، وسط زمهرير هذا العالم المصقع، فإن لم يكن في مقدوره أن يستسلم للموت في حقول مثلجة: فلا شيء آخر غير هذا يستحق التفكير فيه.

التفت مندهشاً لدى سماعه وقع حوافر حصان عن بعد، وراح ينظر فيما حوله. أيكونون قد أرسلوا من يقتنصه؟ استل خنجره الصغير المخصص للصيد من جرابه ليحرر نصله من غمده الخشبي. ثم لمح راكباً عن بعد، وتعرف على حصان من اسطبل الفارس، وكان يخب بعناد ليلحق به: إن أية محاولة منه للهرب لا جدوى منها، فوقف ينتظر دون خوف حقيقي، إلا أنه كان مشدود الأعصاب ترقباً وفضولاً، وقلبه يخفق أسرع فأسرع، وقفز إلى رأسه خاطر "لو أنجح في قتل الراكب! يجب أن أحصل على حصان، وبعدها سأملك العالم كله". ولكن عندما رأى الراكب، هانز، فتى الاسطبل، بعينه الزرقاوين الرقائتين الوضاعتين، ووجهه المستدير الأبله، ضحك من نفسه. يجب أن يكون قد قد من حجر لكي يذبح مثل هذا الساذج الطيب اللطيف. رحب بصديقه هانز، وربت برقة على حصانه "هانبيعل"، فتعرف عليه على الفور من مداعبته لعنقه المتعرق الدافئ.

سأل الفتى: "إلى أين يا هانز؟".

ابتسم هانز ابتسامة عريضة كاشفاً عن أسنان براقية وقال: "إليك أراك قد قطعت مسافة لا بأس بها سريعاً؟ والآن بعد أن عثرت عليك لا يمكنني أن أمكث. ليس أمامي إلا أن أنقل إليك السلام وأسلمك هذه".
"ومن السلام؟".

"من السيدة ليديا. آه، لقد عكرت علينا صفو يومنا يا سيد

غولدموند. لقد أسعدني أن أتمكن من الابتعاد قليلاً. لا يجب أن يعرف السيد أنني خرجت حاملاً رسالة، وإلا شنقني حالما يقع بصره عليّ. فخذها."

ومد لغولدموند يده بلفافة.

"قل لي يا هانز، هل تحمل أي خبز في حقيبتك؟"

"خبز؟ أعتقد أن هناك كسرة". ثم نقب وأخرج قطعة كبيرة من خبز الجودار. ثم استعد بالحصان للرحيل.

سأل غولدموند "كيف حال السيدة ليديا؟ ألم تحملك أية رسالة؟"

"لا، لم أتكلم معها إلا قليلاً. إن الجو مكفهر جداً في المنزل. أؤكد لك. السيد يزرع المكان جيئةً وذهاباً مثل الملك شاؤول. ليس لدي إلا هذه أعطيك إياها، ولا أكثر، يا سيد غولدموند، والآن يجب أن أسرع بالعودة."

"نعم، ولكن تريث دقيقة فقط. هانز، هل يمكنك أن تتخلى لي عن خنجر الصيد خاصتك؟ ليس لدي إلا واحد صغير. حتى إذا خرجت علي الذئب و - من الأفضل أن يكون بحوزتي خنجر جيد."

لكن هانز لم يقبل بهذا بأي حال. قال إنه سيألم كثيراً إذا ما حل بالمعلم غولدموند أي مكروه. ولكن لا يستطيع أن يتخلى عن مديته الكبيرة - لا يمكن أن يتخلى عنها، لا، ولا مقابل ذهب، ولا حتى مقابل واحدة أفضل. آه، لا، لا يمكن أن يفرط بها، ولا حتى لو طلبت ذلك منه القديسة الطيبة جنييف. والآن يجب أن يحث حصانه، وتمنى له رحلة موفقة، وأبدى له أسفه.

تصافحا وعاد الفتى ينطلق خبيأً، بينما وقف غولدموند يتابعه بنظره، وفي قلبه حزن غريب. ثم حل اللفافة، وأعجبته الأربطة الجلدية الأنيقة الثخينة الجيدة التي تلفها. كانت تحوي قميصاً منسوجاً من

الصوف الرمادي القوي، وبدا أنه صنع يد ليديا، وكان على مقاسه. وداخل الرداء الصوفي كان شيء قاس - ضلع لحم خنزير - وداخل اللحم هناك شق مستطيل، وداخل هذا الشق أقحمت قطعة نقد من الذهب الصافي. وكل هذا جاء دون رسالة.

وقف وسط الثلج يحمل هبة ليديا، وتردد: ثم تجرد من سترته الطويلة، وارتدى الرداء الصوفي، فأشاع الدفء فيه، ودثر جسمه البارد. وعجل بارتداء السترة الطويلة فوقه، وأخفى قطعة النقد الذهبية عميقاً في الجراب، وشد أحزمة الجلد حوله، وواصل طريقه على حقول الثلج. لقد حان الوقت للعثور على مكان للنوم، بعد أن أخذ الإرهاق ينال منه. لن يلجأ إلى أي من أكواخ الفلاحين، على الرغم من أنه كان يمكن أن يجد بينها مأوى دافئاً، وطاساً من الحليب يجدد قواه، لم تكن به رغبة في الشرثرة وفي الإجابة عن الأسئلة.

نام على الثلج، ونهض عند بزوغ الفجر، وراح يمشي بخطى مجهدة على الجليد في مواجهة رياح صرصر، يستشعر البرد للوصول إلى محطات اضطرارية. وظل ليالٍ طويلة يحلم بالرجال العجوز الممتشق سيفه، وظل أياماً عديدة تعتصر قلبه الوحشة والحزن.

في قرية لا يوجد لدى الفلاحين الفقراء فيها شيء، وإنما فقط حساء دقيق ليقدموه له، وجد مأوى بعد ذلك ببضعة أيام، عند هبوط الظلام. هنا كانت مغامرات جديدة في انتظاره. فقد ولدت المرأة التي استضافته طفلاً أثناء الليل، وحضر غولدموند الولادة. وقد أيقظوه من نومه على القش ليمد لهم يد العون، على الرغم من أنهم في آخر المطاف لم يحتاجوا إليه، فيما عدا حمله لشمعة الأسل أثناء قيام المولدة بعملها. وكانت تلك أول عملية توليد يشهدها في حياته، وفجأة، وقد شعر أنه اكتسب تجربة جديدة، راح يحدق بعينين لامعتين مدهوشتين إلى وجه هذه المرأة التي تعاني المخاض. لقد بدا له على الأقل أن ما شاهده في وجه المرأة يستحق

التأمل، وأن ثمة شيئاً تكشف له هناك على ضوء المصباح ما كان قبل ليتجنبه. فثمة الالتفات إليه. فبينما هذه الأم المتألمة تصرخ معبرة عن آلامها التقاطيع الملتوية لوجهها تختلف قليلاً عن تلك المرأة التي رآها في ليلة البارحة. صورة المضاجعة على وجوه النساء اللاتي اقتنصهن. صحيح أن نفاثات الألم هذا الوجه كانت بارزة بقوة، وبالتالي كانت أوضح من أي شيء. لكن ما يكمن تحتها كان الشيء نفسه: لمحة تشبه التكميم لثقة. يسم الوجه، والتوهج نفسه، والانطفاء نفسه. وتعجب مطوّلاً من الشجرة التي خطرت له فجأة، يمكن للمتعة والألم أن يكونا متساويين كالتنين.

ومر بتجربة أخرى في هذه القرية. فإكراماً لزوجته أحد الخيران، التي وقع نظره عليها في الصبيحة التي تلت ليلة الولادة، والتي سرعان ما أنصبت إلى توسله، تريت ليلة ثانية في القرية، وأحسن إمتاعها، لأن تلك كانت أول عملية إشباع لشهوته، بعد أسابيع عديدة من الخداع والشوق. وبعد هذا التأخير كانت هذه المغامرة. وبسببها، وفي اليوم الثاني لمقامه في هذا المكان، التقى مصادفة برجل طويل أصلع، بعمر فكتور، وبدلاً له أنه نصف رجل دين ونصف متشرد، حياه بتعبر باللاتينية، وأعلن نفسه طالباً جوالاً، على الرغم من أنه قد تجاوز سن الالتحاق بالجامعات. هذا الرجل، بذقنه المدببة غير الحليقة، قابل غولدموند بشيء من روح الرفقة وحس الفكاهة عند المتشرد، التي سرعان ما أكسبته رفيقاً شاباً. وإجابة على سؤال غولدموند له أين تلقى دراسته، وإلى أين تقوده رحلاته، تبجح الأخ الغريب بما يلي: "وحق روحي الضائعة المسكينة لقد تدرجت على كثير من المناصب العلمية. زرت باريس وكولونيه، ونادراً ما ترددت كلمة أحفل بالمعاني حول الميتافيزيقيا الحقيقية لنقانق الخيل على غير لساني، في أطروحتي في ليدن. ومنذ ذلك الحين، يا amicel، وأنا أجول، طالب فقير، في طول الأراضي

الألمانية وعرضها، وروحي الغضة تتوجع وتتعذب بجموع للمعرفة لا يشبع. أطلق عليّ اسم فزاعة عاهرات الريف، وكان سري هو تعليم العاهرات الصغيرات باللغة اللاتينية، وطرّد النفاق من رفوف المواعد إلى بطني، إن ملك بوهيميا هو أخي، والأب الكلي يغذي ثخن الإثنين، وإن كنت أنا الذي تحمل العبء الأكبر جراء ذلك. وبعد يومين عمد إلى إساءة معاملي، وهو الأقسى قلباً بين الآباء الكليين، بإنقاذ حياة ذئب جائع بحثي المسكينة. ولو لم أصرع ذلك الذئب يا سيدي الزميل، لما حظيت الآن بشرف معرفتي الموقرة. saecularum، In saecula،^(١) amen.

شعر غولدموند الذي لم يكن بعد قد تضلّع في هذا النوع من فكاهة المشائق، منجذباً إلى شيء ما في المتشرد الصلب، مع أنه كره الضحك الفظ الذي كان يقابل به الرجل نكاته، ثم إن الوجه الطويل غير الحليق كان يخيفه قليلاً. ومع ذلك اقتنع بسهولة باتخاذ منذ ذلك الحين رفيقاً له على الطرقات، بغض النظر عن كون حكايته عن الذئب المذبوح هي للتفاخر، فإن الإثنين هما دائماً أقوى وأكثر أماناً من واحد، لكن فيكتور رفض أن ينطلق من جديد إلا بعد، كما قال، أن يعلم بعض اللغة اللاتينية للفلاحين، وهكذا، أقام في القرية ليلة أخرى. ولم تكن طريقته في التوجه إلى عمله تشبه، حتى ذلك الحين، طريقة غولدموند خلال كل جولاته، وذلك عندما طلب له مأوى في القرية. فقد أخذ فيكتور ينسل خلسة من كوخ إلى آخر، يثرثر مع النسوة عند كل باب، مقحماً أنفه الطويل في الاسطبلات والمطابخ، كارهاً أن يواصل طريقه قبل أن ينال مقدمة من كل منزل. كان يُخفي حكايا عن الحروب في إيطاليا لكل ربة بيت، يجلس القبرساء في موقدها، ويجار بأغنية عن القتال في بافيا، ولديه

(١) - وإلى أبد الأبد، أمين.

علاج خاص لأسنان الجدة الساقطة، والتهاب المفاصل، ويحشو سترته الطويلة حتى الحزام بالجوز، وبقشور الأحياء، وبقطع الخبز. وقد ذهب إلى كل مكان كما بدا، وكان لديه طرف من كل علم. جلس غولدموند يتأمل فاعراً فاه، وهو يخوض حربه التي لا تنتهي لجمع مؤنته، يداهن البعض ويخيف البعض الآخر، متفاخراً ليثير دھولهن، يتبجح بالمقتطفات اللاتينية ويمثل دور المثقف، يشوش عقولهن بمختلف ألوان الخدع، وعيناه الحادتان تنتقلان طوال الوقت، من وجه إلى وجه، يرصد كل خزانة موارد، كل رغيف خبز، الذي يحل كل مشكلة. ولاحظ غولدموند الشاب أن هذا متشرد متمرس، يتحمل الحر والقر، رجل عاش في مناخات عدة، برد وجاع سنين كثيرة، حتى بات وقحاً ماكرًا، يخوض حرباً مريرة في حياة متقلبة ومحفوفة بالمخاطر. تلك هي نهاية أولئك الذين يطيلون البقاء على الطرقات العامة. فهل يا ترى سيغدو مثله ذات يوم؟.

في صباح اليوم التالي انطلقا معاً يسيران، ولأول مرة كان لغولدموند رفيق. وبعد مرور اليوم الثالث كان قد تعلم أشياء كثيرة. وإشباعاً للحاجات الثلاث للجوالين، الأمان من الخطر المهلك، وملجأ من البرد، وبطن مملوءة، قل لديه الفكر، وهو بصحبة فيكتور، ونمت الغريزة. لقد علمته سنين طويلة على الطرقات الشيء الكثير، بالإضافة إلى أنه كان ضليعاً في فنون عدة، ويمكنه أن يستشف من دلالات غامضة اقتراب أي مسكن إنساني، حتى في الظلام، أو في الثلوج العميقة، ويعرف بدقة أي مكان في الغابة أو الحقل هو الأفضل للنوم فيه أو الجلوس لأخذ قسط من الراحة، ويستطيع أن يقدّر بدقة، لحظة يلج غرفة، مدى ثراء صاحبها أو فقره، ومدى طيبة قلبه، أو فضوله، أو خرفة. وراح رفيقه الشاب ينصت بشغف، ولكن عندما استجاب غولدموند ذات مرة لنصيحته بإخباره أنه ارتكب خطأً باقترابه من نماذج بشرية على قدر كبير من النفاق، وأنه،

على الرغم من جهله بهذه الأساليب الملتوية، نادراً ما أنكر عليه كرم الضيافة حين طلبها بكلمات ودية، ضحك فيكتور النحيل والطويل، وأجاب بروح فكهة :

"لا شك، يا صغيري غولدموند في أنك مخطوط. أنت شاب صغير، وتظهر عليك سيماء الشجاعة الكبيرة، وتبدو كأحد الملائكة الحارسة، وسيما وبريئا، ومنظرك يغري بالاحتفاظ بك آناء الليل. أنت تسعد النساء، ويقول الرجال: "لاضرر منه. إنه لا يقوى على إيذاء ذبابة" ولكن، اسمع يا صديقي الشاب، إن الشباب يولي، والوجه الملائكي ستظهر عليه الجذامة، ثم تأتي التجاعيد، والجورب سيحتاج إلى ترقيع وقيل أن يدري الإنسان أين هو يتحول إلى ضيف سقيم، بشع المنظر، لا يحمل في عينيه غير نظرة نهمة حلت محل كل البراءة الجميلة العذبة: عندئذ يتوجب عليه أن يتعرف على العالم، وإلا وجد نفسه سريعا مرميا فوق كومة من الروث، ليأتي كل كلب خسيس في القرية ليتبول عليه. ولكن لا أعتقد أنك ستهم على وجهك على الطرق طويلا، فإدراكك شديدا الرقة، وشعرك أشقر جميل، وقربيا سوف تستقر حيث تجد أنك ستجد حياة أفضل، وتنام على سرير زوجي دافئ، وكبير، أو تركز إلى حياة رخيصة في أحد الأديرة، أو إلى غرفة كاتب عمومي دافئة مستكنة. ولم العجب، إنك بهذا الرداء الجيد الملقى على كتفك لجدير بأن تكون أحد الأرستقراطيين".

أخذ يمر يديه وهو يضحك على ستر غولدموند الضيقة الطويلة، فشعر هذا الأخير بأصابعه تتلمس وتفتش كل جيب منه. ابتعد غولدموند، متذكرا قطعته النقدية الذهبية. ثم حكى له عن قصر الفارس، وكيف حصل على هذه الملابس الجيدة وعن لغته اللاتينية، حتى أن فيكتور لم يفهم كيف ترك مثل ذاك العش المستكين في منتصف الشتاء، فأطلعه غولدموند، الذي لم يعتد الكذب على جانب من أخبار جوليا وليديا. وكان ذلك سببا في أول شجار قام بين الرفيقيين. فقد كان غولدموند في عيني فيكتور أبلا بدون صاحبه بفراره هكذا دون إشارة أي

ضجة، تاركاً القصر والفتاتين في حراسة أبيهم الطيب، الذي في السماء. يجب إيجاد حل لهذا، وقرياً سيضع خطة لتنفيذه، فسينطلق الإثنان إلى القصر، وعلى الرغم من أن غولدموند يجب ألا يظهر في الصورة، إلا أن صديقه فيكتور سيهتم بكل شيء. يجب أن يوجه رسالة حب صغيرة إلى ليديا: سوف يتم استقبال صديقه بوصفه مفوض، والعز من الله! ولن يغادر الحصن إلا بعد أن ينال هذا الشيء أو ذاك من الذهب أو المتاع مكافأة. وظل يثرثر هكذا، إلى أن استشاط غضب غولدموند، الذي رفض العرض، ورفض أن يزيد كلمة واحدة أخرى حول الموضوع، أو أن يفشي لفكتور اسم الفارس، أو أن يحدد موقع القلعة.

حين رأى فيكتور مبلغ انزعاجه عاد يضحك من جديد، وتظاهر بأنه رفيق طيب. وقال مكشراً: "حسن، يبدو أنه يسعدك أن تنفض يديك من الأمر كله. كل ما أريد أن أقوله لك، يا سيدي الشاب، هو أنك تضيع على كلينا صيداً ثميناً، وليس هكذا يكون الزميل الطيب. ولكن يبدو أنك ترفض أن تنصت إليّ، أنت فارس ثري، وسوف تمتطي من جديد صهوة جوادك وتغير على القلعة، وتحمل الحسناء على ظهر حصانك. يا فتى، إن رأسك محشو بكل ما هو مسل وأحمق. الكل في واحد: سوف يسعدني أن أسير إلى جانبك وإلى وأن يتجه لـ حذاءنا وينخلعان من أقدامنا".

ظل غولدموند مقطب الجبين حتى المساء. ولكن بعد ذلك، عند الغروب، لم يعد لدهما ملجأ ولا عثراً على أي أثر لكائن بشري وقد كان سعيداً إلى درجة أنه ترك أمر انتقاء مكان للنوم لفكتور، وساعده في إعداد مرقد من أغصان أشجار الصنوبر، وتهيئة مأوى على طرف الغابة، بين جذعي شجرتين، في وجه الرياح. ثم أكلا خبزاً جليداً وجبناً، من جراب فيكتور العارم. والآن، بعد أن نحل غولدموند مما أبدى من غضب، أخذ ييدي مرونة ويقدم يد المساعدة، وأعطى رفيقه قميصه

الصوفي ليرتديه أثناء الليل، وتكفل بالقيام بنوبة الحراسة الأولى، بعد أن اتفقا على التناوب على الحراسة، وإبعاد الذئاب. واستلقى الآخر على سرير الأغصان لينال قسداً من النوم. اتكأ غولدموند فترة وجيزة على جذع شجرة الصنوبر، بهدوء تام، لكي لا يزعج نوم زميله. ولكن حين بدأ يصقع، أخذ يتمشى في النوبة. وأخذت دائرة خطواته تزداد اتساعاً، ورفع بصره إلى رؤوس أشجار الصنوبر المدببة، كنصال الرماح، مسددة إلى السماء الرصاصية، وفي قلبه شيء من الحزن والخوف من الليل، المصقع، الساكن، العميق، الذي يشمل، وكان قلبه الحي، الدافئ يخفق وحيداً، في عالم من الصمت المطبق. ثم تسلل راجعاً لينصت إلى أنفاس رفيقه النائم. وشعر كما لم يشعر من قبل بعمق معاناة المتشردين، الذين لا يحول بينهم وبين الخوف الأعظم سور قلعة، أو جدار منزل، أو دير، السائرون عراة في عالم من الغرباء والأعداء، وحيدون تحت النجوم الساخرة المثلجة، و... .. تعوي بين الأشجار الصامدة الصبورة.

قال في نفسه، إنني أصبح أبداً مثل فيكتور، إن كان هذا يعني أن يمضي حياته كلها في هذه الطرقات. إنه لم يتمكن قط من أن يلبس لبوس الجواب المدافع عن نفسه ضد الخوف، أو أن يمارس خدعة اللصوصية الماكرة، لاقتناص لقصة عيشه أن ينتحل حماقته المتبجححة الوقحة، وفكاهة المشائق المتشدقة البتة. يتصف بها براماربا^(٢): ولعل هذا المحتال كان على حق، وغولدموند لا يمكنه أبداً أن يجاريه، لن يكون أبداً الجواب المشالي، وسيضطر ذات يوم إلى الانسحاب عائداً ليحتمي خلف جدران الأمان. ولكن على أية حال سرف يظل يشعر دائماً أنه بلا مأوى، وأنه لا وجود لمكان آمن حقاً ومحمي تماماً: سيظل العالم يمثل لغزاً حتى النهاية، لغز مبهم، جميل، رهيب، وينبغي أن ينصت حتى النهاية إلى صمته، وينبض

Bramarba - (٢)

قلبه في وسطه بعنف شديد، ويبدو كيئاً عابراً هشاً. ولعت بضع نجحات عالياً فوق رأسه: لا رياح، ومع ذلك بدا أن سحباً بعيدة تنحرف.

ظل فيكتور نائماً ساعات طويلة لأن غولدموند لم يجازف بإيقاظه وأخيراً صرخ فيه :

"هيا، يجب أن تأخذ قسطاً من الراحة، وإلا فلن تكون في الغد صالحاً لعمل أي شيء".

أطاع غولدموند، وتمدد على الأغصان، وأغمض عينيه. كان منهكاً ومع ذلك لم يوافق النوم. لقد أبعدت أفكاره النوم عن جفونه، ومعها إحساس جديد لم يتمكن من تفسيره، وكأنه كان قلقاً على صاحبه. ولم يفهم كيف أفشى قصته مع ليديا لهذا المتوحش، بضحكته الحادة، وأسلوبه الماجن الوقح في الاستجداء. كان حائقاً من فيكتور ومن نفسه، وراح يفكر وهو مثقل القلب بأفضل السبل لفض الشركة. ولكن يبدو أنه قد غفا، فقد وعى فجأة بجفلاً، أن يدي فيكتور تتحسسان جسمه، تجسسان هنا وهناك بحذر سريع، وتندسسان داخل جيوب سترته. كان في أحدها سكينه وفي أخرى قطعة النقد الذهبية. وفيكتور سيسطوي عليهما معاً إذا عثر عليهما. وظل يتظاهر أنه نائم، وحرك ذراعه وكأنه غارق في سباته. تراجع فيكتور. وصمم غولدموند، وفي قلبه ثورة عارمة، على أن يغادره في اليوم التالي.

ولكن حين مال فيكتور عليه للمرة الثانية، ربما بعد ذلك بساعة، وبدأ ينقب في جيبه ازداد غولدموند برودة من شدة الغضب، ولزم الهدوء التام، إلا أنه فتح عينيه، وقال له مؤنباً :

"ابتعد الآن! لن تجد شيئاً تسرقه".

قبض اللص، من شدة فزعه، على حنجرة غولدموند بكلتا يديه، فأخذ يكافح، ويصارع ليعده. لكن الآخر كان يضغط بقوة مضطردة،

واضعاً ركبته على صدره، وبدأت أنفاس غولدموند تختنق، فتلوى وجاهد بكامل جسده، الذي أضحي فجأة يقطاً نشيطاً، بعد ما عجز عن الإفلات منه، وبقوة الخوف الآني من الموت الذي استولى على وعيه. وأخيراً نجح في مد يده إلى جيبه، مع شدة انطباق القبضة على حنجرته، ورفع مدية الصيد الصغيرة إلى أبعد مدى، ثم انهال بها نحو الأسفل، بسرعة وبلا وعي، مرات عديدة، على فيكتور الراكع. وبعد برهة تراخت قبضة فيكتور، وعاد الهواء من جديد. واستنشق غولدموند نفساً عميقاً متلهفاً من البهجة، جذلاً بإنقاذ حياته.

ثم جاهد كي ينهض، لكن رفيقه النحيل الطويل كان قد تكوم بلا حراك فوقه، منهاراً، وهو يئن محشرجاً ودمه يسيل على وجه غولدموند. عندئذ فقط استطاع أن يدفعه جانباً وينهض واقفاً وهناك، في الضياء الباهت، جلس الجسد النحيل الطويل محدودباً، لزجاً بما يغطيه من دماء. وقبض غولدموند عليه، فرفع رأسه، ثم عاد فسقط مثل كيس ثقيل رخو. كان الدم ما يزال ينز من مؤخر عنقه ومن ظهره، في حين كانت الحياة تنسحب من فمه على شكل تأوه عفيف، سرعان ما تلاشى.

قال غولدموند في نفسه: "يبدو أنني قتلت الرجل". وراح يفكر في هذا ويقلب التفكير وهو راكع مهيمناً على فيكتور المحتضر، يراقب الشحوب وهو يقسي قسماً وجهه. "يا أم الرب المقدسة، لقد ارتكبت جريمة قتل". وسمع صوته وهو يقول هذا.

فجأة أصبح المكوث غير محتمل. فالتقط سكينه، ومسحها على القميص الصوفي الذي كان الآخر ما يزال يرتديه، والذي نسجته ليديا بيديها ليدفئ حبيبها، وأغمدتها في جرابها الخشبي ثم أقحمها عميقاً في جيبه، وقفز واقفاً، وأطلق ساقيه للريح بكل ما أوتي من قوة.

خلف موت هذا الجوال المرح حزناً ثقیلاً فيه. وبعد شروق الشمس نظف

جسمه كله، وهو يرتجف، من آثار الدماء، وظل على مدى نهار وليلة يسير على غير هدئ. وأخيراً نخسه بهماز الجوع، ودفعه إلى إنهاء ندمه ورعبه.

وأخيراً، وجراء ضياعه في الصقيع الخاوي المغطى بالثلوج، دون مأوى أو طريق أو لقمة تسد رمقه، أصبح وحشي المزاج، يائساً، يعوي معبراً عن حاجته كالوحش، ويضعف أكثر فأكثر، حتى الانهيار، لا يتوق إلا إلى النوم، والموت على الثلج. لكن الجوع لم يكن يدعه في سلام. راح يركض كالمجنون، نهماً للحياة، يدفعه ويستحدثه منتهى إحساس بالجوع واليأس، بقوة مجردة من الروح، ورغبة بهيمية، قوة صارمة صرف للحياة المجردة داخله. كان ينزع بأصابعه الزرقاء المتبيسة حبات العليق المتغضنة من شجيرات العرعر، المثقلة بالثلج، ويمضغ الثمار المرة، المملوءة بالأشواك الصنوبرية، التي كان مذاقها الحريف يثير جنونه، ويلتهم وراءها حفنات من الثلج ليطفئ ظمأه. وينفخ في يديه المتجمدتين، ثم يخر ليرتاح على أكمة، وهو يمسح بنظره الأرض بلهفة، فلا يرى على مرمى البصر غير أرض بور، وأرض الغاية، ولا أثر في أي مكان لكائن بشري. طار فوقه غرابان، فراح يتابعهما بنظرة حاقدة. لا، لن يكون طعاماً لهما ما دام في ساقية قدر ولو قليل من القوة، ويشيع في دمه قيس من الدفء الإنساني. نهض واقفاً ليوصل من جديد صراعه مع الموت الجبار، وأخذ يركض ويركض، ومن خلال الإرهاق المحموم لهذا الجسد الأخير تملك عقله حشد من أغرب الأفكار، وراح يلقي على نفسه مجموعة من أشد النكات إثارة للضحك، نصفها داخل عقله والنصف الآخر بالكلمات. وراح يصرخ منادياً على فيكتور، الذي كان قد طعنه، ويسخر منه ويوبخه بقسوة لأنه مات: "كيف حالك، أيها الأخ الماكر؟ هل ما زال القمر يسطع بصفاء من خلال أضلاعك؟ هل هناك ذئبان يتشتمان حول أذنيك يا صاح؟. لقد قلت لي مرة أنك قتلت ذئباً. فهل عضضته في عنقه أم انتزعت ذيله؟ إذن فقد كنت تريد قطعتي

الذهبية. أيها السكير العجوز! ولكن كما ترى لقد كان الصغير غولدموند كفؤاً لك - نعم، فيكتور، لقد نجح أخيراً في دغدغة أضلاعك! وطوال الوقت كنت تحتفظ بحقيقة الجبن والسحق، أيها الخنزير، أيها الجشع". كان يتفوه بمثل هذا المزاج، يعوي ويلهث، ويسخر من الميت، ويشمت به، ويضحك من الأحمق ويوبخه لأنه تهاون حتى ذبح كأبله، الساذج المسكين، المتبحر الأحمق.

ثم كف عن التفكير في فيكتور المسكين الهزيل منذ أن تراءت له جوليا وهي تركض أمامه، تماماً كما فعلت عندما تركته في تلك الليلة، لقد هتف لها بكلمات عشق صغيرة، أغواها بصرخات مرحة، فاسقة، طالباً جسدها، جعلها تأتي إليه، تجرده من قميصه، ويذهبان معاً إلى الجنة، قبيل أن يموتا بساعة واحدة، قبيل أن يتعفنا ويفسدا بلحظة. وراح يتوسل إليها، ويواصل غوايتها، يتغنى بثدييها الصغيرين النائتين، وبساقها، وبشعر تحت إبطيها الخشن الذهبي. وأيضاً، بينما هو يتابع دربه بخطى متعثرة، على الأرض السبخة المغطاة بطبقة من العشب مكسوة بالثلوج، بساقين متصلبتين، ثملاً من الألم، منتشياً بنهمه الخفاق للحياة، عاد ليهمس من جديد لشخص آخر. هذه المرة تحدث إلى نرسيس، ألقى على مسمعه أفكاراً جديدة، نكاتاً جديدة، حكمة جديدة.

سأله: "ألا يتتابك الخوف يا نرسيس، ألم يسبق لدمك أن جرى بارداً في شرايينك؟ ألم تره بأم عينيك؟ نعم، يا صديقي، الموت يملأ العالم، إلا أنه يقف على كل وشيع، ويتربص منتظراً عند كل جذع شجرة لذا لا يمكن لجدران البناء الحجري والمنامات، والكنائس وأماكن العبادة والتقشف أن تقدم أي عون. سوف يترصّدك من خلال أي نافذة، يمكنه أن يبتسم، وهو يعرف كل واحد منكم معرفة تامة، وعند منتصف الليل في وسعك أن تسمعه يقهقه، ويكيل لك الشتائم من خارج المنزل. إنهم يرتلون على مسامعك المزامير ويشعلون شموعك على

مذابحك، ويسارعون إلى حضور صلواتك الصباحية والمسائية، ويجمعون لك الأعشاب في غرفة المؤونة، ويرتبون لك الكتب في مكتبائك. هل تصوم يا صديقي؟ هل تتهجّد^(٢)؟ لا شيء من كل ذلك سيفيدك: سوف ينتزعها صديقك "الهيكل العظمي" كلها منك، سوف يجردك من لحمك، ويتركك ترتعد من شدة البرد. إركض يا نرسيس، عجل، ثمة وليمة تقام في الحقول: اركض - فقط احتفظ بعظامك متماسكة يا رجل، سوف تنفكك إذا لم تنتبه. لا يبقى الهيكل العظمي متماسكاً عند أي إنسان! لفتي على هيكلنا العظمي! لفتي على مرينا وبطننا! لفتي على عقلنا الصغير المسكين القابع تحت جمجمتنا! كل ذلك يذوب مثل الثلج. كله يذهب إلى الجحيم، بينما الغربان، مثل الكهنة السود، ينعبون على أغصانهم".

ظل الهائم على وجهه طويلاً لا يدري في أي مكان هو، أو إلى أين يذهب - إن كان يتكلم، أو يركض، أو ينبطح على وجهه. مشى برشاقة على العشب القصير، اصطدم وهو يركض بالأشجار، وتشبث وهو يسقط بنبات العليق، المثقل بالثلوج. لكن إرادته للهروب من الموت كانت الأقوى لديه، دائماً تطارده، وتحتة على التقدم، تلاحق الراكض الأعمى على أرضه.

عندما سقط في آخر المطاف وراح في إغماء طويل حدث ذلك في القرية نفسها التي كان قد قابل فيها، قبلها ببضعة أيام، المثقف الجوال، ورفع شمعة الأسل فوق امرأة تلد وتتمن. وانطرح لا يأتي بحركة، وخرج الناس وتحلقوا حوله وهم يثرثرون، لكنه لم يقو على تحمّلهم. وتعرفت المرأة التي كان قد طارحها الغرام على وجهه، وارتعشت لدى رؤياه، وأشفقت عليه، ودفعت بزوجها إلى أن يجرد الجسد شبه الميت إلى زريبة أبقارها.

(٢) - يسهر ليلاً للتعب.

بعد مضي وقت طويل استعاد غولدموند عافيته، وبات مستعداً للانطلاق على الدروب من جديد. فقد ساهم نومه الطويل ودفع الاسطبل، وحليب الماعز الذي سقته المرأة إياه، في الإسراع من استرداد جسده لقوته. وكاد ينسى كل ما كان قد مر به، سيره المجهد إلى جانب فيكتور. والليل الحزين المصقع تحت أشجار الصنوبر، ونهاية رفيقه الرهيبة، والأيام التي أمضاها في البراري. ولكن على الرغم من أنها تقريباً نُسيت إلا أن شيئاً منها بقي. ثمة خوف غامض رفض أن يفارقه، مع أنه رماه إلى الماضي: إنه رعب، لكنه شيء عزيز، غرق عميقاً داخله، إلا أنه ظل يحتل جزءاً من تفكيره، هو مذاق متخلف، فكرة متبقية، حلقة من جديد تطوق قلبه. لقد تعلم في أقل من سنتين كل ما يمكن أن يتعلمه عن حياة الجوالين: العزلة، الحرية، غريزة استكشاف أماكن الحيوانات والأشجار، تذوق الحب العابر، دون أي إيمان به، والحاجة، المرة كالموت. ظل أياماً عديدة ضعيفاً على الحقول الصيفية، وأياماً طويلة وأشهرًا ضعيفاً على الغابات، وأياماً في الثلوج، وأياماً يتلبسه الخوف من الموت.

وفي كل الأحوال كان أقوى مشاعره وأحدها هو أنه عليه أن يكافح الموت، هو أنه، على الرغم من إدراكه لضآلته ولوضعه البائس، ظل يشعر، بعد ذاك الصدام الأخير، بقوة الحياة الهائلة والرائعة داخله. كانت أصداء ذاك القتال ما تزال تتردد في أرجاء نفسه، وكان قلبه معتماً بها اعتماداً لا يزول، كانت معرفة عميقة كتلك الأخرى، التي لها إيمان وسيماء الرغبة، وتشبه كثيراً معرفة الأمهات والودات، المحتضرات.

ما أقرب الوقت الذي كانت فيه تلك الأم مستقلة، تنن، وتتلوى ألماً، ما أقرب الوقت الذي انهار فيه فيكتور وانكمش يثن، وكم كان دمه يسيل بسرعة ونعومة!

آه، وهو أيضاً كم علمته أيام الجوع تلك أن يحترس من الموت، كم

مزقت أحشاءه، وجمدته حتى كاد يغدو جليداً! وكم جاهد ضد كل ذلك، مسدداً ضربته المباشرة إلى وجه الموت، وبكم من الخوف القاتل، وبكم من النشوة القاتمة، أخذ حذرته! وشعر أنه لم يعد هناك في العالم ما يستحق أن يتعلمه. وربما سيتحدث في هذا الأمر مع نرسييس، فلا أحد غيره قادر على فهمه.

عندما عاد غولدموند، المستلقي على سرير القش في زريبة البقر، إلى وعيه للمرة الأولى، وجد أنه قد فقد القطعة الذهبية، التي أودعها جيبه. فهل أضاعها أثناء شبه غيبوبته الرهيبة؟ وراح يقلب التفكير في الأمر مطولاً. لقد أحب قطعته الذهبية، وما كان ليرغب في فقدانها. قد لا تعنى له النقود إلا القليل، لأنه نادراً ما عرف قيمتها، أما هذه العملة الذهبية قد زادت قيمتها عنده لسببين: إنها الهدية الوحيدة المتبقية من ليديا، لأن القميص تيس من الدماء. ثم إنه، قبل كل شيء، ما كان ليتخلى عن قطعة النقد الذهبية هذه بالذات، فمن أجلها تقاتل مع فيكتور، ومن أجلها قتله. فإذا كانت قطعة النقد الذهبية قد ضاعت فعلاً فإن عمله الشنيع، بشكل ما، سوف يفقد معناه. وبعد طول تفكير قرر أن يصارح المرأة القروية بما يخامره.

همس لها: "كريستين، كان معي قطعة نقد ذهبية في جيبى، ولم أجدها هناك".

قالت وهي ترسم ابتسامة رقيقة غريبة، ولكنها مأكرة: "إذن فقد لاحظت ذلك"، وسر لها حتى أنه على الرغم من ضعفه أحاط بخصرها بذراعه.

قالت برقة: "أنت شاب غريب، رائع جداً، وذكي، لكنك ساذج جداً. هل يمكن إلا لأحمق أن يجوب الطرقات وفي جيبه قطعة نقد ذهبية سائبة؟ لقد عثرت على قطعتك الذهبية في سترتك الطويلة حالماً مددتك على القش".

"حقاً ؟ إذن فأين هي الآن؟".

ضحكت وقالت: "ابحث عنها"، وتركته بالفعل يبحث عنها فترة طويلة، قبل أن تكشف له عن المكان في السترة التي خاطت داخله قطعته الذهبية. ثم أضافت سلسلة طويلة من النصائح الحنون، الحكمة والطيبة، والتي نسيها حالما انتهت من إعطائها، وإن ما كان لينسى قط خدمتها لمحبوبتها، أو النظرة الماكرة الرقيقة التي تبدت في عينيها.

جاهد كي يعبر لها عن امتنانه. وحين بات، بعد فترة وجيزة، قادراً على مواصلة السير على الدروب، وشعر بتوق لمتابعة بقواله، تمسكت به، قائلة إن القمر سيتبدل قريباً، وعندئذ سيصبح الجو أكثر دفئاً دون شك. وهكذا كان. وعندما انطلق غولدموند في طريقه كانت الثلوج تغطي الدروب، سقيمة رمادية، بشكل كثيف، وكان الهواء ثقيلاً رطباً، والرياح الربيعية تمن في السماء.

الفصل العاشر

واصلت الثلوج صب الجدول، وبزغت أزهار البنفسج من خلال التربة، عابقة الجو بعبرها حيث كانت الأوراق العفنة، وواصل غولدموند سيره المجهد عبر الفصول المتنوعة الألوان، وحواسه تعب من الغابة، والجبل، والغيمة، وهو يهيم من قرية إلى قرية، ومن قلعة إلى قلعة، ومن حسناء إلى حسناء، يجلس ليرتاح في طراوة الأماسي، حزين القلب، تحت نوافذ مضاءة، حيث يخفق على البعد، على بريق ضوء الشموع، صافياً، نائياً ولا يمكن بلوغه، كل ما يمكن لليل أن يريه للجوالين من رخاء هذا العالم وسعاده وسلامه.

وكان كل شيء يعود ليتكرر - مرة، مرتان، ثلاث مرات - كل ما كان يظن أنه عرفه حق المعرفة. ومع ذلك فكلما رآه يجد أنه قد تغير السير المجهد الطويل في الحقل والسبخ، أو على الدروب الحجرية، والنوم الصيفي في الغابات، والتسكع في طرقات إحدى القرى، وتعقب حسناوات يسرن متشابكات الأذرع، في طريق عودتهن من جمع التبن أو قدُف حشيشة الدينار، والشعور بالارتعاشة التي يسببها استهلال فصل الخريف، ولذعة الصقيع المبكر القارصة المشؤومة: كل هذا كان يمر ثم

يعود كمرور شريط متعدد الألوان لا ينتهي أمام عينيه.

هطل الكثير من المطر والثلج على غولدموند وهو يتسلق ذات يوم جاهداً إلى ذروة منحدر شاهق مغطى بغابة من أشجار الزان، يغمرها الضياء، لكنها مملوءة باكراً ببراعم خضراء نضرة، ومن الأعالي من خلال أغصان عند قممها، راح يملئ ناظريه من منطقة ريفية أخرى تمتد أمامه، فابتهج قلبه، وأترع بالشوق، والتزقب. وظل طوال أيام يشعر بقربها منه، ويعمن النظر فيما يرى. والآن، أثناء هذا المسير النهاري هاهي تظهر ولم يكن يتوقعها مطلقاً، لتبث البهجة في حناياه وتقوي اشتياقه. أطل من بين الجذوع الرمادية والأوراق التي ترفرف برفق إلى الوادي الملون بالبني والأخضر الممتد تحته، يخترقه من المنتصف نهر رقرق أزرق. الآن خلف وراءه دروب الحقول، والتجول هنا وهناك عبر الفيا في ودخل غموض الغابة والأرض البور، دون أن يقابل أي قلعة أو قرية فقيرة لتستقبله. هناك، خلال الوادي، يجري النهر، وعلى طول ضفتيه تمتد وتنتشر أجمل، وأوسع، وأشهر الطرق العامة في الامبراطورية، وعلى الجانبين ينمو أغنى ريف وأخصبه، وتطفو على مياهه الأطواف والسفن الشراعية، بينما تؤدي الطريق إلى قرى جميلة، وقلاع، وأديرة، وإلى بلدان ثرية.

كل من شاء يمكنه أن يسير بمحاذاته على مدى أيام. دون أن يخامر قلبه أي خوف من أن يضيعه فجأة، وسط كثافة الغابة أو في المستنقع كما قد يضيع آثار الفلاحين الهزيلة في الحقول. أما هنا فشيء جديد يسعد قلبه.

ومع غروب الشمس كان قد وصل إلى قرية بهيجة، قائمة بين النهر وكروم عنب حمراء، أنحشاب أنبتها الجميلة وقبابها مخططة بخطوط قرمزية، ومنازل بها الكثير من الأبواب المقنطرة، ودرج عال. وكان هناك حداد يطلق وهجه عبر الشارع، مع رنين مطرقة صاف علي السندان. وراح الجوال يبحث في كل ركن وزاوية وهو يتنشق عبثاً قويا

مبتدلاً لنبيذ وبراميل خمر عند أبواب الحانات، والرائحة الفاترة الممزوجة بزنج السمك المنبعثة من ضفة النهر، وزار بيت الرب والمقبرة، دون أن ينسى أن يبحث عن مخزن دافئ للبيات فيه. ولكن أولاً كان عليه أن يلتمس بعض الطعام، من منزل الكاهن. وهناك، وجد كاهناً سميناً متورداً سأله عن حياته، فأخبره غولدموند، مضيفاً من عنده قليلاً هنا وهناك، ومسقطاً ما رأى أنه غير مناسب. وعلي الأثر استقبل بترحاب صادق، وبعد أن تناول وجبة دسمة وشرب نبيذاً، كان لا بد أن يقضي الليل تحت سقف الكاهن المحترم، ويحكي له قصصاً عن هذا الشيء وذاك. وفي اليوم التالي واصل سيره الوئيد على طول الشارع العام، وإلى جواره النهر بطوافاته وسفنه الشراعية مثقلة بالبضائع، فلوح لها بيد محيياً، وبعضها أنساه تعب الطريق. وحثت أيام الربيع خطاها مارة به، غنية بالصور لقرى وبلدان صغيرة رحبت بمقدمه، ونساء تبتسم له من خلال تعريشات الحديقة، أو وهن راكعات على التربة البنية ويزرعن النياتات: وفتيات يغنين عند المغيب في شوارع القرى.

فتنه جمال زوجة طحان شابة إلى حد أنه مكث في حيها يومين يغازلها: كانت مستعدة دائماً للضحك وللتسامر معه، وتمنى لو أنه يعمل صبياً عند الطحان، ليعيش معها في المطحنة إلى الأبد. وجالس صيادي السمك، وساعد سائقي عربات النقل في إطعام دوابهم وفي تمشيطها، ونال خبزاً ولحماً، وتوصيلة، لقاء ما بذله. كان سعيداً لحياة الجوالين الودود هذه، وقد سره، بعد طول وحشة وتأمل عميق داخل الغابات، أن يتبادل الأحاديث مع أناس شبعين مهذارين، ويأكل كل يوم حتى الامتلاء، بعد أشهر عديدة من الحمية الصارمة. وأسلم قياده للسيل المرح الرخي ليحمله معه، وكلما اقترب من مدينة "الأسقف" ظهرت أكثر أمارات الشراء والمرح على الطريق العام.

وذات مرة، مع هبوط الليل، توقف برهة في شارع إحدى القرى

القائمة على حافة النهر، تحت مجموعة من الأشجار الجميلة، الغزيرة الأوراق. وكان النهر يتدفق بهدوء وقوة، يتنهد، ويلعق الضفة الجاورة لجذورها: وفوق رابية ارتفع القمر، ملقياً بلمعانه على الجدول، وماداً ظلال الأشجار، هناك وجد فتاة جلست تبكي. كانت قد تشاجرت مع حبيبها، وقد تركها الآن ورحل. جلس غولدموند إلى جوارها، يسمع شكواها، ويمسك على يديها، يحكي لها عن غزالة الغابة، ولم تمنع بقبلة. ثم عاد حبيبها بحثاً عنها، وكان غضبه قد هداً، لييدي أسفه لشجارهما، فوجد غولدموند جالساً مع محبوبته فاندفع نحوه على الفور وراح يكيّل له اللكمات بكلتا قبضتيه بعنف. ووجد غولدموند بعض الصعوبة في الرد عليه، لكنه نجح في النهاية في التغلب عليه، وهرب الفتى وهو يلعن إلى قلب القرية. وكانت الفتاة قد فرت قبلها بوقت طويل.

لم يعد غولدموند يثق بهذه السكينة، فتخلّى عن أية نية لديه بإيجاد مكان لبياته، وواصل السير حتى منتصف الليل على هدى ضوء القمر، وسط العالم الفضي الهادئ، ممتلئاً بالرضى، مبتهجا لما يشعر به من قوة في ساقيه، إلى أن غسل الندى الغبار عن حذائه، وفجأة شعر بالإرهاق فتمدد تحت أول شجرة صادفها وأخلد إلى النوم.

كانت الشمس قد سطعت منذ وقت طويل حين شعر بشيء يدغدغ وجنته ويوقظه، فأبعده بيد ناعسة، وتقلب على جنبه وعاد إلى الرقاد. ولكن سرعان ما أيقظته الدغدغة ذاتها. وإذا به يرى فتاة واقفة تنظر إليه وتدغدغ وجهه بطيرف قضيب صفصاف السلاطين. ونهض واقفاً وهو يتعثر، ووقفاً وجهاً لوجه يتبادلان الضحكات، ثم قادته إلى مخزن حبوب لينام فيه بطرّف أفضل، إن شاء، وتمدداً لبعض الوقت، ثم ذهب مسرعة، وعادت مع طاس من الحليب لأجله، لا يزال دافئاً من ضرع بقرتها. وأعطاه شريطة زرقاء لتزين بها شعرها، كان قد التقطها من الطريق قبل وقت قصير. وتبادلا القبل وتشاجعا من جديد، قبل أن

يتابع طريقه. كان اسمها فرانشييسكا، وآله فراقها.

في تلك الليلة التمس ملجأ في أحد الأديرة، وهناك في صبيحة اليوم التالي، سمع قداس الصباح. فاستيقظت في داخله ألف ذكرى، ولدها الهواء البارد الرطب الآتي من القناطر، وقرقعة الصنادل على طول الأجنحة. وتذكر بشكل غريب جداً مسكنه في ماريابرون. وبعد انتهاء القداس وعودة السكون يُخيم على كنيسة الدير من جديد، ظل غولدموند راکعاً على ركبتيه، وقلبه في حالة هياج عارم. وكان في الليلة السابقة قد رأى في منامه أحلاماً كثيرة، والآن بات يشعر بحاجته إلى الاعتراف، ليتخلص من ماضيه إن استطاع ذلك، وأن يغير بشكل ما أسلوبه في الحياة، إلا أنه لم يستطع إلا أن يقول لنفسه: "لعل هذا فقط من تأثير جو الدير"، الذي أعاد إليه ذكريات شبابه المتقد في ماريابرون، التي بدورها عكرت قليلاً صفو روحه. اشتاق إلى الانعتاق والتوبة، بالاعتراف بآثامه الصغيرة العديدة، ولكن، وقبل أي شيء بالكشف عن موت فيكتور، الذي كانت صورته ما تزال جاثمة ثقيلة في ذهنه. فراح يبحث حتى عثر على أحد الآباء واعترف له بكل شيء، وخاصة بما سدد من ضربات قاسية إلى مؤخر عنق فيكتور وظهره. آه، كم مر من وقت طويل منذ أن اعترف آخر مرة. إن عدد آثامه ووطأتها تنوء بثقلها على كاهله، حتى لقد كان يسره أن يتقبل أي عقاب عليها لكن يبدو أن كاهن الاعتراف هذا كان يعرف طبيعة حياة الجوالين، فلم تبد عليه أي علائم للربعب أو المفاجأة، وظل ينصت إليه حتى النهاية، ويحذره وينصحه بكل رصانة ولطف، دون أن يشير ولو لمرة واحدة إلى أنه سيلعن. نهض غولدموند واقفاً وقد تخفف قلبه من عبئه، وصلى، وأعلن توبته، كما أرشده الأب من فوق منبر المذبح العالي، وهمّ بالانطلاق خارجاً من الكنيسة. فإذا بشعاع من الشمس ينصبّ من النافذة إلى مصلى جانبي، ورأى تمثالاً، وبدا كأنه يكلم قلبه ويدعوه للاقتراب منه،

حتى أنه التفت وكأنا ليرحب بمحبوب، ووقف مصعوق القلب يملؤه الخشوع. إنها أم الرب المباركة، من الخشب واقفة بكل سكون وهدوء، ورداؤها الأزرق متدل من على كتفيها الصغيرين، ويدها العذراء الرقيقة ممدودة إليه، وبريق عينيها ساطع، فوق فم يملؤه الأسى، وجبينها الناصع البياض مقوس بشكل مفعم بالحياة، يفيض بجمال عميق وشبه أرضي، حتى أنه شعر أنه لم ير مثيلاً لذلك من قبل، ولم يكن من قبل لينظر بهذا الإمعان إلى ذلك الفم، إلى انعطافة العنق الرقيقة.

أدرك أن ثمة شيء فيه قد بعث إلى الحياة، شيء شبه مجهول، لكنه كثيراً ما يرى في الأحلام، شيء تاق إليه طوال حياته. حاول مراراً أن يتعدى عن التمثال، لكنه كان دائماً يجذبه إليه من جديد. وعندما نجح أخيراً في الانعتاق منه واستدار، ألقى كاهن الاعتراف واقفاً خلفه. سأله الكاهن "أترى أنها جميلة؟".

قال غولدموند "جمال مبهر".

"كثيرون يقولون هذا. ويقول آخرون إنها ليست أم الرب الحقيقية، وإنهم يجدونها مغالية في عصريتها وفي دينيوتيتها. وإن كل ما يحيط بها زائف ومصطنع. وسمعنا الكثير من الجدل حول هذه المسألة. أرى أنها تسرك، وهذا يسعدني. إنها موجودة في الكنيسة فقط منذ عام، هبة من أحد المحسنين للبيت. صنعها المعلم نيقولاس".

"المعلم نيقولاس: من يكون؟ آه، هل تعرفه يا أبت؟ أوه، أتوسل إليك، أخبرني بما تعرفه! لا بد أنه رجل عظيم فائق الموهبة، حتى يصنع شيئاً كهذا".

"إنني لا أعرف عنه إلا القليل. إنه يحفر على الخشب، ويعيش في مدينة مطراننا، التي تبعد مسيرة يوم، ويتمتع بشهرة واسعة في حرفته. ومثل أولئك الفنانين ليسوا بقديسين عادة، ولا هو أيضاً، كما أعتقد، إلا

أنه دون شك رجل موهوب رائع. وكثيراً ما رأيته..."
 "أرأيت؟ كيف هو شكله؟".

"يا بني، يبدو أنك مفتون به، حسن إذن انطلق وابحث عنه بنفسك،
 وانقل له تحيات الأب بونيفازيوس".

صب غولدموند سيلاً من عبارات الشكر، وغادره الأب مبتسماً،
 إلا أنه ظل واقفاً فترة أخرى، مشدوداً إلى الصورة الغامضة التي بدا
 نهذاها وكأنهما يتنفسان، ووجهها بما فيه من ألم وعذوبة متجاورين
 يتعلق بهما قلبه. وخرج من الكنيسة شخصاً آخر، إلى عالم متغير تماماً.
 ومنذ أن وقع بصر غولدموند على أم الرب المباركة العذبة أصبح لديه
 شيء آخر لم يعرفه من قبل، شيء طالما ابتسم لذكره، أو أثار حسده عند
 الآخرين: هدف. نعم، لقد بات لديه هدف، وسوف يحققه، وهكذا فقد
 يصبح لكامل وجوده المشوش معنى جديداً وتناسقاً. إن المعرفة جلبت
 معها الفرح والخوف معاً. ولم يعد الطريق الجميل كسابق عهده ملعباً، أو
 مكاناً للاستمتاع والتسكع: الآن لم يعد غير طريق يؤدي إلى المدينة، إلى
 المعلم! وحث خطاه، ومع حلول الغروب لاحت المدينة له من بعيد،
 بأبراجها اللامعة من فوق الأسوار. رأى دروعاً مرسومة وشعارات نبالة
 محفورة على البوابات، فراح يركض تحتها بقلب يطفرف فرحاً، لا يكاد
 ينتبه إلى صخب الشوارع، والفرسان الراكبين، وعربات النقل والمحفات.
 فلا الفرسان ولا المحفات، لا المدينة ولا المطران كانت لها أية قيمة بالنسبة
 إليه. وسأل أول مواطن قابله عند البوابة أن يدلّه على منزل المعلم
 نيقولاس، وحزن حزناً مريعاً لأنه لم يكن يعرف عنه أي شيء. ثم وصل
 إلى ساحة تحيط بها منازل فخمة، بعضها مطلي بالذهب، وبعضها مزين
 بالرسوم والزخارف، وعند أحد الأبواب وضع تمثال طويل رائع لأحد
 جنود المشاة، دهن بألوان متألقة قوية. لم يكن على مستوى جمال صورة
 دير الكنيسة نفسه، لكنه كان يقف وقفة مهيبة، يبرز ربله ساقه، ويدفع

بذقته الملتحية نحو العالم، حتى أن غولدموند أدرك عن يقين أن أمامه عملاً من إنجاز المعلم نيقولاس ذاته.

هرع يدخل المنزل، هبط درجاً، دق على أبواب، إلى أن قابل سيّداً، يلبس رداءً من المخمل، ذا حواف من الفرو، سألته عن بغيته. فسأل عن منزل المعلم نيقولاس. لأي غرض يريده؟ هكذا سأله السيد، وبذل غولدموند جهداً جباراً للتحكم في نفسه، واكتفى بالقول إن لديه رسالة له. فذكر له السيد اسم الشارع الذي يقطن فيه المعلم، ولكن في الوقت الذي استدل فيه غولدموند على المكان كان الليل قد حل. وقف أمام منزل المعلم، يفيض فرحاً، وإن كان ما يزال مضطرباً، وود لو أنه يلجّه مباشرة. ثم تذكر أن الوقت متأخر، وإن الأوساخ والعرق تسربله جراء الرحلة، فأكره نفسه على الانتظار فترة أخرى، على الرغم من أنه ظل لبعض الوقت لا يقوى على الابتعاد عن الباب.

رأى نوراً يشع من النافذة، وما إن هم بالرحيل حتى مال شخص مطلاً منها، فتاة جميلة جداً، ذهبية الشعر، تسلك من خلاله ضوء الشموع المقاتدة خلفها في الغرفة.

في اليوم التالي، بعدما استيقظت البلدة وعادت إليها الضجة غسل غولدموند وجهه في الدبر الذي آوى إليه، ونفض الغبار العالق بشبابه وحذائه، وشق طريقه إلى ذاك الشارع نفسه. دق على باب المنزل، فجاءت الخادم، التي أبدت تردداً في قيادته إلى معلمها مباشرة، لكنه نجح في تليين قلبها العجوز، وأخيراً قادتّه إلى داخل المنزل. كان المعلم نيقولاس واقفاً في ورشته الصغيرة، رجلاً طويل القامة ملتج يرتدي منيراً جلدياً، وبدا لغولدموند أنه في الأربعين من العمر أو ينوف على الخمسين. حلق بعينين ذوات زرقاة فاتحة حادتين إلى الغريب، وسأله باقتضاب عما يريده، فنقل له غولدموند تحيات من الأب بونيفاريوس.

"أهذا كل شيء؟".

قال غولدموند، سقيم القلب: "يا معلم، لقد رأيت إنجازك لأمر الرب هناك في الدير. آه، أتوسل إليك أن لا تقابلني بكل هذا الجفاف، فلم يُحدني إلى المحيء إليك إلا حبي الخالص واحترامي لك. لا تخف مني لقد عشت أمدًا طويلاً جداً على الطرقات في الصقيع والثلوج، وعرفت لذلك الكثير من الجوع. ولا يوجد رجل واحد في العالم كله يمكنه أن يدخل الخوف في قلبي. ومع ذلك فأنا أخاف منك يا معلم... آه، ليس لدي غير رغبة واحدة، وقلبي مترع بها حتى الإيلام".

"وما هي تلك الرغبة؟".

"أن أكون صبيك، وأتعلم منك".

"لست وحدك من يرغب في هذا أيها الشاب. لكني لا أريد أي مبتدئين في بيتي. ثم أن معي إثنين من العمال المياومين يساعدونني. من أين أتيت إذن، ومن هم أبواك؟".

"ليس لدي أحد، وأتيت من لا مكان. كنت طالباً في دير، حيث تعلمت اللاتينية واليونانية، ثم هربت، ومنذ ذلك الحين عشت على الطرقات".

"وما الذي يدفعك إلى الاعتقاد بأنك ستغدو حفار خشب؟ هل جربت العمل في أي مجال مشابه؟ هل معك رسومات لتريني إياها؟".

"لقد رسمت رسومات كثيرة وأضعتها كلها. ولكن يمكنني أن أخبرك عن سبب رغبتني في تعلم حرفتك. لقد راقبت العديد من الوجوه والأشكال وبعد ذلك رحت أفكر فيها. بعض تلك الأفكار كانت لا تني تغيير عليّ، لكنها لم تمنحني السكينة. لاحظت كيف أنه دائماً، في كل صورة ثمة شكل معين، خط معين، يتكرر، كيف أن جبيناً يبدو منطبقاً مع ركبة، ووركا مع كتف، وكيف أن جوهر هذا كله ينطبق تماماً وكيان الإنسان ومزاجه، الذي وحده يمكن أن يكون له مثل تلك الركبة، أو الكتف، أو الجبين. وهذا

أيضاً، لاحظت وجوده، وكنت قد شاهدته ذات ليلة، وأنا أساعد امرأة تلد طفلها: ومفاده أن أشد الآلام وأمتع اللمسات يُعبّر عنهما تقريباً بطريقة واحدة".

رمى المعلم غولدموند بحدة.

"أترك معنى ما تقول؟".

"نعم، يا معلم، وهو صحيح. وهذا بالذات ما وجدت تعبيراً له، وكم ابتهجت لذلك واضطربت، في إنجازك لأمر الرب المقدسة، ولهذا تراني أتيت إليك الآن. آه، ما أشد الحزن الذي في وجهها الطاهر ذاك، ومع ذلك فإن كل ألمها يبدو وكأنه يتحول إلى ابتسامات وفرح. وحين رأيت هذا شعرت به يجري في كياني. ووجدت أن كل الأفكار والأحلام التي راودتني طول سنين قد تعززت. فجأة لم تعد أحلامي تافهة، وتجلي لي على الفور عملي الواجب، ووجهي. أيها المعلم الطيب نيقولاس، أتوسل إليك من أعماق قلبي، أن لا تحولني عنك".

كان نيقولاس ثابتاً تماماً، إلا أنه أصغى بانتباه شديد، ثم قال :

"أيها الشاب، أنت متكلم ممتاز عن خلق الصور، وأنت في هذه السن المبكرة، ويدهشي أن يكون لديك الكثير لتقوله عن الألم واللذة، ويسعدني كثيراً أن أقضي أمسية معك، مع كأس من النبيذ، لنناقش كل هذا ولكن اسمع يا هذا: أن يدور حديث ممتع بيننا أمر، وأن نعيش ونعمل معاً على مدى سنين أمر آخر. هذه ورشتي، وهنا أعمل، ولا أثرثر. هنا لا يهم بَم يفكر المرء، أو مدى براعته في التعبير عن فكرة، وإنما فقط ما يستطيع أن ينجزه بيديه الاثنين. وتبدو لي جاداً فيما تقول، لذا فلن أصرفك في الوقت الحاضر. فلنر ماذا لديك. هل حاولت مرة أن تعمل بالشمع أو بالفضار؟".

وعلى الفور استعاد غولدموند ذكرى حلم معين، حلم به قبل وقت طويل، وكان قد صنع تماثيل صغيرة من الغضار لرجال ونساء، تراءى له

أنهم غموا وتعملقوا، لكنه لم يتحدث عنه، واكتفى بالقول بتواضع أنه لم يحاول قط مثل ذلك العمل.

"جيد، حسن إذن، عليك أن ترسم لي شيئاً. هناك طاولة كما ترى، وورق وقطع فحم. اجلس هناك وارسم. وخذ وقتك في ذلك. وإن شئت يمكنك أن تمكث حتى الظهيرة، أو المساء. والآن كفانا كلاماً. يجب أن أقوم بعملتي، اذهب وقم بعملك".

على المقعد الذي أشار إليه المعلم نيقولاس جلس غولدموند إلى طاولة الرسم. لم يتمكن من مباشرة العمل فوراً، وإنما مكث، كطالب هادئ متلهف، يرمق معلمه بإجلال هباب، الذي سرعان ما التفت عنه ونسي وجوده، واقفاً، منكباً على العمل في ثمال صغير من الغضار. لم يكن كما تصوره غولدموند: كان أكثر تجهماً، وأكبر عمراً، وأشد حزمًا، وأقل مرحاً وابتهاجاً بكثير، وليس سعيداً بأي حال.

كانت عيناه الصارمتان الحادتان مركزتين على عمله، بحيث بات بمقدور غولدموند، الذي تحرر من قلقه، أن يرصد شكل المعلم بعناية. وقال في نفسه، إن هذا الرجل كان بوسعه أن يكون مثقفاً لو أراد، منقياً صارماً عن الحقائق، أن يكرس نفسه لعمل كان العديد من الأسلاف قد بدأوه، والذي سيكون عليه ذات يوم أن يورثه لمن سيأتون بعده، وهو عمل شاق، لا ينتهي، صبت أجيال كثيرة فيه جهدها وتفانيها.

وهكذا أخذ يقرأ وجه هذا المعلم: الكثير من الصبر والعلم المحصل بمشقة، وفرط التفكير فيما هو معروف مسبقاً، والتواضع والشك المطلق في قيمة سعي الإنسانية كله، ولكن على الرغم من كل ذلك فثمة إيمان بما أنجزه، كان بالإمكان مشاهدة كل هذا ضمن إطار رأسه.

ومع ذلك فشكل يديه كان يناقض هذه القراءة: فثمة تناقض بينهما والوجه. هاتان اليدان تلمسان الغضار الذي تشكلاونه ولكنهما مفرطتا

الرقعة، تداعبانه كما يداعب عاشق معشوقته، بفيض من الرغبة، بقسر رقيق أنيق، نهمتان، ولكنهما لا تميزان مطلقاً بين ما تأخذانه وما تعطياه، وهما في وقت واحد شقيقتان وقورتان، واثقتان من حركتهما بارعتان فيها، وكأنما نتيجة خيرة عميقة، سحيقة في القدام. جلس غولدموند، وهو مملوء بالبهجة المبهورة، يراقب تينك اليدين الملهمتين، الحسنيتي التناسق. فشعر برغبة في رسم صورة للمعلم نيقولاس، لكنه لم يفعل، لأن ذلك التناقض بين وجهه ويديه أوهن عزيمته.

بعد مضي قرابة الساعة على مراقبته لنيقولاس وهو يعمل، بجتهاد كمي يميظ اللثام عن سر الرجل، وقد امتلأ رأسه بالأفكار المنقبة، تشكلت لديه ببطء صورة أخرى، وأخذت تتجسم أمام روحه: صورة الرجل الذي يعرفه أكثر من غيره، وأحبه وبجله أكثر من أي إنسان عرفه في حياته. هذه الصورة كانت كلاً كاملاً، لا تشوبها شائبة أو تقسيم، على الرغم من أنها أيضاً متعددة الوجوه، وتحمل قسماتها ندوب صراع عميق. كانت صورة صديقه نرسييس.

أخذ شكلها يتحدد تدريجياً أوضح فأوضح، طابعة خطوطها على تفكيره، كاشفة له عن القانون الخفي الذي ينفخ الحياة في هذا الكيان الحبيب: الرأس الوسيم، المحفور بالذكاء، والشفقتان الجميلتان الحازمتان، اللتان خلقتا متماسكتين واضحتي الخطوط لتخدما الروح، وثمة ظلال من الحزن تحيط بالعينين، والكتفان المنحنيان، اللذان هزلا من طول صراعهما مع اللحم، والعنق الطويل، واليدان الرقيقتان، اللطيفتان. ولم يكن غولدموند، منذ أن فر من الدير، قد رأى صديقه. يمثل ذاك الوضوح، أو تعرف على روحه. يمثل ذاك الكمال.

وبدأ يرسم بعناية وكأنما في الحلم، لكنه كان مشحوناً بالتحفز والبصيرة، بأصابع طويلة تثر القلم لترسم به الحدود الخارجية للرأس، كما يتمثل في قلبه، ناسيا المعلم، ونفسه، ومكان جلوسه. ولم يلاحظ كيف تغيرت الإضاءة في الورشة ببطء، ولا كيف رمقه نيقولاس عدة مرات من موقعه. وأنهى رسمه، وكأنه مهمة فرضها حبه، ليرفع من قلبه صورة صديقه

الساكنة فيه، ويخلدها عبر الزمن.

واقترب نيقولاس من طاولة الرسم.

"لقد انتصف النهار وأنا ذاهب الآن لتناول الطعام. تعال معي إن شئت. أرى أنك أنجزت شيئاً: دعني أرى".

ومال فوق غولدموند، ألقى نظرة، وأزاحه جانباً وتناول صفيحة الورق، بعناية بيدين خبيرتين، وأفاق غولدموند من استغراقه الحالم، وأخذ يحدق إلى المعلم في خوف، بينما نيقولاس واقف يتفحص رسمه بتمعن ثاقب، بعينين زرقاوين زرقة خفيفة.

وبعد برهة سأله: "من هذا الذي رسمته؟".

"إنه صديقي، طالب، راهب شاب".

"جيد. والآن اغسل يديك. النافورة هناك في الفناء. ثم سنذهب لتناول الطعام. العمال المياومون لن يأكلوا معنا اليوم، لديهم عمل يؤدونه في المدينة".

هرع غولدموند طائعاً، ووصل إلى الفناء، وعثر على النافورة، فاغتسل. وكان مستعداً لدفع الكثير مقابل أن يعرف ما يدور في رأس المعلم. وحين عاد كان نيقولاس قد غادر الورشة، مع أنه سمعه يتنقل في الغرفة المجاورة. وعندما عاد كان بدوره قد اغتسل. والآن، وبدل مئزره الجلدي، كان يلبس سترة ضيقة رائعة، وبدا وسيماً جداً ومهيئاً. وتقدم الطريق صاعداً الدرج، كانت عمدان الدرايزين تحمّل رؤوس ملائكة محفورة من خشب الجوز، ووصلا إلى مصطبة درج تعلّق عندها صور خشبية قديمة وجديدة، وبعد ذلك انتقلا إلى غرفة مريجة، جدرانها الأربعة وسقفها من الخشب الصلب، ومن ثم جلسا إلى مائدة ممدودة، موضوعة عند النافذة. وجاءت فتاة صبية راكضة إلى الغرفة. وعرف غولدموند على الفور أنها الحسناء الصهباء الشعر التي رآها في الليلة الماضية.

قال المعلم: "ليسبت، احضري لنا صحناً آخر. لدينا ضيف. اسمه - الآن تذكرت إنه لم يخبرني قط عن اسمه".

وأعلن غولدموند عن اسمه.

"حسن إذن يا غولدموند. هل الغداء جاهز؟".
"حالا يا معلم".

أحضرت الطبق الكبير، وهرعت خارجة من جديد، ولكنها سرعان ما عادت مع خادَم عجوز أحضرت لهم وجبتهم من اللحم: لحم خنزير، وعدس، وخبز أبيض شهبي. وبينما الأب يتناول طعامه أخذ يناقش هذا الشأن وذاك مع ابنته، لكن غولدموند لزم الصمت، وهو يأكل قليلا، ويشعر بالخلج والارتباك. نزلت الفتاة من نفسه منزلا حسنا، كانت فتاة رائعة، راقية التربية، تكاد تتساوى مع والدها في الطول، لكنها جلست بتواضع وتحفظ، وكأنها تجلس خلف حاجز من الزجاج، لا تلقي أية نظرة، أو توجهها إلى الغريب.

بعد انتهائهم من الأكل قال المعلم :

"الآن سأخلد إلى الراحة لمدة نصف ساعة. عد أنت إلى الورشة أو تجول في الشوارع إن أردت، ومن ثم سوف نتحدث في هذه المسألة".

غادر غولدموند، مع انحناءة احترام. لقد مرت ساعة أو أكثر من الزمن على مشاهدة المعلم لرسمه، لكنه لم يفه بكلمة. وما يزال عليه أن ينتظر نصف ساعة أخرى! لن يعود إلى الورشة، لأنه لا يريد أن يعيد النظر في رسمه، ولكنه خرج إلى الفناء الصغير، وهناك جلس على حافة النافورة، يحدق إلى خيط الماء الرفيع، المنبثق براقاً منتشرا من فمها، متساقطا إلى الحوض الحجري العميق. متغضنا، أثناء سقوطه، على شكل أمواج جميلة، ساحبا قليلا من الهواء معه إلى الأعماق، وطوال الوقت، يشق طريقه عائدا، متصاعدا على شكل فقاعات لؤلؤية إلى السطح. وقال غولدموند لنفسه، لعل الخوف من الموت هو أس كل عملنا في خلق الصور، ولعله أيضا أس كل نشاط عقلي. إننا ننفر من الموت، ونرتجف لعجزنا الهش، نراقب بحزن الأزهار تذبل مرارا وتكرارا، ونحن نعرف في قراتنا أننا سرعان ما سنذبل مثلها. لذا، فحين نحفر، نحن الصناع، الصور، أو نبحث عن القوانين لنضع بها أفكارنا، فإننا لانفعل ذلك إلا لننقذ القليل مما يمكن إنقاذه من رقصة الموت المترابطة، الأبدية.

لعل المرأة التي استوحى هذا المعلم منها صورة العذراء قد ذبل

شبابها، أو ربما ماتت: هو أيضاً سيموت عاجلاً أم آجلاً، وسيبقى آخرون أحياء في منزله يتناولون الطعام على هذه الطاولة. لكن تحفته ستصمد حتى بعد مائة سنة من الآن، أو ربما أكثر، يخفق نورها وسط الظلمة الساكنة لكنيسة الدير، تبتسم بالفم الجميل نفسه، رائعة الجمال، شابة وتفيض ألماً.

سمع وقع خطى المعلم على الدرج، فأسرع عائداً إلى الورشة. وأخذ المعلم نيقولاس يزرع المكان جيئة وذهاباً، وبين الحين والآخر يلقي نظرة على رسم غولدموند. وأخيراً توقف عند النافذة لا ييدي حراكاً، ثم قال بأسلوبه المتذمر:

"إن العرف في نقابتنا هو ما يلي: أن على كل صانع مبتدئ أن يخدم مدة لا تقل عن أربع سنوات، وعلى والده أن يدفع أجراً لأجله".

عندما سكنت هنا ظن غولدموند أن نيقولاس يخشى أن لا يكون معه أجر صانع مبتدئ ليدفع له. وفي سرعة البرق استل سكينه وقطع الخيوط التي تحيط بالقطعة الذهبية المخبأة، وأخرجها. تابع نيقولاس كل هذا مدهوشاً، وعندما قدم له قطعته الذهبية، أخذ يضحك عليه.

قال وهو يقهقه: "أوهو! أهذا هو شعورك؟ لا، أيها السيد الصغير، بإمكانك الاحتفاظ بقطعتك الذهبية. لقد أخبرتك كيف تعامل نقابتنا مبتدئها. لكنني لست معلماً عادياً، ولا بإمكانك أنت أن تكون تلميذاً عادياً، لأن أمثالهم يجب أن يدخلوا الورشة وهم في الثالثة عشرة، أو الرابعة عشرة، أو الخامسة عشرة من عمرهم على الأقل، وعلى المبتدئ أن يمضي نصف وقته كاداً لإرضاء معلمه، وأن يؤدي كل عمل يوكل إليه. لكنك رجل بالغ، وكان يجب وأنت في سنك هذه أن تكون، ومنذ وقت طويل عاملاً بارعاً أو حتى معلماً. إننا لم نر قط مبتدئاً بلحية في نقابتنا. ثم، كما قلت من قبل، لا أرغب في وجود مبتدئين في منزلي، ولا

أنت تبدو لي من النوع الذي يتلقى الأوامر".

وصل غولدموند إلى ذروة نفاذ الصبر، وكانت كل كلمة متأنية يسمعها مصدر ألم مبرح له، كان جرسها مملاً ومتحذلقاً بشكل لا يطاق، فتنهد بحدة "لِمَ تقول لي كل هذا، ما دمت لا تنوي أن تقبلي مبتدئاً عندك؟".

ظل المعلم غير متأثر، و متمهلاً كما كان.

"لقد قلبت التفكير في طلبك لساعة من الزمن والآن حان دورك لتنصت إليّ بانتباه. فكرت في رسمتك. فيها أخطاء، لكنها جميلة، ولو لم تكن كذلك لأعطيتك نصف غيلدر^(١)، وأمرتك بحزم متاعك، ونسيت أمرك. أنني أريد أن أساعدك كي تصبح نحاتاً، ولكن وكما قلت، لا يمكنك أن تكون مبتدئاً في كنفِي. ومن لم يمر بفترة تدربه الابتدائي لا يمكنه مطلقاً أن يكون عاملاً بارعاً في نقابتنا، وتالياً لا يمكنه أن يصبح معلماً. هذا ما يجب أن أقوله لك على الفور. ولكن إن كان في وسعك أن تعيش في الخارج، في المدينة فسوف تدرّب يديك وتتعلم مني قدر ما تستطيع. وكل هذا يجب أن يحدث دون عقد رسمي بيننا، لكي يكون كل منا حراً من جانبه. إكسر بضع سكاكين، إذا شئت، واعطب عدة رواسم خشبية، فإذا وجدت أنك لن تغدو نحاتاً فعليك أن تنتقل إلى مهنة أخرى. موافق؟".

أنصت غولدموند يغمره الفرح والاحساس بالخلج.

هتف قائلاً "أشكرك من كل قلبي. لا بيت لدي، ويمكنني أن أعيش هنا بين المنازل كما كنت أفعل في الغابة. وأرى أنه لا داعي لأن تجيب بالنيابة عني. وأعتبر أنه من حسن حظي الكبير أن تكون معلّمي، وأشكرك من أعماق روحي لأنك أنعمت علي بهذا".

(١) - حالياً وحدة النقد الهولندية.

الفصل الحادي عشر

هنا في المدينة أحاطت بغولدموند مشاهد جديدة، وامتدت أمامه حياة أخرى. وكما جذبه الريف، المبهج بنهره وقراه، بمغرياته أكثر فأكثر، كذلك كانت المدينة تعد بالكثير. وعلى الرغم من أن الحزن والحكمة ظلا كما هما في قرارة روحه، لم يمسا، فإن الحياة بكل ألوانها دغدغت حواسه، وأسرت سطح عقله. من حوله امتدت مدينة الأسقف، بكل بدعها، وارفة بمائة وسيلة للتسلية، ونساء للعشق، بينما كان حذقه المتزايد باضطراد يشحذ حواسه. وعشر بمساعدة معلمه على مشوى في سوق السمك، في منزل "الغيلدر" ومنه تعلم، كما تعلم من نيقولاس مهنة أعمال الخشب والجص والألوان، والصقل، ورقاقة الذهب.

غولدموند لم يكن أحد الصناع العائري الحظ الذين، على الرغم من أنهم يحملون داخلهم أرقى المواهب، لا يجدون المهنة المناسبة التي يعبرون عن أنفسهم من خلالها. فهناك الكثيرون من الذين على الرغم من رؤيتهم لكل جمال الأرض، إلا أنهم لا يجدون وسيلة لإعادة خلقه، ولمشاركة الآخرين فيما شاهدوه. وكان من السهل بالنسبة إليه حتى درجة التسلية أن يستخدم يديه، وأن يحقق أكمل رهافة مهنته، سهلا

كالإنصات في أمسية أحد الإحتفالات إلى عزف أحد العمال، أو كالرقص أيام الآحاد على مروج القرى. وكان أمامه صعاب وخيبات أمل عليه أن يتجاوزها، واضطر لإفساد بضعة رواسم خشبية، وجرح مرات عديدة أصابعه جروحاً وصلت حتى العظم. لكن هذه المراحل المبكرة سرعان ما مرت، واكتسب المهارة، حتى وإن ازداد ضيق صدر المعلم، وكان يعنفه بشكل ما، على الشكل التالي :

"من حسن الحظ يا غولدموند أنك لست تلميذي وعاملي - يسعدنا أن نعلم أنك قدمت إلينا من البراري، وأنت دون شك ستعود ذات يوم إليها. إن كل من لا يعرف هذا عنك أي أنك لست حرفياً ومواطناً شريفاً، بل مجرد غجري جوال بعيد عن الطريق العام، قد يرغب في أن يوكل إليك مثل هذه المهام كما يطلب أي معلم آخر من رجاله. إنك عامل ماهر جداً عندما ترغب في ذلك: ولكنك في الأسبوع الفائت تكاسلت طوال ثلاثة أيام، وبالأمس، في ورشة القلعة، حيث أرسلتك لتصلق ثمالين للملاكين، أمضيت نصف النهار وأنت نائم وتشخر".

تلك التعنيفات كانت عادلة، وكان غولدموند دائماً ينصت إليه وهو صامت، دون أن يعطي عذراً واحداً لصالحه. كان يعلم جيداً أنه ليس بالعامل النشط الذي يعول عليه. فما دام العمل الذي يشغل تفكيره، تكتنفه مصاعب يجب تجاوزها مما يمنحه إحساساً مبهجاً بمهارته الخاصة يكون خبيراً في حرفته ومتحمساً لها. لكنه كان دائماً يعمقت الالتاح الشديد على الكد، وتلك المهام العديدة التي تؤدي إلى تكوين الحرفي، وإن لم تكن بخد ذاتها ثقيلة الوطأة ومن النوع الذي يتطلب جهوداً مضنية جداً مرهقاً. هذا النوع كان عبئاً لا يَحتمل. كثيراً ما تساءل: أما كانت بضع سنين من السير على الدروب كافية لتجعل منه شخصاً متوانياً؟ أما كانت الطبيعة، التي ورثها عن أمه قد بدأت تستولي عليه؟ وإلا فماذا ينقصه؟ راح يفكر في سنواته الأولى في الدير، عندما

كان طالباً متحمساً دؤوباً. لماذا كان يتصف بكل ذلك الصبر في تلك الأيام، وبالرغبة العارمة في أن يولي كل اهتمامه لفقه اللغة اللاتينية وأن يضع في كل تلك السلاسل الطويلة في تصريف الأفعال في اللغة اليونانية، التي لم يكن، في قرارته، يأبه بها؟ وكثيراً ما كان يتفكر في هذا اللغز، وكان جوابه أن الحب هو الذي قوى إرادته، ووهب اجتهاده أجنحة. وما كان كدّه ليكتسب أية قيمة لولا توفقه العميق لإرضاء نرسييس الذي، كما اعتقد، ما كان بالإمكان كسب احترامه إلا بالمثابرة المشكورة فكان يكد على مدى أيام طويلة وساعات متواصلة ليحظى بابتسامة تقدير، وعندما يفوز بها تكون بمثابة مكافأة سخية. لقد كان نرسييس صديقاً له: ولكن الغريب في الأمر أن هذا النرسييس المثقف هو الذي بين له عدم ملاءمته للتعلم، وبعث في مخيلته صورة أمه الحبيبة. بحيث أنه بدل التعلم، والفضيلة والرهابية، تمكن منه الدافع البدائي الأقوى في طبيعته - الحب الجسدي الفاسق، والتوق إلى أن لا يعتمد على أي إنسان، وإلى أن يسيح. ثم جاءت صورة العذراء المحزونة للمعلم نيقولاس، لتكشف له عن فنان كامن فيه، مع أسلوب جديد في الحياة، وأغلال أخرى. كيف أضحت أحواله الآن؟ إلى أين ستحملة الحياة في آخر المطاف؟ من أين أتت هذه العقبات التي يتخيلها في ذهنه؟. في أول الأمر لم يتوصل إلى فهم نفسه، كل ما فهمه هو أنه بقدر ما كان معجباً بمهارة المعلم نيقولاس، إلا أنه لم يكن له أي قدر من الحب الذي حمله لنرسييس - وأنه كان حقاً يسعده أحياناً أن يزعهجه ويثير حفيظته. إن الصور التي كانت تخرج من بين يدي نيقولاس، أو أفضلها، كانت بالنسبة إلى غولدmond ذروة كل إنجاز، إلا أنه لم يكن يحترم نيقولاس لشخصه.

إلى جانب هذا الفنان الذي نحت تمثال أم الرب المباركة الرائع، التي يختصر في وجهها كل تألم الأرض وجمالها - في قلب هذا التنبيه

والحكيم، الذي ترجمت يده أعمق إدراك وتجربة إلى شكل مرئي، كان هناك معلم نيقولاس ثان، الأب العائل، الصارم والرصين، الأرمل، وأستاذ في نقابته المهنية، الذي يعيش حياة ضيقة منعزلة، مع ابنته وخادمتها القبيحة، رجل دائم الحذر من دافع غولدموند الأعمق، وحرفي متمكن، وذو أفكار مواطن مزدهر الأحوال رنجي العيش.

بقدر ما كان يبجل هذا الأستاذ، دون إطلاق أي حكم، أو أن يسمح لنفسه باستجواب أي شخص غريب، إلا أن عاماً في خدمته كان كافياً ليكشف لغولدموند كل ما كان عليه أن يعرفه عنه، وحتى أدق التفاصيل. وهذا يعني الكثير: أنه يحبه، ويكرهه في وقت واحد. لا يدعه يغيب عن تفكيره، يشق طريقه باندفاع وارتياح، يقطاً عطشاً إلى المعرفة، متغلاً إلى أماكن سرية في حياته. لا حظ كيف أن نيقولاس لا يحتفظ في منزله بأي مبتدئ أو عامل ماهر، على الرغم من وجود متسع لكليهما، ولا حظ ندرة خروجه من منزله، وندرة زيارته لأي من ضيوفه. لاحظ ولعه الغيور بابنته، وكيف كان يسعى جاهداً لاختفائها عن عيون بقية الرجال - وميّز اللهفة النابضة والرغبة، الكامنين خلف قسّمات هذا الأرمل الظاهرية، وصرامته، وشيخوخته المبكرة، ورأى أنه عندما تضطره مهمة إلى السفر يظهر عليه، وخلال مدة أيام الرحلة القليلة، تبدل رائع ومتجدد في الشكل. وذات مرة، في بلدة مجاورة ذهباً إليها لنصب تمثال منحوت، رأى كيف يتسلل نيقولاس جلسة ذات ليلة خارجاً لزيارة عاهرة، وبعد ذلك يظل عدة أيام قلقاً نكدًا.

مع هذه الظواهر الطارئة إلى جانب توقه لتعلم النحت، كان هناك حدس آخر جعل غولدموند يراقب معلمه عن كثب، وشغل أفكاره. إن ليست، الابنة الجميلة، هي التي استحوذت على تفكيره. إن نظره كان بالكاد يقع عليها، بما أنها لم تكن تظهر داخل الورشة. ولا هو استطاع أن يقرر إن كان إجحافها المحتشم من الرجال هو صفة زرعها فيها والدها،

أم أنها بالفعل جزء من طبيعتها. ولا يمكن التعامي عن إحجام المعلم نيقولاس التام عن دعوة غولدموند إلى مشاركته أي وجبة طعام. لقد كان يبذل أقصى جهده ليحيط ابنته بالموانع. إن ليست فتاة أنيقة مصانة، ولا أمل في إقامة علاقة حب معها خارج رباط الزواج، وزيادة على ذلك، إن من يريد لها عروساً له يجب أن يكون والداه ثريين، وأن يكون عضواً في إحدى النقابات الحرفية الراقية، وأن يملك إذا أمكن أموالاً منقولة ومنزلاً.

لقد شد جمال ليست، الشديد الاختلاف عن جمال النسوة المشردات وزوجات الفلاحين، شد عيني غولدموند في اليوم الأول لوصوله. كان فيها شيء لم يتمكن قط من سبره، تنائي ولغز شداه بقوة إليها، وأيضاً أثارا فيه كل ريبته. كان يحيط بها هدوء وعذرية شديداً الاعتدال، ونقاء، ولكنه ليس طفولياً، مع لمسة من التحفظ والكبرياء الباردتين، تكمن تحت كل ما تتصف به من تواضع وتربية حسنة، بحيث أن براءتها لم تقم بأي تحرك لاسترضائه، بل بالأحرى تحدث حواسه وأزعجتها. وحالماً بدأ قلبها يتخذ شكله النهائي أخذ يشعر برغبة ملحّة في أن يصنع لها تمثالاً، ليس كما هي، بل كما يمكن أن تكون، بجسد متفتح، ووجه مفعم بالرغبة والألم، ليس عذراء صغيرة بل مجدلية. كان غالباً ما يتوق إلى مشاهدة سماتها الخالية من الشغف، الهادئة، الملساء، وقد أضحت ملتوية، وتضج بالحياة، إلى أن تفشي، من خلال الألم أو المتعة، أسرارها.

ولكن في قلبه كان يتشكل وجه آخر، وإن لم يكن بشكل عام وجهه هو، وجه تتوق روحه برمتها إلى أسره، إلى تثبيته في الخشب، إلا أنه كان ما يزال يتملص منه ويستتر.

هذا الوجه كان وجه أم، وإن كان على مر السنين قد فقد كل شبه بالرؤيا التي تصاعدت من أعماقه، عند نهاية حديثه مع نرسييس. وكان

هذا الوجه الأمومي، خلال ليالٍ من الفرح وأيام من التجوال، وأوقات طويلة من العزلة والقلق، وإحساس بالخطر واقتراب من حافة الموت، كان يتبدل ببطء ويتجدد، ويغدو أكثر ثراءً وترسخاً في مخيلته، وتعدداً في أوجهه. لم يعد ما يراه هو وجه أمه المتوفاة، بما أن ألوانه وقسماته قد ضاعت، تدريجياً، في صورة أم مجردة، رؤيا حواء البشرية جمعاء. وكما كان نيقولاس قد أبرز في تمثال العذراء المقدسة أم الرب، المثيرة للشفقة، الحزينة، بحرفية واثقة ومثالية شعر تلميذه أنه لن يتمكن قط من بلوغها، كذلك تمنى غولدموند، بعدما اكتسب ثراء حرفته وضمائها، أن يصور حواء، أم العالم، من مسكنها في أعماق ملاذها في قلبه. هذا الوجه الكامن داخله كان أكثر من مجرد ذكرى أمه، بما أن ذاك الحب كان يتطور باضطراب ويتحول. الآن بات في سيمائها شيء من العجربة ليزا، وشيء من ليديا ابنة الفارس، وشيء من نساء أخريات عديدات، تناغمت كلها في شكل أولي واحد. وكل هذه الوجوه، التي هي لنساء نلن كفايتهن من الحب، لن تؤلف فقط مكوناته، وإنما كل غصة، ومغامرة، وتجربة جديدة، تكمله أيضاً، وتركت فيه آثاراً منها. هذا الشكل، إذا ما استطاع تجسيده، يجب أن لا يشبه أياً من المخلوقات التي عرفها، وإنما يمثل الحياة ذاتها، أم كل شيء. لكنه لم يكن يعرف بعد كيف سيكون وجهها والتعبير الذي يحمله، غير أنه رغب في أن تنم تقاطيع جسمها عن الشهوة العارمة، والاستمتاع بالحياة، وصلتهما السرية بالموت والألم.

تعلم غولدموند الكثير في غضون عام من الزمن، أحرز ثقة كبرى في التصميم، وكان نيقولاس، بين الحين والآخر، يسمح له بالعمل في الغضار، بالإضافة إلى عمله في الحفر على الخشب. وأول عمل ناجح له كان تمثالاً صغيراً من الغضار، بارتفاع ثلاثة أشبار، هو شكل عذب مغر لأخت ليديا الصغرى جوليا. وعلى الرغم من أن المعلم قرظ هذا العمل،

إلا أنه رفض طلب غولدموند في عمل صبة معدن له. إنه بمعايير المعلم نيقولاس مغرق في قلة العفة والديوية، ولم يرغب في أن يكون عرابه! ثم أعد غولدموند رسماً لنرسييس استعداداً لحفره على الخشب، على صورة يوحنا التلميذ الحبيب، بما أن نيقولاس كان يرغب، إذا ما نجح العمل، في أن يجعله واحداً من مجموعة تمثل الصلب، كُلف بصنعها منذ زمن طويل، وكان صناعه المهرة يجتهدون لتنفيذها بلا توقف، تاركين اللمسات الأخيرة لمعلمهم.

راح غولدموند يعمل على إنجاز تمثال نرسييس هذا، وقد اكتشف، من جديد من خلال عمله هذا ذاته، وروحه ومهارته في أفضل حالاتها، كلما أفلت من ارتباطه من الورشة. وكان هذا يحدث كثيراً. وكانت ممارسة الحب، والرقص، والشرب، والتصارع مع بقية العمال، ولعب النرد، والتشاجر أحياناً، كل هذا كان يحرره من قيود حياته، ثم يتهرب من حرفته لعدة أيام متواصلة، أو يمضي يومه كله متكاسلاً حالماً.

لكن تمثال القديس يوحنا التلميذ هذا، الذي كان وجهه الحبيب المتألم يبرز أمامه أوضح فأوضح من الخشب. كان يكتفي بإضفاء قليل من اللمسات عليه عندما يكون لديه استعداد لذلك، وهو في حالة نسيان للذات واستغراق تامين. ثم يجتاحه مزاج لا هو بالمرح ولا هو بالكئيب لا يفكر في الغسق ولا في الماضي. إن ذاك الحب الأول الهادي، السعيد الرقيق، الذي جعله، في غمرة ابتهاجه بانضباطه، يمنح كيانه كله إلى نرسييس، استعاده من جديد، مع صورة نرسييس. لم يكن هو الذي وقف أمام الرسوم الخشبي، يحفر صورة بقوة إرادته، بل ذاك الآخر البعيد، نرسييس، هو الذي كان يستخدم المهارة التي في يديه ليمتد من الزمن المش العابر إلى حياة جوهره الصافية الباقية.

قال غولدموند في نفسه، هكذا فقط، وأحياناً برعب، يمكن لأي عمل حقيقي أن يولد. هكذا ولدت "عذاراء" نيقولاس الخالدة، والتي

كان في كثير من أيام الآحاد منذ مشاهدته لها لأول مرة، يمشي بخطى
مجهدة إلى دير الكنيسة ليقوم بزيارتها. هكذا، بهذه الصورة الخفية
القدسية نحتت أفضل الشخصيات القديمة التي خزنها نيقولاس على
منبسط درجه. وهكذا أيضاً، سوف ينحت عمله الثاني، الشكل الكامل
الوحيد الكامن في قلبه، الأجل، والأقدس من هذه، حواؤه الخاصة، أم
الحياة كلها. آه، ما أروع أن لا تخرج من بين الأيدي الإنسانية إلا مثل
هذه الأشكال، أعمال ضرورية، مقدسة، لا يشوبها أي زهو أو معاناة
لكن الحال ليس هكذا، لطالما عرف هذا. إن بإمكان البشر أن يبدعوا
أعمالاً فنية مختلفة تماماً - أشكال جميلة صيغت بمهارة معقدة، هي فخر
مالكها، تزخرف الكنيسة ومقر المجلس - هي دمي جميلة، نعم، لكنها
خالية من القدسية، لا تمثل قط أشكال الروح الأصيلة! وهو ليس فقط
شاهد الكثير من مثلها، صنعت بأيدي نيقولاس ومعلمي النقابة - وهي
دمي. على رغم كل الجمال الذي تمثله والجهد الحاذق وراء تصميمها -
بل عرف وتحسس بيديه الماكرتين، وكله إحساس بالندم والخجل، كيف
يخرج النحاتون مثل تلك التوافه، بإيعاز من استمتاعهم الكسول بمكرهم،
وتفاهتهم وطموحهم الضيق.

حين هبط هذا الإدراك على غولدموند جلب معه للوهلة الأولى
حزن الموت. ما فائدة النحات، وما يصنعه من ملائكة صقيلين وما شابه
من النفايات، مهما كانت فائقة الجودة في مصنعيتها؟ ربما وجد آخرون
فيها متعة للنظر، كالشغيلة، والمواطنين الناجحين، النظيفين، البدينين،
وذوي الأرواح الحقيرة، السهلة الإمتاع - وهو ليس منهم. إن الفن كله
والفنية^(١) لا قيمة لهما إلا إذا أشرقا كنور الشمس، وكانا ينطويان على
طاقة العواصف - إذا لم يجلبا إلا المتعة، والسعادة الضيقة. ولم يكن هذا ما

(١) الفنية : هي ذوق الفنان وبراعته في العمل.

يسعى إليه، ليس طلي تاج معقد مثل تخريم إبري، لأحد تماثيل العذراء
 البهيمية، بوريقات الذهب، ليس هذا العمل هو ما يصبو إلى القيام به،
 حتى وإن كان مجزياً مادياً. ما الذي دعا نيقولاس إلى تلبية كل تلك
 الطلبات؟ لماذا يقف ساعات طويلة لكي يلبي رغبات رؤساء الكنائس
 وأعضاء المجلس الأفظاظ، يأتون ليوصوا على مدخل باب أو صليب على
 ستارة - وهو مفعم باللهفة ومسطرته في يده؟ لقد كان يفعل هذا لسببين
 هزيلين - كان يعتقد أملاً كبيراً على كونه حرفياً شهيراً ويتلقى طلبات
 أكثر مما يستطيع تلبية، ولأنه أراد أن يكس المال، من أجل إقامة الولائم
 والمشاريع العظيمة، بل مال من أجل ليست الجميلة، التي كانت قد
 أضحت منذ وقت طويل فتاة ثرية، مال لتكاليفها، لأثوابها المطرزة
 والمخرمة، مال لسرير زواجها من خشب الجوز بأغطيته الناصعة البياض
 وبياضاتها الرائعة. وكان الفتاة المترفعة الرخية لا يمكنها أن تتعلم الحب
 أيضاً بين عيدان القش.

أحياناً عندما كانت تخطر على بال غولدموند مثل هذه الأفكار
 تنهض صورة أمه في أعماقه، بكل ما يحمله المشرد من كبرياء وازدراء
 لأصحاب الأملاك، والعيش الرغيد. في مثل تلك الأوقات كان يشعر
 بالاشمئزاز من المعلم وحرفته اليدوية وكأنه مذاق الثريد البارد، وكثيراً ما
 رغب في الفرار.

نيقولاس أيضاً، كان يبدي ندماً غاضباً على الثقة التي أولاها عامله
 الكسول، الذي كثيراً ما أخضع صبره إلى أقصى الاختبارات. ولم يرضه
 بأي حال ما سمعه عن حياة غولدموند، وأساليبه المبذرة، ومشاجراته،
 ونسائه العديديات. لقد أدخل إلى ورشته غجرياً، مبتدئاً كسولاً، ولم
 يكن غافلاً عن النظرات التي كان يرمق بها ابنته. فإذا كان، على الرغم
 من كل هذا، قد أبدى من الصبر أكثر مما يطيق، فليس ذلك نتيجة
 لاحتسائه بالواجب أو بالاهتمام بذاك المتبطل، وإنما فقط بسبب تمثال

القديس يوحنا التلميذ الذي صنعه ورأى منه التصميم الأولي.

شيء ما شبه غامض، نوع من الحب والقرابة الروحية، ثبت يد نيقولاس وهو يراقب هذا العايب يشكل بالخشب، بعيداً عن الأساليب السهلة، ثمالة من ذاك الرسم، الذي هو في وقت واحد فظ جداً وجميل جداً، وشديد الحساسية ضمن أسلوبه الغريب الخاص، ومن أجله اتخذ الشاب تلميذاً له - هو نقش ينجز على دفعات ونوبات، ببطء ومزاجية، ولكن بإصرار. ولم يكن نيقولاس يشك قط في أنه على الرغم من كل هذه النزوات والعوائق سوف ينتهي العمل فيه ذات يوم، وسيكون عملاً رائعاً من النوع الذي لا يفرج بمثله أعظم المعلمين إلا مرة واحدة أو مرتين في العمر. وعلى الرغم من كل ما أثار غضبه في تلميذه، وفي ثورته وتعنيفه، ومن مقتته لأساليب هذا الغجري - فإنه لم يذكر كلمة واحدة عن منحوته للقديس يوحنا.

خلال السنوات الأخيرة أخذت نضرة شباب غولدموند البهيج، وذاك الحسن الفتى الذي أكسبه وهو على الطرقات الكثير من الخطوة، أخذاً يذويان ويتلاشيان إلى الأبد. لقد كان رجلاً وسيماً قوياً، اشتتهه كل امرأة قابلها، وأبعضه بقية الرجال. وقد نضج أيضاً أسلوبه في التفكير وموقفه الداخلي منذ السنوات التي أيقظه خلالها نرسييس من البراءة الغافية داخل الدير. وشكل التشرد والعالم روحه. وكان غولدموند آخر قد حل منذ زمن طويل محل الفتى الرقيق المحبوب، فقد أيقظه نرسييس إلى الحياة، ومنحته النساء حكمتهن. وأزال التشرد عنه تورده. لم يكن لديه أصدقاء، ووهب قلبه كله إلى عشيقاته، وكان من السهل عليهن الفوز به، وكانت تكفي لذلك نظرة شوق واحدة. ولم يكن يقوى على المقاومة، وكان يستجيب لأقل ميل. وهو، الذي طالما أحب الجمال الرقيق، وكان أكثر ما يشتهق إلى أولائي اللواتي يأتين إليه، وهن في بواكير نسغ ربيعهن، كانت ما تزال النسوة الأقل جمالاً، اللواتي

غادرهن الجمال والشباب الأول تجذبه وتثرنه. كان أحياناً يلازم عانساً عجوزاً خائفة، وسط خضرة القرية، لا رغبة لها في أي شيء، كسبت قلبه برقته، وليس فقط بالرقعة، وإنما أيضاً بالفضول المتجدد باستمرار. وعندما كان يستسلم إلى امرأة - على الرغم من أن حبه لها قد لا يستمر أكثر من أيام أو فقط ساعات - تصبح جميلة في عينيها، ويسلم لها قلبه كله. وسرعان ما علمته التجربة أن كل امرأة جميلة "تستحق الحب". إن أولائي الأقل تباهياً بأنفسهن ومخط اشتمزاز الرجال، يمتلكون من الحرارة الملتبهة ونكران الذات ما لا يحلم به المرء، أولائي العذارى الذابلات يحملن داخلهن حناناً عظيماً كحنان أي أم، ورقة عذبة تجذب الثقة خاصة بهن. هكذا فلكل امرأة في العالم سحرها، وسرها، وفك طلسمه يسعد الرجل.

كل النساء متشابهات في هذا. كل غياب للشباب أو للجمال يجد له تعويضاً في إيماءة ما أو في نعمة في الصوت.

ولكن ليس كلهن كن يجتذبهن طويلاً. لم يكن يمنح أصغرهن سناً وأنضهرن من الحب والامتنان ولا بمقدار ذرة أكثر مما يمنح الدميمات منهن. وعلى الرغم من أنه ما كان ليعشق أنصاف نساء إلا أنه كان بينهن من لا يكشفن عن سرهن إلا بعد مرور ثلاث ليال أو عشر وهن بين ذراعيه، بعضهن كان يعرف كل شيء عنهن بعد ليلة واحدة، ويمثلها ينسأهن. كانت الرغبة والحب يبدوان له الإشباعين الوحيديين اللذين يدفنان الحياة، أو يمنحانها أية قيمة، ولم يكن يعرف شيئاً عن الطموح، والشحاذ والكاردينال عنده سواء. كان ينفر من كل أشكال الملكية، ولم يكن ليقدم أقل التضحيات مقابل هذه الأشياء، وبعد أن أصبح يكسب من المال قدر ما يستطيع أخذ يرمي به بكلتا يديه. وكانت النساء ولعبة الأحاسيس هما أفضل متاع على الأرض، بينما كان جوهر أيام تأملاته الحزينة، وكل اشتمزاز وقلق عقلي، هو إدراكه لزوال الشهوة.

وجد أن شعلة الشغف البهيجة السريعة، واتقادها القصير الأمد المدمر، وانطفائها المفاجيء - وجد أن هذه تشكل جوهر المعرفة كلها. كانت بالنسبة إليه نموذج القيمة، وتمثل كل متعة في الحياة الإنسانية كان بإمكانه أن يدع ما تسببه من حزن يحتاج عقله، مع رعدة أهدافها الأبدية، ويستسلم لهذا استسلاماً تاماً كما لو للحب، بما أنه أيضاً حب، وهو أيضاً رغبة. وكما تعرف الخلاعة، وهو في ذروة مجده، هدفه الخاص وسرعة نسيانه، وتعرف أنه سوف يتلاشى مع خفقة النفس التالية، كذلك فإن الحزن الدفين لهذه العزلة الغارقة واثق من انبعائه في الرغبة، في اليقظة المتجددة للأحاسيس في شبق العين، وفي كبرياء الحياة. وبالنسبة إلى غولدموند فالشبق والموت متشابهان. وأم الحياة يمكن أن تسمى "شبق" أو "حب" مع أن أسماءها الأخرى كانت "موت"، "دمار"، إنها حواء معين الموت والمتعة، التي تحبل وتندثر إلى الأبد. القسوة والحب عندها سيان، وشكلها، الذي كلما طال أمد كنزه له في قلبه، كانت مجازاته ورموزه أشد قداسة.

لقد عرف ليس بالأفكار أو بالكلمات بل بمعرفة الدم الوثائق العميقة، أن كل طريقه سوف تقوده إلى الأم، إلى الشهوة والموت، أما الجانب الآخر، جانب الأب، من الحياة، العقل والإرادة، فليس ملاذه. إنه ملاذ نرسييس، وقد بات غولدموند الآن، ولأول مرة، يلتم بشكل تام بأقوال صديقه، وبات يدرك، في قرارة قلبه، أنه نقيضه. وبهذا الإدراك الجديد أخذ ينقش تمثاله القديس يوحنا التلميذ: وكانت تشتد وطأة شوقه حتى يبكي إشفافاً على نرسييس، ويحلم به أروع أحلامه، بأنه لن يصل إليه قط، أو أن يكون مثله.

وبنوع من الخلدس اطلع أيضاً على سر مصنعيته، علي توقه الدفين للنحت، وكراهيته، بين حين وآخر، لكل ما صنعه: بعيداً عن الأفكار كان بإمكانه أن يتلمس العديد من أوجه المقارنة. فقد كان الفن اندماج

عالمين، عالم الروح وعالم الدم، عالم الأب وعالم الأم. وبما أنه كان متجذراً في أشد الأحاسيس بدائية كان بإمكانه أن ينمو ليغدو أصفى الأفكار التجريدية، أو يستوطن أندر عوالم الفكر الرزحية، لينتهي به الأمر إلى صلب لحم ودم، وكل الأعمال التي تخدم بصدق هدفه - على سبيل المثال، عذراء المعلم نيقولاس المحزونة - كل هذه الأعمال الفنية التقليدية الأصيلة، التي لم ينتجها محتالون بل محترفون أصلاء - تبرز هذه الابتسامة الخطرة، ذات الوجهين، هذه السمة الرجالية والنسائية معاً، تعايش وتمازج الرغبة والعقل الصافي والمجرد من الانفعال. ولكن حواءه يجب أن تبرز أكثر من أي عمل ابتكر حتى الآن، حياة مزدوجة، هذا إذا نجح أولاً في نحتها.

في حرفة النحات كان ينتظر غولدموند ضماناً المصالحة ما بين تناقضاته الأعمق. لكن الفن لا يأتي كهبة مجانية، وهو حتماً لا يتوفر لكل من يطلبه. إنه يكلف الكثير ويتطلب الكثير من التقدّمات. لقد ظل على مدى ثلاث سنوات طويلة يسرقه من متعه الأثيرة لديه، وينتزع منه حتى نسمة حياته، وكان يتشبث بكل هذا بشكل يفوق الرغبة، بحرية فضول المتشرد، بعزلته، باستقلاله عن أي إنسان. ضحى بكل شيء من أجل تجسيد الصور. فليتهمه الآخرون بالإكفهار، فلينعنونه بالمتجهم، العقيم، العاق، كلما ثار غضبه، ورفض أن يلتحق بالورشة في ذاك اليوم: إن هذه الحياة بالنسبة إليه عبودية مريرة، تهلكه، وتسمم قلبه. ليس لأن لديه معلماً عليه طاعته، أو لأنه أسير عبودية بلا مستقبل - وإنما لأن الفن ذاته يكدره وينغصه: الفن، ذاك الإله الظاهري للعقل، الذي يقوم باغتصابات عديدة صغيرة. فيجب أن يتوفر له سقف يظلمه، ويحتاج إلى أدوات النحت، وإلى غضار، ورواسم خشبية، ورقاقات الذهب، وألوان، وينتزع المجد والصبر. لقد منحه حرية الخشب الوحشية، وكل فرح الأرض الفسيحة الذي لا حدود له، نكهة الخطر الحادة، وكبرياء العوز.

وعليه أن يمنحها مراراً وتكراراً، وهو يدمدم ويصر على أسنانه،
كتقدمة.

أحياناً هذه محركات كانت تعاد إليه. كان يجد بعض التعويض الهزيل
عن النظام والانضباط المهينين اللذين تتصف بهما أيامه، في مغامرات
معينة تتماشى والحب، في المنافسة وما تؤدي إليه من شجارات. فإن
يهاجم فجأة من الخلف، في زقاق ضيق في طريقه لملاقاة فتاة، أو عائداً
من حفلة رقص، أو يشعر ببضع ضربات نبوت على كتفيه، أو يلتفت
بسرعة البرق ليقوم بالهجوم، وليس ليدافع عن نفسه، ويطبق فكيه،
ويقبض على عدوه اللاهث، ويضرب بكل ما أوتي من قوة تحت الذقن،
ويشد أصابعه على الشعر، ويحكم قبضته على النحر - كل هذا كان
جيداً، ويشفيه من تجهمه لبعض الوقت. والنساء أيضاً كن يستمتعن به.

ملاً السرور لباله وفاض، وأضفى على حياته نكهة مميزة، طوال
دوام عمله في تمثال القديس يوحنا التلميذ. واستطال أمد العمل في
القطعة الفنية، إلى أن وضع آخر اللمسات، واحدة إثر أخرى، بمراسم
طويلة الأناة، على الوجه واليدين. كان قد حفره على سقيفة خشبية
صغيرة بنيت خلف ورشة العمال. ثم أصبح جاهزاً ذات صباح. وأحضر
غولدموند مكنسة، وكنس الأرض حتى أضحت نظيفة بشكل موسوس،
وأزال تماماً آخر آثار لنشارة الخشب عن الشعر المنحوت لتمثاله ليوحنا،
ووقف أمامه مدة ساعة أو أكثر.

أفاق في قلبه فرح عميق، بهجة نادرة لتجربة جديدة غالبية، شيء لا
يمكن أن يتكرر إلا مرة واحدة في حياته، أو قد لا يعرفه قط بعد الآن.
وبوسع رجل في يوم تنصيبه فارساً، أن يشعر بهذا: وهو يشبه شعور
امرأة وضعت طفلها الأول. إنه تفان رفيع، وقار مهيب، مع رعب سري
مسبق من الحالي عندما ينتهي هذا الكمال الغريب للسعادة، يعاش كله،
ويسقط في مكانه، في الروتين اليومي المنظم. هناك، أمام عينيه، وقف

نرسيص الصديق الذي هءاء للخروج من صبيانته، يرفل بأروابه ويتخذ هيئة التلميذ الحسن المظهر، وتبدو على قسماآ وجهه المتببه، النظيف، نظرة إشفاق واستسلام شديدة السكينة، أشبه ببرعم ابتسامة. هذا الوجه المتورد، الجميل، الذي صاغته الروح، والجسد النحيل، الذي يكاد يترنح من تحته، واليدان الطويلتان الوسميتان، المفتوحتان في وضع الصلاة، عرفت الألم والموت، على الرغم من أنها تتفجر بالشباب وبالموسيقى الداخلية. غير أنها لم تعرف اليأس، أو الفوضى، أو التمرد، على الإطلاق. إن الروح الكامنة وراء هذه التقاطيع الرقيقة المتوردة قد تكون حزينة أو مرحة، إنها تناغم، إنها لا تعاني من أي تصدع أو تنافر. وقف غولدموند تائهاً في عمله. في أول الأمر كانت أفكاره مكرسة بخشوع إلى هذا التمثال الذي وهبه لشبابه، وانتهت إلى سحابة من الانقباض والهم. وها هو عمله: هذا اليوحنا الجميل سوف يخلد، إن حسنه الرقيق باق على مر الزمن. أما هو، الصانع، فقد ضاع. غداً لن يكون ملكه، لن ينمو ويزدهر تحت لمساته. بل إنه منذ الآن لم يعد يحتاج إلى عشق يديه، لم يعد ملجأ له ومصدر راحة، وإطار أيامه وهدفها. إنه فارغ هناك.

شعر أن من الأفضل له أن يغادر من فوره — القديس يوحنا وأيضاً المعلم نيقولاس، هذه المدينة، ومهنة النحت. لم يعد له من مبرر لبقائه هنا، لم يعد في مخيلته أي نماذج ناضجة، وصورة حواء، أم كل شيء، كانت ما تزال بعيدة المنال، وستبقى هكذا لسنين عديدة. فهل يبقى هنا، يصقل رؤوس الملائكة؟

غادر نرسيص على مضض وانتقل إلى ورشة المعلم، دخل ووقف عند الباب صامتا. إلى أن لاحظ نيقولاس وجوده، فهتف :

"ما الأمر يا غولدموند؟"

"تمثالي للقديس يوحنا جاهز. يمكنك أن تأتي بنفسك وتلقي عليه

نظرة، قبل أن تتوجه لتناول طعام العشاء".

"بكل سرور. سأتي في الحال".

ذهبا معاً، تاركين الباب مشرعاً، ليصلهما المزيد من الضوء. ولم يكن نيقولاس قد رأى القديس يوحنا منذ وقت طويل، فاسحاً المجال لغولدموند أن يعمل فيه دون إزعاج. والآن اكتفى بتفحصه بعناية، دون أن يدلي بأي شيء. وأضاء وجهه الكتوم الصارم، ورأى غولدموند الإشراف في العينين العميقتي الزرقة.

قال المعلم نيقولاس: "إنه جيد، جيد جداً. هذه القطعة يا غولدموند هي بطاقة قبورك كمحترف بارع. لقد أصبحت ضليعاً في حرفتك. سوف أعرض هذه المنحوتة على النقابة المهنية، وأطلب منهم أن يمنحوك امتياز التفوق من أجله. وسوف تكون قد نلتها عن استحقاق".

لم يكن غولدموند يولي أي اهتمام بالنقابة، بيد أنه ابتهج، لإدراكه مدى التقدير الذي تنطوي عليه كلمات المعلم نيقولاس هذه. وبعد أن قلب المعلم النظر في عمله من كل زواياه، وهو يتمشى حوله، تنهد وقال:

"إن هذه الصورة مفعمة بالسلام والسكينة، وعلى الرغم من حزنها، فإنها تبدو مريحة. حتى لأكاد أقول إن قلب الإنسان الذي صنعها كان عامراً بالسعادة والابتهاج".

ابتسم غولدموند:

"أنت تعلم أنني لم أجعل من هذا العمل صورة مني، بل من صديقي الحميم يا معلم. إنه هو الذي أضفى عليه السلام والنور، لا أنا. لست أنا حقاً الذي كون هذا الشكل، بل هو الذي جلبه إلى روحي".

قال نيقولاس: "لعلك على حق، إن طريقة صنع مثل هذه الأشكال سر من الأسرار. إنني نادراً ما أتواضع، لكني سأقول لك ما يلي: لقد قمت بصنع العديد من الأعمال في شبابي لا ترقى إلى تمثالك هذا القديس يوحنا، ليس بما تتسم به من عناية ومهارة، وإنما بحقيقتها. حسن، أنت نفسك تعرف أن مثل

هذا العمل لا يمكن أن يتكرر. إنه سر مغلق".

قال غولدموند: "نعم، بعد أن أنهيت حفر هذا العمل رحت أتأمله وقلت لنفسني: "لن تنجز أبداً عملاً آخر مثله"، وعلى هذا، يا معلم، أعتقد أنني سأعود قريباً إلى الطرقات".
رماه نيقولاس بنظرة مرتبكة حاسدة، وعادت عيناه صارمتان من جديد.

"يمكننا أن نتحدث عن هذا فيما بعد. لقد حان الوقت لك للبدء بالعمل الجاد، وليس للهرب. أما اليوم فيمكنك أن تأخذ إجازة، وسوف تكون ضيفي على مائدة العشاء".

وصل غولدموند إلى مائدة العشاء، مغتسلاً ومسحّ الشعر، بملابس يوم الأحد. هذه المرة عرف مدى التشريف في دعوته إلى مائدة العشاء، مع المعلم نيقولاس. ولكن بينما هو يرتقي الدرج ويعبر المنبسط المزدحمة بالتمائيل الخشبية، لم يكن يشعر بالفرح والخوف القلق الذي انتابه آخر مرة عندما دخل، وقلبه يخفق بشدة، إلى هذه الحجرات التي تسودها السكينة، وتشيع البهجة في النفس.

ليست أيضاً كانت تتزين بأبهى حللها، وتطوق جيدها بسلسلة من الأحجار الكريمة، وعلى مائدة العشاء، وإلى جانب سمك الشبوط والبيذ، نفحه المعلم بهدية أخرى: كيس نقود جلدي، مع قطعتين ذهبيتين، أجره على صنع القديس يوحنا التلميذ. واليوم هو لا يجلس صامتاً، منصتاً إلى حديث الأب والإبنة. فلدى كليهما الكثير يقوله، وكلهم يتبادلون الأنخاب: كانت عيناه مشغولتين بالنظر إلى الفتاة، وانتهر فرصته حتى آخرها ليملي بصره من النظر إلى وجهها الجميل، بما يتصف به من جمال مترفع، سلس، عريق. وقد كانت مفرطة في كرمها، بيد أنه ودّ لو أنها تتورد خجلاً وتذوب قليلاً، وتاق أكثر من أي وقت مضى إلى إجبار هذا الوجه الساكن الرقيق على الاستجابة له. واستأذن بالمغادرة بعد

العشاء مباشرة، وتوقف برهة يتفحص التماثيل المقامة على منبسط الدرج، ولما لم يكن يدري ماذا يفعل راح يتسكع في شوارع المدينة. لقد أسبغ عليه المعلم نيقولاس تشریفاً يتجاوز كل أصل. فلم لا يتهج؟ ما الذي يجعل هذه المكافأة حقيرة جداً؟.

وفجأة استسلم لنزوة معينة، فاستأجر حصاناً وانطلق به إلى الدير الذي سمع فيه لأول مرة باسم المعلم. لقد مرت سنتان منذ ذلك الحين واليوم تبدوان وكأنهما دهرًا وقف في كنيسة الدير أمام العذراء الحزينة، ومن جديد أسره جمالها. إنها عمل يبرز تمثاله للقدیس یوحنا، ويعادله في السحر والعمق، وينم عن ثقة أكبر في المعرفة، وفي المهارة.

الآن لاحظ تفاصيل في الحرفة لا يدركها إلا شحات، خطوطاً تتماوج بنعومة على العباءة، وجرأة في تكوين اليدين والأصابع النحيلة الطويلة والاستخدام المرهف للمصادفات في تجزع ألياف الخشب، ومع ذلك فكل هذه الجماليات لم تكن لتساوي شيئاً بالمقارنة مع جمال كامل بساطة المشهد الملهمة، التي لا يمكن أن تتوفر إلا للمعلم عظيم ضالع في حرفته. إن إبداع مثل هذه التماثيل يتطلب رجلاً تتصف روحه بأكثر من الخيال: يجب أن تكون له عين ويد من الطراز الأول. لذا لعل الأمر يستأهل أن يسخر المرء حياته لخدمة الفن على حساب الحرية، وكل المباهج، إذا كانت الغاية هي جمال كهذا ليس فقط يُرى ويعاش ويدرك بالفرح، بل ويُحفر بأقصى مصنعية وأرسخها. إنها مسألة عويصة. وتأخر غولدموند في العودة إلى المدينة في تلك الليلة على ظهر الحصان. كانت الأنوار ما تزال تنبعث من الحانة، فتوجه إليها وتناول الخبز، وشرب بعض النبيذ، ثم صعد إلى غرفته الكائنة في سوق السمك، وهو في حالة من الصراع، والاكتئاب والقلق.

الفصل الثاني عشر

في اليوم التالي لم يتمكن غولدموند من التركيز في عمله. وانطلق يتجول في الشوارع التي أمضى فيها أياماً كثيرة بغیضة، وراقب الخادِمات والسيدات يتوجهن إلى السوق، وتوقف طويلاً عند غدير سوق السمك، حيث يقف البائعون وزوجاتهم النهمات إلى جانبهم، ينادون على بضائعهم ويعلنون عن أسعارها، ويقبضون على السمك الساكن ويخرجونه من الأحواض، ويأخذون بعرضه بتباه على كل عابر سبيل.

كان السمك المرتعش بخياشيم مفتوحة وعيون ذات غشاوة ذهبية، يستسلم للموت، أو يصارع وينزلق متألماً يبغي الهروب، وكما يحدث غالباً، امتلأ قلبه بالشفقة على تلك الأسماك وبمقت حزين للبشر. لم هؤلاء الناس بهذه الوحشية، والقسوة، وأغبياء بشكل لا يصدق؟ أليس لأحد عيون، لا الرجال ولا بائعات السمك، ولا الممثلون في البرلمان الذين يرخصون السعر من حولهم؟ لم لا يرون أبداً هذه الخياشيم المتألمة، وهذه العيون الزجاجية من سكرة الموت، وزعائف الذيل هذه التي تضرب الهواء بجنون — أولاً يستشعرون الرعب المريع، اليائس للأسماك الغامضة الجميلة، بينما الرعشة تهز أجسادها المحتضرة، وتمدد مرهقة

مضناة، لتغلو وجبات هزيلة تقدم على مائدة عضو برلماني شره؟ كل هؤلاء الناس عميان لا شيء يؤثر فيهم أو يحرّكهم. قد ينفق حيوان جميل مسكين أمامهم، أو يموت معلم، يكون قد كشف، على وجه قديس ما، كل الآلام، والأفكار والآمال النبيلة، والخوف القائم المتشبه في الحياة الإنسانية، جاعلاً منه رعشة مرئية - فلا يعني كل هذا لهم أي شيء، لا يرونه.

إنهم جميعاً مستغرقون في العمل، أو التسلية، أو الشجار والركض، في الصباح والثرثرة، والتجشؤ الواحد في وجه الآخر، والقعقة بالدلاء وفرقة النكات، والتشاجر على رؤوس قليلة: إنهم شديداً التساقط يتلبسون كبرياء مدنياً، مسرورون بحياتهم الحسنة التنظيم، راضون عن أنفسهم وعن العالم أجمع. يا لهم من خنازير! بل، أسوأ بكثير وأسلم من الخنازير. على الرغم من أن حياته هنا كانت رخيصة، إلا أنه كان قد مكث بينهم وبين أمثالهم مدة كافية، وضاع زوجاتهم وبناتهم، وطبخ معهم العديد من الوجبات اللذيذة من السمك الجيد المشوي. وفي كل مرة كانت وبفجأة كالسحر، تتلاشى سكينته وطمأنينته. لقد دُحرت الأوهام السطحية، والغرور الهادئ وانتفاخ الروح. وظل فيه شيء يستحثه للجوء إلى العزلة للتأمل الطويل والتشرد، لم رأى الأسى والألم والموت، والنتيجة العقيمة لكل كفاح البشر، شيء ما جعله يتوق للتحديق إلى قلب الهوة السحيقة.

كان في أحلك لحظات توحده لدى رؤيته لهذه التفاهة والرعب، يزهر في قلبه فرح مفاجيء، رغبة عارمة في ممارسة الحب، في الرسم، في الغناء، أو يعاوده من جديد، عندما يشم عبير زهرة أو يلعب مع قطرة، قبوله الطفولي للحياة. وهذه المرة سوف يعاوده، إن لم يكن اليوم فغداً أو بعد غد، ويصبح العالم طيباً كما كان قبلاً، نعم، وإلى أن تعود الظلمة من جديد، التأمل الموحش الثقيل، حبه اليأس

المخنوق للسّمك المختضر أو للأزهار الذابلة، وكراهيته للبلادة الخنزيرية، وتثاؤب البشر المتكاسل البشع! كان دائماً في مثل تلك الأوقات، يجبر بفضول مرعب، على تذكر فيكتور المثقب الرحالة، الذي غرز بين أضلاعه مطواته الكبيرة، وتركه مطروحاً على ورق الأشجار ينزف دماً. وعندئذ يعود للتفكير في الأمر من جديد، متسائلاً كيف أصبح شكله الآن. ترى هل التهمته الثعالب؟ أيمن أن تكون قد تبقت منه آثار؟ نعم، سيكون هناك شيء منشور - العظام، وربما أيضاً حفنة من الشعر، ولكن العظام؟ ماذا حدث للعظام؟ كم يستغرق من الوقت، سنين أم عقوداً، كي تفقد العظام شكلها وتستحيل تراباً؟.

آه، ها قد دفع إلى التفكير في فيكتور الآن، وهو كليم القلب. يراقب هذه الأسماك، ويشعر بالكراهية نحو مرتادي السوق، وزوجاتهم. كان كره العالم يملأه، الكراهية والألم. لعلهم عشروا على فيكتور ودفنوه. إذا كان هذا ما حدث، فهل يكون اللحم قد زال عنه أم هل ما زال يتعفن، قطعة فقطعة؟ أم هل ملأت الديدان بطونها منه؟ هل ما زال على جمجمته شعر؟ هل ما زال هناك حاجبان فوق عينيه؟ وحياة فيكتور، الزاخرة بالأحداث والمغامرات والحيل المذهلة والنكات والفسق - كم بقي منه الآن؟ هل بقي أي شيء آخر بخلاف حفنة من الأفكار الرثة التي مازالت تستحوذ على عقل قاتله؟ ولكن مع مرور الوقت تبين أن هذه الحياة لم تكن حياة عادية. هل ما زال هناك أي أثر لفكتور في أحلام النساء؟ لا، لقد مضى وانتهى، وهذا حتماً ما سيؤول إليه مصير كل إنسان، إننا نزهر بسرعة ومن ثم نذوي، ويغطينا الثلج. كم بدا كيانه كله يزهر، قبل سنتين، حين كان به توق قلق لتعلم حرفة، فانطلق على الطرق العامة حتى وصل إلى هذه البلدة، ليضع قلبه تحت قدمي المعلم نيقولاس. هل ما زال في أي شيء من هذه الحياة؟ لا شيء، لم يعد هناك

حياة أكثر من تلك الجثة الهزيلة، الطويلة لذاك السكير المسكين. ولو أن شخصاً كان قد تنبأ له بيوم يعامل فيه المعلم نيقولا كند له، ويطلب نقابة الحرفيين بإعطائه شهادة امتياز، لشعر أن كل الفرح الذي في العالم رهن يديه. والآن ها هو يشعر أن كل شيء تفته ومغم كزهور ذابلة.

وفجأة وفي غمرة كل هذه الأفكار، تراءى لغولدموند وجهه، تبدى في لمح البصر، ثم اختفى، ومضى بصفتاء مفاجيء، مرتعش، وتلاشى. كان وجه أول الأمهات جميعاً، يميل فوق الظلمة المدمومة للحياة، ينو إلى الأسفل، ترتسم عليه ابتسامة ثابتة حزينة، وفي العينين تتمثل القسوة، وكل الجمال، يتسم للمواليد وللميتات، للزهور البازغة وأوراق الخريف المخشخشة، يتسم للفن، وللإخطاط. إن كل الأشياء متشابهة بالنسبة إلى هذه الأم العظيمة، وابتسامتها المحومة، الرهيبة، معلقة فوقها جميعاً، كقمر. لقد كان التأمل المتجهم للمدعو غولدموند عزيزاً عليها مثل سمكة شبوط تحتضر، وتنزلق على حجارة أرض سوق السمك، عزيزاً مثل ابنة المعلم الهادئة، المتعالية، وعزيزاً مثل عظام فيكتور، المنشورة في الغابة والذي كان يطمع كثيراً في سرقة قطعة نقد ذهبية.

وكان الوهج الحي قد خبا، ووجه الأم السرية قد تلاشى من جديد. لكن أثره الباهت كان ما يزال يخفق في أعماق كيان غولدموند، كدفقة من الألم والحياة، وتوق خائق، اجتاحت قلبه، وتحطم وتسوط. لا، لم تعد له فائدة للمتعة المتخمة لمولاء المواطنين، بائعي السمك، المشترين، الملاك المشغولين. فليأخذهم الشيطان! آه، يا للمعان الأبيض لابتسامة الصيف المختضر تلك ذات الشفاه الممتلئة الذي يعبث حول عينيه بريق الموت الثقيل، الغامض، كأشعة القمر أو رياح الخريف

توجه غولدموند إلى منزل المعلم نيقولا. وكان النهار قد انتصف، أو كاد، وانتظر حتى سمع أن المعلم قد أنهى عمله وذهب قبل أن يتناول طعام الغداء. ثم دخل عليه:

"يا معلم، لدي ما أقوله لك. بوسعك أن تنصت إليّ وأنت تغتسل وتبدل سترتك. إنني ظمآن لجرعة من الحقيقة، والآن لدي أمور أفضي بها إليك وقد لا أتمكن من قولها إلا مرة واحدة ووحيدة. هذا هو حالي، يا معلم. يجب أن أفضي بما يجول في فكري إلى شخص ما، ولعلك الوحيد في البلد الذي بمقدوره أن يفهم ما أعني. إنني لا أحاطب صاحب أشهر ورشة، الذي يتلقى العديد من المهام المشرفة من كل مدينة وكنيسة في الوطن، بل أحاطب المعلم الذي نحت تمثال أم الرب المقدسة هناك في الدير، وهي أجمل صورة للعدراء عرفتتها. هذا هو الرجل الذي أحبه وأجله، ويبدو لي بلوغ مستواه هو الخير الأسمى. لقد أنهيت لتوي عملاً، منحوتتي للقديس يوحنا، ولم أقترّب من الكمال فيه بقدر ما فعلت أنت في تمثال الأم المباركة في تلك الكنيسة. ولكن لندع عملي كما هو. لم يعد هناك ما يحملني على الانتظار. ليس في ذهني ما يناديني، ما يجبرني على تكوينه بيديّ. أو بالأحرى، لا، بل هناك صورة أخرى، لكنها بعيدة جداً ومقدسة، سوف تجبرني ذات يوم على إعطائها شكلاً، أما اليوم فلا أستطيع أن أنجزها. فلنكي أستجمع الطاقة من أجل إنجازها، يجب أن أعرف وأعيش قدراً أكبر من الحياة. قد أكون مستعداً في غضون ثلاث أو أربع سنين، أو في عشر سنين، أو حتى أكثر، أو ربما لا أكون أبداً! ولكن يا معلم، وحتى يأتي ذلك الوقت، لا أستطيع أن أقضي أيامي في العمل اليدوي، ألمع الملائكة، أقض ستائر الصلبان، أعيش كعامل عادي في هذه الورشة، أكسب المال وأزدهر مثل بقية العمال، لا، لن أفعل أريد أن أعيش، أن أعود إلى التطوف في الطرقات، وأريد أن أذوق ألمه حتى الثمالة. يجب أن أعاني الجوع والعطش، وأن أنسى، وأحرر عقلي من كل ما تعلمته هنا. وذات يوم سوف أصنع تمثالاً يحرق مشاعر الناس من الأعماق، ويكون معادلاً في جماله لتمثالك لأم الرب المقدسة. أما أن أكون مثلك، وأن أحيا نمط حياتك..... فلن أفعل ذلك".

كان نيقولاس قد غسل يديه وجففهما. والآن التفت ورمى غولدموند بنظرة حادة، ولكنها خالية من الخبث.

قال: "أنت تكلمت، وأنا أنصت إليك. فليكن لك ما أردت! إنني لا

أتوقع بقاءك في الورشة، على الرغم من وجود الكثير من العمل هناك. ولا أعتبرك عاملاً تابعاً لي. أنت بحاجة إلى حريتك. أود أن أناقش كل هذا، وأشياء أخرى كثيرة، يا صديقي غولدموند. ليس الآن، بعد بضعة أيام من الآن - وحتى ذلك الحين، يفعل ما يخلو لك. إسمع إنني أكبر سنّاً منك بكثير، وشاهدت أماكن كثيرة من العالم. إن أسلوبني في التفكير مختلف، بيد أنني أفهم ما ترمي إليه. بعد بضعة أيام سوف أستاذعك، وعندئذ سوف نناقش أمر مستقبلك، وقد وضعت العايد من الخطط. فاصبر حتى ذلك الحين! أنا أعرف جيداً كيف يشعر المرء بعد أن ينهي أحد الأعمال القريبة إلى قلبه، أعرف هذا الإحساس بالخواء، سوف يمر، صديقي".

استأذن غولدموند بالمغادرة وهو غير راض. إن نية المعلم نحوه حسنة، ولكن هل يهتم؟ كان يعرف مكاناً معيناً على ضفة النهر مياهه صالحة، تندفق عنده بقوة، فوق قاع مملوء بالنفايات، وفضلات الذبائح، لأن أكواخ حي الصيادين تفرغ فيه، بعيداً عن الأبواب، تختلف أصناف المخلفات والحطام. هناك راح يتمشى الآن، ثم جلس مفرشاً ساقيه على جدار ضفة النهر، وأخذ يتأمل في الجداول. كان يحب الماء، وأي صفحة من المياه تجذب نظره، فمن هنا حين ينظر المرء خلال خيوط البلور الجارية، المتدفقة والمتداخلة إلى قلب القاع المظلم، وغير المحدد، يرى، هنا وهناك، ومض له بريق ذهبي، غامض وخاطف، شيء شبه مرئي - لعله كسارة من صحن. شفرة منجل، مكسورة ومرمية أو حصاة لامعة، أو آجرة صقيلة: لعله أحياناً يكون حنكليز الطين، أو سمكة lote سمينة أو سمكة روش تتلوى في القاع ويسقط شعاع من الشمس برهة على الزعانف، أو الحراشف أو على بطن براق، ولم يتأكد تماماً من الشيء اللامع، وكان كلما لمح هذا البريق الأخضر للذهب المكنون عميقاً في الغور الغامض، المظلم الرطب، ألفاه مترعاً بالسحر وبالبهجة.

وقال في نفسه، إن كل سر حقيقي، وكل تصورات العقل الأصيلة، هي مثل السر المائي الصغير، فليس لها قوام، ليس لها شكل ثابت،

واضح، ولا تسمح بإدراكها، إلا بوصفها احتمالاً محبباً نائياً: إنها مستترة. متعددة المعاني. وكما كان ذاك الشيء الغامض الذهبي أو الغض يصدر ومضاته الصغيرة من غسق النهر الأخضر للحظة من الزمن ومن ثم يخبو ثانية، كذا أيضاً أضحى إطار وجهه، نصف مرئي من الخلف، نذير نعمة سرمدية أو حزناً سرمدياً: أو كأن مصباحاً يتأرجح تحت عربة محملة تسير ليلاً، وظلال أشعة الدواليب العملاقة تنتشر وتمد تراقصها على جدار، وهي في حركاتها قد تكون زاحرة بصور وحكايا جديرة بفرجيل. من مثل هذه القماشة المهلهلة السحرية نفسها تنسج أحلامنا ليلاً - إنها هباء، تضم فيها كل صور العالم، هي ماء تعيش في صفائه أشكال لكل الأشياء، للملائكة، وشياطين، ورجال وحيوانات، بوصفها احتمالاً سرمدياً.

عادت أفكاره إلى الماء، رأى، شارد الذهن، من خلال تدفق النهر وخريره، خفقات مشوشة في القاع، شكلت تيجان ملوك، وأكتافاً عارية لنساء. وتذكر أنه كان قد حلم، وهو في دير ماريابرون بمثل هذا الشكل السحري المتغير أبداً ليتخذ هيئة حرف إغريقي أو لاتيني. ألم يتحدث في هذا مع نرسييس! آه، كم من وقت طويل مر على ذلك، كم من دهوراً واحسرتي على نرسييس! لو أراه الآن، أتحدث معه لساعة من الزمن، أمسك بيده وأنصت إلى صوته الهادئ، الثابت، لوهبت عن طيب خاطر قطعتين ذهبيتين. ما الذي جعل كل هذه الأشياء ذات جمال آخاذ، هذه الأغاز المتأللة والأشباح، كل هذه الأشياء المسحورة، الوهمية - ما الذي جعلها ذات حسن لا يصدق. ما دامت بحد ذاتها، نقيضاً لأي جمال يصنعه الحرفي؟ فإذا كان لم يفتنه في جمال هذه الأشياء المبهمة إلا غموضه، فإن الأمر هو عكس ذلك بالنسبة لأعمال الحرفيين. فهذه كلها محض شكل، تتحدث بلغة صفاء الكمال. لا شيء يتصف بصفاء أشد صرامة من الخطوط التي تحدد رأساً جيد الرسم، أو فماً منحوتاً. وكان

بإمكانه أن يعيد تشكيل عيني أو الشفة السفلى لتمثال نيقولاس للعدواء، تماماً كما رآه، وبدقة متناهية. هناك، هناك لا شيء غامض، مخادع، أو زائل.

على الرغم من أن غولدموند أطال التفكير في الموضوع، فإنه في النهاية ظل لا يجد تفسيراً جيداً لتأثير هذه الأشكال الأشد صفاءً وتحديداً على أرواحنا بنمط تأثير تلك الأشكال نفسه الأشد غموضاً والأقل تحديداً. ولكن ثمة شيئاً واحداً كان جلياً له، لقد بات في استطاعته الآن أن يفهم لماذا كدريته تماماً أعمال كثيرة جداً لا غبار عليها، أجزها المعلمون في حرفتهم، ولم أثاروا فيه ضجراً بالغاً، على الرغم مما في تصميمهم من جمال معين، حتى كاد يكرههم. لقد كانت الورش، والكنائس، والقصور ملأى بأعمال فنية قاتلة، وقد ساعد هو نفسه في تنفيذ عدد منها. إن خداعهم الأمر يكمن في أنهم أثاروا توق الناس إلى الجمال وتركوه دون إشباع، لأنهم كانوا يفتقدون جوهره - السر. إن الأحلام والأعمال العظيمة لكل منها غموضه.

وقال غولدموند في نفسه: "إن ما أحبه وأتوق إليه شيء غامض. إنني أسير في إثره. رأيته عدة مرات في ومضات، وأنوي، بوصفي نحاتاً وحين يتاح لي، أن أصوغه لأزيل غموضه. وسيكون شكله هو شكل أم كل الأشياء، جمالها، وخلافاً لجمال التماثيل الأخرى، لن يتميز بأي شيء، لا استدارة خاصة، أو نحافة، أو بساطة أو شكلاً مزخرفاً، لا فتنة أو قوة، ولكن في هذه - سوف تتصالح المتناقضات المتباعدة، وتتعايش معاً في عملي: المولد والموت، المتعة والألم، الحياة والفناء، وكل هذه الأشياء لا يمكن، خارجها، أن تدع العالم بسلام. ولو أنني استبظت شكلها في خيالي، لما كانت أكثر من نزوة حرفي، ولكانت خيالي على هذا لا قيمة لها. بإمكانني أن أرى عيوبها، وأنساها خلال خيالي. لقد رأيته! إنها تعيش داخلي. قابلت شكلها مراراً وتكراراً. رأيته أول مرة في تلك

القرية في ليلة شتائية، وأنا أحمل مصباحي فوق سرير امرأة قروية في حالة وضع، ومنذ ذلك اليوم فصاعداً أضحت جزءاً مني. كثيراً ما أضيعها، حتى لأكاد أنساها، إلى أن تعود فجأة صورتها إلى الوميض من جديد، كما عادت اليوم. لقد تحول شكل أعز أفكاري قاطبة، وتفكيري في أمي. منحت حياة لهذا الشكل الجديد، وهي تكونه كالنواة من ثمرة الكر.

الآن بات يشعر بأقصى وضوح كيف تجري أموره. وأخذ قلبه يخفق، كما لم يخفق عند أي نقطة تحول في حياته. واليوم، لديه توق، لا يقل عما أحس به ليلة ودّع نرسييس والدير، للانطلاق في طريق جديدة. وقد نادى هذه الأم: لعله ذات يوم سوف يحولها إلى عمل فني ليراه الجميع. لم يكن ييوح بهذا، إلا أنه كان مؤكداً - كان يسعده أن يتبعها، أن ينطلق دون توقف باتجاهها، يسترشد بنداها، ويحثه على مواصلة السير. تلك هي حياته. ولعله لن يبذل أي مجهود لنيل ما رآه، سوف يظل مجرد رؤيا حتى النهاية، شركاً، ومضة كنز سري، خفي. وكيفما كان ذاك الشيء فعليه أن يتبعه، لقد وهب لها نفسه، وكانت هي عزاءه.

وهكذا كان القرار حاضراً لديه، وكل شيء معداً في ذهنه. لا شك في أن الفن شيء رائع جداً. لكن الفن ليس إلهة، ليس هدفاً نهائياً، ليس مقدراً له أن يتبع الفن بل صوت أمه. ما الفائدة من وراء تطوير مهارة أصابعه باضطراب؟ لقد بين له المعلم نيقولاس إلى أين يؤدي هذا، إنه يؤدي إلى شهرة الحرفي، إلى المال والحياة المتكاملة المستكنة، إلى ذبول وتقرم ذاك الجوهر الذي بواسطته وحده ينكشف السر. يؤدي إلى نحت دمي حقيرة غالبية الثمن لكل مجمع كنسي فارغ ومذبح، وكنائس القديس سيباستيان، وملائكة مصقولة بأناقة، ومذهبة مقابل أربعة تاليرات للقطعة. وكان البريق الذهبي المنبعث من عيني سمكة شبوط، والومض الفضفي الجميل، المحيط بحواف جناح فراشة، أجمل وأكثر حيوية، وثرأء

بدوره فيها، يشكرها على السحق، ويقبلها على شفيتها، ويتحسس
 ثدييها النافرين والمتصقين به، ويضغطها قليلاً عليه بالمقابل؟ وفي وجهها
 السماح الممتلىء رأى نظيرة تعكس انعدام الحياة والعادة، وسمع في
 ضحكها الودي شيئاً مجرداً من الوقار، شيئاً سمعه كثيراً جداً. صوتاً رتيباً،
 خالياً من أي غموض. وتجمدت ابتسامته، وأنزل يده، فهل مازال يكن
 لها أي اهتمام؟ هل كان يشتهي حقاً قبلاتها؟ لا، لقد أفرط في الجحيء إلى
 هنا، ورأى الابتسامة نفسها أكثر مما ينبغي، ودائماً هي نفسها، ورد
 عليها بابتسامة مرات أكثر مما ينبغي - ودون رغبة. وما كان في إمكانه
 القيام به بالأمس دون تفكير، أصبح فجأة، اليوم مستحيلاً، كانت الفتاة
 ما تزال واقفة في مكانها ترمقه عندما استدار للتو وانطلق في طريقه،
 عازماً على أن لا يلج هذا الشارع مرة أخرى، فليترك المجال لمبتدئ كي
 يداعب ثدييها. فليات شخص آخر ويأكل سحقها الطيب! أوه، كيف
 يبدد أولئك المواطنين حياتهم! ما أكسل هؤلاء المواطنين الكبار الأنيقين،
 الذين تذبح لأجلهم، يوماً بعد يوم، أعداد كبيرة من الخنازير والعجول،
 وتنتشل مقادير كبيرة من الأسماك البراقة من النهر. وهو نفسه! كم أصبح
 يشبه الحمقى الصقيلين، كم أصبح كسولاً وشرهاً! إنه قطعة قذارة
 صغيرة في المستنقعات، ثمرة برقوق جافة، مذاقها أطيب من وليمة كاملة
 لنقابة الحرفيين في هذه البلدة. آه، يا حرية المستنقعات المظلمة تحت ضوء
 القمر، وآثار الحيوانات، تقتفى بحذر على العشب الرمادي الرطب عند
 انبلاج الفجر! إن حياة أولئك الناس تافهة ووضيعة - حتى مفهومهم عن
 الحب. لقد طفح كيلاً! إنها حياة، أشبه بعظمة، خالية من نقيها. في
 وقت من الأوقات كانت أفضل، كانت تنطوي على شيء من المعنى،
 أيام كان المعلم ما يزال قدوته، وكانت ليست أميرة في نظره. وحتى بعد
 ذلك كانت محتملة، عندما كان هناك القديس يوحنا ليحتوي أفكاره.
 والآن انتهى كل هذا، غادرته نضارته، والزهرة الصغيرة ذبلت وتغضنت.

على الدوام من ملء غرف من تلك الأعمال.

اقترب فتى وهو يغني على طول ضفة النهر، ويقطع أغنيته من وقت إلى آخر، أثناء قضمه من رغيف خبز أبيض. فتهتف له غولدموند ميمياً، وطلب منه قطعة من رغيفه. ثم انتزع لب الخبز بإبهامه، وسبأته، وراح يشكل منه كريات بيضاء صغيرة من الخبز. وأخذ يطيح بكريات، وهو يميل فوق الجدار، واحدة إثر أخرى، بعيداً إلى عمق الجدول المظلم المتسارع، واحتشد السمك السريع الحركة حولها، ثم اختفى في أفواهاها. رآها تختفي كرية إثر أخرى، ومع كل واحدة كان يشعر بالارتياح العميق نفسه، ثم أحس بالجو، وذهب يفتش عن إحدى عشيقاته، الخادمة التي تعمل في بيت اللحم الذي كان يسميها "فتاة لحم الخنزير والسحق". كان يناديها بصفيhre المعتاد، ويخبرها حين تأتي إلى نافذة المطبخ، أنه لايهمه أي نوع من اللحم تقدمه له. وكان يضع ما تعطيه في جيبه ليأكله في كروم العنب، في الطرف الآخر للنهر، الذي كانت تربته حمراء من ثمار العنب، وحيث كانت تنمو، في فصل الربيع، زهور المكحلة، الزرقاء ذات الرائحة الذكية.

ولكن يبدو أن هذا اليوم كان يوم الإدراكات الجديدة. فعندما أطلت كاترين من النافذة مبتهمة - ابتسامتها التي تميز وجهها البدين - للتو رفع يده ليعطي إشارتهما المتفق عليها - تذكر فجأة كل ابتساماتها الأخرى، كل المرات التي وقف فيها في هذا المكان بالذات، ينتظر عند هذه النافذة، تماماً كما يفعل اليوم. ثم، وبجلاء مضجر رأى كل شيء يحدث أمامه، رآها ترد على إشارته وتغادر النافذة، وفي الحال ظهرت قادمة نحوه من الباب الخلفي، حاملة بيدها لفافة اللحم المدخن، ورأى نفسه يتناولها، ويداعبها لأنها تكبدت المشقة، وضمها إليه، كما كانت تتوقع منه، وفجأة بدا له كل شيء يتصف بمقامة لامتناهية، هذه السلسلة الكاملة، الميكانيكية من الأمور المتكررة. لم يستعيدها ويقوم

وغمره إحساس بلا دوام الأشياء كاجتياح موجة.

إن كل شيء يذبل، كل متعة تنتهي مع خفقة نفس، ولا تترك وراءها غير غبار وعظام. نعم، لا يبقى إلا شيء واحد: الأم الخالدة. حواء الشابة أبداً، والعجوز أبداً أيضاً، بابتسامة رغبتها القاسية، والحزينة. تراءت له ثانية برهة من الزمن: ماردة ترصع النجوم شعرها، تريض حاملة عند حافة العالم. تقتلع بحركمة متكاسلة زهرة بعد زهرة، وحياة بعد حياة، وتلقي بها إلى الفضاء.

بينما كان غولد-موند في تلك الأيام يراقب، وهو يتذكر بحزن لحظات الفراق، جزءاً من حياته يختفي ويتلاشى، أثناء تسكعه خلال شوارع المدينة المهلكة، كان المعلم نيقولاس يبذل جهداً مضنياً ليضمن استقرار المتشرد إلى الأبد. وقد وضع خططاً عديدة من أجل الاعداد المستقبل غولد-موند، وأقنع النقابة بعد إلحاح من أجل منحه امتياز معلمه وفكر في مشروع للإسراع في الاحتفاظ به، ليس بوصفه عامله البارع بل كند له، كشخص يستشير في كل المسائل الكبيرة. فيضعان معا التصاميم، ويحصل غولد-موند على حصة من الربح. وهذا الإجراء ينطوي على بعض المخاطر، بالنسبة لـ "ليسبت" أكثر منها بالنسبة لوالدها، لأن الشاب طبعاً يحب أن يصبح زوج ابنته. لكن أفضل العاملين المهرة الذين استخدمهم حتى ذلك الحين لم يتمكن قط من إنجاز رؤية جديدة لتمثال القديس يوحنا، وكان هو، المعلم، يتقدم في العمر، وأصبح أفقر في المخيلة مما كان، وبات يخشى أن يرى ورشته الشهيرة، تنحدر إلى مستوى أكشاك النحاتين العادية. إن الأمر لن يكون سهلاً مع غولد-موند هذا، ولكن مع ذلك يجب أن يقوم بالمحاولة.

هذا ما ارتآه المعلم، يحزن وتدبر. سوف يعتمد إلى تحديد بناء الورشة الداخلية، وإلى توسيعها لتأوي مساعده الجديد، وسوف يعطيه عليّة المنزل، وسترة جديدة، وبنظراً ضيقاً ليحضر بهما عملية انتخابه

للانتساب إلى النقابة. وبرقة استطلع رأي السيدة ليسبت التي كانت، منذ ظهيرة ذاك اليوم وهم جالسون يتناولون طعام الغداء، قد توقعت مثل ذاك العرض من والدها. ويا للمفاجأة، إن ليسبت لا اعتراض لديها! إذا أصبح الفتى عضواً نقابياً ومواطناً لن تمنع في أن يكون زوجاً لها. هنا، أيضاً، لا يبدو أن ثمة عائقاً. فإذا لم ينجح المعلم نيقولاس وحرفته تماماً في ترويض هذا الغجري، فإن ليسبت قريباً سرف تقص له أجنحته.

هكذا رسم كل شيء، وأحسن وضع الطعم للعصفور. وهكذا، ذات يوم استدعيا غولدموند، الذي لم يكن قد أخبرهما بأي شيء عن نفسه، وفي هذه المرة أيضاً طلبا منه مشاركتها طعام العشاء، وجاء كما في السابق، مسرّح الشعر ويرتدي ملابس يوم الأحد، ومن جديد جلس في الغرفة الجميلة، ذات الطابع الرسمي، مع المعلم وابنة المعلم، إلى أن استأذنت ليسبت بعد الانتهاء من تناول الطعام بالمغادرة، وقدم له نيقولاس عرضه الكبير.

وأضاف في نهاية خطته المفاجئة: "أنت تفهم، ولست بحاجة إلى أن أقول أنه لم يسبق لأي شاب آخر، لا يحمل أي خبرة مهنية سابقة، أن أصبح معلماً كما فعلت، واستقر في مثل هذا العش الدافئ. لقد تحققت أمنيّتك يا غولدموند!"

جلس غولدموند يحدق إلى المعلم نيقولاس، مدهوشاً، وفي غاية الإرباك. ودفع بالكأس نصف الملائن معيداً إياه أمامه على المائدة. إنه لم يكن يتوقع أي شيء من المعلم خلافاً بعض عبارات الشكوى من كسله في بعض الأيام، وعرضاً منه لجعله عاملة البارح إلى الأبد. الآن ها هو يقدم له هذا العرض! وأحزنه، وملأه بالإرباك جلوسه هكذا في مواجهة الرجل دون أن ينطق بكلمة. بيد أنه لم يتمكن من إعطائه جواب فوراً.

كان نيقولاس قد بدأ يغضب قليلاً لأن كرمه لم يقابل على الفور،

بعبارات شكر بسيطة، فنهض واقفاً وأردف قائلاً:

"يسدو أن كلامي قد أدهشك. لعلك تحتاج إلى بعض الوقت للتفكير. وهذا يضايقي قليلاً. كنت آمل أن يمنحك بهجة عظمى. ولكن سيان عندي. نخذ وقتك".

قال غولدموند، وهو يبحث عن الكلمات المناسبة "يا معلم، لا تسيء الظن بي. إني شاكر لك من كل قلبي لطفك، بل وأيضاً للصبر الذي أبديته معي أنا، تلميذك. لن أنسى مدى الدهر ما أدين به لك. وأنا لا أحتاج إلى التفكير. لقد اتخذت قراري منذ زمن طويل".

"وما هو؟"

"لقد اتخذته قبل أن ترسل في طلبي بوقت طويل - قبل أن تتكون لدي أي فكرة حول عرضك النبيل الذي قدمته إليّ. إنني لا أستطيع أن أبقي هنا. يجب أن أعود إلى التجوال من جديد".

علا الشحوب وجهه نيقولاس، ولمعت عيناه.

قال غولدموند: "صادقني يا معلم عندما أقول إنني لا أريد أن أسبب لك الحزن. يجب أن أغادر كل هذا. يجب أن أتجول وأن أستعيد حريتي. أشكرك مرة أخرى من كل قلبي، ولنفتق ونحن أصحاب". مد يده والدموع تكاد تطفّر من عينيه، فلم يقبلها نيقولاس. كان وجهه شاحباً. وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، بخطى سريعة، أخذت تتسارع باضطراب. لكن، بدا أن الحنق يتصاعد إلى كل جسمه. ولم يكن غولدموند قد رآه على تلك الحالة من قبل.

"ارحل إذن! ولكن افعل حالاً. ولا ترييني وجهك بعد الآن. لا تجعلني أقول أو أفعل ما قد أندم عليه ذات يوم. إرحل".

مرة أخرى مدّ غولدموند يده، فقام نيقولاس بحركة وكأنه يهيم بالبصق عليها. عندئذ استدار غولدموند، وقد غدا شاحب اللون

كالآخر، وانسل خارجاً من الغرفة، واعتمر قلنسوته وهو على المصطبة، وزحف هابطاً الدرج، وكان أثناء هبوطه يداعب الملائكة المحفورة من خشب الجوز، ومن ثم خرج إلى السقيفة الخشبية الصغيرة، ليلقي نظرة وداع على تمثاله للقديس يوحنا. وهناك توقف برهة، وبعدئذ غادر المنزل، وقلبه عامر بحزن لم يكن قد شعر بمثله في ذاك النهار، وهو وسط الثلوج، عندما غادر القلعة، وليديا المسكينة. أما هذا الوضع فعلى الأقل انتهى بسرعة. على الأقل لم يبدد الكثير من الكلام. وهذه الفكرة كانت تعزيته الوحيدة، وهو يعبر العتبة، ويرى الأشياء المألوفة في الشوارع وهي تتخذ مظهرًا جديدًا، بينما قلوبنا تهتم بالرحيل عنها. ومرة أخرى ألقى نظرة خلفه إلى باب المنزل... باب منزل رجل غريب، وقد أوصد إلى الأبد في وجهه.

حين عاد غولدmond إلى غرفته أخذ يعد العدة للخروج إلى الدروب. ولم يكن هناك الكثير مما يعيقه، وبالكاد كان ثمة ما يفعله خلاف أن ينطلق إلى الرحيل. كانت هناك لوحة كان قد رسمها بنفسه، للمادونا الرقيقة، معلقة على الجدار، وأشياء تافهة كثيرة منثورة في أرجاء الغرفة. كان هناك زوج من حذاء الرقص، ولفافة من الرسومات، وقيثارة صغيرة، وصف من التماثيل الغضارية كان قد شكّلها، وبعض هدايا الحسناوات، وباقة من الزهور الاصطناعية، وكأس للشرب، ذو لون قرمزي مبقّع، وفاكهة مسكرة مجففة بائنة وقديمة، مشكلة على شكل قلب، والمزيد من مثل سقط المتاع تلك على الرغم من أن لكل قطعة منها قصة. وقد كان لكل منها ذات يوم معنى خاص، أما الآن فأضحت عنصراً معيماً يبعث على الضجر. ولكن على الأقل يمكنه أن يذهب إلى صاحب الملك، ويبادل الكأس بسكين صيد قوية ثم يشحذها على حجر الرحي الكائن في فناء الدار، ويمكنه أن يفتت قلب كعكة الزنجبيل، ويطعمها للدجاج في ساحة دار الجيران، وأن يعطي لوحة المادونا

لربة البيت، ويحصل منها على هدية نافعة، على شحفظلة جلدية قديمة مملوءة بالطعام.

إلى هذا أضاف قميصين نظيفين له، واثنين من أصغر رسومه حجماً. ولفهما حول قطعة من عصا مكنسة. أما باقي الأوراق المهلهلة فحلفها وراءه.

كان في المدينة الكثير من النسوة اللواتي كان يمكن أن يستودعهن: في الليلة الفائسة فقط كان قد ضائع إحداهن، دون أن يفوه بكلمة واحدة عن خطئله. فلم يكن الأمر يستحق أن يحمل على كثير من شمل الجد، لذا فلم يودع إلا صاحب الملك، واستأذنه بالرحيل خلال الليل، لكي ينطلق في صباح اليوم التالي الباكر.

مع ذلك، وعلى الرغم من هذه الحيلة، فثمة شخص آخر استيقظ قبله، لكي يدعوهُ إلى المطبخ ليتناول حساء الحليب، وذلك حين أوشك أن يتسلل خارجاً من المنزل. كانت طفلة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها، هي ابنة رب المنزل، فتاة سقيمة، هادئة، ذات عينيْن جميلتين، لكنها مصابة بتشوه عند مفصل الورك، وكانت تعرج. كان اسمها ماري. وقد أعدت لأجله في المطبخ حلياً دافئاً، وأحضرت خبزاً ليتناسب معه، وهي بوجهها الشاحب من قلة النوم، ولكنها صففت شعرها بعناية وسرحته لتقبله، وبدا عليها الحزن الشديد لأنه سيغادرها. فشكرها مع قبلة وداع، وأشفق عليها. فتلقت قبلته وعيناها نصف مغمضتين.

الفصل الثالث عشر

خلال الأيام الأولى من هذه التجولات الجديدة، الجيشان النهم الأول للحرية المكتسبة حديثاً، كان على غولدموند أن يتعلم منذ البداية كيف يعيش حياة الدروب بلا سقف يأويه ولا مواقيت. والذين لا سقف لديهم يأويهم يعيشون حياة الأطفال الشجعان، لا يأثرون بأوامر أحد، سيدهم الوحيد هو السماء المتغيرة، ولا هدف أمامهم. ولا سقف يظللهم ولا يملكون شيئاً، ومستعدون لأي مصادفة - حياة تسول وشجاعة. إنهم أولاد آدم، المطرود، وأخوة الحيوانات البريئة. يتقبلون من يد الله، ساعة يعد ساعة، كل ما يهبهم، شمساً، مطراً، ضباباً، ثلجاً، حرّاً، أو برداً جوعاً أو شبعاً، ولا يلاحظون أبداً كيف يمر الوقت، أو يحسبون حساباً للمستقبل، أو لتاريخ الإنسان. بالنسبة إليهم لا وجود لكفاح مرير، ولا معرفة لديهم بذلك المعبود الغريب المسمى رفاة والتي يتشبث بها أصحاب الملك بقوة محمومة. إن الجوال قد يكون همجياً أو رقيقاً، متمرساً في حياته أو بليداً في مسائرتها، مقداماً أو جباناً، لكنه طفل. يعيش أبداً في الجنة السابقة للجيء الحروب والموت، تقود خطاه إلى الأبد حاجات بسيطة قليلة ورغبات. وسواء أكان حاذقاً أو بطيء الفهم، يشعر من أعماقه مدى هشاشة الحياة كلها وقصر أجلها، وبكم من الضعف والخوف تحمل الكائنات الحية قس دفتها وتعبر به

الكون الثلج، أم كان شخصاً ساذجاً شراً مسكيناً يتبع خطى بطنه التي تتأكله - فإن كليهما هو العدو العميق والمنافس للدود للمواطنين الآمنين. فهم يخافونه كما يخافون أن يتذكروا هروب كل ما هو موجود، الاضمحلال الأبدي للدفء والاستمتاع، نحو الموت البارد المحتوم، الذي يسري في الجوف ويلتهم الناس كلهم.

انصرم الصيف ومن بعده الخريف. ومن جديد أخذ غولد موند يشق طريقه بعناء وسط الثلوج، متجولاً، يملؤه الفرح كلما يشم عبير الربيع الذكي، وشاهد الفصول يطل أحدهما الآخر، والصيف الذهبي وهو يغوص سريعاً في الأرض. وهكذا ظل يتابع طريقه عاماً بعد عام، إلى أن بدا أخيراً أنه نسي كل الأشياء الأرضية ما عدا العطش، والجوع، والحب، وانزلاق السنين الهادئ الغريب. بدا وكأنه قد غاص بشكل كامل عائداً إلى الأم، ضائعاً في عالمها المكون من الجوع والشبع، على الرغم من أنه خلال كل حلم أو استراحة تأمل، وبينما كان يمتد أمامه مشهد لوديان مزدهرة أو ذاوية، كانت عيناه مفتوحة وإذا به يعود من جديد جريئاً، يتوق إلى أن يصوغ هذه الحياة الواضحة والمستعجلة في شكل، وإلى أن يعطرها وينفخ فيها شيئاً من روحه.

كان منذ مقتل فيكتور وهو يتجول وحده. ولكن ذات يوم وجد أن لديه رفيقاً، أخذ يلازمه تدريجياً، حتى دون أن يلاحظ ذلك قط، وفضل فترة طويلة غير قادر على التخلص منه. لكن هذا المتشرد الجديد لم يكن يشبه فيكتور، كان حاجاً رومانياً وما يزال يافعاً، يرتدي رداء الحاج وقبعة واسعة، وكان اسمه روبرت، وبيته على ضفاف بحيرة كونستانس. هذا الحاج، وكان ابن حربي، التحق فترة من الوقت بالمدرسة مع رهبان القديس غالوس، وكان ما يزال فتى صغيراً، عندما ازدحم رأسه بأحلام عن حجة رومانية، إلى أن لم يبق في ذهنه فكرة غيرها، وتشبث بأول فرصة سنحت له لتحويلها إلى واقع. وقد وفرت له وفاة والده، الذي كان عليه أن يعمل نجاراً في ورشته، الحرية التي كان يتوق إليها. وحالما دفن الرجل العجوز بسلام أعلن روبرت لأمه وأخته أنه لم يعد هناك ما يشده إلى البقاء، وأنه سيذهب إلى روما لتبليغ لنداء روحه، ليصلي هناك تكفيراً عن خطايا أبيه الكثيرة. وعشنا بكنت المرأتان وأنبته، وانطلق يروم روما، عنيدا كعنده دائماً، محروماً من أي تبريك من

أمه، ووسط وابل من التعنيف السليط من أخته. كان توفه إلى التجوال أقوى لديه من أي ولاء للأسرة، وإن كان ممزوجاً بما يشبه التقوى الضحلة، حب للتكاسل في جوار المشاهد الكهنوتية والكاتدرائيات. وكانت متعته أن ينصت إلى الشعائر الدينية الطويلة، وأن يراقب عمليات التعميد، ودفن الموتى، والقدايس التي تقام على أرواح الموتى، وأن يشم عبق البخور، ويتدفأ على ومض الشموع. وقد نجح في الإلمام ببعض أطراف اللغة اللاتينية وإن ليس بما يكفي لجعله مثقفاً، وإنما لتهدئة تخيلات روحه الصبائية التي تمثلت في تحليقات طويلة من أحلام يقظة ورعة عند جوانب المذابح، في ظل صحن الكنائس. ولم يوله غولدموند الكثير من الانتباه، مع أنه أحبه كثيراً، وشعر أنه وإلى حد ما يشبهه في حافزه إلى التجوال ومشاهدة بلاد جديدة. وهكذا انطلق المدعو روبرت، بل إنه نجح في الوصول حتى روما، وقد نزل في تلك الأثناء بعدد كبير من الأديرة ومنازل الكهنة، وشاهد الجبال، والأراضي الجنوبية فيما وراءها، وشعر بسعادة غامرة وهو يتنقل بين الكنائس الرومانية، ومؤسسات المدينة الدينية. وهناك استمع إلى مئة قداس، وركع وحلم عند أشهر المقامات المقدسة، وتلقى القرايين المقدسة واستنشق من البخور أكثر مما كان يحتاج ليظهر به كل فعل إثم ارتكبه في شبابه، أو بحق تلك الآثام التي ارتكبتها والده في حياته كلها.

هام علي وجهه فترة عام أو أكثر، ولكن حين عاد أخيراً إلى منزل والده لم يلق ترحيباً من أحد بوصفه مسرفاً، بما أنه وجد أن أخته قد جعلت من نفسها في غيابه سيدة الدار، واستولت على كل الحقوق والواجبات التي كان يجب أن تكون له. فقد تزوجت نجاراً بارعاً ومثابراً، وسيطرت على الأمور بالحديد والنار، حتى أن روبرت بعد أن مكث فترة وجيزة وجد أنه فرد زائد في بيته، ولم يحاول أحد أن يلح عليه كي يبقى عندما تحدث عن عزمه على الانطلاق في رحلات جديدة وفي الحج. ولم يزعجه ذلك كثيراً. واستجدي أمه بعض النقود الفائضة لديها، ومن جديد اعتمر قبعته ووضع عليه رداءه ثم انطلق في رحلة مقدسة أخرى. وفي هذه المرة لم يضع أمامه أي هدف، وإنما أخذ يتنقل هنا وهناك عبر أراضي الإمبراطورية، نصف راهب، ونصف متشرد، وأوسمة من نحاس تفرقع حول عنقه، جمعها من كل موقع شهير،

ومعها مسابح غفرانية.

على هذه الصورة قابل غولدموند ذات يوم وهو يسير إلى جانبه بنطلى
بمجهدة، وتبادل معه العديد من حكايا المتشردين، وفي بلدة السوق الصغيرة
التالية اختفي، وكان يلتقي به من جديد هنا وهناك، وفي النهاية لازمه بشكل
دائم، راغباً في أن يكون رفيقاً يعتمد عليه. وقد أثار غولدموند إعجابه كثيراً،
أعجبته جرأته، وذكاءه، واطلاعه، وأحبه لما كان يتحلى به من صحة وقوة،
وإخلاص. واجتهد كي يكسب عطفه بأدائه خدمات صغيرة، وأصبحا
صديقين وفين، بما أن غولدموند كان رفيقاً يمكن اكتسابه بسهولة شديدة.
شيء واحد فقط لم يحتمله. فحين كانت تنابه نوبة التفكير والتأمل، كان
يتابع سيره المجهد في صمت عنيد، وينظر إلى روبرت وكأنه غير موجود،
وعندئذ يجب ألا تطرح أية أسئلة، ولا يدور أي حديث مسل، أو ثرثرة في
محاولة للتسرية، ويجب أن يترك شأنه داخل مزاجه الشخصي. هذا ما
اكتشفه روبرت وحده. ومنذ أن علم أن غولدموند يحفظ سلسلة من
الأشعار والأغاني باللغة اللاتينية، ومنذ أن سمعه ذات يوم، عند بوابة إحدى
الكاتدرائيات، وهو يشرح بنية الصور الحجرية، وراقبه مرة، بينما كانا
واقفين يستريحان عند جدار، يرسم عليه بضغ ضربات سريعة مشوشة،
أشخاصاً بالحجم الطبيعي، وبدأ ينظر إلى صديقه على أنه أحد أخيار الله، بل
وأقرب ما يكون إلى الساحر.

وما أزعج روبرت أكثر كون النساء أيضاً يفضلن غولدموند، إلى درجة
أنه بنظرة منه وابتسامة كان قادراً على إقناعهن بمنحه ما يرغب، إلا أنه كان
لا بد أن يبدي إعجابه بهذا.

قوطعت رحلتها معاً بطريقة لم يتوقعها أي منهما. فذات يوم وصلا
إلى مشارف إحدى القرى: فوجدوا أن حفنة من القرويين بانتظارهما،
يحملون في أيديهم نبايت، ومدارس^(١)، وأعمدة، وقائدهم من مكان أبعد
يصرخ بهما أن عودا من حيث أنيتما، واذها إلى الشيطان ولا تعودا إلى هنا
بعد الآن، تابع غولدموند سيره دون أن يوليهم انتباهاً، وهو تواق إلى معرفة

(١) - مدارس: جمع مدرّس، لدرس الخطّة.

ما يجري، وسرعان ما تلقى حجراً ارتطم بقوة بصدره. وكان روبرت، الذي كان يتلفت فيما حوله بحثاً عنه، قد أطلق ساقيه للريح كأنما هرباً من شياطين. وأخذ القرويون يقتربون شيئاً فشيئاً، ويطلقون تهديداتهم، بحيث لم يبق أمامه إلا أن يلحق به، وإن ليس بسرعة كبيرة. انتظره روبرت وهو يرتجف، وقد توقف تحت صليب تتدلى منه صورة للمسيح، ومغروز في وسط حقل.

ضحك غولدموند وقال "لقد ركضت كبطل، ولكن لماذا يضعون كتل الطين تلك على رؤوسهم؟ أهنأك حرب؟ أهم حراس مسلحون يقفون أمام أكواخهم ولا يسمحون لأحد بالمرور من الطريق؟ أتعجب ماذا يكمن وراء كل هذا؟".

كلاهما لم يكن لديه جواب. ولم ينجل السر، شيئاً فشيئاً، إلا في صبيحة اليوم التالي حين كانت بعض المغامرات بانتظارهما. وكانت المزرعة القائمة وسط بستان مخضوضر، وقد ثما فيها عشب باسق وكثير من أشجار الفاكهة، وتتألف من كوخ، ومربط للماشية، ومخزن للحبوب، يشملها سكن غريب، وكأنها تغط في سبات. ووسط البستان وقفت بقرة تخور في العشب: وكان واضحاً أنه حان وقت حلبها. توجهوا إلى باب المنزل وقرعوا. ولما لم يحصلوا على جواب انتقلوا إلى مربط البقرة، وكان مفتوحاً وخاوياً، فتوجهوا إلى مخزن الحبوب، الذي كانت الطحالب الخضراء الفاتحة اللون التي تنمو على سطحه المصنوع من القش تلمع تحت ضوء شمس الصباح الباكر، هناك أيضاً لم يعثرا على أي مخلوق حي.

عادا إلى المنزل وهما مرتبكان ومكتئبان لما قابلاه من خلاء هذا المسكن، وما حوله، ومرة أخرى قرعوا على باب المنزل بكلا قبضتيهما، ولم يسمعا من يجيبهما من الداخل. ولما أراد غولدموند أن يدفع الباب بشدة لينفتح، فإذا به يكتشف، وهو مدهوش، إنه غير موصل، فدخل إلى الغرفة المظلمة الواطئة السقف.

صاح بصوت عال: "سلام الله عليكم، أما من أحد هنا؟".

لكن لم يكن هناك غير الصمت.

تلكاً روبرت في الخارج. ودخل غولدموند، يدفعه شوق للمشاهدة. كان داخل الكوخ يفوح برائحة كريهة جداً، رائحة نتانة مقرزة غريبة. كان موقد المدفأة مملوءاً بالرماد، فنفخ عليه، بما أن بضعة جمرات كانت ما تزال عالقة بأزناد الخشب الرمادية. ثم، وعلى ضوء الغسق المنبعث من زاوية المدخنة، رفع بصره فلاحظ وجود شخص جالس. كان هناك على مقعد خشبي طويل شخص نائم، جالساً، ورأى من خلال العتمة أنها امرأة عجوز. وكان من العيب أن يلجأ إلى المناداة، بما أن المنزل كان كأنه مسحور، لذا وكر الجالسة برفق ووضع يده على كتفها. حتى عندئذ لم تأت بحركة، ثم لاحظ أنها جالسة وسط شبكة من خيوط العنكبوت، وقد غزلَ جزء من شعرها وجزء آخر كان يعلق بركبتها. ارتعش قليلاً وقال في نفسه "إنها ميتة". ولكي يتأكد من ذلك راح يبذل قصارى جهده ليقدم ناراً، فأخذ يحركها وينفخها إلى أن استمر هب واستطاع أن يشعل منه عوداً طويلاً. وحمل هذا المشعل وقربه من وجه الجالسة. فرأى تحت الشعر الأبيض القسمات الزرقاء الرمادية للثة، وإحدى العينين ما تزال مفتوحة، ذات غشاوة زجاجية كما الرصاص. لقد ماتت هناك جالسة في ركنها بجوار المدخنة. ولم يكن ثمة ما يمكن عمله من أجلها.

جاس غولدموند ومعه المشعل الملتهب، هنا وهناك في المكان. فوجد عند مدخل باب الغرفة النائية حثة أخرى ممتدة على طولها. كان صبياً في نحو التاسعة أو العاشرة، متغضناً ومتنفخاً، ميتاً وهو في قميصه التحتي. كان منطرحاً على بطنه عبر العتبة، ويداه تشدان بغضب على قبضتيهما. قال غولدموند في نفسه "هذه هي الثانية" وواصل ولوجه، وكأنه يخوض في حلم شنيع، إلى غرفة خلفية، حيث كانت مصاريع النافذة قد فتحت واسعاً، وسطعت شمس النهار البراقة على كل شيء. فأحمد شعلته بعناية وداس على الشرارات التي تغلفت على الأرض.

هذه الغرفة الخلفية كانت تحتوي على ثلاثة أسرة، واحد خال،
 بأطراف يبرز منها القش، من تحت ملأه الكتان الخشنة. وعلى السرير
 الآخر جثة أخرى، كان رجلاً ملتجئاً متيبساً وهو متمدّد على ظهره،
 ورأسه مندفع إلى أعلى، وذقنه ولحيته ناتئان. لا بد أنه سيد المنزل. وكان
 وجهه الغائر يتلأأ بتلألؤ باهت، وقد ارتسمت عليه تدرجات ألوان
 الموت البراقة، وتدلّت إحدى ذراعيه حتى لامست الأرضية الترابية،
 حيث كان إبريق فارغ منطرحاً على جنبه، والوشل الرطب الطويل لم
 يمتص بعد، وقد جرى بعض منه في تجويف صغير كانت ما تزال بركة
 صغيرة موحلة متشكلة فيه. وفي السرير الثاني كانت امرأة مربوعة قوية،
 مدفونة وملفعة بالملاءات وبغطاء السرير، مستلقية ومحنّية إلى أعلى،
 ووجهها مضغوط إلى أسفل في تضاعيف السرير، وشعرها الخشن الأشقر
 بلون التبن يلتصق في ضوء الشمس القوي. وإلى جانبها، وكأنها غاصت
 معها، تمددت خادمة لم تبلغ الحلم بعد، شقراء بلون التبن، وقد غطت
 وجهها الميت لطح زرقاء إلى رمادية، وقد علقت واختنقت وسط أربطة
 مضطربة من الكتان.

تفحص غولدموند كل هذه الوجوه، فرأى على وجه الخادمة
 الصغيرة على الرغم من أنه قد انتفخ وتورم، نظرة نكوص عاجز من وجه
 الموت. ومؤخر عنق هذه الأم وشعرها، والتي كانت قد غاصت عميقاً
 وبعنف، كانا ينمان عن حنق ورعب، وعن تحليق مشبوب. إن هذا
 الشعر الشعث يرفض أن يتصالح مع الموت. ووجه الرجل كان متحدياً،
 وينم عن ألم: وكأنه كان ينفق ببطء، وكانت لحيته تندفع بزاوية حادة في
 الهواء، كمحارب منطرح في ساحة الوغى. وكان تجهمه المتحدي الصارم
 جميلاً. ولا يمكن لمن يواجه موته هكذا أن يكون مجرد إنسان ضعيف
 عادي. أما الجثة الأشد إيلاماً فكانت جثة الصبي، المنبطح على بطنه، عبر
 العتبة. لم يكن وجهه يعبر عن أي شيء، لكن قبضتي الصبي، المضمومتين

بشدة، كانتا تعبران عن الكثير، وأيضاً المكان الذي كان ملقى عليه فوق العتبة - الأسى والقلق، واحتمائه اليأس من ألم يفوق الوصف. وبالقرب من رأسه حفر وجار قطة في الإسكفة.

تفحص غولدموند كل التفاصيل. لا شك أن هذا الكوخ كان في حالة مزرية، وقد امتلأ بتنانة الموت الممجيّة. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل شيء، فقد كانت جاذبيته قوية تماماً. كان حقيقياً وواقعياً، مترعاً بالروعة وبالمصير المحتوم، حتى أن شيئاً في رعبه فاز بحبه، شاقاً طريقه إلى روحه.

في تلك الأثناء كان روبرت في الخارج ينادي عليه متبرماً. وكان غولدموند كلفاً بروبرت بلا شك، غير أن هذا الصوت أثار تعجباً في ذهنه: ما أشد خسة البشر وحققهم، بما ينتابهم من رعب لا ينتهي وفضول، وكم تتضاءل مساعي حياتهم، عندما تواجه الموتى الساكنين المهيّين. لم يجب على الفور وإنما استسلم إلى مشهد تلك الجثث، بمزيج غريب من الشفقة العميقة، والمراقبة الباردة، التي يمارسها الفنانون، وهم يدققون النظر في تماثيلهم المتيبسة: ثم عماد إلى الجالسة في زاوية المدخنة ليمنع النظر في رأسها، وعينيها وفي يديها. وفي الوضع الذي تجمدت وهي عليه. ما أشد سكون هذا الكوخ المسحور. ما أغرب ثنائية هذا الموت، وأشنعه. ما أنأى هذا المسكن الصغير بالنسبة إلى بشر أحياء وكم يثير القشعريرة، وهو مسكون بهذه الجثث - على الرغم من بضع شرارات شاحبة ما تزال عالقة بأزناد الخشب المتصلبة، وسوف تخرج الجردان مسرعة لتنهش الأصابع. أن ما تفعله الجثث الأخرى وسط أناقة التوابيت، وهي ممددة على الخشب، آمنة تحت الأرض، مكفنة ومغطاة بعد القيام بآخر العمليات المفجعة قاطبة، يجب أن تنجزه هذه الخمس فوق الأرض، تهترئ وتهترئ في مسكنها تحت الضوء المبهرج، ومن حولها أبواب تفرقع وترتطم، لا يعكر صفوها شيء، لا تعرف الخجل وغير شمية.

كان غولدموند قد رأى أمواتاً كثيراً، لكنه لم يقابل قط في حياته مثل تلك الصورة لعمل الموت الأبدي، الذي لم يواجه مقاومة وترك كل شيء يغوص في ذهنه.

أخيراً قاطع روبرت هذه الأفكار بصرخاته، فخرج وراح رفيقه يستجديه يملؤه الخوف.

سأل بصوت منخفض: "ما الأمر؟ هل من أحد هناك؟ أوه، ما أغرب ما يرتسم على وجهك - حسن، قل شيئاً".

رمقه غولدموند ببرود.

"ادخل وانظر بنفسك. أنه منزل في حالة مريية. وبعد ذلك سوف نخلب بقرة القروي الجميلة. هيا ادخل".

أدعن روبرت بتردد، وهو يتلمس طريقه خلال الغسق إلى زاوية المدخنة، فعثر العجوز بجوار الموقد وألفاها ميتة، فأطلق صرخة مفاجئة ليوقلها. ثم هرع عائداً وعيناه جاحظتان.

"إكراماً لله يا غولدموندا هناك عجوز ميتة جالسة بجوار حجر الموقد، ما الأمر؟ لماذا لا يوجد أحد معها؟ لم لا يستطيعون أن يدفنوها؟ آه، يا إلهي ما أفظع نتانة المكان".

ابتسم غولدموند:

أنت بطل يا روبرت! ولكن ما الذي جعلك تخرج عائداً بهذه السرعة. إن مشهد امرأة عجوز ميتة جالسة على كرسيها مشهد لا يستحق الذكر، بالنسبة لأي رجل. ولو أنك تخطو بضع خطوات أحر فسوف تشاهد بعد ذلك ما هو أفضل. هناك خمسة منهم يا روبرت. ثلاثة في أسرتهم، والفتى الميت على عتبة الباب، إلى جانب العجوز. العائلة كلها ممددة هناك تتعفن، والمنزل نفسه قد بدأ تقريباً يتعفن. لهذا ترانا وجدنا البقرة غير مخلوبة".

لم يكن في عيني روبرت غير الخوف. وفجأة صرخ بصوت حاد :
 "أوه، فهمت الآن ما الذي كان أولئك القرويون ينوون عمله
 بالأمس عندما أبعادونا عن قريتهم! - الآن فهمت كل شيء - إنه الوباء!
 وحق روعي البائسة هو الوباء! غولدموند! وأنت في الداخل كل ذلك
 الوقت تلمس الجثث وكأنها ليست موبوءة. ابتعد عني. لا تقرب مني.
 أنت حتماً مسموم! أنا آسف يا غولدموند، ولكن يجب أن أغادرك لم
 يعد بمقدوري الآن أن أرافقك".

قبل أن ينجح في الركض مسافة ياردة كان غولدموند قد قبض على
 الحاج من رداءه، وأمسك به وهو يتلوى بكل قوته.

قال، وهو يسخر منه برقة: "سيدي الشاب، أنت أحذق مما كنت
 أظنك. وعلى الأغلب أن ما قلته هو الحقيقة. حسن، سوف نكتشف
 الأمر لاحقاً، في المزرعة أو القرية التالية. أغلب الظن أن الوباء كان في
 تلك الأنحاء، وسوف نعرف إن كنا قد نجونا منه ومن ثم ننتقل من
 جديد. أما أن أتركك تهرب هكذا أيها الفتى روبرت، أوه، كلا! أنا
 رجل رقيق القلب، لا أقوى على تصورك مصاباً بالحمى، وهذا هو
 حالك في الغالب، بما أنك كنت مع المرض في تلك الغرفة، ومن ثم تهرع
 هارباً وحدك، لتستلقي في مكان ما بين الحقول، وتموت وحيداً، ولا أحد
 إلى جانبك، ليغمض لك عينيك، ولا أحد ليحضّر لك قبراً، أو يرُدّ
 التراب عليك، أوه، كلا، يا صديقي، هذه الفكرة مخزنة جداً فانتبه إلى
 جيداً، لأن ما سأقوله لن أكرره: نحن الإثنان نركب المخاطرة نفسها،
 ويمكن أن تصيبك أو تصيبني. لذا سنبقى معاً ونموت معاً، أو نعيش هذه
 الأرض الموبوءة الملعونة. فإذا مرضت ومت سأكون هنا لأدفنك، وأعدك
 بهذا. وإذا مت أنا، إفعل ما تشاء، ادفني أو اهرب واتركني، سيان لدي.
 ولكن حتى ذلك الحين يا عزيزي روبرت، لا تهرب مني تذكر هذا!
 سوف يحتاج كل منا إلى الآخر. والآن كف عن إثارة ضجيجك، لا

أريد أن أسمع أي شيء! وهيا بنا لنذهب إلى ذاك المربط لنبحث عن دلو للحليب، حتى تتمكن أخيراً من حلب البقرة".

وتم الأمر، ومنذ تلك اللحظة أصبح غولدموند هو الذي يصدر الأوامر، وروبرت يطيع، وهذا جعل الأمور بينهما أسهل. ولم يحاول روبرت أن يهرب ثانية. وأجابه بصوت خنوع خفيض:

"لقد أحففتني قليلاً يا غولدموند. بدوت غريباً جداً عندما خرجت من تلك الغرفة الملائى بالجلث، وحسبت أنك أصبت بالوباء. وحتى إن لم تكن قد أصبت، فإن وجهك اختلفت تعابيرها! أكان المشهد بهذا السوء - ماذا رأيت هناك؟".

تردد غولدموند قبل أن قال: "لا، ليس سيئاً جداً. لم أر هناك إلا ما ينتظرني وينتظرك، وكل رجل وامرأة على الأرض، حتى بدون وباء ليضربنا".

تقدما في سيرهما وسرعان ما أصبح الموت الأسود يكتنفهما من كل جانب، وعلى طرفي الطريق، كانت له اليد الطولى. ورفضت كثير من القرى أن يقتربا منها، وفي أخرى استطاعا أن يجوبا كل طرقها. كانت المزارع خاوية، وثمة جثث كثيرة تتعفن في الحقول، أوسقطت دون حراك في غرفها. ومكثت أبقار غير مخلوبة أو جائعة تخور في مرايضها، وانتشرت قطعان الغنم في كل أرجاء الريف. وحلبا وعلفا أعداداً كبيرة من الماعز، وذبحا وشويا عند حافة الغابة، العديد من الجداء الصغيرة والخنازير الرضع، وشربا النبيذ وعصير الفاكهة في أقيية عديدة دون أن يواجهها أي عائق من أي سيد. عاشا حياة طيبة، غير أنهما لم يكونا يستمتعان بهذه الأطياب إلا نصف استمتاع. وكان روبرت في حالة فزع متواصل من الوباء، وكانت بطنه تمور كلما صادف جثة، وغالباً ما كان يصل إلى حافة الجنون، ويعلن مراراً وتكراراً أن المرض قد نال منه،

ويقف فترة طويلة ورأسه ويديه في دخان من نار المخيم (ويعمر الأمر بسلام)، بل إنه حتى وهو نائم كان يتحسس نفسه في كل مكان ليتأكد من أن ذراعيه وساقيه وتحت إبطيه لم تصب بالبثور. وكان غولدموند أحياناً يوبخه. وكثيراً ما كان يسخر منه. لم يكن يشارك روبرت في نوبات رعبه، وريته المرضية من رؤية جثة. كان يتهادى قاطعاً أرض الموت هذه، التي يحددها بشكل مربع مشهاد المذبحة العظمى، مع ذهول حزين يغمر عقله، وروحه متزعجة بخريف شاسع، وقلبه مدورن على أنغام أغنية منجل الحصاد. وكثيراً ما كانت تعاوده صورة أمه، عملاقة تحمل وجه الميوزا الشاحب يرسم ابتسامة الموت والأسى الثقيلة.

ذات يوم وصلا إلى بلدة صغيرة، وكان المكان محصناً بكثافة، فبدأً ببوابات البلدة طوّقت محيطها بأكملها، وعلو قمم المنازل، أسوار واقية، ومع ذلك لم يريا حارساً واحداً يعتليها، ولا أحد يقف تحت القوس المفتوح لبوابة الدخول. وخاف روبرت أن يدخل البلدة المسورة، وتوسل إلى رفيقه أن لا يغامر. في تلك الأثناء تناهى إليهما قرع ناقوس الموت، وشاهدا كاهناً يحمل عالياً صليباً، ومن خلفه ثلاث عربات محملة، اثنتان يجرهما حصانان، وواحدة يجرها ثور، وكل منها معاً حتى آخره بموتاه. ورفيان برداءان غريباً الشكل، ووجهاهما مدفونان داخل قلنسوتين مدببتين، يهرعان على جانب الطريق ينحسان الحيوانات.

كانت ركبنا روبرت ترتجفان من قمتيه، وتلون وجهه بلون مصّل اللبن. ولحق غولدموند بعربات الموت، محافطاً على مسافة قصيرة في أعقابها. لكنها لم تتوجه إلى مقبرة، وإنما إلى الأرض الخلاء حيث حفرت حفرة عمقها لا يزيد عن مقدار يدين، بيد أنها واسعة كقاعة العرش في قصر ملكي. وقف غولدموند وأخذ يراقب القرويان وهما ينتزعان الموتى وينزلاهم عن العربات بأعمدة طويلة معقوفة، ويكوهاهم داخل الأرض، بينما الكاهن يتمم ويهز صليبه، ثم ذهباً، وتركاهم هناك، ليضرم نيراناً

حول القبور، ثم هرعوا عائدين إلى داخل البلدة. واقترب من الحافة وألقى نظرة إلى الأسفل. كانا قد ألقيا ما يقارب الخمسين من الجثث أو أكثر هناك، والكثير منها عاري. وكنت ترى هنا وهناك ذراعاً أو ساقاً متبسة في وضع تأنيبي، وطرف قميص يرفرف في الهواء.

عندما عاد أدراجه خر روبرت على ركبتيه، وتوسل إليه أن يسرعا بالابتعاد عن المكان. وكان لديه سبب وجيه لمثل هذا التوسل، فقد كشفت له النظرة الشاردة في عيني غولدموند، تلك التحديقة البعيدة، التي أضحت مألوفة جداً لديه، كشفت له عن توق رفيقه إلى رؤية المزيد والمزيد من الموت. إنه عاجز عن السيطرة على رفيقه، لكنه لن يتبعه، وسيدعه يعبر البوابات.

لدى مرور غولدموند من هذه البوابة غير المحروسة، وسمع وقع خطواته ثانية يتردد صداها على بلاط الطريق، تذكر مدناً صغيرة كثيرة كان قد تسكع فيها في ترحاله. كم كانت تعج بالضجيج، بأصوات الأطفال، بصيحات الصبية أثناء لعبهم، بمشاجرات النسوة، وبالحدادين وهم يصدرون عطارقهم موسيقى من سنادينهم والعديد من مثل تلك الأصوات المرهفة المفعمة بالحياة في استقباله، وكان نسيجها المتشابك يملأ أذنيه بكل أنماط العمل، والمتع، والإنجاز والصحة الإنسانية المتشعبة الجوانب. أما هنا، عند ممر هذه البوابة التي تضج بفضائها، وهذه الشوارع الخالية، فلا ضجيج، كلها موات وجامدة وبالية، وموسيقى الجدول المثرثر تصدح عالية ضاحكة، بل ومضطربة. وخلف حاجز مشبك رأى خبازاً، وسط أرغفته الأربعة وأرغفته الصغيرة. فأشار غولدموند إلى رغيف، فدفعه الخباز نحوه بحذر شديد، وقد وضعه على طرف جاروف الخبز الطويل، وانتظر نقود غولدموند لتوضع عليه. ولما لم يضع الغريب أي نقود على الجاروف، بل تابع طريقه وهو يقضم الرغيف، سحب الخباز حاجزه المشبك واكتف برميّه بنظرة حاقدة.

على طول إفريز نافذة بابية لمنزل جميل وقف صف من المزهريات الخزفية، تفتحت فيها الزهور وقد تدلت فوقها أوراق ذابلة. ومن نافذة أخرى وصله نسيج وصراخ عاٍ من طفل. ولكن في الشارع التالي، وفي

نافذة عالية، رأى غولدموند فتاة أنيقة، تسرح شعرها وهي تشرف من نافذة بايية. تلاقت عيونهما، فتضرجت وجنتاها بحمرة الخجل، لكنها لم تشع ببصرها عنه، وعندما ابتسم زحفت ابتسامة واهنة شاحبة إلى وجهها إلى جانب حمرة.

ناداها مخاطباً: "أبهذه السرعة انتهيت من تسريح شعرك؟".

مالت عبر إفريز نافذتها.

سألها: "ألم ترضي بعد؟". فهزت رأسها نفياً "حسن تعالي معي، إذن، واتركي بؤرة الموت هذه هيا بنا إلى الغابة لنعيش حياة طيبة هناك".

بدأت عيناها تستجوب عينيه.

ألح غولدموند قائلاً: "أنا جادا ولكن لا تعطيلي التفكير في الأمر. هل لديك أب وأم، أم أنك تعيشين هنا مع أناس غرباء كخادمة لهم؟ إذن فهم غرباء، هه؟ تعالي إذن، يا حلوة، ودعي العجائز ينتهون من موتهم! نحن أقوىاء وشبان ونريد حياة طيبة ما دام بإمكاننا الحصول عليها. تعالي، يا صغيرة يا ذات الشعر البني - هذا هو عربوني".

قبلت تدبيره وهي مترددة ومناهشة. وراح هو يتسكع في أحد الشوارع الخالية، ثم في شارع ثان، ومن ثم عاد بخطى متمهلة فوجد الخادمة واقفة في مكانها، مائلة عبر حافة نافذتها وابتهجت لأنه لم يغادرها. وأومات إليه، فتابع طريقه ماراً بها، وفي الحال هرعت لتتضمم إليه وتسير إلى جانبه، وقبل حتى أن يصل إلى البوابة كانت قد لحقت به، تحمل بيدها صرة صغيرة، وشعرها البني مربوط بمنديل أحمر.

سألها: "ماذا ينادونك؟".

"لينة". أنا آتية معك. أوه، إن الحال فظيعة هنا في البلدة - الكل يموت. فلنتعد، بعيداً جداً".

في موقع غير بعيد عن البوابة جلس روبرت جاثماً على الأرض نكدأً، ولدى مرأى غولدموند قفز واقفاً على قدميه، وراح يحدق عندما رأى الخادمة إلى جانبه. هذه المرة لم يكن من السهل عليه أن يهدئ مخاوفه، فانتحب، وندب، واحتج. إن إخراج امرأة من عرين الظلام ذاك، وإجبار المسكين روبرت على مصاحبتها - كانا أسوأ من الجنون. كان بمثابة إغواء الله، وصمم على أن لا يخطو خطوة واحدة معهما، يجب أن يغادرها الآن، لقد نفذ صبره.

تركة غولدموند يلعن ويصب جام غضبه.

قال: "ها قد أفضيت بكل ما لديك. والآن ستأتي معنا، وستكون ممتناً لأن معنا هذه الصحبة الحلوة. إسمع يا روبرت، لدي نبأ سار لك. الآن سنعيش في هدوء، وصحة تامة، وسنفعل كل ما بإمكاننا لتتجنب هذا الوباء. سوف نفتش عن مكان في الغابة، عن كوخ خال، أو سبني واحداً، وهناك سنعيش أنا ولنه كزوج وزوجة، وأنت يا صديقي، ستقطن معنا. فلنحافظ على الهدوء والسكينة معاً. ما رأيك؟".

أوه، نعم، وافق روبرت من أعماق قلبه. ليته فقط لا يكون مضطراً إلى أن يصافح يد "لنه" أو أن يلمس ثوبها.

قال غولدموند "أنت لست مضطراً إلى هذا. والحقيقة هي أنني أمنعك وبشدة من أن تضع إصبعاً على "لنه". فاطمئن".

مضى الثلاثة معاً، صامتين في أول الأمر، إلى أن بادرت لنه أخيراً بالكلام. ما أشد فرحها برؤية المروج من جديد، والأشجار والسماء اللامتناهية، لقد كان الوضع رهيباً جداً في البلدة الموبوءة، حتى لبعض عليها أن تعبر عن مبلغ فظاعته. غير أنها باشرت بقص كل شيء عليهما، لتريح بالهما من كل ما يتذكره من رعب. كانت لديها حكايا كثيرة عن مشاهد مرعبة، وأقصص مشؤومة، حولت البلدة الصغيرة إلى جحيم. وقد

مات أحد الطبيبين، فأصبح الثاني لا يعود إلا الأثرياء، وكثر الموتى وتنت جثثهم في بيوت كثيرة، ولم يكن هناك من يخرجها ويدفنها، وفي بيوت أخرى قام حاملوا التوابيت بالسرقة ونهبوا الأطعمة وفسقوا، وكثيراً ما كانوا ما يجرون مع الجثث أشخاصاً مرضى من أسرهم ويرمونهم إلى عربات الموتى. لقد كان لديها الكثير من أمثال هذه القصص المخيفة لتحكيها. ولم يعمد أي منهما إلى مقاطعتها. وكان روبرت ينصت باستمتاع مرتعد، وكان غولدموند صامتاً ولا مبالياً، تاركاً لها المجال لتفضي بكل ما يقض مضجعها. ولم يدل بتعليق. فماذا يمكن لرجل أن يقوله حيال كل هذا؟ وأخيراً نال التعب من "لنه"، ونضب معين كلامها، ثم أبطأ غولدموند خطاه، وأخذ يصدح، بصوت منخفض، بأغنية - أغنية ذات أبيات كثيرة، وفواصل لحنية، وكان صوته في كل بيت يزداد علواً. ابتسمت "لنه"، وألفت روبرت، سعيداً ومذهولاً. فلم يكن قد سبق له أن سمع غولدموند يغني. لله در هذا الغولدموند، إنه قادر على فعل أي شيء إنه ساحر. وكان غناء غولدموند صادقاً وحسنًا، على الرغم من أن صوته كان مخففاً، وعلى الفور، ومع البيت الثاني، انضمت إليه "لنه"، وسرعان ما أصبحت معه بمستوى صمّي واحد. وكانت الشمس تغرب، وبعيداً على طول خط الأفق، فوق المرج، امتدت غابة سوداء، وخلفها جبال زرقاء نائية، وتزداد رقة باضطراد، وكان زرقتها تنبع من داخلها. ومضت أغنية غولدموند، مرحة أو حزينة، على إيقاع خطاهم.

قال روبرت: "تبدو سعيداً جداً اليوم".

"طبعاً، أنا سعيد اليوم ما دام برفقتي حب رائع آه، يا "لنه" ما أسعدني لأن تجار الموت وفروك لي غداً سنبحث عن كوخ صغير، وهناك يمكننا أن نعيش حياة طيبة، ونفرح لأن لحمننا وعظامنا ما تزال متماسكة معاً. هل رأيت يا "لنه" في الغابة أثناء فصل الخريف نبات

الفطر البني الذي يحبه الحلزون حباً جمّاً - والذي يؤكل؟".

ابتسمت: "آه، نعم، كثيراً ما شاهدته".

"لونه بني بلون شعرك، ورائحته ذكية كرائحتك. هل نغني مقطعاً آخر، أم أنك جائعة؟ ما زال لدي بعض الأطايب في حقبيتي".

في اليوم التالي عثروا على بغيتهم. ففي غابة من أشجار البتولا كان هناك كوخ، مبني من جذوع خشنة من شجر الصنوبر، بناه قاطعو خشب أو صيادون. كان خالياً، وأمكن اقتحام الباب بسهولة، ورأى روبرت أنه كوخ جيد وشعر أن المكان خال من المرض. وفي طريقهم عثروا على بعض الماعز، شارداً على طول الطريق بدون راعي، ومعه معزاته.

قال غولدموند: "قد لا تكون نجاراً ماهراً يا روبرت، لكنك علي الأقل عملت في النجارة في شبابك. نريد أن نعيش ونجعل لنا مستقراً هنا، وعليك أن تبني الجدار الفاصل لقلعتنا، لكي يصبح لنا غرفتين جيدتين، واحدة لحبيبتى "لنه" ولي، والأخرى لك ولمعزاتك. إن ما لدينا من طعام لا يكفي، لذا علينا اليوم أن نقنع بحليب الماعز سواءاً كان غزيراً أم شحيحاً. والآن يجب أن تبني لنا جداراً بينما نعد نحن الإثنين أسرةً لنا نحن الثلاثة. وغداً سأخرج سعيّاً وراء الطعام".

انكبوا على العمل من فورهم. فجمعت "لنه" وغولدموند السرخس، والطحالب، والأوراق الجافة، وشحذ روبرت سكينه على حجر صوان من أجل قطع الأغصان وبناء جدار. غير أنه لم يتمكن من إنهاؤه في ذاك اليوم، لذا أثناء الليل ابتعد ليقضي ليلته داخل الغابة.

وجد غولدموند في "لنه" حبيبة عذبة، خجولاً، وغضة ومترعة بالحب. فضمها برفق بين ذراعيه، واستلقيا هكذا يقظين طوال ساعات عديدة، وعندما استغرقت في النوم، بعد طول تهدئة وإرهاق، أخذ

ينصت إلى وجيب قلبها. شم عبر شعرها البني واستكان عليه، وهو يفكر طوال الوقت في ذلك القبر الواسع القليل العمق الذي أفرغ فيه شياطين مرحون حمولات عرباتهم من الموتى. إن حياتنا حلوة، حلوة، وقصيرة، على رغم كل سعادتنا، وحلو وسريع الذبول شبابنا.

عندما تم بناء الجدار كان جيداً، ولكن قبل أن يتم كان على الثلاثة أن يعملوا فيه. وعلى الرغم من أن روبرت كان متلهفاً لإبراز مهارته، إلا أنه ظل ساعات طويلة يتفاخر بما كان يمكن أن ينجزه لو أن أدواته معه، ونضد السحج ومسطرته الحديدية ومساميره. ولما لم يكن لديه إلا يدها وسكين، فقد قنع بقطع بضع سويفات من شجر البتولا ووضعها بثبات على شكل صف متماسك، بعد أن زرعها بقوة في تربة الأرض. وأصر علي أن تملأ الفجوات الفاصلة بينها بأماليد البتولا المجدولة. وهذا تطلب وقتاً، بيد أن العمل استمر بكل رضا، ومد كل من الإثنين الآخرين يد المساعدة له. وفي تلك الأثناء ذهبت "لنه" لتجني بعض التوت البري، وسهرت على علف الماعز، بينما سرح غولدموند في الغابة يستكشف موقع الأرض بحثاً عن الغذاء، ومن ثم عاد إلى المنزل مع غنيمة. ولم يكن في طول المكان وعرضه وجود لأي إنسان، مما أسعد روبرت أي سعادة، لأنه بذلك يزول خطر التلوث، أو مواجهة عدو ومقاتلته. أما سوءه فيكمن في أنهم لم يجدوا إلا القليل لسد رمقهم. وكان هناك مسكن قروي نحال ليس بعيداً جداً، وهذه المرة لم يكن يحوي أي موتى، حتى أن غولدموند ألح على أن ينتقلوا إليه، بدل المكوث في كوخ أزناد الخشب. لكن روبرت أخذته الرعشة وبدأ العبوس يرتسم على تعابير وجهه حتى اضطر غولدموند إلى التوجه وحده إلى المنزل الخالي، وأعاد معه كل الملابس، وكان يجب غسل كل قطعة أحضرها وتدخينها عند موقد النار قبل أن يوافق روبرت على لمسها.

طبعاً لم يجد الشيء الكثير هناك، وجد عامودين متينين، وبلطة

صغيرة ودلو حليب، وبضعة أوعية حديدية، وذات يوم أمسك بدجائتين هاربتين من أحد الحقول. وكانت "لنه" محبوبة وسعيدة وكان الثلاثة يجمعهم الضحك، وهم يرتبون بيتهم الصغير، ويضيفون إليه شيئاً جديداً في كل يوم. ولعلهم كانوا يفتقدون إلى الخبز، غير أنهم عثروا بدلاً عنه على معزة أخرى، واكتشفوا في مكان قريب منهم على قطعة أرض صغيرة محروثة، جذور شمندر. وتوالت الأيام، وانتهى إقامة جدار البوتل متيناً، وأصبحت أسرتهم أوثر من ذي قبل، وبنوا موقداً حجرياً ذا مدخنة في الكوخ. وغير بعيد عنهم كان هناك جدول مياه صافية وعذبة، وكانوا في أغلب الأحيان يغنون وهم يعملون.

ذات مرة، وبينما هم يشربون الحليب معاً، ويستحسنون حياتهم المنزلية، إذا بـ "لنه" تقول فجأة، بصوت حالم:

"ولكن كيف سيكون عليه الحال يا ترى في فصل الشتاء؟".

لم يتمكن أي منهما من إجابتهما. ضحك روبرت. وحقد غولدموند أمامه بقلق. وأدركت "لنه" فجأة، أن أيّاً منهما لم يكن قد فكر كثيراً في هذا. إن أيّاً منهما لم يكن ينوي ضمناً أن يمكث طويلاً في هذا المكان، وهكذا فإن بيتهم لم يكن بيتاً، وهي ليست أكثر من جولة مع متشردين وأطرقت.

ثم طلع غولدموند بجواب، كمن يطلق نكتة ليفرح قلب طفلة:

"أنت حقاً ابنة فلاح، يا "لنه"، ومثل هذه الهموم انصرفت أيامها. لا تخافي! فقريباً سوف تتمكنين من العودة إلى البيت، بعد أن ينتهي أجل الرباء وينسى أمره. عندئذ يمكنك أن تذهبي إلى بيتك، أو إلى أي مكان ينتظر عودتك، أو أن ترجعي إلى بلدتك كخادمة، وتضميني لقمة عيشك. أما الآن فالفصل ما زال صيفاً، والمكان هنا ممتع، والحياة طيبة. فلنبق هنا معاً أقصر مكوئنا أم طال ما دام في ذلك سعادتنا".

صرخت له غاضبة: "وبعد ذلك؟ قريباً سيحل فصل الخريف. وعندئذ سوف تنطلق وحدك. وأنا؟".

أمسك غولدموند بجديلتيهما وشدهما برفق.

قال: "يا لك من فتاة حققاء، أنسييت حفاري القبور وعربات الموتى، والمنازل المتروكة خالية أو مملأى بالجلث، أو تلك الحفرة الكائنة بالقرب من البوابات، والنيران المضطربة؟ أحمدي ربك أنك لست مسجاة في إحدى الحفر، والمطر ينهمر على قميصك. يجب أن تقولي لنفسك "لقد نجوت من هذا، ولا تزال الحياة تجري في أضلعي. ويمكنني أن أغني وأضحك".

ولم يسر هذا الكلام عنها.

تذمرت قائلة: "لكني لا أريد أن أعود، وأنت لن تتركني - كلا كيف يمكن أن أعيش سعيدة هنا، إذا كنت أعرف أن كل شيء سينتهي قريباً وينقضي؟".

مرة أخرى أجابها غولدموند برفق، ولكن هذه المرة كان يشوب صوته نبرة تهديد:

"حبيبي "لنه"، إن ما قلته لتوك قد أقض مضجع كل إنسان حكيم في العالم، وكلهم أوجعوا رؤوسهم بالتفكير فيه. ولكن إذا كان ما لدينا الآن يعجبك، أو لم يكن مناسباً لمثلك، فسوف أضرم النار في الكوخ في هذه اللحظة بالذات، ونطلق كلنا معاً. قري عيناً يا "لنه"، إنني أقول ما يجول في خاطري".

لم تزدد، لكن ظللاً كان قد امتد على حيهما.

الفصل الرابع عشر

قبل أن ينقضي فصل الصيف تماماً كانت حياتهم في الأكواخ قد انتهى أمدھا، بشكل غير متوقع. وذات يوم صنع غولدموند مقلاعاً، وراح يتسكع به في أرجاء الفسحة، آملاً في رمي طائر حجل، أو ما شابه من الصيد، بما أن مخزونهم من الطعام قد شارف على الانتهاء. وكانت "لنه" قد رافقته من أجل جمع الثوت البري. وأحياناً كان يمر من طريقها فيرى رأسها مقحماً بين الأغصان، فوق ياقته البنية، يبرز من القميص التحتي الكتاني، ويسمعا تغني. ومرة اقتربت منه، وأخذاً معاً بمضغان بعض الثوت البري: ثم تابعت طريقها، وغابت عن عينيه. كان يفكر بها أحياناً برقة وتارة بغضب. فقد كانت قد عادت إلى الحديث عن الخريف، والمستقبل، ومن ثم قالت إنها تعتقد أنها حامل، أنها لن تدعه يرحل عنها أبداً.

راح يفكر "يجب أن أنهي الأمر الآن، قريباً سيرهقني كل هذا، ثم إنني يجب أن أعود إلى الترحال وحدي، وأن أترك روبرت أيضاً، وأن أعود إلى مدينة الأسقف، قبل مجيء فصل الشتاء، إلى المعلم نيقولاس، وهناك سوف أمضي فصل الشتاء، وفي فصل الربيع التالي سوف أبتاع

حذاءً جيداً، وأواصل مسيري حتى أصل إلى ديرنا في ماريابرون، وأرحب بنرسيس. لا بد أن أراه ثانية، ولو ليوم واحد، أو يومين.

فجأة قطع صوت تسلسل أفكاره، وأدرك على الفور مدى تخليق تفكيره ورغباته بعيداً عن "لنه"، وكأنه قد رحل عنها لتوه. فأنصت برهافة حادة، ومرة أخرى أذهله الضجيج نفسه، وظن أنه يسمع صوت "لنه" تنادي بشكل يدل على حاجة مريرة. وعلى الفور اقترب من المكان، نعم، إنها "لنه". فأسرع خطاه، ولا يزال غاضباً، على الرغم من أن صراخها أثار رعبه وشفقته. وحين أصبح أخيراً على مرأى منها كانت راكعة، أو رابضة، وسط العشب، وثوبها شبه ممزق كاشفاً عن جسدها، وهي تصرخ وتقاوم رجلاً: فاندفع غولدموند نحوهما، وكل ما يعتمل في ذهنه من حزن، وغضب، واضطراب ينفس عن نفسه بمخنق ضد المعتدي. انقض عليه، في الوقت الذي ثبتها على الأرض، وكان ثدياها ينضحان بالدم، والرجل يمسك بها ويتشبث بها بشبق. ارتقى غولدموند عليه، وسحق نحرة بيدين نهمتين - غاضبتين، نحس فصيل مهزول، مغتلي بالشعر. راح يخنقه بابتهاج، إلى أن تراخى الرجل إرهاقاً. وظل قابضاً على عدوه المستسلم، المتراخي، ويجره على الأرض إلى مكان حيث حواف رمادية لحجر ناتئ، حاد وعار، فوق الأرض. هنا رفعه عالياً، مرتين، ثلاث مرات، ومن ثم وعلى رغم ثقل وزنه، هشم له رأسه عليها.

رمى بالجثة بعيداً بعنقها المكسور، ولم يكن غضبه قد لُمد، فقد كان يود لو أنه عذبه أكثر.

راقت "لنه" كل هذا بابتهاج. وكان ثدياها غارقين بالدم، ولا تزال ترتعش من رأسها إلى قدمها، وتلهث طلباً للهواء. ثم راحت تتعثر على ركبتيها، وتراقب بانتشاء حببها الجبار يجز المعتدي على الأرض، ويخنقه، ويكسر عنقه، ومن ثم يرميه جانباً. وتمدد كأفعى مذبوحة، منهوك

القوى مفكك الأوصال، ووجهه الشاحب ذو اللحية الهمجية، والشعر المتلبد، يتدل بشكل مشير للشفقة على صدره. وتعثرت "لنه" على قدميها، وهي تهتف بانتصار، لكنها فجأة، وقد استحال لون وجهها شاحباً، والخوف ما يزال يهز أعضائها، أصابها الإعياء، وسقطت فوق شجيرات عنب الأحرار مغشياً عليها. لكنها سرعان ما أفادت وقادها غولدموند إلى الكوخ، وهناك غسلت الدماء عن ثدييها اللذين كانا ممتلئين بالخدوش، وأحدهما كان يحمل آثار أسنان رجل عليه. ذهل روبرت من تلك المغامرة وتلهف لسماع تفاصيل عن القتال.

"أقول أن رقبته قد كسرت؟ رائع، يا غولدموند، إن كل الرجال يخافونك".

لم يكن لدى غولدموند رغبة في قول المزيد. فقد خمد غضبه، وحالما غادر الجلثة الرابضة أخذ يفكر في فيكتور، السكير المسكين، الميت، وها هنا رجل ثان يموت على يديه. ولكي يتخلص من روبرت أجابه:

"والآن، جاء دورك لتقوم بعمل ما، هيا، ادفنه. وإذا صعب عليك أن تحفر له حفرة، جره حتى البركة وارمه بين عيدان القصب، أو غطه جيداً بالتراب والحجارة".

لم يقبل روبرت بالقيام بأي من هذا، ولن ينقل أي جثة. كيف يمكن التأكد من أن الجلثة لن تعديه بالوباء؟.

كانت "لنه" قد استلقت في الكوخ، وكان مكان العض على ثدييها ما يزال ينبض ويلتهب. ومع ذلك، فسرعان ما تحسن حالها. ونهضت ونفخت نارها، وسخت حليب الماعز لتناول عشاءهم. كانت مفعمة بالمرح، ومع ذلك أرسلها لتأوي إلى النوم، فأطاعت كما الحمل، فقد كانت تكن إعجاباً عميقاً جداً بغولدموند.

غير أنه كان مكفهراً، ولم يقل شيئاً. ولما كان روبرت يعرف تقلب

مزاجه، تركه وشأنه. وعندما، في وقت لاحق من تلك الليلة، انضم غولدموند إلى "لنه" على فراش القش، مال عليها، وأخذ ينصت إلى تردد أنفاسها. كانت نائمة، وسكن ينهشه القلق، ويفكر في فيكتور، ويتملكه توق لينهض ويرحل بعيداً عن الإثنين الباقيين، شاعراً بأنه حانت نهاية العبث داخل المنازل.

بيد أن أمراً واحداً أطلق عنان أفكاره. لقد لاحظ في عيني "لنه" نظرة، وهي تراقبه أثناء رميه للفلاح المخنوق جانباً. كانت شيئاً جديراً بالملاحظة، وأدرك أنه لن ينساها أبداً. ففي تلك العينين الواسعتين، المسوستين بالرعب، والمبتهجتين، كان هناك ومضة كبرياء منتصرة، وهج فسق مشبوب وعميق، كما لم يره أو يتخيله على وجوه النساء. ولعله، بعد ذلك بسنين عديدة عندما جاهد كي يستعيد تلك النظرة بالذات، لم يتذكر وجه "لنه". كانت تلك النظرة الفريدة كافية كي تضفي على وجه مهاجمها القروي رعباً وجمالاً. ولم تر عيناه على مدى شهور طويلة كما يثير الفكرة القائلة "يجب نحت هذا"، أما مع هذه فقد عادت، وبنوع من الرعب الشاحب، الرغبة في الرسم إلى ذهنه.

بما أن النوم جافاه نهض أخيراً وخرج. كان الجو بارداً، والنسيم يهب عالياً على أشجار البتولا. وراح يتمشى في المكان وسط الظلام، واقترب ليرتاح على حجر، مختاراً في أفكاره غارقاً في حزنه. كان يتعذب من أجل فيكتور، ومن أجل الرجل الذي قتله في هذا اليوم، يتعذب لفقدانه براءته، الجمال الطفولي النقي لروحه. أمن أجل هذا تحرر من الدير، وترك نرسييس، وسبب ألماً مريحاً للمعلم نيقولاس، بل إنه استنكف عن الزواج من الجميلة ليسبت - ألكي يعيش حياة الغجر في أرض بور، ويطارد الماشية الهاربة خلال الغابة، ويمحق حياة بائسة على الحجارة. أكان لكل هذا أي معنى أو قيمة؟ وارتد إلى الخلف، وراح يحدق عالياً إلى سحب الليل الشاحبة، وأطال التحديق حتى غادرته

أفكاره كلها. ولم يدر إن كان يراقب السحب أم كان ينعم النظر إلى قلب ظلمة عقله. ثم، وفي اللحظة التي غلبه النوم، توهج أمامه، وسط السماء المتراكمة بالسحب، وكومض البرق الوجه الهائل الشاحب لحواء، ورموش عينيها الثقيلة، تتدلى فوقه. وفجأة انفتحت تينك العينين واسعاً، عينا عميقتان، مملوءتان باللهفة وبشبق القتل. ونام غولدموند، إلى أن نغعه الندى.

في اليوم التالي مرضت "لنه". وجعلها تستلقي، وكان أمامهما الكثير من العمل. وفي صباح ذلك اليوم الباكر شاهد روبرت خروفين في الغابة، فرًا حالما اقترب منهما، وعاد ليحضر غولدموند معه، وطاردا الخروفين حتى انتصف النهار، وأخيراً نجحا في الإيقاع بأحدهما. وعندما وصلا إلى كوخهما مع الحيوان، قرابة المساء، كانا مرهقين تماماً.

كانت "لنه" تشعر أن مرضها يقربها من الموت، فمال عليها غولدموند وتحسس جسدها، فعثر على بثور الوباء. واحتفظ بهذه المعلومة لنفسه، غير أن روبرت ارتاب في الأمر على الفور، وذلك عندما سمع أن لنه ما تزال مريضة، فرفض أن يلجأ إلى الداخل. وقال إن عليه أن يجد له مكاناً في الغابة لينام فيه، وأنه سيأخذ المعزة معه، بما أنها يمكن أن تصاب بدورها بالوباء.

صرخ غولدموند "اذهب إلى الشيطان، ولا ترييني وجهك بعد الآن".

لكنه تمسك بالمعزة، وقادها إلى داخل الكوخ، ووضعها خلف جدار أغصان البتولا. وابتعد روبرت بهدوء، بدون المعزة، والرعب يملؤه، رعب من الوباء، ورعب من غولدموند، ورعب من العزلة ومن الليل. واستلقى لينام، في مكان قريب، داخل الغابة.

قال غولدموند لـ "لنه":

"لا تخافي. أنا معك. سوف تتحسنين سريعاً".

هزت رأسها.

"احذر يا حبيبي. لا تقترب مني كثيراً. ولا تتعب نفسك في مواساتي، يجب أن أموت، والأفضل أن أموت الآن على أن أرى مكاناً خالياً إلى جانبي، وأنتك رحلت عني إلى الأبد. إنني في كل يوم أفكر في هذا ويتأبني الخوف. لا، أفضل الموت".

بحلول الصباح كان حالها قد ساء. وكان غولدموند يحضر لها ماءً لتشرب، ومن ثم أخذ إلى النوم مدة ساعة أو ساعتين. وحالما تسلس نور الشمس إلى داخل الكوخ، كان الموت قد بات واضحاً على وجهها، بدا شديد النعومة والذبول. فذهب إلى الخارج ليستنشق الهواء وليشاهد السماء. كان جذعا شجرتي التنوب الكثيرتا العقد القائمات عند حافة الغابة قد بدءا يتلألآن في الشمس الشارقة، وبدأ الصباح عذباً ورائقاً، وكانت التلال النائية محجوبة بالضباب. وابتعد بضع خطوات أخرى، ومط جسمه المتعب، وأخذ نفساً عميقاً. لقد كان العالم جميلاً في هذا الصباح الحزين. وقريباً سوف ينطلق من جديده في طريقه. لقد حان وقت الرحيل.

ناداه روبرت من قلب الغابة. هل تحسنت حالها؟ كان يمكن أن يمكث معه لولا الوباء. يجب أن لا يغضب غولدموند منه، لقد احتفظ بالخروفين معه طوال الليل.

صرخ غولدموند "إذهب إلى الجحيم، ومعك الخروفان. إن "لنه" تشارف على الموت، وأنا مصاب بالمرض"، وقد اخترع هذه الأخيرة ليتخلص منه. قد يكون روبرت هذا غير مؤذ على الإطلاق، لكن غولدموند لم يعد يرغب في صحبته. لقد كان شديد الجبن والخسة، ولم ينسجم مع ساعة الموت والرعب هذه. ورحل روبرت ولم يعد قط.

وعندما دخل الكوخ كانت "لنه" نائمة. وهو أيضاً أغفى قليلاً، وفي الحلم رأى فرسه "بليس"، وشجرة الجوز الجميلة في الدير. وفي هذا الحلم شعر أنه ينظر عبر صحراء لا حدود لها، إلى منزل لا يزال عزيزاً على قلبه. وجرت الدموع على وجنتيه، وعلى لحيته الذهبية اللون عندما استيقظ.

سمع "لنه" تتكلم، بصوت ضعيف. كانت تنادي عليه، واعتدل في جلسته على القش، لكنها لم تكن تخاطب أحداً، كانت فقط تغمغم ببعض الكلمات لنفسها، كلمات حب وكلمات نزع، كانت تضحك مع نفسها وتتنهد بعمق، إلى أن أخذت أخيراً تتشنج، وشيئاً فشيئاً خمد صوتها. نهض غولدموند واقفاً ثم مال فوق وجهها الموبوء، وراح يتمعن في كل قسماته بلهفة مريرة، ويتتبع تشكيلاته، الملتوية والمختلطة معاً، من خلال أنفاس الغناء المرتعشة. وهتف قلبه: "لنه" الحلوة، يا حلوتي، أيتها الرقيقة، الجميلة - هل ستركييني أنت أيضاً؟ أنت أيضاً ضجرت مني بهذه السرعة؟".

كره أن يفر ويتركها. أن يرحل بعيداً، ويستنشق الهواء بعمق، ويرهق نفسه ويرى مشاهد جديدة، سوف يخفف من ألمه، بل ربما عمل أيضاً على مواساة أساه. غير أنه لم يقو على مغادرة الفتاة وتركها لتموت وحيدة.

لم يعد بوسع "لنه" أن تشرب المزيد من حليب الملاعز، فأخذ هو يشرب كفايته، بما أنه لم يعد لديهم أي طعام آخر. وفي مرات عديدة كان يقود المعزاة إلى جانب "لنه"، ويهمس لها بالعبارات الرقيقة، ويحدق عن قرب إلى وجهها، يراقبها وهي تحتضر، محزوناً ولكن متبهاً. كانت ما تزال واعية، أحياناً تنام، ولكن عندما تفيق بالكاد تستطيع أن تفتح عينيها قليلاً، فقد كان جفناها ثقيلين جداً ورخوين. وكان هذه الفتاة الشابة تشيخ أكثر فأكثر ساعة بعد ساعة، وتشكل التجاعيد حول

عينيها ومنخريها، وعلى جيدها الغضض النضر برز الوجه الذي يذوي بسرعة لجة. لم تكن تتكلم إلا نادراً، تقول فقط "غولدموند" أو "آه، يا حبيب"، وتجاهد لتزطب شفيتها المتورمتين الزرقاوين بلسانها. وعندئذ كان يضع لها إبريق الماء على فمها.

ماتت أثناء الليل، دون أي شكوى، أطلقت شهقة، واحدة قصيرة، وبعدها لم يخرج من جسدها أي نفس. وسرت رعشة على امتداد بشرتها. هذا المشهد ملاً قلبه بالأسى، وهو يتذكر السمك المحتضر في السوق العامة، الذي طالما شهد موته وأشفق عليه. هكذا كان بدوره يموت: تشنج واحد، ثم ارتعاشة خفيفة، سريعة، تسري على امتداد الأجساد من أقصاها إلى أدناها، مزيلاً عنها بريقها، ومعه الحياة. ركع ولازمها لبعض الوقت، ومن ثم هرع إلى الهواء الطلق، ليستلقي على السرخس. وتذكر المعزة، وعاد ليحضرها. كانت قد تمشت قليلاً ثم استلقت على العشب. فتعاد إلى جانبها، وتوسد خاضعتها، واستغرق في النوم حتى انبلاج الصباح. ثم وبل الكوخ للمرة الأخيرة، وهناك على الجانب القريب من سياج الوتل، ألقي نظرة أخيرة على وجه "لنه"، كان يكره أن يتخلى عن الميتة، فذهب مرة أخرى ليجمع ملء ذراع من السرخس، والأوراق والأغصان اليابسة، ورمى بها إلى الكوخ، ثم أضرم ناراً، وأحرقه كله. ولم يأخذ من الكوخ نفسه غير حجر القدح وقطعة الفولاذ. وعلى الفور تفلّط سياج الوتل وإلتهمته النيران.

في الخارج وقف يراقبه وهو يحترق، ووهج النيران يسفع وجهه، إلى أن أمسك اللهب أخيراً بالسقف، وانهارت الدعامة الأولى نحو الداخل. راحت المعزة تتفافز من حوله، وهي تنغو مسعورة. وكان من الأفضل ذبح الحيوان الصغير وشيه ليأكل قطعة من لحم المعزة، ليدعم قواه من أجل مواصلة طرق الدروب، لكن قلبه لم يطاوعه. فقاد المعزة إلى الأدغال، يتبعه الدخان المنبعث من شجرة "لنه"، وهو في طريقه خلال

الغابة. ولم يكن قط قد انطلق في طريقه من قبل وهو يحمل كل ذاك الحزن في قلبه.

لكن ما كان ينتظر عيناه عندئذ كان أسوأ، أسوأ بكثير، مما تصور. وبدأ بأوائل المزارع والقرى، ولم يتوقف، مهما ابتعد، وكان أشد فظاعة وغرابة حين توغل فيه. كان يخيم فوق هذه الأرض غمامة كثيفة من الدمار، غلالة من القسوة، والرعب، وظلمة الروح. والأسوأ لم تكن المنازل الخالية، وكلاب فناء المزرعة النافقة جوعاً أو تتعفن وهي موثوقة بسلاسلها، والموتى الموزعين على أرجاء الأرض، والأطفال المتسولين، وحفر الموت عند بوابات المدينة. إن ما كان أسوأ حالاً من الموتى بكثير هم الأحياء، الذين بدوا وكأن أرواحهم قد انتزعت منهم بحمل هائل من الرعب والخوف المسعور من النهاية المرتقبة. كانت تقابله قصص شنيعة، غريبة على كلا الجانبين، أهالي فروا هاربين من أطفالهم، وأزواجاً من زوجاتهم العليلات، حالما أدركوا أنها موبوءات. وكان ناقلو الموتى، وخدم المستشفى يصدرون الأحكام كما الجلادين، وينهبون البيوت الهالكة، وإذا شاؤوا يتركون الموتى أشلاء، وينزعون المحتضرين من أسرتههم ويرمون بهم، وهم أحياء، إلى عربات الموت. وهائمون على وجوههم، مجانين، يغمغمون، يجوبون الطرقات، يتجنبون كل اتصال مع بقية الناس. يطاردهم على الدوام التفكير في الموت. وآخرون، مصممون على العيش، يأثفون، ما داموا قادرين على ذلك في فرق مرحة، ويرقصون ويفسقون، والموت يعزف لهم. ويتجمع مشردون ضائعون عند بوابات المقابر، أو يزحفون إلى منازل خالية، منهوبة. والأفدح من ذلك أن كل إنسان كان يفتش عن كبش محرقة، ليزيح عن كاهله هذا العبء الرهيب من الغم، وكلّ لديه حكاية عن مخلوق ملعون جلب ذنبه هذا البلاء على البلاد، واستحضر خبثه الوباء. كانوا يقولون لغولدموند إن قوماً شياطين يكرهونهم قد نشروا الموت هنا وهناك، وعصروا السم من

بشور الجثث ليلطخوها به الجدران، وعتبات الأبواب والنوافذ، ويلوثوا منابع الآبار والمواشي. وكل من يتعرض لهذا يضيّع، إلا إذا وجدوا من يحذرهم فيتمكنون من الفرار، بما أن العدالة والرعاع سرعان ما يجعلون منهم هدفاً. وقال الفقراء: إن الأغنياء هم السبب، بينما قال الكثيرون إن السبب هم اليهود، والبعض قال إنهم الإيطاليون، أو الطفيليون. وفي مدينة واحدة، شاهد غولدموند، يجيش في قلبه استمزاز عنيف، اليهود وهم يشعرون بسبب يهوديتهم، ومنزلاً يلتقط النيران من منزل آخر، بينما الرعاع وقد شكلوا حلقة، أخذوا يصخبون، إعادة الهاريين إلى السنة النار. وكان الأبرياء، في كل مكان من معمة الحقد والأسى هذه، يُحرَقون، ويُعدَّبون أو يُقتلُ عليهم. وشعر غولدموند أن العالم قد تسمّم بالفعل، بما أنه لم يتبق على الأرض براءة أو فرح، شرف أو حب. وبما أن نعيب الموت كانت تتردد أصداؤه في كل مكان، فقد انضم إلى أشد الراقصين مرحاً: لقد تعلم أن يستمع إلى انغامهم على مسافات شاسعة، وبات يستطيع أن يداعب أوتار القيثارة على إيقاع وثبهم، أو أن يرقص هو نفسه طوال الليل على ضوء مشاعل خشب صنوبر الرتينج.

لم يملكه الخوف. وكان ذات مرة في ليلة شتائية وتحت ظلال أشجار التنوب، حين أطبقت أصابع فيكتور على حنجرتة، وذاق أعرق رعب من الموت. ومنذ ذلك الحين تعرف عليه، في المستنقعات، وسط الثلوج، وفي الجوع خلال أيام طويلة من التجوال. لكن ذاك كان موتاً من النوع الذي يمكن للإنسان أن يصارعه، أن يتخذ الحيلة منه، وهكذا صارع الموت، بأعضاء منهكة، بأيد ترعف وبطن تتأكله من الجوع. لا أحد يمكنه أن يكافح هذا الموت بالوباء، عليهم أن يدعوه بنفس عن ثورة غضبه، وأن يستسلموا له، وكان غولدموند قد استسلم منذ زمن طويل. لم يكن خائفاً، بما أنه قد بدا له أنه لم يتبق له أي شيء في الحياة، بعد أن أعطى ظهره لجسد "لنه" الداوي، وتقول أياماً كثيرة في مملكة العظام. غير

أن توقاً حاداً غريباً أبقاه يقطاً. لم يتعب قط من مراقبة حاصد الأرواح يقوم بعمله، أو من الإنصات إلى أغنية عبور الحياة. لم يعد هناك ما يربع ناظره، في كل مكان كان يستولي عليه الشغف الهادئ نفسه للمرور، منتبهاً بعينين يقطتين إلى كل خطوة على طول الطريق التي تخترق الجحيم. كان يأكل خبزاً ملوثاً في منازل هالكة، ويغني ويشارك ساكنيها في خمرهم مع مراهنين، ويقطف أزهار الشهوة السريعة الذبول، ويمعن النظر في عيون النسوة المكددة، وفي عيون السكارى المزججة البكماء، وفي عيون المحتضرين، التي تغشى ببطء، ويجب تلك المومسات المحمومات، اللئيمات شبه الأموات، ومن أجل الحصول على صحن من الحساء يساعد في إخراج الجثث، ويجرف التربة مقابل قطعتي نقود صغيرتين. كان العالم قد أضحى همجياً ويعمه الظلام. وكان الموت يعوي بغنائه في أذني غولدموند المرهفتين، تميز أنغام لهفة لا تشبع.

كانت وجهته مدينة المعلم نيقولاس، يحدوه إلى هناك شوقه للعودة إلى العمل، على الرغم من أن الطريق كانت طويلة ومحفوفة بالخوف تخترق عالماً يذوي، انطفأ فيه النور. وتابع مسيره المجهد حزناً، تهدده أغاني الموت، لكنه ظل منتبهاً إلى أصوات الرجال النادبة، الحزينة، ولكن المتقدة بالرغبة، ولم يخفّ تلهفه لرؤية كل شيء.

في أحد الأديرة رأى لوحة جدارية حديثة الرسم، وتوقف عندها مطولاً قبل أن يتعد عنها. كانت بمثابة رقصة الموت مرسومة على الجدار: عظام شاحبة ترقص رقصة شعبية فوق الأرض، للملك، وأسقف، ورئيس رهبان، وكونت، وفارس، وطفيلي، وفلاح، وقن، استوعبهم جميعاً - وهياكل عظمية تقودهم، وهي تنفخ في مزامير عبارة عن عظام مجوفة. وتلقت عينا غولدموند الفضوليتان هذه اللوحة. ها هو أحد رفاقه المجهولين في المهنة قد استنبط الدرس مما شاهد من الموت القاتم، وصارخاً بصوت حاد يحذر من أن الجميع يجب أن يموتوا، في آذان الناس. لقد كانت موعظة جيدة، جيدة جداً، هذه اللوحة الجدارية: لقد أحسن الرجل استيعاب ما رآه، ولوحته الهمجية

يبدو كأنها تئن وتترقق. ومع ذلك فإن غولدموند شعر بها بشكل مغاير. رأى أمامه ضرورة الموت مرسومة صارمة، ولا مفر منها. كان غولدموند يود لو يرى لوحة أخرى. لقد كان لأغنية الموت الأعنف صدى مختلف داخله، صوت ينادي بالعودة إلى الأرض، إلى أم، وأنغامها ليست خشنة وشاحبة، بل عذبة ومغرية. أما هنا، حيث الموت يمد يده إلى الحياة، فهو يأتي كمحارب مدجج بالحديد. ومع ذلك فصوته يحتوي على أنغام أخرى، على أصوات عميقة، خفية، رقيقة كفصل خريف مشيع حتى أن مصباح الحياة الخافت القريب منه بدأ سادعاً بضياء دافئ مشرق. قد يكون الموت بالنسبة إلى الآخرين هو قائد عسكري، قاضي، جنرال، كاهن صارم - أما بالنسبة إلى غولدموند فالموت كان أيضاً أما وعشيقاً، يبدن بمغريات الحياة، ويشيع فيه رعشة الرغبة.

بعد أن غادر رقصة الموت المرسومة، ومضى في طريقه، شعر باستيقاظ أكبر إلى العمل، وإلى المعلم نيقولا. ومع ذلك فكل مكان مر به كان فيه ما يعيق تقدمه، فحمة مشاهد جديدة للموت، وتجربة جديدة، وكان يشتم روائحها القوية الكريهة، بمنخرين مثلهم، ووجه بعد وجه كان يطلب ساعة شفقة أو فضول أو شهراً من هذا المراقب. وعلى مدى ثلاثة أيام ظل طفل قروي صغير ينشج يسير إلى جانبه، وحمله ساعات طوال على ظهره، كان طفلاً متشرداً، يكاد يموت من الجوع في الخامسة أو السادسة من عمره، وجد من الصعب عليه أن يتخلص منه. وفي نهاية المطاف تركه في رعاية زوجة حارق فحش في إحدى الغابات، وكان زوجها قد توفي، وكانت ترغب بوجود دفء حي ليواسيها. وعلى مدى أميال عرج كلب ضال في أعقابه، وهو يأكل من يده، ويدفئ نومه، وذات صباح لدى استيقاظه، وجد أنه قد تابع طريقه وحده. فحزن لذلك، لأنه كان قد اعتاد على التحدث إلى الكلب. فكان يطرح أفكاره، طوال ساعات، حول نخب البشر، أمامه، وحول وجود الله، وعن مهنة النحات، وعن ثديي وشفتي ابنة أحد الفرسان الغضة، جوليا، التي كان يعرفها منذ زمن بعيد، أيام شبابه الأولى، وكالعديد من الجوالين الآخرين في خضم الموت أصاب غولدموند شيء من الجنون. لا أحد في هذه الأرض الميتلية بالوباء كان يمتلك كامل

قواه العقلية، والكثير منهم كان فاقداً لعقله تماماً. وربما كانت ربيكا، اليهودية الشابة، الفتاة السمراء الجميلة، ذات العينين البراقين، التي أمضى معها بعض الأيام على الطرقات، ربما كانت مجنونة.

كان قد عشر عليها في الحقول، بعيداً جداً عن بوابات إحدى البلدان الصغيرة، تتمايل وتنتحب، بالقرب من جمر كومة من أزناد الخشب المحترقة، وتلطم وجهها، وتنتف شعرها الأسود الطويل. وكان شعرها هو أول ما حرك قلبه، فقد بدا فائق الجمال، فقبض على يديها الهائجتين وأحكم إمساكهما، وهو يكلم الفتاة ولاحظ وهو يواسيها، أن وجهها وجسمها حسنا التكوين. كانت تتكلم بهذيان وحزن على والدها الذي أحرقه ملاعين البلدة حتى اضحى رماداً، بالإضافة إلى خمس عشرة آخرين من اليهود. وقد فرت، لكنها عادت بعد أن يئست وها هي الآن جالسة تلول من فرط أساها لأنها لم تدعهم يحرقونها معه. ظل مسكاً بمخالبها بصبر، وهو يقول لها كلمات رقيقة، ويهمس لها عبارات الرثاء والحماية، ويعرض عليها أن يقوم بكل ما في وسعه.

فطلبت منه مساعدتها في دفن والدها، وأخذها يجمعان كل العظام المتبقية من الركام، وحملها سراً إلى الحقول، وهناك وضعها في باطن الأرض. ثم حل الليل، وراح غولدموند يفتش عن مكان للنوم، فكوم من أجل الفتاة مجموعة من أخشاب السنديان الصغيرة لتكون سريراً، ووعد بحراستها أثناء نومها، وأنصت إليها وهي مستلقية تنشج بالبكاء، وإلى أن أسكت النوم أخيراً بكاءها. وهو أيضاً نام لبعض الوقت، وفي الصباح أخذ يلاطفها، ويقول لها إنها لا يمكن أن تبقى هناك وحدها، وإنهم سوف يعرفون أنها يهودية وسوف تضرب حتي الموت، أو قد ينقض عليها المتشردون ويعتصبونها، ثم، إن هناك ذئاباً وغجراً في الغابة. أما هو، كما قال، فسوف يكون رفيقاً لها، ويحميها من الحيوانات والبشر، لأنها بعثت الشفقة في قلبه، إن لديه عينين في رأسه ويرى مبلغ جمالها، وإنه لن يدع هذين الكتفين البيضاوين وهاتين العينين البراقين بأن تكون طعاماً للذئاب، أو أن تحرق

حتى تغدو رماداً على المحرقة. وأنصتت إليه مقطبة الجبين حتى انتهى، ومن ثم قفزت واقفة على قدميها وهربت من أمامه. وكان عليه أن يلاحقها، وأمسكها لكي يجبرها على سماعه.

قال: "أنت تدركين يا ربيكا أنني لا أنوي إبذاءك. أنت حزينة من أجل والدك، ولا ترغين في سماع أي كلمة حب. ولكن غداً، أو بعد غد، أو بعداه، سوف أعود إلى سؤالك، وحتى ذلك الحين سوف أحملك، وسأزودك بالطعام، ولن أمسك. احزني قدر ما تشائين! يمكنك أن تكوني حزينة أو مرحة معي، لكنك لن تفعلي دائماً ما تريدين".

كل هذا الكلام ذهب أدراج الرياح. فقد قالت في نوبة حنق حرون إنها لن تفعل أي شيء من شأنه أن يعيد الفرح إليها. وسوف تفعل كل ما يمكن أن يجلب لها أسوأ ألم. وكلما أسرع الذئاب بالقضاء عليها، كان ذلك مصدر رضا أكبر لها. فليذهب هو إلى شأنه، لن ينالها. لقد قال لتوه ما يكفي ويزيد.

أجاب: "ألا ترين يا حلوتي أن الموت مستشري في كل مكان - وأن الناس يموتون في كل المنازل في كل بلدة، وأن العالم كله لم يكن إلا تمسيداً لأساهم وحاجتهم. فكله نشأ في الألم الهائل نفسه. اسمعي - إن الموت سرعان ما سيأخذنا نحن أيضاً، سوف نرتني وننعفس في الحقل، وسوف تتراهن الذئاب على الفوز بغطائنا. فلنعش الآن ما دام بإمكاننا، وليحب أحدنا الآخر. آه، يا حبيبي، سيكون مصيراً موسفاً لجيالك الناصع البياض، ولقدملك الصغيرتين. تعالي معي الآن يا حبيبي، وسأظل أحرسك وأحميك".

توسل إليها مطولاً، إلى أن تذكر فجأة أنه لا فائدة من اللجوء إلى الكلام فقط للإقناع، أو إلى الحجج والبراهين. فلزم الصمت، وراح يحرق إليها باكتئاب. كان وجهها الأسمر المتكرر ينم عن الحقد.

أخيراً قالت بصوت يعبر عن الكراهية والسخرية: "هكذا أنتم جميعاً، جميعكم سواء أنها المسيحيون. أولاً تساعد ابنة على دفن والدها الذي ذبحته

أنت وأمثالك، والذي إصبعه الصغير كان أفضل منكم جميعاً — وحالاً مات أصبح من المتوجب أن تضاجع ابنته، وأن ترافقك في ترحالك. هكذا أنتم جميعاً. في أول الأمر ظننت أنك ربما تكون رجلاً طيباً: ولكن كيف يمكن لأي منكم أن يكون طيباً؟ أوه، ما أنت إلا خنزير".

بينما كانت تقول كل هذا كان غولدموند يراقب عينيها، ورأى شيئاً أعمق من الكراهية فيهما، شيئاً هزه من الأعماق. رأى الموت مرة أخرى، هناك في عينيها. ليس الموت الذي لا مفر منه، بل حرية الموت، إرادته، التوق إليه، الرد الهادئ، الرقيق، الراضخ لنداء أمنا، الأرض.

قال لها برقة شديدة: "قد تكونين على حق يا ربييكا، ربما أنا رجل خبيث، على الرغم من أنني لم أرد إلا الخير لك. ساعطيني. لم أفهم إلا للتو".

خلع قلنسوته وانحنى لها الخنساء منخفضة جداً، وكأنها لأميرة، ثم غادرها، بقلب موجوع. وظلت روحه لفترة طويلة مترعة بالألم، ولم يكن يتحمل أن يتكلم مع أي شخص. وعلى الرغم من التباين الذي كان قائماً بينهما، فإن اليهودية المسكينة، ذكرته، بشكل غريب، بليديا، ابنة الفارس. إن ما يسبب الحزن للرجل أن يعشق مثل هاتين المرأتين، ومع ذلك، بدا لغولدموند، لوهلة، أن هاتين المرأتين هما الوحيدتين اللتين عشقهما، ليديا المسكينة، القلقة، وهذه الفتاة اليهودية بسخريتها المرة، وبنفورها.

ظل أياماً طويلة وذكرى هذه الفتاة السمرء لا تفارقه، وظل على مدى ليال كثيرة بعدها يحلم بالجمال اللدن الناري لجسمها، الذي بدا أنه خلق ليتذوق كل المتع، إلا أنه وهب للموت. حرام أن تكون تلك الشفتين والعينين من نصيب "الخنزير". ومن ثم ترمى لتتعفن في الحقول. أما من قوة في العالم، أما من سحر، ينقذ برعم الفرح النفيس الرقيق هذا؟.

نعم، كان هناك مثل ذلك السحر. يجب إعادة تشكيل هذا الجمال في روحه، يجب أن تنفخ يداه الروح فيه، وتحفظه. ووعى بابتهاج وخوف كم ملأت هذه الرحلة الطويلة المرعبة بالصور والأشكال ذهنه وحفرتها على قلبه. واحتشدت الصيغ وتصادمت داخله، حتى أنه تاق إلى السكينة لكي يراها جميعاً، ويحررها إلى بقاء حي. وتابع طريقه وهو أكثر توقاً،

أكثر نشاطاً، وأكثر فضولاً، وبعينين منقبتين، وأحاسيس مشبوبة، لكنه بات الآن شديد التوق إلى الغضار والخشب والورق، والفحم، وإلى ورشة العمل.

مضى الصيف. وأكد له كثيرون أنه مع بحبيء فصل الصيف، وأوائل الشتاء، سيكون الرباء قد انتهى. وها قد حل الخريف، ولكن دون أن يحمل معه أي فرح. ووصل غولدموند إلى بلد خال، مهجور، لا يوجد فيه أحد ليجمع محاصيله، حتى أن الثمار كانت تسقط عن أشجارها، وتغطي العشب. وثمة أماكن عديدة كانت تُنهَب من قِبَل عصابات همجية أتت من البلدة، تكاثرت لتسرق كل شيء. وشيئاً فشيئاً اقترب من هدفه، وغالباً ما كان ينتابه الخوف، خلال تلك الأيام الأخيرة، من أن يجد نفسه مصاباً بالوباء، ويضطر إلى الموت داخل زريبة أبقار. الآن بات يخشى الموت، وينفر منه، يجب أن يعيش، أن يتذوق المتعة الفريدة في الوقوف مرة أخرى أمام الرسوم الخشبي، وتكريس نفسه لمهنة النحات. الآن، ولأول مرة في حياته، أضحت الإمبراطورية متزامية الأطراف والعالم بلا حدود بالنسبة له: لم يعد بإمكان أي بلد جميل أن يلهيه، ولا أي حسناء جميلة أن تؤخره، أكثر من ليلة واحدة.

ذات يوم وصل إلى كنيسة ينتصب على واجهتها، داخل مشاكي عميقة صفوف كثيرة من التماثيل، تحملها أعمدة، حفرت في الحجر، نحتت في زمن سحيق، تماثيل لرسل، وشهداء، كالتي كان يشاهدها من قبل، حيث كان في دير كنيسة ماريابرون. وفي طفولته كان يستمد متعة خاصة في تأملها، وإن لم تكن تثيره بعمق. كانت تبدو له جميلة وقيمة، ولكنها مغالية قليلاً في وجودها ومهابتها، ورسمتها. وفيما بعد في نهاية أولى جولاته الكبرى، عندما تأثر حتى الفرع والتعجب من منحوتة المعلم نيقولاس الجميلة والحزينة "أم الرب" بات يجد تلك التماثيل العتيقة، الرصينة، فظة، وثقيلة الوقع، وشديدة الجمود، والنأي عن الحياة، وينظر

إليها بشيء من الإزدراء، وأصبح يجد أسلوب المعلم نيقولاى الجديد هذا أكثر حيوية، وأعمق، وفناً فذاً أكثر.

ولكن مع عودته الآن إليها، بعد مروره بتجربة طويلة، وقد ترك العالم ندوبه على روحه، التي أضحت مترعة بالحاجة الملحة إلى السكينة والتفكير، فإن أشكالها العتيقة، الصارمة، أصبحت فجأة تؤثر فيه، بقوة وطاقه لم يعهدهما من قبل. توقف بورع أمام جلالها، التي لا يزال يخفق فيها قلب زمن مضى، وخاوف ومباهج العديد من الموتى، الصامدين بخطوط قوية على امتداد القرون، تتحدى هشاشة الزمن. وتسلل إلى قلبه وهو يحرق إحساس عميق بالرهبة والحب نحوها، ومستته الرعشة وهو يفكر في حياته المبددة، الضائعة. وفعل ما لم يفعله طوال تلك السنين الكثيرة: اتهم نفسه، وتاق إلى التوبة، سعى إلى الاعتراف وفتش عن كاهن.

لكن، على الرغم من أنه كان هناك في الكنيسة العديد من مقاعد للاعتراف إلا أنه لم يكن هناك أي كاهن جالس على أي منها: إنهم ماتوا، أو منطرحون في التكيات: لقد فروا بعيداً، خشية الإصابة بالوباء. كان صحن الكنيسة خالياً، وكانت خطى غولدموند تضج بين العقود والقناطر. فرقع على أحد المقاعد الخالية، وأغمض عينيه. ثم بدأ يهمس من خلال الشعرية :

"إلهي، أنظر ماذا حدث لي. لقد عدت إليك، رجل شرير، لا نفع يرجى منه. بددت شبابي، كأي مبذر، ولم يتبق لي شيء يذكر. لقد قتلت، وسرقت، وفسقت. تكاسلت، وأكلت خبز الآخرين. لماذا خلقتنا هكذا يا رب؟ لماذا تقودنا إلى مثل هذه الدروب؟ ألسنا أبناءك؟ ألم يذهب ابنك إلى الموت فداءً لنا؟ أليس هناك من قديسين وملائكة ليحرسونا؟ أم أن كل هذا مجرد حزمة من الحكايا، اخترعت لإبقاء الأطفال هادئين، وليضحك عليها الكهان فيما بينهم؟ إن أعمالك تحيرني، أيها الرب الآب. لقد جعلت العالم في حالة يرثى لها، وها أنت الآن تسيء إدارته. لقد رأيت شوارع ومنازل مملوءة بالجثث. رأيت

الأغنياء يوصدون أبوابهم ويفسرون، تاركين الفقراء، إخوتهم، ليتعفنوا دون دفن. رأيت كيف يخشى البشر بعضهم بعضاً، كيف تضرب أعناق اليهود كما تذبح الماشية. رأيت الكثير من الأبرياء يتألمون ويموتون، والكثير من الأشرار يتمرغون في كسبهم. هل أشحت بوجهك عنا، وتغليت عنا تماماً؟ أليس لمخلوقاتك أي قيمة عندك؟ أتريد للبشر أن يُبادوا عن وجه الأرض؟".

خرج من البوابات الضخمة وهو يتنهد: تعلوه صفوف خرساء من القديسين والملائكة، كل يتنصب عالياً في مساحته الضيقة، ثابتين في التضاعيف الجامدة الطويلة لأرديتهم، لا يتغيرون، لا يمكن بلوغهم، وأضخم من البشر. صارمون وخرس، داخل مشاكيتهم الضيقة، صم عن كل سؤال والتماس، ومع ذلك دائماً يبدون مواسين، قهار الموت المنتصرين، المنقذين الصارمين من اليأس، لقد شهدوا بحلالهم وجمالهم، أجيالاً تنهار. آه، ليت المسكينة رسكاً كانت مثاهم، والمسكينة "لنه"، المحروقة حتى الرماد في كدونها، والرقبة المسكينة ليديا، والمعلم نيقولاس! هؤلاء أيضاً سوف ينتصرون ذات يوم ويرسخون: قريباً سوف يثبت ذكراهم، التي لا تعني في الوقت الحاضر إلا الحب والأسى، وخوفاً واشتياقاً لتثبيت أشكالهم. هم أيضاً سوف يواسون الأحياء، إحياء بلا إسم ولا تاريخ، وهم مجرد رموز خرساء لأيام إنسانية.

الفصل الخامس عشر

أخيراً وصل إلى نهاية رحلته، ومن خلال البوابة نفسها التي كان قبل سنين عديدة، قد حث خطاه ماراً من تحتها داخلاً للمرة الأولى إلى المدينة بحثاً عن معلم حر في ليتعلم حرفة، عاد غولدموند ليلج موطن اشتياقه. وقد علم أنهم هنا أيضاً عانوا من الوباء. ولعله كان ما يزال يستوطن المكان. وقد نشأت ثورات ومشاغبات، فأرسل الإمبراطور رجال الأمن لقمعها، وإعادة سيادة القانون، لحماية حياة وممتلكات المواطنين الشرفاء. وكان الأسقف قد غادر مدينته هرباً حالماً علم أن الوباء قد وصل إليها، وهو الآن يواصل حياته في الإمبراطورية، في إحدى قلاعها. أولى غولدموند انتباهه إلى كل هذه الأقاويل. فليذهب كل شيء، ليت فقط يعثر على مدينة، وعلى ورشة للعمل! ولكن حين وصل إلى البوابات لم يكن هناك أي أثر للوباء، وكان المواطنون يتوقعون عودة أسقفهم، ومعه حياتهم المهددة، المستقرة، وابتهج لمشاهدة تلك الشوارع من جديد، وطفّر قلبه فرحاً، وكأنه عائد إلى وطنه الأم، لذا كان عليه أن يتمالك نفسه، وأن يرسم تقطعية على وجهه.

كان كل شيء كما هو كما تركه: البوابات، التوافذ الدقيقة، وبرج

كنيسة الدير المنخفض والقصير، وبرج كنيسة القديسة مريم الطويل والمستندق، والنواقيس البراقة، النظيفة لكنيسة القديس لورنس، وساحة السوق الواسعة والجميلة. آه، ما أحلى الإحساس بأن كل شيء كان بانتظاره! ألم يعلم، وهو هناك، أنه عاد ليجد كل شيء وقد ذوى، نصف في الرماد، والنصف الآخر مملوء بمنازل غريبة. وكادت تطفئ الدموع من عينيه لدى مروره في الشارع، وهو يميز بيتاً بعد بيت. ربما يجب أن يحسد هؤلاء المواطنين على معرفتهم المباشرة، العميقة، أنهم في وطنهم، يعيشون في أمان وسلام، مستكينين داخل ورش أعمالهم وبيوتهم، مع زوجاتهم وأولادهم، وعملهم المهرة وجيرانهم.

كان الوقت متأخراً من بعد الظهر، ونور الشمس يمتد ذهبياً على واجهات المنازل، بما تحمله لافتات الخانات، ولافتات النقابات المهنية، وأبوابها المحفورة، وصفوفها من أصص الزهور الموضوعة على الشرفات. كان كل شيء يبدو دافئاً، لم يكن ثمة ما يذكره بأن الموت قد صب جام غضبه على هذه المنازل الجميلة، مشجعاً أقصى حالات الرعب بين الناس. وجرى النهر، بلونه الأخضر والأزرق، هادئاً وصافياً، كمرور صفحة من الزجاج من تحت الأقواس التي تزدد بينها الأصدااء. وجلس غولد-موند ليرتاح على حاجر النهر: عميقاً تحت طبقات من المياه الرقاقة المائلة في لونها إلى الخضرة، كان السمك المظلل ما يزال ينزلق، أو هامداً لا يأتي بحركة، وقد اتجهت أنوفه بعكس اتجاه التيار، وكان ما يزال هناك شيء ذهبي باهت يتلألأ هنا وهناك وسط حمرة الأفق الشاحبة المحيطة بالمكان، واعداء بالكثير ماشعاً الأحلام.

على الرغم من أن المياه الأخرى كانت تشبه هذه، والمدن والجسور الأخرى جميلة جداً، إلا أنه بدا لغولد-موند أنه منذ سنين عديدة لم يقابل ناظره ما يعادل هذا المشهد، ولا شعر، إلا هنا، بشعور مماثل. ثم اقترب منه صبيًا لحام يضحكان يقودان بقر بهما بقرتهما عبر الجسر، يتميزان

ويغمزان للحسنة التي كانت، وهي داخل كوة في الجدار فوقهما، قد باشرت غسلها. ما أسرع ما تبدل كل شيء! فقبل فترة وجيزة مضت كانت نيران الرباء تضرم خارج حدود هذه المدينة، وناقلو الموتى المخيفون يفعلون ما يشاؤون بها. وها هي الحياة الآن تتدفق وتسرع الخطى كعهدا في السابق. صار بإمكان الناس أن يضحكوا - وهو أيضاً كان مثلهم، جالساً هناك، سعيداً لمشاهدته كل هذا، وكأنما لم يكن هناك ألم أو موت في العالم، ولا "لنه"، ولا حسنة يهودية. وشعر بسعادة غامرة حتى أنه أحب المواطنين، ونهض واقفاً وهو يتسسم، وسار أكثر، وحالما وصل إلى الشارع الذي يقطن فيه المعلم نيقولاس، وسلك لذلك أزقة كان يطرقها كل يوم في طريقه إلى العمل، بدأ قلبه يخفق، وأخذ ذهنه يتشوش.

أسرع خطاه وكله اشتياق للتحدث إلى المعلم، وفي هذه الليلة يجب أن يتيقن، ولم يعد يتحمل تأخير ثانية واحدة أخرى: كان من المستحيل انتظار ليلة أخرى. هل ما زال نيقولاس غاضباً؟ آه، لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد جداً، ولم يعد له أي معنى. ولكن إذا ما ثار فإن غولدموند سوف يهدئه ويسترضيه. كل شيء يسير سيراً حسناً، فقط ليت المعلم يكون لا زال موجوداً - هو وورشة عمله! وأخذ يهرول وكأنه يمكن، حتى خلال هذه اللحظة الأخيرة، أن يصل متأخراً ويخسر فرصة متاحة، إلى أن وصل إلى المنزل الذي يعرفه حق المعرفة، وقبض على سقطة الباب، ثم أجفل قليلاً حين وجد أن باب المنزل موصد دونه. أكان ذلك فائلاً مشؤوماً؟ على أيامه لم يحدث قط أن هذا الباب قد أرتج قبل حلول الظلام. وضرب المدقة بقوة، وهو يرتجف، وانتظر. وتوقف وجيب قلبه.

ها هي الخادم العجوز تقترب منه ثانية، وكانت هي التي أدخلته إلى المنزل في المرة الأولى. لم تكن أقبح مما وجدها عندئذ، لكنها أكثر تقدماً في السن، وما زالت أساليبها غريبة الأطوار، ولم يظهر أنها عرفت من

يكون. وسأله بصوت منخفض عن المعلم نيقولاس.
فرفعت إليه نظرة شذراء، مرتابة وبلهاء.

"المعلم؟ لا معلم هنا. إذهب في حال سبيلك يا رجل، لا يسمح لأحد بالدخول"، وحاولت أن تدفعه إلى الخلف بعيداً عن ممر الباب، لكنه أمسك بذراعها، وصرخ في أذنها:

"إكراماً لله يا مرغريت، كفالك تذرماً أنا غولدموند. ألا تعرفين من يكون؟ يجب أن أدخل الآن لأقابل المعلم نيقولاس".

قالت متذمرة "لقد مات، أقول لك. وليس لدينا أي معلم نيقولاس هنا. فارحل الآن، لا وقت لدي أضيعه في الشرثرة".

دفع غولدموند العجوز جانباً، والثورة تضطرم في روحه، فأخذت تلك تعرج خلفه وهي تطلق سلسلة من الصرخات، ثم اندفع خلال ممر مظلم يوصل إلى الورشة. تلك أيضاً كانت مرتجة الباب. فعاد أدراجه، وراح يرتقي مهرولاً الدرج، ومرغريت العاوية، المعنفة في أعقابه، وهناك على الضوء الخافت المنبسط السارج، كانت التسايل التي جمعها المعلم نيقولاس منتصبة. فتوقف، وراح ينادي على السيدة ليست.

فتح الباب المؤدي إلى غرفة السناديان: وخرجت منه ليست، وحين تعرف عليها، بعد تدقيق النظر فيها، اخترق مرآها قلبه. فإذا كان كل ما في هذا المنزل قد بدا له من خلال إدراكه لتلك الدقيقة الأولى عندما وجد الباب الخارجي مرتجاً في وجهه، بدا له مسحوراً ويشيع قليلاً من الرعب، وكأنه يعيش حلمًا خفيفاً، فإن قشعريرة باردة قد سرت الآن على طول عموده الفقري، حالما وقع بقصره على ليست. لقد انكمشت ليست المتكررة، الجميلة، لتغدو سيادة نبيلة، ذابلة نحافة، متشحة بثوب أسود اللون، وذات وجه يعلوه شحوب المرض، ولم تعد تترين بأي أحجار كريمة الآن، وعينين مرتابتين وسحنة قلقة.

قال لها: "اغفري لي، يا سيدتي، إن مارغريت لا تريد أن تدعني أدخل لأقابلك. ألا تعرفيني؟ لا بد أنك تعرفيني. أنا غولدموند - أحقا أن والدك قد توفي؟".

عينها قالتا أنها تعرفت عليه بوضوح، وأن ذكراه هنا غير مرغوب فيها.

"إذن فأنت غولدموند؟" - ظل يسمع في نبرة صوتها شيئاً من كبريائها - "لقد تكبدت المتاعب دون فائدة. إن والدي قد توفي".

كان يجب أن يسألها "ولكن ماذا عن الورشة؟".

"الورشة؟ مغلقة. إن كنت تبغي عملاً فاذهب إلى مكان آخر".

جاهد كي لا تلاحظ مبلغ أساه.

قال بصوت ودي: "سيدة ليسبت، أنا لم آت إليك طلباً لعمل. أردت أن أسلم عليكما - أنت، والمعلم. إنه لما يوجعني اضطرابي إلى سماعك. وأرى أنك قد نلت الكثير من الحزن فإذا كان بوسع متمهن والدك الشكور أن يقدم لك أي خدمة - سُمها فستكون تعويضاً مني. آه، يا سيدة ليسبت، إن مما يحطم قلبي أن أراك.... أراك شديدة الابتلاء".

خطت مترجعة إلى ظل الباب.

قالت مترددة: "شكراً لك، لم يعد في وسعك أن تقدم له أي خدمة. ولا حتى لي. سوف تصطحبك مارغريت حتى الخارج".

كان في صوتها رنة شر، نصفها خوف، ونصفها خبث. لقد شعر بذلك، ولو أنها كانت تملك الشجاعة الكافية لأغلظت في كلامها معه، ولطرده من المنزل.

صفت العجوز مارغريت الباب خلفه، وشدت الرتاجات. والآن وقف في الشارع ولا يزال صدى الرتاجات في أذنه، أشبه بالصرير المضاعف لحركة إغلاق غطاء الثابوت.

عاد بخطى بطيئة إلى حاجز النهر، وعاد يميل فوق حافة الماء. كانت الشمس قد غربت، وهبت نسمة مصقعة من النهر، وكان الحجر الذي يلامسه بارداً كالثلج. وأطبق الصمت على الشارع من خلفه، ودوّم تيار المياه حول دعائم الجسر، ولم يعد ينبعث بريق ذهبي من عمق المياه المظلمة.

قال في نفسه "ليني أنزلق عن هذا الحاجز وأغوص". مرة أخرى بدا العالم مفعماً بالموت. ومرت ساعة من الزمن، وتكشف الغسق حتى أضحى ظلاماً. وأخيراً استطاع أن ييكبي، ونخضت حبات الدمع الدافئة يديه وركبتيه. بكى على المعلم نيقولاس، الميت، وعلى جمال ليست الذي تلاشى، وعلى "لنه"، وعلى الفتاة اليهودية، وعلى فيكتور، وعلى أيام حياته الناضبة، المبددة.

في وقت لاحق من تلك الليلة عثر على قبر خمر، كثيراً ما كان هو والصبية المتمهّنين يسكرون فيه ويلعبون النرد. وتعرفت عليه المضيفة من جديد: استجدى منها قطعة خبز، فأعطته، ومعها كأساً من الخمر تعبيراً عن الود. ولم يستطع تذوق الخبز ولا الخمر. ونام على أحد المقاعد في الحانة. وفي الصباح الباكر أيقظته، فشكرها وقال: "أتمنى لك التوفيق". وفي الطريق أتى على الخبز الذي أعطته.

أخذ يتسكع، حتى وصل إلى سوق السمك. ها هو المنزل الذي كان يقيم فيه. وكانت بائعنا سمك تقفان بالقرب من النافورة تناديان على بضائعتهما. وكان السمك الجميل، البراق يحتشد ويدور باستمرار في حوضهما. لقد رأى كل هذا في الحلم، وتذكر شففته على السمك، وغضبه من المشتري ومن الباعة، وفكر كيف أنه راح يتسكع، كما يفعل اليوم شاعراً بالشفقة على السمك، ويتعجب من جماله، لقد مر وقت طويل جداً منذ ذلك الحين، وتدفقت المياه من تحت الجسور. وما زال يذكر أنه كان عامراً بالحزن، لكنه جاهد عبثاً لأسر الاحساس الذي

جعل قلبه مثقلاً متعباً، في العهد الماضي. قال في نفسه "هذا حال الدنيا، الحزن يتلاشى، وحتى يأسنا يذوب. والألم، مثل أفراحنا، يختفي ويغادرنا، ويفقد كل أعماقه وقيمته، إلى أن يأتي يوم أخيراً وننسى ما وخر قلوبنا لسنوات عديدة قبلها"، حتى الألم يتفتت ويفنى. فهل سيفقد هذا كل أعماقه ومعناه اليوم — هذا اليأس الذي سببه موت المعلم نيقولاس، وهو غاضب منه، الآن وليس هناك ورشة عمل تأويه، تعيد إليه متعته في نحت الأشكال، وتخلصه من عبء الصور التي يحملها. نعم، لا شك في ذلك، حتى هذا التوق المرير سوف يشيخ ويكل، حاجاته كلها سوف تنسى، ما دام لا شيء يبقى معنا طويلاً، ولا حتى الأسى.

بينما هو واقف هناك يراقب السمك ويفكر في كل ذلك. سمع صوتاً حياً، ودياً خلفه.

قالت بنعومة شديدة: "غولدموند". فالتفت ليرى فتاة خائفة، سقيمة، ذات عينين واسعتين وجميلتين، هي التي تلفظت باسمه. لم يعرفها.

سألته بصوتها الرفيع، الحبي: "أأنت أنت غولدموند؟ متى عدت إلى المدينة إذن؟ ألا تعرفني يا غولدموند؟ أنا ماري".

بيد أنه لم يتذكرها. وكان عليها أن تشرح له أنها ابنة عضو النقابة الذي كان يسكن في بيته في سوق السمك، وكيف أنها ذات صباح باكراً، وقبل أن يغادرهم، قامت من سريرها لتسخن الحليب له في المطبخ. واحمرت خجلاً وهي تخبره بكل هذا.

الآن تذكر، نعم، إنها ماري، الفتاة الصغيرة، السقيمة التي كانت تعرج، وبدت شديدة الهدوء، والخوف وهي تقوم على خدمته. تذكر كل شيء، لقد جاءته في صباح باكراً بارد، وكانت تبدو متأسفة كثيراً لرحيله عنهم. وأحضرت له حليباً، وحين قبلها مقابل ذلك تقبّلت قبلته بوقار وبهدوء، وكأنها خبز القربان المقدس. إنه لم يفكر فيها مرة واحدة

منذ ذلك الحين.

في تلك الأيام كانت طفلة. أما الآن فقد أصبحت امرأة بالغة ذات عينيْن جميلتيْن، وإن كانت ما تزال تعرج، وبدأت حزينة قليلاً. أمسك بيدها. جميل أن يجد المرء في البلاء من لا زال يعرفه، ولا زال يكن له الحب.

قادته ماري، على رغم احتجاجه، إلى منزله. وفي غرفة الجلوس حيث كانت صورته ما تزال معلقة وكأسه ذات اللون الباقوتي موضوع فوق رف المدخنة، ودعاه أبواها إلى البقاء معهم حتى العشاء، وألحوا عليه للمكوث يومين آخرين. وبدأت السعادة الغامرة على الجميع لرؤيته من جديد. هنا، أيضاً، علم كيف آلت إليه أحوال المعلم نيقولاس. فالمعلم لم يمت من الوباء، كما قالوا، بل إن السيدة ليست هي التي مرضت متأثرة به. وقد شارفت على الموت، وأرهق والده نفسه بالحنن عليها، والعناية بها، ومات قبل أن تستعيد عافيتها تماماً. وأُنقذت حياتها وفقدت جمالها.

قال عضو النقابة: "والآن بقيت الورشة خالية. والنحات الماهر سوف يجد بانتظاره منزلاً مريحاً، وراتباً مجزياً. فكّر في الأمر، يا غولدموند. إنها لن ترفض طلبك. لم يعد أمامها خيار الآن".

علم بهذا وبما حدث أثناء الوباء. وكيف عمد الغوغاء أولاً إلى إضرام النار في التكية، ومن ثم أحرقوا بضعة بيوت للأثرياء بعد أن نهبوا، حتى أنه مرت فترة لم يبق هنا أمان أو نظام داخل أسوار المدينة، بما أن الأسقف ورجاله قد فروا. لكن الإمبراطور، الذي تصادف أن مر بالقرب من المدينة، أرسل ضابط أمنه، الكونت هاينريش. ولا شك في أن هذا السيد كان ذا تصميم، وسرعان ما أخضع المدينة، بخيالاته، وفرقة من رماة السهام. ولكن بعد ذلك حان الوقت للتخلص منه.

وطالبت المدينة باستعادة أسقفها. لقد كان الكونت قد فرض ضرائب على المواطنين، وأصبحوا يرتابون فيه وفي خليلته، أغتس. لقد كانت خليقة تامة للشيطان. ولكن قريباً سيرحلان، هو وهي، لقد ضاق ذرع آباء المدينة منذ زمن طويل بهما، وبجثم رجل البلاط هذا والقائد على ظهورهم، أثير القيصر هذا، الذي كان يستقبل السفراء ورجال الكنيسة كأمر، تحتلاً بذلك مكان أسقفهم الطيب.

ثم طلبوا من الضيف أن يحكي لهم عن أسفاره. فقال بحياء: "واحسرتاه، لا يمكن لأي إنسان أن يوفيها حقها من الرصف. لقد سرت كثيراً وطويلاً، وأينما حللت كنت أجد الوباء، شاهدت جثثاً تتعفن على جوانب الطرقات، وكان الناس في المدن يجنون، ويركبهم شيطان الخوف. وقد خرجت سليماً، وآمل أن أنسى كل ذلك ذات يوم. والآن ها أنا هنا، وجدت معلمي وقد توفى. اسمحوا لي أن أمكث معكم طلباً للراحة لبضعة أيام، قبل أن أعود إلى متابعة طريقي".

لكن ما دفعه إلى إبداء هذا الطلب كان أكثر من الحاجة. لقد مكث لأن قلبه كان مكلوماً، ومتزداً، ولأن المدينة، بما يحمله عنها من ذكريات أيام أفضل، كانت عزيزة عليه، ولأن حب ماري المسكينة كان يهدد قلبه. ولم يكن يستطيع أن يبادلها حباً بحب، لم يكن بمقدوره أن يمنحها إلا الصداقة والمعاملة الرقيقة، إلا أن شوقها المتواضع بدا أنه يدلله.

زيادة على ذلك كانت رغبته العارمة في خلق الصور تشده إلى البقاء. حتى في غياب ورشة للعمل فيها. كان كعامل ماهر يتوق إلى البقاء في المدينة.

طوال يومين كاملين لم يقيم غولدموند بشيء آخر غير الرسم. وكانت ماري قد حضرت له أقلاماً وأوراقاً، ومن ثم جلس في غرفته على مدى ساعات متواصلة، يملأ مواعين ورق واسعة بالأشكال

المخربشة، وإن كان بعضها قد رسم بعناية وتركيز. رسم دراسات عديدة لرأس "لنه"، كما رآه بعد موت المتشرد، مبتسماً ويعبر عن انتصار الحب، متهللاً لمراى الموت، ولرأس "لنه"، كما بدا في الليلة السابقة لموتها، تواقاً إلى العودة إلى باطن الأرض، وقد بدا لتوه ينحدر نحو الاشكل. ورسم صبيّاً صغيراً كان قد رآه ذات مرة ميتاً، متمسداً على العتبة بين غرفتين، وكان متوجهاً إلى والديه، وقبضت يديه مشدودتين. ورسم عربة مملوءة بالجثث، مع ثلاثة أفراس نحيلة، مرهقة تجرها، وقرويون يتراكبون بمحاذاتها ليحشوها على المضي، ويعملون في أيديهم عصي طويلة، وبعيون بنظرات شاذراء، تلمع من خلال شقوق أقنعة الوباء السوداء. ومراراً وتكراراً رسم صورة ربييكا، اليهودية النحيلة السمراء، ذات العينين اللتين تطلقان شرراً، والفم الصغير المتكبر، والوجه المملوء بؤساً وتحدياً، والجسم الغض البض الذي خلق، كما بدا للحب ولا شيء غيره. ورسم نفسه، كجوال، وعاشق، وهارب، وموت حاصد منطلقاً من أعقاب كراقص في لائمه المصابين بالوباء. ومال على الورق بتلهف، ليثبت، بضربات طويلة، صارمة، قسّات وجه ليست الجميلة المشحونة بالازدراء، كما عرفها، والتكشيرات المتكسرة لوجه مرغريت العجوز، والتكوين المثير للاعجاب للمعلم نيقولا. وفي أحيان كثيرة كان يقترح، بخطوط عامة، باهتة، غير واثقة، وجهاً آخر، وجه امرأة - الأرض الأم، ويدها مضمومتان في حجرها، وشبح ابتسامة يتبدى من تحت جفنين مثقلين هذه المعرفة للطاقة الكامنة في يديه، ولما يملك من تضلع في رسم كل هذه الوجوه، واسته بشكل أبلغ مما يفعله أي كلام. وخلال يومين من الزمن كان قد غطى كل ورقة أحضرتها ماري إليه، أما الورقة الأخيرة فحُصص فيها مساحة رسم عليها، ببضعة خطوط واضحة، وجه ماري - وجهها ذا العينين الجميلتين، والشفتين المتنسكيتين. وهذه أعطاها لها.

هذا العمل أشبهه. وطوال فترة مكوثه هناك وانغماسه في الرسم لم يكن يعرف أين يجلس، وإن كان يتأمل. العالم بالنسبة إليه كان يتألف فقط من طاولة، وصفحة الورقة البيضاء، وشمعة الأسل عند الغسق. والآن أفاق وتذكر أن المعلم قد مات، وأن عليه أن ينطلق على الطرقات من جديد. وهكذا أخذ يتجول في أنحاء المدينة، يمتلكه إحساس غريب مركب من الترحيب والوداع.

في إحدى تلك الجولات قابل سيدة، مرآها وحده أزال الاضطراب من عقله. امرأة جميلة، ذات شعر ذهبي خفيف، تغطي صهوة جواد، وعينين زرقاوين فضوليتين، تميلان إلى البرود، وتحملان تعبيراً قوياً وجميلاً، وبشرة صافية ونضرة، ووجهاً طافحاً بشهوة الحياة، والنهم إلى المتعة والسيطرة، والاعتماد على الذات، والفضول الحسي. وكانت تتمطي صهوة جوادها بسيماء مسيطرة مزدرية، تنم عن أن صاحبها معتادة على إصدار الأوامر، ومع ذلك لم يكن يبدو على وجهها ومنخريها، من تحت ضياء عينيها البارد، واللذين بدا توأمين متلهفين لاستقبال كل متعة يمكن للحياة أن تهبها، دون أي تحفظ وحذر، بينما بدت شفتاها الصارمتان الجميلتان، كأنهما تعدان بأنها تعطي وتأخذ بلا حدود. وجعل مرآها غولدموند منتبهاً - وأصبح فجأة تواقاً إلى مقارعة كبرياء هذه المرأة. وتصور أن الفوز عليها والسيطرة عليها سيسكان إنجازاً مجيداً، واعتبر أن خسارة رأسه في المحاولة لن تكون ميتة سيئة. وعلى الفور بات يعتبر هذه المرأة الذهبية الوية نداً له، غنية بأحاسيسها وبقلبها، والخلقة بما تتمتع من قوة أن تواجه أي عاصفة، والعنيفة في حبها بقدر ما هي رقيقة، تستشعر أقل حساسيات الهوى، وخفقاته من معرفة الدم القديمة الموروثة. ومرت وتجاوزته، وتابعها بنظره. وبين صدارها الأزرق الداكن وشعرها الذهبي ارتفع عنقها الأبيض، المكنز، شامخاً وقوياً، إلا أنه كان مغلفاً ببشرة رقيقة جدرة بطفل. وقال في نفسه

إنها أجمل امرأة رأتها عيناى، واشتهى أن يتحسس عنقها بيديه، وأن ينتزع السر الأزرق، البارد، من عينيها. ولم يكن يرغب في معرفة إسمها. لكنه سمع على الفور اسمها هو أغنس، عشيقة رئيس الأمن، التي كانت تعيش معه في قصر الأسقف. وهذا الخبر لم يجعله يغير بغيته، بما أنها يمكن أن تكون الإمبراطورة نفسها. توقف ليميل فوق إحدى النافورات، ويرى صورته منعكسة على صفحة الماء. كان الوجه الذي شاهده يباري وجهها، كأخ وأخته، غير أن وجهه كان أشد عنفاً بكثير وغير مصقول. وفي غضون ساعة من الزمن كان قد عشر على حلاق، وأقنعه بتزيت شعره وتمشيطه، وبقص لحيته.

أمضى يومين في ملاحقتها. فبينما تكون أغنس خارجة من القصر ممتطية جوادها، ترى هذا الغريب الأشقر الشعر واقفاً عند البوابات، ويحدق إليها بعينين نهمتين. وبينما هي تخب بحصانها حول الحصون، إذ بالغريب يقف منتظراً تحت أشجار الدردار. وتكون أغنس عند الحداد، ولدى خروجها من ورشته، تقابل الرجل الغريب. وكانت عيناها الزرقاوان المكتبرتان تقيمه بحدة، لكن منخريها كانا يرتعشان قليلاً أثناء تعديقها. وفي اليوم التالي، وعنده نزهتها المبكر، قابلته من جديد، وابتسمت ابتسامة متحدية أثناء مرورها. وشاهد بصحبتها الكونت، ضابط الأمن، وكان رجلاً جسوراً مهيباً، وعدواً خطيراً. لكن شعره كان يتخلله بعض الشيب، وثمة أخاديد المهّم تحت العينين. وشعر غولدموند أنه ند له.

ملأه هذان اليومان بالبهجة، وطفرف فرحاً وكأنه اكتسب شباباً جديداً. كان من الممتع أيما إمتاع أن يجتذب إليه هذه المرأة، ويتحداهما من الممتع أن يجازف بحريته للحصول على جمالها. أما أفضل شيء على الإطلاق وأجمله فكان إحساسه بأنه يقامر بحياته كلها دفعة واحدة.

في صبيحة اليوم الثالث، خرجت أغنس منطلقة على صهوة جوادها

من فناء قلعتها متبوعة بسائس خيل على متن جواد. وعلى الفور راحت تبحث ببصرها، بشيء من الלהفة، عن الغريب، وكأنها تواقه إلى خوض معركة. وبعثت سائسها ليوصل رسالة، وراحت هي تسير مع جوادها بتمهل خلفه، مارة من البوابة، متجهة إلى الجسر، ومن ثم عبرته. مرة واحدة فقط نظرت خلفها لترى إن كان الغريب يسير في إثرها. وفي شارع القديس فيتوس، أمام كنيسة الحجاج التي تكون مقفلة عادة في مثل ذلك الوقت، شددت لجام حصانها وانتظرت اقترابه. وانتظرت ما يقارب النصف ساعة، لأنه كان يتبعها ببطء شديد، رافضاً أن يقترب منها وهو يلهث. وتقدم منها، مبتسماً ومتورداً الوجه، وبين أسنانه باقة صغيرة من الورد البري الأحمر، والزعرور البري. وكانت هي قد ترجلت عن حصانها وشدته إلى وتد ومن ثم وقفت وقد أعطت ظهرها إلى اللبلاب الذي تسلق أعلى كنيسة الحصن الشاهقة. وأخذت تبحث بعينها مطاردها. وتوقف أمام تحديقها، ورفع لها قبعتها.

وسألته: "لماذا تتعقبي؟ ماذا تريد مني؟".

أجاب: "أوه، أود بكل سرور أن أقدم لك هدية، وأحصل منك على أخرى. إني أضع نفسي تحت أمرك، أيتها الحسنة، وبعد ذاك افعلي بي ما يحلو لك".

"حسن، سأرى بماذا يمكنني أن أستفيد منك! ولكن إذا ظننت أن في إمكانك أن تخرج وتقطف الأزهار دون التعرض للخطر، فأنت مخطيء. إني لا أعشق إلا أولئك الذين يجازفون بحياتهم لأجلي إذا لزم الأمر".

"حياتي رهن بإشارتك".

ببطء خلعت سلسلة ذهبية رقيقة من جيدها.

"ماذا يسمونك؟".

"غولدموند".

"غولدموند - عظيم، يجب أن أختبر طيب مذاق شفتيك. والآن أنصت جيداً. سوف تحضر هذه السلسلة عند الغسق إلى القصر وستقول إنك عثرت عليها. ويجب أن لا تسلمها لأي كان، يجب أن أستلمها منك شخصياً. يجب أن تأتي إليّ كما أنت، حتى وإن اعتبروك مجرد متسول. وإذا اقترب منك أي من غوغاء القصر، وأخذوا يبدون احتقارهم لك فاحتملهم. واعلم أن اثنين فقط من رعيتي جديران بحسن ثقتي، مرافقي الشخصي، ماكس، وبرثا، وصيفتي. ويجب أن تبحث عن أي من هذين الإثنين، وتجعله يقودك إليّ. ونخذ حذرك من كل من عداهما، حتى من الكونت نفسه، إنهم جميعاً أعداء. لقد حذرتك، وقد تدفع حياتك ثمناً".

مدت له يدها ليقبلها، فتناولها مبتسماً، وداعبها على وجنته، ثم قبلها برقة. بعد ذلك خبأ السلسلة وغادرها، منحدرًا أسفل التل متجهاً إلى المدينة، وكانت تمتد تحته المدينة والنهر. وكانت كروم العنب قد تجردت من أوراقها، وكانت الأوراق الذهبية اللون تسقط مرفرفة واحدة بعد أخرى عن الأشجار. وابتسم مرة أخرى، وحيا برأسه هذه الشوارع، الممتدة باستكانة وود. وحتى قبل أيام قليلة مضت كان الألم يعترضه، وقلبه مكلوماً بحيث أنه حتى الألم والأسى يتغاضيان عنها، دون أن يتركا أي أثر. لقد زالا الآن تماماً، سقطا وهما يرفرفان مثل سقوط أوراق الشجر الذهبية اللون عن الأغصان، لكنه قال في نفسه، لكن لم يحدث قط أن قدم الحب وعوداً تفوق ما وجدته في عيني هذه المرأة، التي ذكره جمال قامتها المشوقة وغناها النفيس بالحياة بصورة أمه، كما رآها قبل زمن بعيد وهو طفل في ماريا برون، عندما أدرك للمرة الأولى أنه يحملها في قلبه. وحتى قبل يومين فقط ما كان ليصدق أن العالم يمكن أن يبدو من جديد شاباً وبمور بالحيوية، أو أن يرتفع نسغ الحياة بهذا القدر الجبار، مع كل ما يتصف به شبابه من استمتاع متلهف، مضرماً ناراً

جديدة في كل شريان. ما أروع أن يعرف أنه ما زال حياً، أن يعرف أن الموت مر بجواره وتجاوزه، في كل ما مر به من رعب خلال تلك الأشهر.

في تلك الليلة تسلل إلى القصر. كان فناؤه المتزامي يعج بالاضطراب والهباج، وقد جُرِّدت الجياد الصغيرة من أجلالها، والمراسلون يهرعون جيئةً وذهاباً، بينما موكب صغير من الرهبان وأصحاب المقامات الرفيعة المخيفين يتبعون الخدم خلال الأبواب، وصعوداً إلى الدرج. حاول غولدموند أن يدخل خلفهم، لكنه وجد أن ثمة بواباً يسد الطريق في وجهه.

أخرج سلسلته قائلاً إنه مكلف بأن يسلمها فقط لليدي آغنس، أو لوصيفتها. فأرسلوا معه سائساً ليسير معه مسافة أبعد، وقد تركه في أحد الممرات الطويلة. ثم جاءت امرأة جميلة، رشيقة، همست له، وهي تتجاوزه على عجل "أنت غولدموند؟"، ثم أومأت له كي يتبعها عن بعد. وسرعان ما اختفت داخل باب جانبي، وعادت بعد فترة وجيزة، ونادت عليه. وجد نفسه في غرفة صغيرة، يفوح منها عبق الفرو وروائح العطور الزكية، وتمشى في المكان بين الأثاث والعباءات، وكانت قبعات نسائية على صف على حوامل خشبية، بالإضافة إلى العديد من أزواج الأحذية من حوض مفتوح. هنا وقف ينتظر على مدى نصف ساعة، وهو يشم روائح الأثاث المعطرة المعلقة من حوله، يمسد على فروها، ويتسمم بفضول إلى كل الحلى الرخيصة الجميلة المدلاة.

أخيراً فتح الباب الداخلي وإذا بها تدخل، ليس الوصيفة بل آغنس، برداء أزرق سماوي، مع فرو أبيض يعانق جيدها. واقتربت ببطء من غولدموند المنتظر، خطوة فخطوة، وعيناها بزرقتيها العميقة تقيمانه بجديّة.

قالت بصوت خفيض: "كان يجب أن تنتظر، لكني أعتقد أننا آمنان أخيراً. الكونت مجتمع مع هيئة ممثلة للمطارنة، وعليه أن يتداول معهم، وأمامهم إنجاز الكثير من العمل معاً، ورجال الدين يطيلون جلساتهم. وهذه الساعة هي ملكي وملكك. أهلاً بك يا غولدموند".

وقفت إلى جواره، وشفتها النهمتان تقتربان منه، ودون أي كلمة أخرى تبادلنا الترحيب بقبلة. وراحت أصابعه تداعب بنعومة مؤخرة عنقها. وقادته خارج غرفة الملابس إلى غرفة نومها، وكانت مترفة، مضاة بالعديد من الشموع. وقد مد الطعام على إحدى الموائد. فجلسا، وراحت تدهن كعك القمح بالزبد لأجله، مع اللحم، ونبيد ذهبي في كأس عال، بلون أزرق باهتاً. وأكلا وشربا من الكأس اللازوردي نفسه، وأيديهما تتداعبان، على سبيل الاختبار.

سأله: "ما الذي دفعك إلى الطيران إلى عشي، يا عصفوري الجميل؟ هل أنت جندي عابث، أم أنت متشرد فقير يهيم على وجهه في الطرقات؟".

أجابها بهدوء: "أنا كل ما تريد، أنا رهن إشارتك. أنا عابث إذا شئت، وأنت قيثارتي العذبة، بحيث أنني عندما أداعب جيدك بأصابعي، وأعزف عليك، نسمع أصواتاً ملائكية. وما أحلى غناءها! تعالي يا قلبي - إنني لم آت إلى هنا لأكل كعكك القمحي وأشرب نبيدك. أنا جئت فقط للحب".

برفق حلّ الفرو الأبيض عن جسدها. وعلى الرغم من أن حولهما ربما كان الكهنة ورجال الدين يعقدون جلساتهم، والخدم يتسلون رائحين غادين في الممرات، والقمر اللال يلقى ضيائه بعيداً بين أغصان الأشجار في الفناء، فإن هذين الإثنين كانا غائبين عن الوعي، بكل هذا. فبالنسبة لها كانت أشجار الجنة في أزهى أزهارها، وقد تضاماً وتشابكاً،

وتأها في ليها المصوّع، وشهدا أسرار أزهارها البيضاء الوامضة، وهما يقطفان ثمارها، النهمين إلى التهامها، بأيّد رفيقة، ممتنة باضطراد. ولم يسبق لعبث أن نقر على مثل هذه القيثارة، أو عرفت قيثارة مثل تلك الأصابع في قوتها وبراعتها.

همست، وهي في ذروة النشوة: "غولدموند، أوه، أي ساحر أنت. أود لو أحمل طفلاً منك، يا سمكتي الذهبية العذبة. والأفضل من هذا أن أموت تحت وطأة قبلاّتك".

راح يهتمهم لها من أعماق حنجرتة بأغنية فرح، عندما رأى الصلابة تذوب داخل عينيها الزرقاوين، وشعر كيف يُضعف الحب جسمها كله. كانت عيناها تجرعان برعشة خفيفة، تشبه لذعة الموت، حبه وتتشربانه إلى أعماقهما، وتغشّتا، كما يحدث للمعان المرتجف على الحراشف البراقة لسماك المحتضر، بغشاوة ذهبية، كالومض السحري في أعماق المياه. لقد بدا وكأن الفرع الإنساني كله قد تجمع في تلك الساعة من الزمن.

ثم ودون مقدمات، وكانت لا تزال مستلقية ترتعش وعيناها مغمضتين، تسلل من السرير وانزلق داخل ملابسه. ومال عليها وتنهّد، ثم همس لها :

"يجب أن أتركك، يا درّتي. يجب أن لا يأتي صاحبك الكونت ويقتلني. ولم أموت، قبل أن أوفر السعادة من جديد لنا نحن الإثنين مرة أخرى - بل مئة مرة أخرى".

ظلت مستلقية صامتة وهو يستعد للرحيل، ثم جذب الغطاء عليها وغطاها، وقبل عينيها.

تنهدت وقالت: "غولدموند، آه، أيجب أن تغادر؟ تعال غداً. إذا كان هناك خطر فسأرسل من يحذرك. تعال قريباً. تعال قريباً".

جذبت حبل الجرس، فاقتربت وصيفتها من باب غرفة الملابس

لتقوده، وعملت بسرعة على وصوله خارج القصر. كان يود لو يمنحها قطعة ذهبية، وشعر برهة نخجل من عوزه.

في وقت متأخر من تلك الليلة وقف في سوق السمك يرفع بصره إلى نوافذ مسكنه. سوف يكون الجميع نائمين، وشعر أن عليه أن يفترش الساحة. ولكن، وبالفراحة، وجد باب المنزل مفتوحاً فتسلل منه، ثم أغلقه خلفه بهادوء. وكانت الطريق المؤدية إلى غرفته ترم من المطبخ. وكان مضاءاً، ووجد ماري جالسة ومصباحها الصغير موضوع على الطاولة. وكانت قد أغفت قليلاً وهي في انتظاره. وحالما دخل أجفنت وأفاقت.

قال: "أوه، ماري - أما زلت مستيقظة؟"

قالت له: "نعم، وإلا لوجدت المنزل موصداً في وجهك".

"أنا آسف لأنك انتظرتني يا ماري. لقد أصبح الوقت متأخراً جداً. لا تغضبي مني".

"إنني لا أغضب منك أبداً يا غولدموند. كل ما في الأمر أنني حزينة قليلاً".

"أبعد الله عنك الحزن. ولم الحزن؟"

"آه، يا غولدموند، كم أفتنى لو أكون قوية وجميلة. عندئذ ما كنت احتجت أبداً إلى الخروج ليلاً، لتضاجع نساء أخريات في منازل غريبة. كنت ستبقى معي، وربما كنت ستبدي لي بعض اللطف أحياناً".

كان صوتها الرقيق خالياً من أي أمل أو مرارة. كان فيه فقط حزن. وقف مرتبكاً. لقد ضايقته، ولم يعثر على كلمات يجيبها بها. وبيد رقيقة راح يمسد على شعرها، وظلت صامتة، ترتعش ارتعاشة خفيفة تشبه لمسته. وبكت قليلاً، ثم جفنت عينيها وقالت بغياء:

"إذهب إلى سريرك الآن يا غولدموند. إن ما أقوله ليس غير حماقة. لقد نعست كثيراً. تصبح على خير".

الفصل السادس عشر

أمضى غولدموند نهراً من السعادة بين الهضاب ولو كان يملك حصاناً لامتطاه في ذاك اليوم، ولانطلق إلى الدير، إلى لوحة العذراء الحزينة، للمعلم نيقولاس. كان تواقاً إلى مشاهدتها، يجب أن يعود إليها لاحقاً. وحتى وإن قدر لهذه السعادة أن تنقضي سريعاً، حتى وإن اتضح في نهاية المطاف أن حبها خبيث - فإنها اليوم تجري في دمه، ولا يمكنه أن يفوت لحظة واحدة يقضيها معها. هذا الصباح لم يكن لديه رغبة في التحدث إلى أي إنسان، وإنما أراد أن يقضي هذا النهار الخريفي الدافئ مع الأشجار والسحب. وقد أخبر ماري أنه يريد أن يمضي يوماً في الغابة، وإنه قد لا يعود حتى وقت متأخر من الليل. وطلب منها أن تعطيه رغيف خبز كبير ليأخذه معه. وأن لا تبقى مستيقظة هذه المرة بانتظار عودته. لم تفه بكلمة واحدة، واكتفت بعملء جيوبه بالخبز وبالفلاح، ونفضت الغبار عن ستارته الرثة، العتيقة، والتي كانت قد رقعته في اليوم الأول لعودته إليهم، وتركته يذهب.

قطع النهر وارتقى كروم عنب خالية، بالصعود على درجها الترابي المنحدر، ومنها إلى التلال، وفوق في الغابة، أطلق لنفسه العنان، ولم

يتوقف حتى وصل عالياً إلى الذروة. وسطعت الشمس متغلغلة بين أغصان الأشجار، والشحارير انطلقت لدى مروره، وسط أجماستها، وتحقق منها مذعورة، من خلال عيون سوداء مدورة، بينما أسفل بعيداً، تدفق النهر بانعطافة زرقاء، طويلة، واستلقت المدينة، كدمية صغيرة، مركبة من أجزاء. هنا لا يصله منها أي صوت، ما عدا قرع النواقيس، تدعو المصلين إلى الصلاة.

هنا فوق الذروة تكومت ركامات نُحِت عليها طبقة من العشب، متخلقة من أيام الوثنية القديمة، السحيقة، لعلها حصون، أو أجداث. تمد على أحدها تحت أشعة الشمس، حيث كان بإمكانه أن يستلقي على العشب الخريفي الجاف الذي يحدث حفيفاً ويمد بصره عبر كامل الوادي المتزامي، والتلال والجبال الشاخنة المطلة على النهر، سلسلة تعلو سلسلة، إلى أن حوَّمت الذرى والسماء في مزيج غامض أضرب. لقد قطعت قدماه سيراً كل البلاد الواسعة الممتدة إلى الأسفل منه، بل وأبعد منها: كل ذلك أضحى الآن ذكرى نائية، وذات يوم كانت قرية، وحاضرة. كم من مئة مرة هجع في تلك الغابات البعيدة، وأكل الثوت البري فيها، وجاع فيها، وكاد يتجمد من البرد، وكدح فوق حواف تلك الهضاب، أفرحاً كان أو مرحاً، تعباً أو نشطاً. في مكان ما بين تلك الفيافي البعيدة تستلقي جثة "لنه" المسكينة المتفسخة، وفي مكان ما هناك لا بد أن رفيقه روبرت لا زال يتجول، هذا إذا لم يكن الوباء قد أوقف حركة قدميه: وهناك، بعيداً عن الأنظار يستلقي فيكتور ميتاً. وفي مكان ما، ينهض، مسحوراً ونائياً اللير الذي قضى فيه فترة الصبا، وفي مكان آخر، تقوم قلعة الفارس الذي ضاجع ابنتيه الصبيتين: هناك، تركض ربيكا المسكينة هاربة، ممزقة الثياب ومطاردة، أو لعلها ميتة. هذه الأماكن الكثيرة، التي تفصل بينها مسافات متباعدة، هذه المستنقعات والحصون، والقرى والمدن، البلدان المسورة والأديرة - كل أولئك الناس الذين ماتوا أو مازالوا أحياء - هم

حاضرون دائماً داخله، وجمعهم ملتئم. إنهم يسكنون معاً في ذاكرته وفي حبه، واشتياقه، وندمه. فإذا مات غدا فسوف يتفرقون، سيضيعون من جديد، وسوف تتلاشى الصور من الكتاب، صور النساء، والحب، وليالي الشتاء، وصباحات الصيف. آه، لقد حان الوقت لإنجاز عمل ما، لأن يحفر بعض الأشكال يخلفها من بعده، عمل فيه من الحياة أكثر مما فيه هو. لم تنتج عن كل تلك الجولات، وعن تلك السنوات منذ أن هرب إلى العالم إلا القليل من الثمار. إنه لم يدخر إلا القليل النادر من الوقت، بضعة أشكال، حفرت وتركت في ورشة عمل، أفضلها جميعاً هي لأثيره يوحنا - والآن كتاب الصور الوهمي هذا الموجود في رأسه، عالم صور ذكرياته الجميل والمفعم بالألم. هل سينجح قط في إنقاذ بعضها، في إخراجها، ليرأها الجميع؟ أم ستظل حياته تسير على هذا المنوال حتى النهاية، دائماً مع مدن جديدة، بلد جديد، نساء جديدات، تجربة جديدة، صور أخرى، مكدسة واحدة فوق أخرى، لن يحصل منها أخيراً على أي شيء، غير الجمال المؤلم القلق الكامن في قلبه؟ إن الحياة تخذع دون أي وازع. وهي كافية لجعل الرجال يضحكون أو يبكون. إن الإنسان ليعيش، مطلقاً العنان لأحاسيسه، راشفاً الرحيق من ثديي حواء، أمه - ومن ثم، ومع إنه قد يعربد ويستمتع بحياته، إلا أنه لا يوجد ما يحمي ضد سرعة زوالها، وهكذا، وكفطر الغاريتون السام، تراه يومض اليوم بأزهى الألوان وغداً يتعفن، ويغدو هباءاً.

أو قد يتمكن من إقامة دفاعاته ضد الحياة، ويقفل على نفسه داخل ورشة عمل، وينكب على إقامة نصب يبز الزمن. عندئذ يجب إنكار الحياة نفسها، فالإنسان ليس غير أداة في يدها: وعلى الرغم من أنه يمكن أن يخدم الأبدية فإنه يذوي، ويفقد حريته، وغناه، وفرح أيامه. هكذا كان قدر المعلم نيقولا.

مع ذلك فأيماننا لا تكتسب معنى إلا إذا تم إنجاز هذين العنصرين

الخيرين، والحياة ذاتها لم يشقها التقسيم العقيم للبدايل. فهل يمكن أن نعمل دون أن ندفع حياتنا ثمناً للعمل: وهل يمكن أن نعيش دون أن نتخلى عن العمل الخلاق. أم يمكن هذا؟.

ربما يستطيع البعض أن يحقق ذلك. ربما هناك أزواج وآباء عائلات شرفاء في العالم، لم تتبدل أحاسيسهم بإخلاصهم. ولعل هناك مواطنين كادحين لم تدجن قلوبهم وتصبح عقيمة، من افتقارها إلى الخطر وما يوفره من حرية. ربما. إنه لم يقابل أيًا منهم.

يبدو أن الوجود كله أقيم على أساس الأضداد، وعلى التقسيم. رجل أو امرأة، متشرد أو مواطن، عاشق أو مفكر — ولا يتم التنفس إلا بالشهيق والزفير، ولا أحد يمكن أن يكون زوجاً وزوجة، معتقاً وأيضاً ملتزماً بنظام، واعياً لإلحاح الحياة ولمتعة الفكر. ثمة دائماً طرف يدفع عن طرف آخر. وإن كان كل منهما عزيز وأساسي على قدم المساواة. ربما كان ذلك أسهل على النساء، لقد خلقتهم الطبيعة هكذا لكي يعطي شغفهن، بالنسبة إليهن ثماره، ولكي يولد طفل من سعادتهن. والرجال لا يتمتعون بمثل هذه الخضوبة البسيطة، ولكن بدل ذلك، لديهم توق دائم، لا يشبع. فهل كان الرب الذي صمم كل هذا خبيثاً وشريراً — هل كان يسخر من الألم الموجود في خليقته؟ كلا، لا يمكن أن يكون إلهاً شريراً من أبدع إناث الأيائل وذكورها، في الغابة، والأسماك والطيور، والأشجار والأزهار، والربيع والخريف. ومع ذلك فهذا الشق كان يمر على طول عمله، سواء أكان أقل كملاً من بغيته، أو أنه، الرب، وضع هدفاً خفياً في هذا النقص، هذا الجوع الذي لا يشبع أبداً الموجود في كل أشباهه. لعلها بذرة، بأذرها العدو، الخطيئة الأصلية. ولكن أليس كل جمال ورع نشأ في هذه الخطيئة، ذاتها الموجودة في كل الكائنات البشرية، وكل ما شكله بيديه، ومن ثم أعاده إلى الرب؟.

أدار عينيه نحو المدينة، وقد أحزنه هذه الأفكار، وراخ يبحث عن

السوق العامة، سوق السمك، والجسور، والكنائس، ومجلس المدينة. ثم رأى قصر الأسقف المهيب، حيث يعقد الكونت هاينريش الآن اجتماعه بين تلك الأبراج، تحت تلك الأسقف المنحدرة الطويلة، تقيم أغنس، الأجل من أية ملكة، التي كانت تبدو فخورة بنفسها، فلبلها الحب وأذلها. وتذكر ليلتهما الأخيرة بفرح ممتن. ولكي يشعر بروعة تلك الليلة الفريدة فإن كل علامة حب ماضية كانت ضرورية، وكل معرفته بالنساء كانت مسخرة لهذه المرأة الوحيدة، وكل ما تعلمه في الفقر وأثناء التجوال، وكل ليلة اضطر خلالها أن يخوض في الثلوج، وقربته مع الحيوانات والأزهار، والأشجار، والمياه، والفراشات، والأسماك. لقد احتاج إلى كل شبق الأحاسيس المذكى الذي زاده حدة الخطر والحب، إلى كل رغبات المتجول المتوحد الملحة، إلى صورة العالم، التي حفرتها السنون داخله، ليوفر متعة بالغة إلى هذه المرأة. فطالما بقيت أيامه حديقة ما زال بإمكان أزهار مثل أغنس أن تزدهر فيها، فلا مبرر لديه للشكوى.

ظل يتجول طوال النهار فوق الذرى الخريفية، يتمشى، يستريح، يأكل الخبز، يفكر في أغنس وفي الليل. ومع غياب الشمس عاد إلى المدينة، وتوقف أمام القلعة. كان الجو قد أضحى مصقعا، وراحت المنازل تحدد بعيون حمراء ثابتة من خلال الظلام. واقتربت ثلة من الصبية الصغار يغنون وهم يتجاوزونه، حاملين لفتا، قطع حتى أصبح كالوجوه، على عصي، وكانوا يلوحون بها عالياً، وقد غرزت في الرؤوس مشاعل ملتهبة. وهذا الموكب الصغير من المتكرين جلب معه الشتاء، وتركه غولدموند يمر من أمامه مع ابتسامة. وظل يتسكع خارج القصر بعض الوقت. لقد كان وفد المطارنة ما يزال مجتمعاً مع الكونت، وكان يرى هنا وهناك، في إحدى النوافذ العالية، رجل دين مخيف الشكل، واقفاً، يطل إلى الخارج. وأخيراً نجح غولدموند في التسلل إلى الداخل. وفي

الداخل وجد الرصيفة، برثا. ومرة أخرى خبأته في غرفة ملابسها، إلى أن جاءت آغنس، وقادته بهدوء إلى غرفة نومها. ورحب به جملها بنعومة، غير أنها كانت حزينة، ورأسها مملوء بالهموم، وبذل مجهوداً كبيراً لبث السرور في قلبها قليلاً. وشيئاً فشيئاً، وتحت وابل قبالته وكلمات الغزل، بدأت تنتعش، وتتنصرف بارتياح.

قالت له بامتنان: "إنك تستطيع أن تكون لطيفاً، وفي صوتك نغمات واثقة، عسيقة، يا عصفوري، عندما تهأر وتسقسق، عميقاً في حنجرتك. أحبك يا غولد-موند. آه، ليتنا نكون بعيدين عن هنا! أكره هذا المكان. وإن كان، على أية حال، كل شيء سينتهي قريباً. لقد استدعى الإمبراطور الكونت، وسوف يعود الأسقف الأحق إلى هنا. أما اليوم فكان الكونت مكفهرًا، لأن الكهنة قد أغضبوه. آه، يا غولد-موند، إياك أن تدعه يراك! فلن يدعك تعيش ساعة أخرى. إن أخشى ما أخشاه ما قد يحدث".

تذكر صوتاً كاد ينساه - لقد سمع هذه الأغنية من قبل دون شك! كانت ليديا قد أسمعته شيئاً من هذا القبيل، يتسم بذاك الحزن المؤثر، المخيف، الرقيق نفسه. هكذا جاءت تتسلل إلى جواره على السرير، وهي منيعة بالحب ولكنها مضطربة، بمخاوفها. وسرته هذه الأغنية الرقيقة، القلقة. ما قيمة أي حب بدون سرية؟ وهل هناك أي حب بدون أخطار تخف بهذا الحب؟ وجذبها برفق إلى قربه، وهو يلاطفها، ويمسك بيديها، ويغمغم بعبارات صغيرة مغرية في أذنيها، ويقبل حاجبيها. وكان يؤثر به ويملاؤه بالنشوة عندما يلاحظ مبلغ اضطرابها وقلقها. كانت تتقبل مدامعاته وتقابلها بأخرى، بامتنان، وتقريباً بمذلة، وتدفن نفسها فيه، ملؤها الحب، على الرغم من أنها لم تكن تجد إلى المرح أو السكينة سبيلاً. وفجأة أجفلت بعنف: ففي مكان ما، غير بعيد، صفق باب، وسمعت وقع خطوات متجهة صوب غرفة النوم.

همست بيأس: "آه يا ربي، لقد جاء الكونت! أسرع - يمكنك أن تتسلل هارباً من خلال غرفة الملابس. لا تفضحني".

سرعان ما أقحمته بين أثوابها، ووقف وحيداً، يتحسس طريقه وسط الظلام. ومن غرفة أبعد قليلاً، تنهى إليه صوت الكونت العالي، يتحدث إلى أغنس. وراح يتلمس طريقه من ثوب إلى ثوب، بحذر شديد، ويضع قدماً أمام قدم. ثم وصل إلى باب الممر، وحاول برفق أن يفتحه. عندئذ فقط، وعندما اكتشف أنه مرتج من الجانب الآخر، أجفل بدوره، وتوقف قلبه عن الخفقان، ومن ثم أخذ فجأة يخفق خفقاً عنيفاً مؤلماً. لعل هذا الباب قد أرتج بفعل مصادفة مشؤومة بعد دخوله، ولم يتوصل إلى فكرة نهائية. لقد علق في فخ، وضاع. لا بد أن أحدهم كان يراقبه وهو يتسلل إلى هنا. سوف يدفع حياته ثمناً لذلك. وتذكر كلماتها الأخيرة له، "لا تفضحني". كلا - لن يفعل... وأطبق على أسنانه وانتظر. كان قلبه ما يزال يضرب بقوة، لكن تصميماً جديداً قوى عزيمته.

لم يستمر ذلك إلا بضعة لحظات. ومن ثم إذا بالباب القريب يفتح بحركة سريعة، ومن غرفة نوم أغنس خرج الكونت، حاملاً مشعلاً وسيفاً مسلولاً. وفي اللحظة الأخيرة انتزع غولدموند بعض الأردية والأثواب عن المشاجب، وكومها معاً على عجل على ذراعه. فليقبضوا عليه بتهمة السرقة، لعلها تكون وسيلة للهرب.

على النور لمح الكونت. فاقترب منه ببطء.

"من تكون حضرتك. ماذا تفعل؟ أجبني، وإلا طعنتك".

تلثم غولدموند وهو يقول: "أغفر لي، أنا رجل فقير، يا سيدي، وأنت فاحش الثراء، سوف أعيدها كلها. أنظر".

ثم وضع الأثواب على الأرض.

"إذن - فأنت لص. أليس كذلك؟ أنت أحق إذ تجازف بحياتك من

أجل بضعة أثواب قديمة. أنت مواطن من هنا؟".

"كلا، يا سيدي - أنا بلا مأوى ... رجل فقير ... هل سترحمي؟".

"صمتاً. ثمة أمر آخر يجب أن تخبرني به. أكنت من الوقاحة بحيث تتكلم مع السيدة الكريمة؟ ولكن بما أنك سوف تشق في كل الأحوال، فلا داعي للمضي في كل هذا. سِرْقَتُكَ تكفي".

أخذ يدق على الباب المرتج في وجه المرور.

"أنتم هناك - افتحوا الباب".

فتح الباب من الخارج، فإذا بثلاثة من الأفظاظ بخناجر مسلولة واقفين في حالة تأهب.

عوى الكونت، بصوت أجش غضباً وازدراءً: "قيدوه أولاً. إن هذا الرغد تسلل إلى هنا بقصد السرقة. احبسوه، وغداً عند الفجر علقوا هذا اللئيم من حبل المشنقة".

قيد غولدموند من رسغيه، دون أن يبدي أية مقاومة. ثم اقتيد على طول الممر، وهبطوا به درجاً، عبر الفناء الداخلي، يتقدمهم صبي يحمل مشعلاً. وتوقفوا عند باب قبو مقنطر، مدحج بكثافة بالمسامير، وبدأوا يثرثرون إن هذا الباب لا مفتاح له. فتناول أحدهم المشعل وهرع الصبي عائداً ليحضر المفتاح. وظلوا واقفين هكذا، ينتظرون خارج سجنه، الرجال المسلحون الثلاثة وسجينهم.

أخذ حامل المشعل يتفحص غولدموند بفضول، مقرباً الضوء من وجهه. في تلك اللحظة اقترب كاهنان عبر الفناء، وكان هناك العديد منهم ضيوفاً على القلعة. وكانا قد قدما من الكنيسة الصغيرة، وتوقفا أمام المجموعة وقد جذبهما الضوء، وهذا المشهد الليلي: الأفظاظ المسلحون الثلاثة، مع سجينهم المقيد، الواقف هناك بانتظار إحضار المفتاح.

لم يول غولدموند انتباهه للراهبين، أو يعطي أي جواب لسجانيه، لم يكن يرى غير اللهب في مهب الريح، قريباً من عينيه، يعمي بصره. ومن خلف هذا الضوء المتماوج وصلته لَمَحٌ في ظلمة حالكه، تتلاشى في شيء ضخم ورهيب - شبح خفيف، لا شكل له، إنه الفجوة التي سيقع فيها، الهاوية، النهاية. أصبح أصم وأعمى لكل شيء ما عداه، وكان أحد الكهان قد بدأ يستجوب أحد الأفظاظ، وعندما علم أن هذا الرجل لص ويجب أن يشنق عند الفجر، سأل إن كان الرجل قد وجد من يعترف له. أجابوه، كلا، فقد قُبِضَ عليه للتسو متلبساً. قال الأب: "إذن سأتي غداً باكراً، قبل القداس الأول، ومع الأسرار المقدسة الأخيرة لأتقبل اعترافه. وأنتم المسؤولون عن إرجاء تنفيذ الحكم حتى أقبله وأفعل ذلك. سوف أكلّم سيدي الكونت بهذا الشأن هذه الليلة. قد يكون هذا الرجل لصاً، ولكن من حقه كأي مسيحي آخر أن يعترف، ويجد سكينته مع الله".

لم يجرؤ السجانون على معارضته. كانوا يعلمون أن هذا الكاهن هو أحد أفراد هيئة السفراء، وقد شاهدوه يتناول الطعام مع الكونت على المائدة العالية. ثم، لم لا يحصل هذا الوغد المسكين على كاهنه وغفرانه؟

واصل الآباء طريقتهم، ولم يول غولدموند اهتمامه بأي كلمة قيلت. وأخيراً عاد الخادم، وفتح الباب. وقادوا السجين إلى الغرفة المقنطرة السفلية، وراح يتعثر في سيره وهم يدفعونه أنشاء هبوطه الدرج. وكان هناك طاولة مستديرة وضعت حولها بضعة مقاعد بلا ظهر وثلاثية الأرجل، بما أنها كانت سرداباً لتخزين الخمر. وأشاروا إلى أحد المقاعد وطلبوا منه أن يجلس. قال أحدهم: "سيأتيك كاهن في الصباح ليتلقى اعترافك". ثم غادروا، وأرتجوا الباب بعناية.

توسل غولدموند قائلاً: "اتركوا لنا ضوءاً، يا أخ".

"كلا، أيها الأخ الصغير، قد تؤذي نفسك به. ستكون بخير. كن حكيماً، واعتد. وكم تظن أن الشمعة ستدوم؟ سوف تنطفئ بعد ساعة من الوقت. أسعدت مساءً".

بعد ذلك جلس وحده في الظلام، وأراح رأسه على الطاولة. كان الجلوس هكذا عسيراً، مؤلماً، والقيد المكبل لرسغيه يلفح ويحرق. غير أنه لم يعرف هذا، إلا لاحقاً. في أول الأمر جلس ووضع جبينه على الطاولة وكأنما على وضم قاطع الرؤوس، يجاهد ليجعل من جسمه وحواسه مدركة لكل ما كان عندئذ مفروضاً على تفكيره. يجب أن يحني إرادته، ويرضخ للقدر - ويعترف بأن موته قد بات وشيكاً.

ظل جالساً هكذا فترة طويلة، يمحّضه ألم يبعث على اليأس، ويكافح بكل ما أوتي من قوة لاستيعاب هذا الرعب، وفهمه، يتنفسه، يدعه يملأه من رأسه إلى أخمصه. الليل يكتنفه من كل جانب، ونهاية هذا الليل سوف تجلب معها مزيداً من الظلام. يجب أن يجاهد كي يحفظ أنه في الغد لن يكون له وجود. سوف يشنق، يغدو شيئاً، بجثماً للطيور، تنقره حتى تشبع منه، وسوف يكون ماله كمال المعلم نيقولاس، و"لنه"، المستقلية وسط رمادها، وكل أولئك المئات العديدة الذي كثيراً ما حلق إليهم في منازل خاوية، ضربها الوباء، أو مكومين، واحداً فوق آخر، على عربات الموت. كان صعباً عليه أن يجبر نفسه على التعمق في هذا الشعور، أن يجعله جزءاً من كيانه. بل لقد كان من المستحيل التفكير في ذلك. وثمة أشياء كثيرة لم ينجح في تحرير قلبه منها، ولم يعتق منها. إن ساعات الليل هذه قد منحت له لهذا الغرض.

أولاً سوف يرحل إلى الأبد عن آغنس. سوف لن يرى قامتها الممشوقة الجميلة ثانية، ولا شعرها الأصفر بلون الشمس المشرقة، ولا عينيها الزرقاوين الباردتين، ولن يراقب الكبرياء المرتعشة وهي تحمد فيها وتنطفئ، أو يتعرف على البريق الباهت الجميل لجسدها المعطر. كان

يأمل أن يستزيد من تقبيلها. آه، حتى هذا اليوم عندما كان فوق التلال، تحت شمس الخريف المشرقة الدافئة، كم فكر فيها، كم اشتاق إليها واحتاج إليها. والتلال، والشمس، والسماء الزرقاء ذات السحب البيضاء - هي أيضاً سوف يرحل عنها. لا أشجار ولا غابات، لا تجوال، ولا نهار أو ليل، ولا فصول بعد الآن. لعل ماري ستظل تقوم الليل بانتظاره، مسكينة ماري، بعرجها وعينيها الرقيقتين، تنعس وتستيقظ في المطبخ، ولا يظهر لغولدموند أثر.

آه، وتلك الأوراق بكل ما عليها من رسومات، وآماله بالأشكال التي يود نحتها. ذهبت! ذهبت! وأمله الآخر في رؤية نرسييس، القديس يوحنا الحبيب - يجب أن ينساه.

ثم يجب أن يرحل عن يديه، وعينييه، وعطشه وجوعه، والشرب، والحب وعزف القيثارة، والنوم واليقظة: عن كل شيء. غداً سوف ينساب عصفور يشق الهواء برشاقة، ولن تكون لغولدموند عينان ليراه بهما، وتقف فتاة في النافذة تغني، ولن تكون له أذنان ليسمع أغنيتهما بهما: وسوف يتدفق النهر ويتدفق، وسيصبح السمك المبهم، الأخرس معه، وتهب ريح، وتجرد الأشجار من الأوراق الصفراء وترميها على الأرض، وسيطلع قمر، وتتألأل نجوم، وسيخرج شبان ليرقصوا في احتفالات عيد الميلاد، وتبيض تابشير الثلوج التلال البعيدة - وكل هذه الأشياء ستبقى إلى الأبد، ستظل كل شجرة تنشر ظلها، وسيظل هناك رجال فرحون أو مرحون، بعيون تشع بالحياة، وكلهم بدونه، لن ينال هو من كل هذا أي شيء! سيكونون قد انتزعوا جسده بعيداً عنه.

شعر كأنه يتذوق الأنسام الصباحية الهابة على المستنقعات، والنبذ الجديد الحلو، وثمار الجوز القاسية، الحديثة النمو، بينما تسرب إلى قلبه الوجل، وكالذكرى، الإدراك المفاجيء لكل مباهج العالم، واحتجاج حواسه موكب يتلاشى من الوداعات يشبه جمال الأرض الهمجي.

واندفع إلى الخلف معتدلاً وأخذ يجهش بالبكاء، وأحس بالدموع تسفع وجنتيه وتجري عليهما، وأرسل العنان لهذه الموجة من البكاء المتأسي حتى غمرته، وهو يئن وقد ربض، واستسلم لكرب لا ينتهي. لففي عليك أيتها الوديان وأنت أيتها التلال المكسوة بالغابات، وأنت أيتها الغدران المتسارعة حول جار الماء، وأنتن يا حسناوات الليل، على الجسور التي يضيئها القمر، ويا عالم الأحياء المتألىء، الجميل. كيف سأرحل عنك؟.

استلقى غولدموند وأخذ ييكي، انحنى أطول ما استطاع على الطاولة، وهتف طفل يرفض أن يُواسى، من فرط حزنه، بتنهيده نابعة من أعمق حاجة "أماه! أماه!".

أجابت على ندائه بهذا الاسم السحري صورة، تحمل شكلها، منبعثة من سر قلبه. وهي ليست صورة الأم التي كان قد تاق إلى حفرها على الخشب، حواء أفكاره وأحلامه كحرفي، بل هي الأم ذاتها التي تذكرها بشكل أوضح وأكثر حياة من رؤيته الفعلية لها منذ أن حلم بها وهو في ماريابرون. إليها اشتكى، وأجهش بالبكاء وهذه الفكرة التي لا تطاق تردُّه، مستسلماً لحمايتها، ووضع الشمس المشرقة والغابات، وعينيه ويديه، وحياته، تحت رعايتها من جديد.

استغرق في النوم، وهو ييكي. وضمه الارهاق كأنما بذراعيه، هدهده، وأنقذه من حزنه، ونام نوما عميقاً لساعة أو ساعتين من الزمن.

ثم استيقظ من ألم حاد يمضُّه. كان رسغاه ما يزالان يحرقانه كما النار. بينما سرى على ظهره وبين كتفيه ألم مسرَّح سريع. اعتدل في جلسته متيبساً، وأدرك الحقيقة المحيطة به. كان غارقاً وسط ظلمة شاملة، ولم يعرف كم دام نومه، ولا عدد ساعات الحياة التي ربما تبقت له. قد يأتون في أي لحظة الآن! وتذكر الكاهن الذي وعدوه بإحضاره.

هذا لا يعني أن أسرارهِ المقدسة كانت تعني له الكثير، ولا استطاع

أن يعرف إن كان حتى أكمل غفران يمكن أن يدخل روحه إلى جنة ما. لم يكن يهمهم إن كانت هناك أي جنة، أو رب وأحكامه الإلهية، أو أي أبدية. منذ زمن طويل وكل هذا كان غامضاً بالنسبة إليه.

إنه لم يكن يأبه بأي جنة، لم يكن يريد إلا أن يعبر حياة أرضية غير مأمونة - إلا أن يتنفس، أن يكون متألّفاً مع نفسه. كان فقط يريد أن يعيش!

نهض واقفاً وقد مسه جنون من رعب مفاجيء، وراح يتلمس طريقه خلال الظلمة يبغي الجدار، واتكأ على الحجارة، وبدأ يفكر. لا شك في أن هناك أملاً. قد يأتيه هذا الكاهن بإرجاء لحكم الإعدام. ولعله كان واثقاً جداً من براءة السجين فقال كلمة لصالحه، وسوف تعمل على تأخير تنفيذ الحكم، وتسهل إفلاته. وانكب يقلب هذه الفكرة الوحيدة في رأسه، ويعيد تقليبها مراراً وتكراراً. وحتى لو أنها لم تسفر عن أي شيء، فإن لعبته هذه لن تضيع، وسوف يظل متمسكاً بالأمل. لذا، عليه أولاً أن يكسب هذا الكاهن إلى جانبه، أن ييذل كل عصب لأسره، وتقريظه، وإقناعه. وكل ما عدا ذلك كان حلمًا واحتمالاً. إن الكاهن هو الورقة الجيدة الوحيدة المتبقية بين يديه، وإن كانت ما تزال هناك، مع ذلك، مصادفات وفرص. فقد يصاب الجلاد بالمغص، وقد تنكسر المشنقة، قد يقع حادث طارئ لم يتوقعه أحد يتيح له فرصة للإفلات. لن يدعهم أبداً يشنقونه! وكان قد جاهد عبثاً لقبول هذا المصير، أما الآن فسوف يستبعده حتى النهاية. سوف يوقع سجانه أرضاً، سوف يصرع الجلاد، ويكافح حتى آخر نقطة من دمه. آه، ليت فقط يستطيع أن يستدرج الكاهن إلى فك وثاقه!

كم سيكسب من وراء ذلك! وفي تلك الأثناء كان يجاهد، غير عابئ بأي ألم، كي يقطع الحبل بأسنانه.

بعد وقت طويل قاس، وبعد بذل جهوداً مسعورة، نجح في إرخائه

قليلاً. فنهض واقفاً وهو يلهث وسط الظلام، وذراعه متورمان ويداه تنبضان، وبعد أن استعاد أنفاسه راح يزحف أكثر فأكثر على طول الجدار، متمسكاً بالحجر الرطب، إنشأ بعد إنش، لكي يتأكد من أنه لا يحتوي على حواف نائثة. ثم تذكر الدرج الهابط الذي دفعوه نزولاً عليه، بحث عنه ووجدته، وجثم رابضاً تحتها، وحاول أن يقطع الأربطة على حافة إحدى الدرجات. كانت عملية صعبة، بما أن عظام رسغه كانت تحتك بالحجر. وسفع لحمه، وشعر بيديه تترطبان.

ظل يثابر، وعندما بدأ شعاع رفيع رمادي من الضوء يلمع من تحت عقب الباب، كانت الحبال قد اهتزأت وأضحت رقيقة حتى بات بإمكانه أن يقطعها. وفعل. وتحررت يدها.

بيد أنه بالكاد استطاع أن يحرك أي أصبع. بما أن ذراعيه كانتا خدرتين، ومتورمتين حتى الكتفين. وحاول أن يجبر الدم على العودة إلى الجريان فيهما.

الآن باتت لديه خطة بدت له جيدة. فإذا رفض الكاهن أن يساعده على الهرب، وتركوا الرجل وحده، حتى لجحد أن يعترف له، فسوف يضربه - سيفي أحد المقاعد في إتمام ذلك، لأن يديه كانتا ما تزالان أوهن من أن تخنقا - ويكسر جمجمته بالمقعد، ثم يجرده من رداءه ويلبسه ويهرب به. وبعد ذلك - يركض ويركض. وسوف تأويه مارى وتخبئه. الأمر يستحق المحاولة. ممكن التحقيق.

لم يكن غولدموند في أي وقت من حياته قد انتظر بزوغ الفجر. يمثل نفاذ الصبر ذاك، وتاق إليه، وترقبه، ومع ذلك خشيته. ترقب، بعين صياد، خيط النور الرمادي الرفيع من تحت عقب الباب وهو يزداد سطوعاً ببطء، ببطء شديد. ومن ثم عاد إلى الطاولة، وراح يتدرب على كيفية الجلوس، محدودب الظهر على المقعد، بطريقة يتعذر عليهم من

خلالها أن يروا على الفور أن رسغيه قد تحررا من جديد.
الآن بعد أن أصبح مالكاً لحرية يديه أصبح الموت بالنسبة إليه وهماً.
سوف يخرج حياً، حتى ولو اضطر إلى تهشيم العالم في سبيل ذلك.
وأخذ جسمه يرتعش اشتياقاً للتحرر. من يدري - قد تأتي المساعدة من
الخارج. إن آغنس كانت مجرد امرأة، وليست قوية جداً. قد ينتابها
الخوف وتدعه يموت إكراماً لها. ولكن مع ذلك، لقد أحبته، وقد تقوم
بمحاولة ما. لعل وصيفتها، برثا، تتسلل إلى الباب، ثم ألم تقل إن ثمة
مرافقاً وفياً لها؟ حتى وإن لم يأتها أحد برسالة فإن لديه خطته الخاصة،
جاهزة للتنفيذ. فإذا أخفقت فسوف يصارع سجانیه بمقعدها كأننا إثنين،
أم ثلاثة أو قدر ما يرسلون إليه. وهو يتميز بشيء - أن عينيه اعتادت أن على
الظلام. والآن وعلى ضوء الفجر يمكنه أن يرى شكل وحجم كل شيء
من حوله، في حين أن الآخرين سوف يكونون شبه عميان.

ربض خلف الطاولة وهو يراقب بتلهف الازدياد الطفيف في الضوء
تحت عقب الباب، فارضاً على نفسه التخطيط المسبق لكل كلمة سوف
يقولها للكاهن، بما أن هذا على الأقل ما يجب أن يحاوله. واللحظة التي
كان قبل ساعة من الوقت يخشاها أصبح يتوق إليها، حتى لم يعد الآن
يطيق صبراً على انتظار حلولها. وهذا الانتباه المتوتر كان قد أضحى غير
محتمل. إن قوته، وسرعته، وتصميمه سوف تفقد حدتها تدريجياً إذا طال
انتظاره. لا شك في أن هذا الكاهن مع السجناء سوف يصلان قبل أن
تنحسر رغبته في العيش.

على الأقل فإن العالم الخارجي قد بدأ ينهض، والعدو متربص به. ثمة
وقع خطي يقرقع على أرض الفناء، وها هو مفتاح يقحم في القفل: أدير
فيه، وكل صوت من هذه الأصوات بدأ، بعد طول هدوء وظلام، أشبه
بقصف الرعد.

أخذ الباب الثقيل يُفتح ببطء، على مفاصل صارّة. ودخل الكاهن إليه وحده لا يصحبه أي سجان أو خادم، وحاملاً مصباحاً مزدوج اللهب. وهذا شيء لم يتوقعه السجين.

أما الغريب في الأمر والمؤثر أن هذا الكاهن الذي أغلقت يده غير المرئية الباب خلفه، كان يرتدي رداء دير ماريابرون الشهير، الرداء المميز لموطنه، الدير، الرداء الذي يلبسه الأب الرئيس دانييل والأب آنسيلم، والأب مارتن. أشاع مرآه فيه الاضطراب فأشاح بعينه عنه. لعل هذا وعد بالهرب. وأيضاً قد لا يكون هناك مفر من قتله. وعقد عزمه على ذلك. سيكون صعباً عليه أن يصرع هذا الكاهن.

الفصل السابع عشر

قال الأب: "المجد ليسوع المسيح"، وحط مصباحه على الطاولة. أطرق غولدموند رأسه، وتلفظ بجواب.

لم يقل الكاهن أي شيء. وقف مترقباً، دون الإدلاء بكلمة واحدة، إلى أن انتاب غولدموند القلق وتعاضم، فرفع إليه عينين متعجبتين.

ازداد اضطراب السجين عندما وجد أن هذا الكاهن لم يكن فقط يرتدي رداء ماريابرون المميز، بل ويضع صليب رئيس الدير، وخاتمته أيضاً. ثم دقق النظر في وجه هذا الرئيس، وجه نحيل، صارم التقاطيع وواضح القسمات، مع شفتين من أرقها، وجه كان يعرفه. وحدق غولدموند، كالمسحور، إلى هذا الوجه الذي بدا كتلة من الإرادة والذكاء. مد يده إلى المصباح بحركة غير واثقة، ثم رفع الضوء، وقربه من عيني الغريب. رآه، وكان اللهب يرتعش وهو يعيده إلى الطاولة.

همس بصوت غير مسموع: "نرسييس". وكان كل شيء يدوم أمام عينه.

"نعم، يا غولدموند، كان اسمي نرسييس ذات يوم، أما الآن فلم يعد

كذلك بما أنني قد طرحت هذا الاسم. أنسيت أنني اتخذت اسم يوحنا عندما رسمت كاهناً؟".

اهتز قلب غولدموند من الأعماق. لقد تبدل وجه العالم بالنسبة إليه. وتراخى فجأة توتر الساعات الأخيرة: اهتز كيانه كله، وحوّل الدوار رأسه إلى كيس فارغ، وجاش بطنه، وكمّنت في عينيه دموع حرّة حارقة، وهدد النشيج بهز جسمه كله. كان كل شيء في كيانه يتوق إلى أن يخر على ركبتيه ليجهش بالبكاء.

لكن من أعماقه التي فتحتها له مرأى نرسييس، هاجت ذكرى شذرة لفترة فتوته: فذات مرة، وكان فتى، أجهش بالبكاء، وترك الانفعال العاطفي يغرقه، أمام هذا الوجه الرصين، الجميل، وهاتين العينين الكلّيتي المعرفة. ويجب أن لا يفعل ذلك ثانية. وها هو ذا نرسييس قد حضر، مثل شبح، وفي الساعة الأشد حرجاً في حياته كلها، ويسدو أنه أحضر له إرجاءً مؤقتاً لموته. فهل يقف ثانية يبكي أمام صديقه، يثر على قدميه في حالة خدار؟ كلا! كلا! كلا! يجب أن يتمالك نفسه، ويسيطر على زمام قلبه، وأن يجبر شجاعته على طاعته، ويزيل الدوار الذي يلف رأسه. لا ضعف الآن! ونجح في أن يجيب، به. بوت ملجوم ببراعة:

"يجب أن تدعني أناديك نرسييس مع ذلك".

"نادني بما تشاء، يا amicely. ولكن لم لا تمد إليّ يدك؟".

مرة أخرى ضغط غولدموند على روحه لتجيب بنبرة سخرية تلميذ مدرسة، كما طالما فعل في الأيام الخوالي:

قال بشيء من البرود والضحجر: "سأخني يا نرسييس. أرى أنهم حولك إلى رئيس دير. أما أنا فليست أكثر من متشرد. وبقدر ما أرغب في الدخول معك في حوار طويل، أخشى أننا لن نتمكن من الاضطراب فيه. في الحقيقة يا نرسييس، سوف أشتق في غضون نصف ساعة أقول

لك هذا فقط للتوضيح".

لم تبدل قسمات وجه نرسييس. إن مسحة التبجح وشجاعة الفتيان التي ما زال صديقه يتصف بهما أثرتا فيه، ومع ذلك سرتاه كثيراً. صحيح أنه كان يتخيل لقاءاً مختلفاً، لكن هذه الملهة الصغيرة، أسرت قلبه. وما كان لأي شيء مما يمكن لغولدموند أن يقوله أن يكون سبيلاً أوثق للعودة إلى حبه.

قال بلهجة تعادل لهجة غولدموند في لامبالاتها: "بالنسبة للمشنقة، أرح بالك، لقد حصلت على عفو، وأنا مفوض لأخبرك بهذا، وأعود بك. يجب أن لا تمكث في المدينة. وهكذا ترى أن لدينا الوقت الكافي ليقول كل منا كل ما يريد. والآن، هلا أعطيتني يدك؟".

تشابكت أيديهما، وظلا واقفين هكذا طويلاً، وقلباهما يتسارع وجيههما بعمق من هذا التلامس. مع أن كلمتهما ظلت، ولفترة أطول قليلاً، مفعمة بالعنصر الملهوي، وبالإدعاء.

"حسن إذن، يا نرسييس — فلنغادر هذه البؤرة الحقيرة. وعليّ أن أرافقك كتابع. هل أنت عائد إلى ماريابرون؟ جيد... ولكن كيف؟ أعلى متن الحصان؟ هذا أفضل. ولكن في هذه الحالة سأحتاج إلى حصان لكي أرافقك".

"سوف تحصل على حصانك يا صديقي، وفي غضون ساعتين يجب أن نطلق. آه — ولكن يدك. باسم يسوع — إن جروحهما بليغة وداميتان. آه، يا لغولدموند، ماذا فعلوا بك؟".

"لا عليك يا نرسييس. أنا الذي جرحت يدي. كنت موثقاً، وأردت أن أتحرر، ولم يكن الأمر سهلاً، أؤكد لك. أنعلم أن منتهى البسالة منك أن تدخل لتتلقى اعترافي بدون مرافق".

"بسالة؟ لماذا؟ ليس هناك من خطر".

"أوه، كلا لا خطر على الإطلاق - فيما عدا أنني قد أهشم جمجمتك. هذا ما كنت قد خططت لأفعله، في الحقيقة. لقد قالوا لي أنني يجب أن أقابل كاهناً، ففكرت في صرعه وارتداء رداءه ومن ثم الفرار. كانت خطة جيدة".

"إذن كانت لديك رغبة في الحياة؟".

"طبعاً. وإن كنت لم أفكر مطلقاً في أنهم قد يرسلون إلي نرسييس ليتلقى اعتراف روحي".

تردد نرسييس في القول: "في كل الأحوال، لقد كانت خطة شنيعة. هل حقاً كنت ستصرع الكاهن الذي سيدخل ليتلقى اعترافك استعداداً للموت؟".

"ليس أنت يا نرسييس - ما كنت طبعاً لأصرعك. وربما ليس أي من رهبانك. أي كاهن آخر - آه، نعم، صادقني".

فجأة أصبحت نبرة صوته حزينة.

"لم تكن لتكون المرة الأولى التي أقتل فيها رجلاً".

ران الصمت عليهما. وجمع بينهما اضطراب النفس.

قال نرسييس بصوت هادئ: "أما بالنسبة إلى كل هذا، فسوف يتاح لنا الوقت للتحدث بشأنه. وإذا أردت فسنسمع اعترافك. أو حدثني عن حياتك، إذا كنت تفضل. سوف يسعدني أن أنصت. هيا بنا".

"دقيقة واحدة أولاً يا نرسييس. لقد تذكرت شيئاً. كنت ذات مرة قد سميتك "يوحنا"".

"لا أفهم. كلا، كيف يمكنك أن تفهم؟ لقد مرت سنون عديدة منذ أن أطلقت عليك الاسم اسم القديس يوحنا. والآن بات عليك أن تعمله إلى الأبد. لقد كنت، في الحقيقة، ذات يوم نحاتاً ومثالاً، وهذا ما آمل أن أصبحه ثانية. وأفضل مثال صنعته في تلك الأيام كان تمثالاً من الخشب

لقديس شاب، جعلته على صورتك، على الرغم أنني أطلقت عليه اسم القديس يوحنا، وليس نرسيس. إنه يوحنا الحواري تحت الصليب وعليه المسيح مصلوباً".

نهض واقفاً، وذهب إلى الباب.

سأله نرسيس برقة: "إذن فقد فكرت بي؟".

أجابه غولدموند بالصوت الخفيض نفسه:

"آه، نعم يا نرسيس - مراراً وتكراراً".

دفع الباب الثقيل بقوة، فأضاءهما معاً نور المصباح الشاحب. لم يزيدا أي كلمة أخرى. وقاده نرسيس إلى غرفة الضيوف الخاصة به. وهناك كان راهب فتى منشغلاً في إعداد العربات. وقدمت وجبة لغولدموند، وعُصِبَ رسغاه مؤقتاً. وسرعان ما أخرجت الأحصنة.

بينما هما يستقلان العربة قال غولدموند:

"لدي رغبة أخيرة. دعنا نتخذ الطريق المارة بسوق السمك، ثمه شخص أود أن أراه".

انطلقوا. وأخذ غولدموند ينظر عالياً إلى كل نافذة من نوافذ القصر، ليتأكد من أن آغنس ليست واقفة في إحداها. غير أن عينيه لم تقعا عليها ثانية. وتابعوا المسير، مخترقين سوق السمك. وكانت ماري قد أصابها الرعب قلقاً على سلامته، واستأذن منها بالرحيل، ومن والديها، ووعد بالعودة قريباً، ثم استأنفوا المسير. ووقفت عند الباب تتابعه بنظرها حتى غاب الركب عن الأنظار. وبيطء عادت إلى المنزل وهي تعرج.

انطلق الأربعة جنباً إلى جنب: نرسيس، وغولدموند، والراهب الفتى، والجلف المسلح.

سأل غولدموند: "هل ما زلت تذكر "بليس"، مهري الذي كان مربوطه الخاص في الدير؟".

"طبعاً. وإن كنت لن تجده الآن، ولا أظنك توقعت ذلك قط. لقد مرت الآن سبع سنين أو ثمانني منذ أن ذبح".
 "آه، أراك تذكر ذلك؟".
 "آه، نعم أذكر".

لم يتألم غولد-موند على موت مهرة، لكنه فرح لأن نرسييس تذكره بوضوح تام - هو الذي لم يأبه بأي حيوان، وحتماً ما كان ليعرف اسم حصان آخر موجود في مربط الدير. وابتهج لذلك.

بادر بالقول: "لعلك تضحك لأن أول ما أردت معرفته من أخبار كان عن مهري الصغير المسكين. إن هذا غير لائق مني. الحق، إن لدي أشياء أخرى أفضل أسألك عنها، وأريد أولاً أن أسأل عن الأب دانييل. ولكن بما أنك أنت الآن رئيس الدير، فلا بد أنه قد توفي. وأنا لا أريد أن أسأل عن أي شيء آخر غير الموت. وبالنسبة إليّ فإن هذا الوقت ليس الوقت المناسب للتحدث عن الموت، وذلك بسبب ما جرى لي ليلة أمس، وبسبب الوباء، الذي رأيت من آثاره ما يكفي ويزيد على الطرقات. ولكن الآن الأمر سيان عندي، كلنا سنموت في يوم من الأيام! احك لي متى وكيف توفي الرئيس دانييل. إنني أجله أيمًا إجلال. رهل ما زال الأب مارتن حيًا؟ والأب آنسيلم؟ لم تصلني أية أخبار عن أي منكم. إلا أنني على الأقل سعيد الآن لأن الوباء لم يصل إليكم، على الرغم من أنني لم أتخيل قط أن من الممكن أن تموت. كنت دائماً أعرف من صميم قلبي أن ثملنا سيلتئم من جديد. بيد أن المعتقدات يمكن أن تخدعنا، وقد تعلمت هذا بثمن باهظ، منذ أن أدركت أن معلمي، المعلم نيقولاس، حفار الخشب، الذي ما خطر ببالي قط أنني سأجده ميتاً، واعتمدت بقوة على العودة للعمل معه، وقد اندثر إلى الأبد عندما عدت إليه".

قال نرسييس: "لقد قيل شيء بسرعة. إن الرئيس دانييل توفي منذ زمن بعيد يعود حتى ثماني سنوات، دون أي مرض أو دون أن يعاني. وأنا لست خليفته. أنا لم أصبح رئيساً للدير إلا منذ العام الفائت. لقد خلفه الأب مارتن، وكان يدير المدرسة، كما تذكر، وتوفي قبل عام، وكان قد شارف على السبعين. والأب آنسيلم أيضاً توفي. كان يحبك، وكثيراً ما كان يتحدث عنك. وخلال سنواته الأخيرة، أصبح عاجزاً عن السير، وكان الاستلقاء يسبب له ألماً مبرحاً، لأنه مات متأثراً بداء الاستسقاء. نعم، وقد حل الوباء بنا أيضاً. ولكن دعنا من الحديث عنه هل من أسئلة أخرى لديك؟".

"طبعاً لدي - والكثير منا. عن كل شيء. كيف أتيت إلى هنا، إلى مدينة الأسقف، وإلى ضابط الأمن؟".

"تلك حكاية طويلة وسوف تضجرك. تنطوي على الكثير من السياسة. إن الكونت مفضل لدى الامبراطور، ويحظى في بعض المسائل، مطلق السلطة منه، وفي الوقت الحاضر هناك الكثير من الأمور التي تتطلب التسوية بين الامبراطور وبين رهبانيتنا وقد فوضتني الرهبانية بالتعامل مع الكونت. وكان نصيبي من النجاح ضئيلاً".

صمت، وكف غولدموند عن طرح الأسئلة. ولم يتح له قط أن يعرف كيف أن نرسييس حين طلب له العفو ليلة أمس كان عليه أن يدفع مقابلها تنازلات، وإلا ما كان الكونت حتماً ليوافق.

تابعوا الطريق، وازداد إحساس غولدموند بالإرهاق، وسرعان ما أصبح الجلوس على متن الحصان يؤلمه. وبعد صمت طويل سأله نرسييس: "أصحيح أنهم قبضوا عليك بتهمة السرقة؟ لقد اعتقد الكونت أنك تسللت إلى القصر لتسرق ملابس من الغرف الداخلية".

صمت غولدموند وقال: "هذا ما بدا في الظاهر دون شك. أنا لست

لصاً، ولكن كنت مجتمعاً مع عشيقته. إنني منذهل لأنه أطلق سراحني بهذه السهولة".

"إن الأمر لم يكن سهلاً جداً".

لم يتمكنوا من قطع المرحلة التي كانوا قد قرروا قطعها. لقد كان غولدموند أشد إرهاقاً من أن يواصل الركوب، ورفضت يداها أن تمسكا اللجام. وفي تلك الليلة حلوا في إحدى القرى، حيث مدد على سرير وقد ظهرت عليه علامات حمى خفيفة، وظل هكذا مستلقياً طوال اليوم التالي. ومن ثم تابع الركوب من جديد. وسرعان ما أخذ يستمتع، بعد أن تحسنت حالة يديه، بملبس الحصان. لقد كان قد مر عليه وقت طويل منذ أن ركب صهوة حصان. واستعاد حيويته، عاد يشعر بتدفق الشباب وبفيض الحياة، وتسابق مع السائس على امتداد أميال عديدة مقابل رهان، ومن ثم أحياناً، كان يحظر نرسييس بوابل من الأسئلة، المتلهفة، البرمة: وتركه نرسييس يسأله قدر ما يشاء. ومن جديد، وقع تحت سحر غولدموند، أحب سبل شكوكه وطلباته، وقد طرحت كلها بدافع ثقته المطلقة في مقادرتة على حلها.

"أريد أن أسألك سؤالاً واحداً يا نرسييس. هل حدث قط أن أحرقتم يهوداً؟".

"تُحرق يهوداً؟ ولم نفعل؟ لا يوجد أي يهود في أي مكان بالقرب من ماريابرون".

"افهمني يا نرسييس. إنني أقصد ما يلي: هل تتخيل أن بإمكانك في أي لحظة أن تعطي موافقتك على ذبح يهود، أو أن تأمر بذلك؟ لقد كان هناك العديد من الدوقات والأساقفة وعمد المدن، وأمثالهم من السادة، الذين يصادرون مثل هذه الأوامر".

"من ناحيتي لا يمكن أن أصدر مثل هذا الأمر. لكنني قد أضطر إلى أن

أتنحى جانباً، وأشهد ممارسة الوحشية".

"إذن فسوف تتحمل ذلك؟".

"دون شك، إذا لم تكن لديّ القدرة على منعه. هل شاهدت أياً من اليهود يحرقون يا غولدموند؟".

"آه، نعم"

"حسن، وهل منعتهم؟ ألم تفعل؟ إذن كما ترى".

أخبره غولدموند بقصة ريبيكا، وبينما هو يفعل كان يزداد اتقاداً ويمتلىء بالأسى.

ثم أضاف بغضب: "فانظر في أي عالم نعيش. ليس هو أقرب شبهاً بالبحيم؟ إنه رهيب، ويملأني بالحنق".

"لا شك في ذلك. هذا هو العالم".

هتف غولدموند: "حسن، كم من مرة قلت لي إن العالم قدسي، وإنه تناغم عظيم من الدوائر، هذا ما قلته، وإن الخالق يتربع في وسطه على عرشه، وإن كل ما صنعه خيراً، إلخ، إلخ. وقلت إن كل هذا مثبت في كتابات أرسطو والقدّيس توما! إنني تواق إلى أن أسمعك وأنت تحل مثل هذه التناقضات".

"إن قوة ذاكرتك مثيرة للإعجاب. ومع ذلك لقد ارتكبت بضعة أخطاء. إنني طالما بجلت الخالق بوصفه كاملاً، لكنني لم أعتبر عمله كذلك. لم أنكر قط وجود الشر في العالم. وكون الإنسان طيب، أو أن حياتنا الأرضية عادلة، ومفعمة بالتناغم، فهذا يا صديقي، يفوق كثيراً ما قاله أي مفكر حصيف. وواضح أكثر في الأسفار المقدسة، أن كل الصراعات والأحلام التي تضطرم في قلوبنا بعيدة عن الكمال، وهذا ما يتأكد كل يوم".

"عظيم. أخيراً بت أفهم كيف تعلمت تكوين رأيك حول الأمن،

إذن حسب رأيك، فالبشر أشرار وحياتنا على الأرض مشحونة بالخساسة، والرعب: - أنت تعترف بهذا إذن. لكنك في مكان ما خلف كل ذلك، بين طيات أفكارك وكتب المبادئ الأخلاقية، تكتشف عدالة ما وكمالاً ما. إنهما موجودان هناك، ويمكن إثباتهما، ولكن لا أحد يستفيد منهما".

"لقد نجحت في إضمار الكثير من الحق ضدنا نحن اللاهوتيين، o amice. ولكن مع ذلك فأنت لم تصبح مفكراً بعد. أنت تخلط الأمور، وما زال أمامك القليل لتتعلمه. لماذا تقول، إننا لا نستفيد من فكرة العدالة؟ إننا نفعل في كل يوم، وفي كل ساعة، من ساعات النهار. أنا، مثلاً، رئيس دير، وأدير ديراً، والناس في ذلك الدير بعيدون عن الكمال وكثيرون الأخطاء، كأني إنسان في العالم الخارجي. لكننا نعمل بلا كلل، ودون توقف على تطبيق فكرة العدالة على الخطيئة الأصلية لطبيعتنا، ونكافح لنقدر بها مدى نقصان حياتنا، ونسعى إلى القبض على الشرير، ونظل على صلة وثيقة مع الله".

"آه، لا، يا نرسييس - لم يكن أنت من عنيت. أنا لم أقل قط أنك لست رئيس دير جيداً. لكنني أفكر في ربيكا، وفي اليهود المحترقين، وحفر الموت، وفي الموت الجماعي في كل المنازل والشوارع، عندما كانت جثث الوباء تتعفن وتتنن، وفي كل الرعب والخراب! أفكر في الأطفال الهائمين على وجوههم في الطرقات، دون أصدقاء أو أنسباء، أو من يأويهم، أو في كلاب الألفية، تكاد تموت جوعاً وهي مربوطة بسلاسلها.... وحين استعرضها مرة ثانية أمام عيني يبدو لي وكأن أمهاتنا قد ولدتنا إلى عالم من الشياطين. كان من الأفضل أن لا نخلق، وأن لا يكون الله قد خلق هذه الأرض المرعبة، ولو أن المخلص لم يُعلق دون فائدة على الصليب فداءً لها".

هز نرسييس رأسه موافقاً:

"معك حق أفرغ كل ما في قلبك، واحك لي كل شيء. ولكن ثمة أمراً واحداً كنت فيه أبعد ما يمكن عن الصواب. أنت تخطيء إذ تعتقد أن كل تلك هي أفكارك، لكنها مشاعرك - مشاعر إنسان تحته وحشية الحياة على العمل. ولا تنسى أبداً أن مشاعر أخرى، مختلفة، يمكن أن تحتشد في مواجهة هذا اليأس. إنك حين تكون في حالة انسجام مع حصانك، وتنطلق به تقطع فيافي تسر النظر - أو عندما تتسلل ليلاً إلى أحد القصور لتغازل عشيقة الكونت، دون أن تدري كيف سينتهي الأمر، فإن العالم يبدو مكاناً مختلفاً كثيراً، ولا يمكن لكل اليهود المحترقين أو للمنازل المبتلية بالبواء أن تعيق سعيك وراء لذة موجودة فيه. أليس هذا صحيحاً؟".

"هو صحيح دون ريب. ولأن العالم مملوء بالموت يجب أن أنسى الموت، ساعة من الزمن، ولكن، مع ذلك، الموت دائماً يلازمني".

"أحسن القول. عظيم، إنك تجد نفسك في عالم زاهر بالموت والرعب، وهكذا، ولكي تفر منه، تهرع إلى الانغماس في الملذات. لكن الملذات سرعان ما تخبو، تموت وتتركك وسط القفر".

"نعم، هو ذاك".

"هذا هو حال أغلب الناس o' amice وإن كان قليلون من يتفكرون في الأمر بعمق، أو يعيرون عنه بالحيوية نفسها التي عبرت أنت بها عنه. وأقل منهم حتى يشعرون بالحاجة إلى الوعي بما يشعرون. ولكن قل لي: إلى جانب هذا التذبذب اليأس رواحاً ومجيئاً من الرعب إلى المتعة، والعودة مرة أخرى، وتلاعب المشعوذ هذا بحبك للحياة وخوفك من الموت - هل فتشت عن أي طريقة أخرى لنيل السعادة؟".

"آه، نعم، حتماً. لقد حاولت أن أعثر على سعادتتي كنعحات. وقد أخبرتك كيف حققت هذا ذات يوم. ففي أحد الأيام كنت قد أمضيت

ربما سنتين على الطرقات، ولجيت كنيسة دير، فوجدت هناك صورة العذراء المباركة، مخفورة على الخشب، فاضطرب قلبي من فرط جمالها، وأسرنني، حتى أنني رحت أبحث عن المعلم الذي حفرها. وعثرت عليه وقد كان مخضرمًا مشهوراً. ثم أصبحت ممتهناً لديه، وعملت معه مدة سنتين.

"ستحكي لي المزيد عن هذا فيما بعد. ولكن ما نوع العزاء الذي كان النحت يزودك به؟ ماذا كان يعني لك؟"

"كان يعني قهر كل ما يفنى. لقد وجدت أنه يمكن أن يتبقى من تشقلب أولئك المهرجين وفي رقصة الموت، شيء من حياتنا، ويعيش بعد موتنا - صورنا. بيد أنها هي أيضاً تغنى في النهاية. فهي تطمر، أو تتعفن، أو تتكسر من جديد. ومع ذلك فعمرها أطول من أي حياة إنسانية، بحيث أننا نحصل بالصور، وخلف كل لحظة تمر، على أرض مملوءة بالأضرحة المقدسة والتماثيل النفيسة يخيم عليها السكون. وكنت أجد العمل فيها شيئاً حياً، وكان يرنجني لأنه يعني تثبيت الزمن إلى الأبد."

"إن كلامك بسعدني، يا غولدموند، وأمل أن تتوصل إلى حفر المزيد من تلك الصور. إن ثقتي في مهارتك عظيمة. في ماريابرون يجب أن تكون ضيفنا لفترة طويلة، واسمح لي أن أقيم لأجلك هناك ورشة عمل. منذ سنين كثيرة لم يخو ديرنا على فنانين محترفين. لكني أظن، بالاعتماد على كلامك، أنك لم تستنفذ كل عجائب الفن. أعتقد أنه لكي تحتوي الصور الأكثر صدقاً على أكثر من ذاك الشيء الحسي، ويراه الجميع، يجب أن تكون خائنة، وهكذا تنجو من الموت. لقد شاهدت الكثير من أعمال الرسامين والنحاتين، العديد من صور القديسين وصور السيدة العذراء، ولا أعتقد أنها تمثل نسخاً صادقة لشكل أي شخص كان حياً ذات يوم، أحاط الصانع بشكله ولونه ومن ثم حفله."

هتف غولدموند: "معك حق، ولم يخطر ببالي قط أن لديك كل هذه المعرفة. بما يمكن للمحترف الحقيقي أن يفعله. إن نموذج أي صورة ليس شكلاً أو هيئة حقيقية، حية، على الرغم من أن مثل هذه الهيئات قد تحت الصانع على صنعها. ونموذجها الأول الحقيقي ليس من لحم ودم، وإنما يسكن في الدهن. ومثل هذه الصور مسكنها في روح الفنان لمحترف. وداخلي أيضاً يا نرسييس، تعيش صور مثلها، آمل أن أشكلها ذات يوم، وأعرضها عليك".

"هذا يسرني كثيراً. ولكن انظر يا amicel، كيف دون أن تدري انحرفت، وولجت إلى الفلسفة، وسميت أحد أسرارها".

"لا يجوز أن تسخر مني".

"وأنا لا أسخر منك. لقد تكلمت عن "النماذج الأصلية" - وعن صور لا وجود لها إلا في روح النحات، لكنه يحولها إلى مادة يجعلها مرئية. وهكذا، قبل أن يصبح بالإمكان رؤية أشكال هذا النحات بوقت طويل، لتحقيق بذلك واقعها الشكلي، تكون موجودة فعلاً، كصيغ داخل روحه. وهذا "النموذج الأصلي"، نفسه - هذا الشكل - هو، وبدقة متناهية، ما سماه الفلاسفة الأقدمون "الفكرة"."

"يبدو هذا صحيحاً تماماً".

"ولكنك حالما تتحدث عن أفكار، تكون قد أخذت تلج عالم الفكر، عالمنا نحن اللاهوتيين والفلاسفة، وبهذا تعترف أنه وسط كل هذه الفوضى وآلام ساحة الوغى - رقصة الموت المرهقة التي لا نهاية لها هذه التي تؤديها مادتنا الحية والجسدية، هناك روح تصيغ أشكالاً أبدية. اسمع، إني لطالما أدركت فيك هذه الروح، منذ أن جئت إلي أولاً وأنت فتى. لكن أفكارك ليست أفكار فيلسوف، وإن كانت قد أنارت لك سبيل الخروج في حالة الحيرة والحزن التي تغمر أحاسيسنا، والتقلب القلق

بين اليأس والشهوة. آه، ياغولدموند - كم يسعدني أن أسمعك وأنت تتكلم هكذا. إنني أنتظر هذه اللحظة منذ تلك الأيام الخوالي، منذ تلك الليلة التي غادرت فيها أستاذك، ووجدت الشجاعة الكافية لتكون نفسك. وها نحن قد عثر أحداً على الآخر ثانية".

بدا لغولدموند في تلك اللحظة، كأنما أصبح لحياته معنى - أصبح يرى كل شيء بوضوح، وكأنما من علي، رؤية واضحة، من ثلاثة أبعاد؛ اعتماده على نرسييس، أيام حريته وتجوّله، تناغمه من جديد مع نفسه، نضج الحصول وإيناعه.

تلاشت الرؤيا. لكنه الآن عثر على علاقة قيمة مع صديقه. لم يعد نرسييس المعلم وهو التلميذ. لقد أصبحا حرين ومتعادلين ويمكن لكل منهما أن يقدم يد المساعدة للآخر. بإمكانه أن يكون ضيف رئيس الدير هذا دون تلكؤ، ما دام قد رأى فيه نرسييس ناداً له. وبينما كانا يخبان معاً على الدروب، راح يحلم، بالشتاق، وسعادة مضطردتين، باليوم الذي سيكشف فيه نرسييس، بنشر حياته الروحية، على صورة أشكال عديدة. إلا أنه كان أحياناً تتنابه بعض المواجهات.

قال يحدّره: "أخشى يا نرسييس أنك لم تأخذ في حساباتك مصاعب ما أنت مقدم عليه. أتدري من الذي دعوته إلى ديرك؟ أنا لست براهب ولن أكون. أنا أعرف النذور الثلاثة العظمى، وعلى رغم أنه ليس لدي ما أقوله ضد الفقر، فإنني أمقت العفة والطاعة. أما بالنسبة للحساسة، فلم يتبق منها أي شيء لدي. ومنذ سنين عديدة لم أصل، أو أعترف، أو أتلقى القربان".

لم يدع نرسييس هذا يكادّره.

"يبدو أنك تحولت إلى وثني. لكننا لا نخشى أيّاً منهم. لست بحاجة إلى أن تفخر بخطاياك الكثيرة. لقد عشت الحياة الدنيوية المبتذلة، ورعيت

الخنازير مع كل المسرفين، حتى بتّ الآن لا ترى في أي قانون، أو رهينة جيدة، أي معنى. لا شك في أنك ستكون راهباً سيئاً جداً. لكني لم أطلب منك قط أن تنضم إلى الرهينة. إن كل ما أطلبه هو أن تعيش معنا كضيف لنا، وتدعنا نقيم لك ورشة عمل. وثمة أمر آخر - لا تنسى أنني كنت من أيقظ أحاسيسك، في فتوتك، وجعلتها تقودك إلى قلب العالم. وقد تكون رجلاً صالحاً أو طالحاً، وسأكون أنا بعد كل شيء المسؤول عن ذلك. سوف أعرف حقيقتك، بما أنك سوف تكشف لي عنها بالكلام، وبسرّد قصة حياتك، وبالصور. فإذا وجدت أن بيتنا لا يلائمك فسوف أكون أول من يطلب منك أن تغادرنا". كانت هذه الكلمات كلما تفوه بها نرسيس ثملاً صديقه بالإعجاب. وعندما كان يتكلم هكذا، كرئيس دير، بنبرة الثقة الهادئة التي تسود صوته وتلميح السائح إلى عشاق الدنيا وإلى حياتهم، يدرك غولدموند ماذا صنع صديقه من نفسه. هاك رجل - كاهن حق، ذو يدين رقيقتين، بيضاوين، ووجه رجل دين، لكنه رجل ملؤه الشجاعة والعزم، ومسيطر، يتنكب مسؤولية كل شيء. إن هذا الرجل، نرسيس لم يعد ذاك الطالب الفتى الذي عرفه، لم يعد القديس يوحنا، التلميذ الرقيق اللطيف. يجب أن ينحت ثمناً آخر لهذا الصديق الجديد، إن هذا الفارس والقائد يلزمه يديه لتشكلاه. كم من أشكال تنتظره! لنرسيس، وللرئيس دانييل، وللأب آنسيلم، وللمعلم نيقولاس، ولرببيكا، وللرقيقة آغنس، ولكثيرين كرههم أو أحبههم، أحياء وأموات. لا، إنه لا يريد أن يكون راهباً. إنه يريد أن ينحت، ومع ذلك فهو يفرح حين يفكر في أن بيته الأول سيكون ورشته.

تابعوا طريقهم في طقس أواخر الخريف، البارد، إلى أن وصلوا، في يوم امتدت فيه أغصان الأشجار في الصباح، وابتضت بفعل الصقيع، وخيمت فوق الدروب، إلى أرض سبخة رقاقة المياه، تكتنفها من كل جانب مساحات واسعة من المرج ذي اللون الأسمر المحمّر، حيث بدت

حدود التلال النائية الممتدة مألوفة بشكل غريب، إلا أنها بدت كأنها تنطوي على شيء من التهديد، وتقدموا على طول حواف أيكّة عالية من أشجار السنديان، بالقرب من جدول جار، مروراً بحظيرة جعل مرآها قلب غولدموند يشب. والآن تعرف من جديد، تميزج من الفرح والحزن على تلك التلال نفسها التي كان قد اعتلاها مع ليديا، وشاهد المرج الذي كان قد سار عليه بخطى متعبة، منبواً وحزيناً، مخترقاً رقائق الثلج الرقيقة. ثم وصلوا إلى سرخس جدار الماء، والطاحونة، والقصر، إلى أن شاهد، بفرح موجه، نافذة الغرفة ذاتها التي سمع من خلالها، في أيام فتوته، قبل زمن بعيد، الفارس يقص حكايا الحج، وساعد سيده في سد الثغرات في معرفته باللغة اللاتينية. واصلوا تقدمهم إلى الفناء، بما أن تلك كانت إحدى مراحل رحلتهم. والتمس غولدموند من رئيس الدير أن لا يذكر اسمه هنا، بل أن يدعه يتناول الطعام مع القرويين، على المائدة السفلى. وهكذا كان. لم يعد الفارس موجوداً، ولا ليديا. لم يبق إلا بضعة من الخدم العجائز والصيداين، وداخل المنزل كانت سيدة مزديرة، وفائقة الجمال، تسيطر على المخان وتعيش فيه مع زوجها - إنها جوليا، جالسة إلى جانب زوجها على المائدة العالية. وما تزال عذبة كما تذكرها، ومشرفة، مع شيء من الخبث. ولم تعرف هي ولا زوجها الفارس على غولدموند.

بعد العشاء تسلل، تحت جنح عتمة المساء، خارجاً إلى الحديقة، ملقياً نظرة خاطفة عبر السياج إلى مساكن الزهور التي ذوت، ودرج ببطء إلى باب الاسطبل، وراح يتلصص من خلال أحد الشقوق إلى الجياد. ثم نام مع ساسة الخيل وسط القش. وجثم عليه حمل من الذكريات حتى أن نومه اضطرب مرات عديدة بسببها. كم كانت حياته مشتتة وعقيمة، غنية بألوان صورها، غير أنها تهشمت إلى شظايا كثيرة جداً، وشحيحة القيمة، وفقيرة في الحب. وعندما استعدوا في اليوم

التالي للانطلاق من جديد ألقى نظرة قلقة إلى النوافذ، لعله يرى جوليا تطل من إحداها. تماماً كما فعل قبل فترة وجيزة، وهو يقف في فناء قصر الأسقف، حين أخذ يلتفت وراءه، ليتأكد من أن آغنس لم تظهر، لكنها لم تأت، ولا جوليا أيضاً جاءت! وقال في نفسه، هكذا كانت حياته، رحيلاً دائماً، هروباً، ثم يطويه النسيان، ويعود وحيداً صفر اليدين، بارد القلب. وظل طوال يومه والتفكير في هذا يسممه، ولم يقدر على البوح، بل ظل جالساً على سرجه، عابساً. وتركه نرسييس مع حالته النفسية.

لكن، ها هم أخيراً يقتربون من بيتهم، وبعد مرور بضعة أيام بلغوه. وقبل فترة وجيزة من ظهور أبراج الدير وسقوفه للعيان قطعوا الأرض المريحة الحجرية نفسها التي كان - كم من السنين مرت على ذلك - قد خرج إليها ليقطف منها أعشاباً للأب آنسيلم، واجتازوا الحقل الذي جعلت منه الغجرية، ليزا، فيه عاشقاً. ومروا من البوابات، وترجلوا تحت شجرة الجوز في الساحة. وداعب غولدموند جذعها برفق. وانحنى ليلتقط شقة من القشرة الخارجية الواخزة، كانت قد وقعت على التربة، بنية اللون وذائوية.

الفصل الثامن عشر

في أول الأمر قطن غولدموند في قبر الضيوف داخل المعتزل. ومن ثم، وبناء على طلبه، أعطوه مسكناً يواجه دكان الحداد، في أحد الأبنية الإضافية العديدة المحيطة بالفناء الشاسع، الواسع كساحة السوق. هذه العودة كانت تخبئ ذكريات قوية التأثير حتى أنه كان يشعر أنه مفتون. وهؤلاء القوم، من رهبان وأناس عاديين، منهمكون في أعمالهم، وتركوه وشأنه. وواصلوا حياتهم القوية المحكمة التنظيم من حوله. لكن الأشجار الباسقة في الفناء تعرفت عليه، والأبواب المقوسة، والنوافذ المدببة، وحجارة الرصيف اللوحية في كل ممر، وشجيرات الورد الذابلة في الدير، وأعشاش طيور اللقلاق المبنية فوق سقف حجرة الطعام، ومخزن القمح. إن كل عود وحجر يحمل ذكرى ما رقيقة عن أيام فتوته، وحببه يحمله على أن ينشد كل منها، وأن ينصت من جديد إلى كل صوت في الدير، إلى قرع نواقيس يوم الأحد، ونواقيس الشعائر الدينية، وحرير جدول الطاحونة القائم الجاري بين جدران الضيقة، الخضراء اللون من نمو الطحالب، وقرعة الصنادل، وخشخشة المفاتيح في المساء، أثناء قيام الأخ البواب بجولاته الليلية. وبجانب الميزاب الحجري الذي

كان ماء المطر يقطر فيه من سطح قاعة طعام المدينين، كما في أيام زمان، كانت ما تزال تنمو الأعشاب الصغيرة نفسها، إبرة الراعي ولسان الحمل. وشجرة التفاح النامية في حديقة الحداد، كانت تنشر واسعاً أغصاناً كثيرة العقد، كعنها في السابق. ولكن ما كان يبهجه أكثر من أي صوت أو مشهد آخر، فسماعه الرنين الناعم لجرس المدرسة، وأيضا مراقبة تلاميذ الدير، أثناء ساعة اللعب، وهم يهرولون مقعقعين هابطين الدراج إلى الفناء. تكلم بدوا جميعاً غضبين ونضربين وحمقى. أكان حقاً هكذا غضبا، ومرحاً ومتورداً للوجنتين وغرا؟

لقد عثر داخل هذا الدير الذي عرفه حتى المعرفة، على دير آخر، بالكاد تعرف عليه. في اليوم الأول صدمه، ثم أخذ جماله ومغزاه يتناميان، بحيث استغرق منه الأمر بعض الوقت حتى أصبح جزءاً من الآخر. وهذا الدير الجديد لم تكن له معالم جديدة، فكل شيء قائم بالضبط حيث ألفه وهو فتى، وحيث كان موجوداً منذ مئات السنين قبل مجيئه. إنه هو الذي لم يعد ينظر بعيني فتى. إنه يستطيع أن يشعر بتراكم هذه الأبنية ويعجب به، وبقوة الأسقف المعقودة في الكنيسة، وبجمال الرسومات القديمة، وبالتماثيل الخشبية والحجرية القائمة فوق المذبح، وفي كل مشكاة فوق الأبواب. إلا أنه كان قد تعرف عليها كلها من قبل. والآن أصبح يقدر جمالها وجمال الروح التي صنعتها.

كان يقف في الكنيسة العليا أمام تمثال أم الرب الحجري القديم حتى في عهد فتوته كانت تشيع السرور في نفسه، وقد حاول أن ينسخ صورتها مرات عديدة. ولكن الآن فقط أصبح يعي، وعياً تاماً، أنها تحفة فنية، عمل لن يتمكن أبداً من التفوق عليه، حتى ولو بذل في ذلك أقصى طاقات حرفيته. وهناك الكثير من الروائع مثلها في ماريابرون، ولكن ولا واحدة منها تبرز بوصفها مصادفة سعيدة، وكلها انبثقت من روح واحدة. وكل منها تحتل مكانها الخاص تحت هذه الأسقف المعقودة، بين

هذه الجدران والأعمدة العتيقة، وكأنها تؤلف بيتها الطبيعي.

إن كل ما بنته كل تلك القرون العديدة، ونقشته، ورسمته، وأخرجته فكراً، وعاشته، وعلمته هنا، انشق من أروقة واحدة، ولد من روح واحدة، وهو مترابط كأغصان الشجرة.

شعر غولدموند بالصيغر وسط هذا العالم المنظم. وأكثر ما شعر بالصيغر عندما رأى نرسييس، رئيس الدير يوحنا، صديقه الحميم يحكم هذه الوحدة العظيمة ويتحكم بها. ومهما كان البون الشاسع القائم بين الأفراد يميز بين هذا الرئيس يوحنا المثقف الرقيق الشفتين والرئيس دانييل اللطيف، البسيط، العطوف، فإن كلاهما يخدم المجموعة ذاتها، الفكر ذاته، قانون الحياة ذاته، ومنحها جسمه كتنقيصة، وأخذ منها المنزلة والقيمة. وهذا ما جعلهما متشابهين كردائهما.

هنا وسط ديره الخاص، تنامي نرسييس حتى أصبح عملاقاً في عيني غولدموند، وإن ظل ينجح في معاملته كضيفه الدمث ورفيقه المخلص. وسرعان ما بات لا يجرؤ على مناداته بنرسييس.

ذات مرة قال له: "اسمع أيها الرئيس يوحنا، سوف أضطر إلى أن أتعلم أن أناديك بهذا في آخر المطاف! يجب أن أبلغك بأني أجد المقام معك ممتعاً. لقد كدت تنجح في استدراجي إلى الإدلاء باعتراف عام، حتى إذا تمت التوبة بعد ذلك، أتوسل إليك أن تقبلني كأخ عادي لك. ولكن اسمع - إن ذلك سيعني نهاية صداقتنا. سوف تكون رئيس الدير، وسأكون أنا أخاً عادياً. أما أن أعيش هكذا كما أنا إلى الأبد، وأقف لأتفرج عليك تكد وتتعب، وأبقى أنا لا شيء، لا أفعل أي شيء - فهذا ما لن أحتمله بعد الآن. أريد أن أعمل، أن أريك ما أنا فعلاً، حتى تحكم عندئذ إن كنت تعتقد أنني أستحق أن أنجو من المقصلة".

قال نرسييس بلهجة أكثر رسمية ودقة حتى من المعتاد: "إنني فرح

بسماعي هذا الكلام، وسوف أرسل في طلب الحداد والتجار على الفور وأمرهما أن يكونا تحت تصرفك. استخدم ما في استطاعتك أن تعثر عليه في الدير، أو أي شيء آخر تحتاج إليه، يمكنك أن تضعه في قائمة وترسلها إليّ وسوف أرسل في طلبها على وجه السرعة. والآن، ستسمع رأيي فيك وفي أهدافك. يجب أن تمنحني بعض الوقت لأبوح لك بما يجول في خلدي. أنا فقير، وسوف أكافح لأعالج المسألة كما أفهمها. وليست لدي لغة أخرى غير لغة الفيلسوف. فهل ستنتصت إلي من جديداً، بصبر وأناة، كما كنت تفعل في السابق؟.

"سأحاول أن أتابعك يا نرسييس".

"أتذكر كيف كنت كثيراً ما أقول لك، حتى في أيام المدرسة، إنك شاعر؟ وفي تلك الأيام كنت أعتبرك شاعراً، بما أنه كان هناك دائماً في كتاباتك كما في نوعية قراءاتك إحساس معين بضيق الصدر من كل ما هو مجرد ومفاهيمي. كنت أكثر ما تحب في اللغة رنينها، أو أية كلمة تنقل صورة ملموسة، بمعنى كلمة ترسم لوحة".

قاطعه غولد-موند: "اغفر لي، ولكن أليست هذه المفاهيم والمجردات التي تقول إنك تفضلها على الصور هي لوحات بحد ذاتها؟ أم هل يحتاج الأمر حقاً إلى استخدام الكلمات التي لا تعطي أي صورة واضحة عن أي شيء؟ كيف يمكنك أن تفكر، إلا إذا تصورت شيئاً؟".

"سؤال جيد لا شك أبدأ في أن في استطاعتنا أن نفكر دون اللجوء إلى الصور. ليس هناك أي صلة على الإطلاق بين التفكير والتصور. التفكير لا يتم عن طريق الصور، وإنما بالمفاهيم، والصيغ، فحيث ينتهي الشعر تبدأ الفلسفة، وهذا ما كنا غالباً نتشاجر حوله، أيام زمان. إن العالم بالنسبة إليك كان يتألف من صور، أما بالنسبة إليّ فمن المفاهيم، لطالما كنت أقول إننا لن ننجح في جعلك فقيهاً، وقلت أيضاً إن هذه ليست نقیصة فيك، بما أنك كنت لا يُشَقُّ لك غبار في عالم الصور. والآن، أنصت، وسوف أوضح لك

كل شيء. لو أنك بدل من أن تهرب إلى العالم الخارجي، مكثت هنا وصرت فقيهاً، فلعل نهايتك كانت ستؤول إلى تخطيطك معنوياً، كنت ستتحول إلى صوفي. والصوفيون، وسأقولها لك بفصيح العبارة، هم أولئك المفكرين العاجزين عن تحرير عقولهم من الصور، وبالتالي فهم ليسوا بمفكرين بأي حال، إنهم شعراء سريون، شعراء بلا شعر، ورسامون بلا ريشة رسم، موسيقيون بلا أي نوتات. هناك الكثير من الصوفيين الجيدين والفائقي الموهبة، لكنهم جميعاً بلا استثناء تقريباً تعساء. وكان من الممكن أن تغدو واحداً منهم. ولكن ها أنت، والحمد لله، حرفي ماهر، قهرت عالمك الخاص، الذي يمكنك أن تكون فيه سيداً وخالقاً، بدل أن تظل مفكراً ناقصاً".

قال غولد موند: "أخشى أنني لن أحيط بشكل صحيح بأسلوبك في التفكير بمنأى عن الصور".

"آه، نعم، سوف أشرح لك، وعلى الفور. إسمع، إن المفكر يجهد كي يكتشف جوهر العالم بواسطة المنطق، وبالتالي يحدده. إنه يعرف أن فهمنا ومنطقنا، أدواته، هما آليتان ناقصتان في الاستخدام — تماماً كما أن الحرفي الماهر يعرف حق المعرفة أنه لا يوجد أية فرشاة رسم أو إزميل يمكنه أن يعطي شكلاً مثالياً ساطعاً كقديس أو كملك. ولكن كلا النوعين — المفكرون والحرفيون — يكافحان لفعل ذلك، كل على طريقته. وهذا كل ما يمكنهما عمله، أو يجروان على عمله. وهذان يمثلان أرقى، وأهم نشاطين إنسانيين، بما أن كليهما يكافح لتحقيق ذاته بواسطة المواهب التي منحها الطبيعة لهما. لهذا تراني اعتدت أن أقول لك: "لا تحاول أن تقلد الزهاد والمتفقيين، بل كن ذاتك، واعمل على تحقيق ذاتك".

"أكاد لا أفهم ما ترمي إليه. ولكن ما معنى قولك: "حقق ذاتك"؟".

"هذا مفهوم خاص بالفيلسوف، ولا أستطيع أن أشرحه لك بأية كلمات أخرى. بالنسبة إلينا، نحن أتباع أرسطو والقدّيس توما، إن أسمى المفاهيم جميعاً هو الوجود الكامل. والوجود الكامل هو الله. وكل موجود آخر هو فقط ناقص. إنه ناقص ويصير على الدوام، وهو مزيج، مؤلف من

مجموعة احتمالات. لكن الله كل. هو واحد، ولا احتمالات له، وهو كمال كلي وواقع كلي. أما البشر فزائلون. نحن نصير، نحن احتمالات، وبالنسبة إلينا لا وجود للكمال، وليس هناك وجود نهائي. ولكن من خلال كل ما نمر به، من الإمكانية إلى الفعل، من المحتمل إلى المنجز، لنا نصيبنا في هذا الوجود الحقيقي لله. هذا ما أعنيه عندما أقول "تحقيقي الذات". لا بد أن تكون تجربتك قد علمتك هذا، وأنت قد نحتت أشكالا كثيرة في حياتك. فحين يبدو لك أي من هذه الأعمال قد أُنجز فعلاً، وبعد أن تخرج شكلاً إنسانياً إلى الوجود، متحرراً من كل ما هو غير جوهري، ويحتفظ داخله بصيغته الواضحة والمثالية، فإنك كحرفي تكون قد "حققت" صورة ذاك الإنسان".

"لقد فهمتك".

"إنك تراني يا اميكل، هنا في دير، أشغل منصباً سهلاً نسبياً لشخص له مثل طبيعي أن يحقق ذاته. إنني أعيش في مجتمع وتراث يعززان جهودي. إن الدير ليس جنة، إنه مملوء بالنقص، وبالخطيئة: ولكن مع ذلك، بالنسبة لأمثالي، إن قانوناً مطبقاً جيداً أفضل بكثير من الحياة الدنيوية. وأنا لا أتحدث فقط عن السلوك والعادات والمبادئ الأخلاقية، وإن كان الفكر المجرد، الذي يجب أن أستخدمه وأعلمه، بحكم مهنتي، يتطلب، حتى في الممارسة، حماية معينة من مؤثرات دنيوية. وهكذا، كانت مهمتي هنا، في ماريابرون، أسهل بكثير لأحقق ذاتي من خلالها من مهنتك أنت في الحياة في الخارج. إنني شديد الإعجاب بك لأنك عثرت على سبيلك وجعلت من نفسك حرياً وفناناً. لقد كانت حياتك أصعب بكثير من حياتي".

احمر غولدmond شخصلاً لدى سماعه هذا المديح، لكنه أشاع البهجة في نفسه، وقاطعه، ليغير الموضوع.

"على الرغم من أنني فهمت معظم ما كنت تقوله، إلا أن ثمة شيئاً واحداً لا أستطيع إدراكه. هذا الشيء الذي سميت له لتوك "الفكر المجرد" لا بد أنه نوع من الفكر لا يحتوي على أي شيء، أو فلاًقل إن الكلام فيه لا يعبر عن أي شيء".

"حسن، إليك مثلاً لتوضيح الأمر. فكر في الرياضيات. ما الصور التي تحصل عليها من الأعداد؟ من إشارتي الزائد والناقص؟ أو من المعادلة؟ لا شيء على الإطلاق. وعندما تحل مسألة رياضية أو جبرية فلن تساعدك في ذلك أي صورة مهما كانت. إن كل ما تفعله هو أن تقوم بفرض منهجي، باستخدام طريقة معينة كنت قد تعلمتها".

"هذا صحيح، يا نرسييس. فعندما تكتب لي صفاً من الأرقام أو الإشارات، أستطيع أن أشق طريقي دون اللجوء إلى أية صور، وأترك أمر مساعدتي إلى إشارات الزائد والناقص، والجذور التربيعية، والأقواس، وهلم جرا. أو بعبارة أصح كنت أستطيع أن أفعل ذلك ذات مرة! أنا اليوم نسيت كل شيء. لكني لا أفهم كيف يمكن لمثل هذا الفرض المنهجي أن يفيد أي إنسان إلا بوصفه تدريباً ذهنياً لتلاميذ المدرسة. لا شك في أنه من الجيد جداً أن نتعلم الحساب. لكني أعتقد أنه لا معنى من أن يمضي الإنسان حياته جالساً يحل مسائل حسابية، ويملاً صفحات من الورق بصفوف من الأرقام".

"أنت مخطيء يا غولدموند. أنت تتصور أن مثل هذا المنهمك في الحساب يحسب ويحسب، ويحل فروضاً مدرسية جديدة، وضعها أستاذ مدرسة. لكن في استطاعته أن يضع لنفسه مسائله الخاصة، ويمكنها أن تتنامى في ذهنه حتى تكتسب قوة جبارة. ولا بد أن المفكر قد عمل على فراغ حقيقي أكثر وأشد تخيلاً، رياضياً، وخطط له، قبل أن يجرؤ على مواجهة مشكلة فراغ ذاته".

"نعم، ولكن مشكلة الفراغ هذه، بوصفها موضوعاً للتفكير، لا تبدو لي أنها تستحق من أي إنسان أن يبذل جهده وسنين عمره عليها. إن كلمة "فراغ" لا تعني لي أي شيء. ولا تستحق بحد ذاتها أي تفكير، إلا إذا كان بوسعي أن أتصور فراغاً حقيقياً — فلنقل فراغاً بين النجوم. وإن كان مما لا شك فيه أن رؤية هذا، وقياسه، لن يكون طريقة سيئة لقضاء الوقت". قاطعه نرسييس، مبتسماً:

"إن ما تعنيه حقاً هو أن التفكير بحد ذاته يبدو لك عقيماً، وليس

تطبيق الفكر على العالم المرئي والعملي. وأستطيع هنا أن أجيئك. إننا سوف لن نعدم الفرص، ولا الإرادة، لتطبيق فكرنا. إن هذا المفكر، محسوبك نرسيه، على سبيل المثال، قد استخدم نتائج تفكيره، أكثر من مئة مرة، نيابة عن غولدموند، صديقه، ونيابة عن كل راهب من الرهبان، وأفعل هذا في كل ساعة. ولكن كيف يمكن للمفكر أن يطبق أي شيء، إلا إذا تعلمه، ومارسه أولاً؟ إن الشعراء والحرفيين يمارسون على الدوام مشاهداتهم وأخيلتهم، ونحن نمتدحهم على مهارتهم، حتي وإن استخدموها لإعطائنا صوراً سيئة أو زائفة، لا يمكنك أن ترفض فكراً كهذا، ومن ثم لا تطلب إلا "استخداماته العملية". إن التناقض واضح. إذن دعني في سلام لأقلب أفكارك، وأعطني رأيك حين أعرض عليك نتائجها، تماماً كما أنني سوف أحكم على حرفيتك من خلال أعمالك. وأنت حالياً قلق ومتقلب المزاج لأنه ما زالت هناك عقبات تقف حائلاً بينك وبين حرفتك. أرحها، إذن! جد ورشة عمل، أو ابن واحدة، وياشر العمل. وبهذا سوف تحل الكثير من المشاكل".

لم يكن غولدموند ليطلب أفضل من هذا.

انتقى سقيفة بجوار بوابة الفناء، وكانت في ذلك الوقت خالية وتصلح كورشة عمل. وطلب من النجار طاولة رسم، وقطع أثاث أخرى أعد لها أوراق القياسات. ووضع لائحة بكل ما على حمالي الديار أن يحضره له، قطعة قطعة، من المدن المجاورة - لائحة طويلة. وانتخب قطعاً من الخشب من دكان النجار، أو من الغابة، من كافة أنواع الخشب المقطوع، ووضعها جانباً، كومها واحدة فوق الأخرى، وتركها لتجف، في قطعة أرض معشوشبة تقع خلف ورشته، وهناك، وبيده، أقام سقفاً فوقها. وعهد إلى الحداد أيضاً كثيراً من العمل، وقد افتتن أي فتنة بابه، وهو فتى غرض حالم، وحظي بدعته. فكانا معاً يقفان، حتى منتصف النهار، في دكان الحداد، أمام السندان أو حجر الشحذ، يطرقان كل أنواع سكاكين النقش، والمثاقب، وحديد الخلاقة، المعقوف الشفرة منه أو المستقيم مما احتاجاه للعمل في

الخشب. وأصبح ابن الحداد، واسمه إريش، وهو فتى في العشرين، صديقاً لغولدموند، وكان يساعده في كل شيء. كان تواقاً إلى التعلم، وأحياناً عندما كان مرأى نرسييس وديره يملآن قلب غولدموند بالخجل في إحساسه بالكسل، كان دائماً يجد عزاءه في إريش، الذي كان يكن له حباً حقيقياً، وجعل منه بطلاً. وكان الفتى يتوسل إليه أن يحكي له حكايا عن مدينة الأسقف وعن المعلم نيقولاس، وكان غولدموند يلبي طلبه بكل سرور، إلى أن يشعر فجأةً بالدهشة إذ يجد نفسه جالساً هكذا، كرجل عجوز مملوء بحكايا وإنجازات وترحالات تنتمي إلى زمن غابر، عندما كانت حياته مجرد بداية.

ما كان لأحد، بما أنه لا أحد هنا كان يعرفه مسبقاً، أن يدرك كم عملت هذه الأشهر الأخيرة على إنضاجه وتغييره، على جعله أكبر سناً من عمره الحقيقي. لعل حياة المتشردين المحفوفة بالمخاطر وأوقات الشدة قد بدأت تستنفذ قواه، عندما واجه الوباء، بكل ما صاحبه من مشاهد مرعبة، وعانى تجربة السجن على يد الكونت، والفرع الذي تملكه في تلك الليلة في سرداب القلعة. لقد هزت هذه التجارب كيانه من الأعماق، ولا زال الكثير من دلالات معاناته باقياً، كالشعر الشائب في لحيته الصهباء، والتجاعيد الرقيقة المرتسمة على وجهه، والليالي التي يضطرب فيها نومه، وأحياناً ينتاب قلبه إرهاق معين، وتراخي الرغبة عنده والفضول، وإحساس غامض بالتخمة. لكن الشباب عاوده من خلال حكاياه مع إريش. في الأوقات التي كان في إمكانه أن يتوانى خلالها في دكان الحداد والنجار، عندئذ كان يمتلىء بالحياة، وكان الجميع يحبونه، وإن كان في أحيان أخرى كان يجلس على مدى ساعة يحلم ويتسم بينه وبين نفسه، مفعماً بأغرب فتور في الشعور، واللامبالاة.

أما أصعب الأمور عليه فكان تقريره أي الأشكال سيبدأ أولاً بحفره. هذا الأمر، هذا البدء في عمله، الذي ينفذه كرد لضيافة الدير له، يجب أن لا يكون نتاج المصادفة والكسل، منجز بسرعة لإثارة الفضول، بل يجب

أن ينبع من قلب حياة ماريابرون، وأن يكون، مثل تلك المنقوشات القديمة الموجودة في الكنيسة، جزءاً نقيساً من الطراز نفسه. وكان يفضل فوق كل شيء أن ينحت منبر وعظ أو مذبحاً، ولكن لم يكن لأي منهما حاجة، ولا فراغ. غير أنه مع ذلك فكر في شيء يعادلهما في الجودة. فكانت هناك مشكاة داخل جدار حجرة الطعام الأمامي، يقف داخلها أخ صغير ويقرأ بصوت عال، أثناء تناولهم الطعام، حياة القديسين. وكانت هذه المشكاة نحالية من أي زخرفة، فقرر غولدموند أن يغطي الدرج الموصل إلى المقرأ، والطاولة نفسها التي يقرأون منها، بكساء خشبي من الزخرفة، مع تماثيل عذبة، كتلك المحيطة بمنبر الوعظ، بعضها منحوت بشكل نافر، والبعض الآخر يكاد يكون متحرراً من الخشب. وحين باشرا أخيراً بالعمل كان عيد الميلاد قد مضى، وتغطت الأرض بالثلوج.

اتخذت حياة غولدموند شكلاً آخر. بدا الآن وكأنه غادر الدير. لم يعد أحد يراه الآن، لم يعد ينتظر نهاية أسبوع الدروس ليراقب كتيبة الفتية تهبط إلى الباحة، لم يعد يتسكع في الغابة، ولا يتمشى بكساء في أنحاء الدير. أصبح يتناول وجبات طعامه مع الطحان - غير أنه لم يكن الطحان ذاته الذي كان يزوره وهو فتى - ولم يعد أحد يدخل إلى ورشته، ما عدا مساعده، إريش، وإن كان أحياناً حتى هو لم يكن يسمع كلمة واحدة منه، مع بقائهما معاً أيام.

من أجل الرواق الدائر حول المقرأ فكر في اللحظة التالية: بالنسبة إلى النصفين اللذين سيقسم العمل إليهما، فواحد كان سيمثل العالم، والآخر كلمة الله. النصف السفلي الدرج الصاعد إلى الطاولة، البارز من خشب السنديان القوي، ويدور حوله، سيمثل الخليقة كلها، وأعمال الطبيعة، والحياة البسيطة للبطاركة والأنبياء. والنصف العلوي، قداس الطاولة، سوف يحمل تماثيل الأنجيليين الأربعة. على أحدهم سيخلع وجه الرئيس دانييل، وآخر سيكون خليفته، المرحوم الأب مارتن، وعلى تمثال لوقا

سوف ينقش هيئة المعلم نيقولاس تخليداً لهم. كانت أمامه عوائق كثيرة عليه تجاوزها، وكانت أصعب بكثير مما خمن. وهذا أحزنه، بيد أنه كان حزيناً ممتعاً. كان يتودد إلى القطعة التي يعملها ويغويها، يملؤه اليأس والابتهاج وكأنه يغازل امرأة عصبية، يتصارع معها، برقة وحزم، كصياد سمك يصنر سمكة كراكي كبيرة، يتعلم من كل صعوبة يمر بها، ويجعل أصابعه أكثر فأكثر رهافة. ونسي كل شيء آخر - الدير، وكاد ينسى حتى نرسيس، وعلى الرغم من أن رئيس الدير استعلم مراراً إلا أنه لم يكن ينجح إلا في مشاهدة رسومات.

ولكن ذات يوم، وكتعويض له، فاجأه غولدmond بطلب تقديم اعترافه والحصول على التكفير.

قال: "لم أتمكن قبل الآن من الإقدام على تقديم هذا الطلب إليك. كنت في الأساس أشعر بالصغر أمامك. الآن لم أعد أشعر بكثير من الصغر. فلدي عملي، ولم أعد نكرة، وقبل أي شيء، بما أني أعيش في دير، أشعر أن علي أن أخضع، أسوة بكل الآخرين".

لم يعد يرغب في الانتظار، بما أنه بات الآن يشعر أن الساعة قد أزفت لذلك. وزيادة على ذلك فخلال الأسابيع الأولى التي قضها في التأمل هنا، غارقاً في ذكريات مفاجئة، وليلة مرابع الصبا هذه كلها - وأيضاً لاحقاً، وهو يحكي لإريش - وجد، لدى استعراضه أحداث حياته الماضية، أن لأيام حياته شكلاً معيناً ونظاماً.

تقبل نرسيس اعترافه دون مراسم. واستغرق اعترافه ساعتين كاملتين. واستمع رئيس الدير، دون أن تند عن وجهه حركة واحدة، إلى كل مغامرات، وأحزان، وخطايا صديقه، طارحاً عليه الكثير من الأسئلة، لكنه أبداً لم يتدخل فيما كان يسمع، ومنصتاً دائماً دون أي تشوش، إلى غولدmond، وهو يؤكد أنه كان يفتقر إلى أقل قدر من الإيمان، معترفاً بأنه

تغلى عن الإيمان سواء بعداله الله أم برحمته. وقد صُدم بأمور عديدة أفضى بها التائب إليه، وأدرك مدى عمق اهتزازه، وغور ندب جرحه وكم اقترب أحياناً من التحطم الكامل. غير أنه على الرغم من كل ذلك اضطر إلى أن يرسم ابتسامة أمام براءة صديقه الطفولية، الذي وجده مسربلاً بمشاعر الندم وبالوجع، يملأه اليأس لما اعتبره أفكاره المندسة، مع أنها كانت بريئة تماماً، إذا قورنت ببعض تلك الأفكار التي كانت تسكن كاهن اعترافه - وحتى أعماق أعماق الشك في عقل نرسييس.

دهش غولدموند بل أصيب بالهزيمة، لأن نرسييس تلقى خطايا به بكل تلك الخفة، على رغم أن هذا الكاهن حثه على أداء واجبه وأنزل به عقاباً بلا حدود بسبب إهماله للصلاة وللأسرار المقدسة. أنزل به كفارة أن يعيش حياة طهر وصيام طوال شهر، قبل أن يتناول خبز القربان من جديد. وكان عليه أن يستمع إلى أول قدامس في الصباح، ويرتل الصلاة الربانية، وترتيلة دينية لمريم، في كل ليلة.

ثم قال: "أتوسل إليك وأستعطفك أن لا تأخذ هذه الكفارة بخفة. لا أدري إن كنت لا تزال تحفظ نفس القدامس. يجب أن تتبعه كلمة فكلمة، وتدع معناه يغوص داخل وجدانك. بالنسبة إلى الصلاة الربانية وبعض التراتيل فأنا سأعطيك إياها، سوف نباشر معاً اليوم، وسوف أبين لك فيها بجلاء تام قيمة فقرات وكلمات معينة. سوف لن نلفظ أبداً كلمات الرب، أو أن ننصت إليها كما نتكلم وننصت إلى كلام بقيمة الناس. فإذا وجدت أنك ترددها صمًا (وهذا سيحدث معك كثيراً) فيجب أن تفكر فيما أقوله لك الآن. ومن ثم ستبدأ بالصلاة من جديد، مردداً الكلمات بشكل يجعلك تشعر بها من أعماق قلبك. والآن سأقول لك كيف تفعل ذلك".

سواء بفعل مضادفة سعبدة أو لأن معرفة رئيس الدبر بالأرواح قد تعمقت إلى درجة أن يستخلص هذه النتيجة، فإن الزمن الذي أمضاه غولدموند في تنفيذ العقوبة والكفارة جلبت إليه أياماً كثيرة من السلام والتناغم، أياماً أبهجته عقله، وسط هموم عمله، والعقبات التي اعترضت

سييله. فكان في كل صباح ومساء يشعر بتجدد مستمر عن طريق التدريب الروحي الخفيف، وإن كان دقيقاً ومتقياً بعناية: تخلص من الكفاح القلق الذي طبع أيامه، وانسحب قلبه وعقله من العزلة الخطرة لحرفته، وأضحيا على صلة قرابة مع نظام أرقى - مع يقين حرر قلبه، وقاده وكأنه طفل إلى مملكة الرب.

لقد كانت هذه الساعة الوحيدة من العزلة الرخية، وهو المضطر إلى أن يجاهد في وحدة تامة مع صوره، تعود به، مرة بعد مرة، إلى الرضى. وكثيراً ما كان يستشيط غيضاً، أثناء عمله، أو يملأه ابتهاج مجنون: لقد كانت هذه العقوبة الهائلة التي أنزلها صديقه به أشبه بغوصه في مياه باردة، عميقة، وهي تنظفه من كبرياء رغبته، ومن كبرياء يأسه. لكن هذا لم يكن دائماً ينجح. فكثيراً بعد انقضاء يوم عمل كادّ، لا يجد أية سكينه، أو رضى. وفي مرات عديدة كان ينسى تلك الصلوات كلها. وغالباً ما كان يعذبه ويعيقه أن يفكر، وهو يجاهد كي يعود للانغماس في سكينتها من جديد، في أن كل الصلوات ليست في النهاية إلا كفاحنا الصبياني للعثور على إله لا وجود له في حقيقة الأمر، أو، إن كان موجوداً، فلا قدرة له على مساعدتنا. وجاهر بشكواه هذه إلى صديقه.

قال نرسييس: "ابق عليها، لقد وعدت ويجب أن تلتزم. لست أنت المؤهل للتفكير فيما إذا كان الله ينصت إلى صلواتك، أو إن كان موجوداً حقاً، كما تخيله أنت. وليس من شأنك أن تغتاض أو تنتابك الحيرة حول ما إذا كان كل هذا أقرب إلى عبث الأطفال. وبالمقارنة مع الله الذي تتوسل إليه فإن كل صراعاتنا الإنسانية ما هي إلا لعب أطفال. يجب أن تحرّم على نفسك تحريماً تاماً لتقليب كل تلك الأفكار الصبيانية الحمقاء أثناء تدريبك. اتلّ الصلاة الربانية وترتيلتك، وكرس نفسك للكلمات، امتلىء بها، دعها تنفذ فيك، وكأنك تغني أو تعزف القيثارة. فحين تغني أو تعزف لا تدع عقلك يشرد ليتصيد أفكاراً وتأملات

حاذقة، لكنك تكافح لإخراج كل نعمة وتنقرها بأقصى ما بطاقتك في وضوح وكمال. وعندما نغني لا نغني أنفسنا بتساؤلنا عن جدوى الغناء، إننا نغني، ولا أكثر! وهكذا يجب أن نصلي".

ونجحت مرة أخرى، مرة أخرى برزت ذاته المضطربة النهممة إلى السيطرة الكاملة على هذا الدير، وتدفقت الكلمات الجميلة إلى أعماق قلبه، وتغلغل في أنحاء جسمه كنجوم لا تحصى.

أخذ رئيس الدير يراقب بسرور كيف أن غولد موند، حتى بعد أن نال عقوبة الكفارة، وبعد أن تناول جسمه السرب، مازال يواصل تدريبه اليومي الذي أعده، وظل على هذا الوضع لشهور وأسابيع طويلة.

في تلك الأثناء كان العمل يتقدم. وبرز من وضم الخشب العريض المقطع إلى درجات لولبية، عالم من الأشكال النافرة، والنباتات والحيوانات، ورجال متصافرون معاً، وقد وقف وسطهم الأب الجليل نوح، بين كروم عنبه المثقلة بعناقيدها.. كان كتاب صور وأنشودة شكر نابض من كل مخلوقات الله بكل حاملها، وأصل منها حبر على طريقته، ومع ذلك يسير على هادي الطبيعة، وقانون سري.

خلال تلك الأشهر كان يمكن لإريش أن يسهر على العمل وحده، وهو المعتاد على بذل جهد المبتدئين فيه، بحيث أنه بات لا يفكر إلا في أن يصبح هو نفسه نقاشاً. ولكن حتى هو كان محرمًا عليه، في أيام كثيرة أن يدخل ورشة العمل، وإن كان غولد موند في أيام آخر يغدو صديقه، فيرشده، ويدعه يجرب، ويفرح في دنجيلته أنه عشر على تلميذ ومريد. وعندما ينتهي العمل، إذا كان جيداً، كان ينوي أن يستجدي إريش من والده، ويأخذه معه كعامل دائم.

لم يكن يستطيع أن يعمل على تراثيل الإنجيليين إلا في أفضل أيامه، وهو خلوي البال، ولا يشوش تفكيره ألم أو حيرة. وكان يشعر أن أفضلها

هو الذي استمد شكله من الأب الرئيس دانييل، وأحبه حباً جماً، لأن البراءة والرقّة تشعان من وجهه. وكان سروره بصورة المعلم نيقولاس أقل، على الرغم من أن إعجاب إريش بها كان هو الأشد. كانت تبرز حزناً شديداً وصراعاً، وبدت مفعمة بمشاريع نبيلة تنتظر الخلق، لكنها حبلت بالمعرفة السرية بأن كل أعمالنا لا قيمة لها، وتتعذب لتحقيق وحدتها المفقودة وبراءتها.

عندما أصبح تمثال الأب الرئيس دانييل جاهزاً تماماً طلب من إريش أن يكبس الورشة. وغطى بقية التماثيل كلها بالقماش، تاركاً هذا فقط معرضاً بأكمله للنور. ومن ثم انطلق يبحث عن نرسييس ولكن، بما أن رئيس الدير لم يكن لديه وقت يضعه معه، انتظر بصدر ضيق حلول الصباح. وقرابة الظهيرة قاد نرسييس إلى الورشة.

وقف صديقه وحديق. استغرق وقتاً كافياً في تفحص التمثال المائل أمامه بكل عناية وانتباه الفقهاء. وانتظر غولدموند خلفه وهو صامت، يحاول أن يخذ العاصفة المضطربة في قلبه.

قال في نفسه: "آه، إذا أخفق أحدها الآن فستكون كارثة!، إذا لم يكن عملي جيداً، أو أنه لم يفهمه، فعندئذ سيكون جهدي قد ذهب سدى. في كل الأحوال كان يجب أن أنتظر".

تلك الدقائق بدت كساعات. وتذكر يوم وقف المعلم نيقولاس وهو يحمل رسمه الأول، وانتظر، وهو يضغط معاً يديه الرطبتين الملتهبتين.

لكن عندما التفت نرسييس أدرك أنه قد نجح. لقد رأى شيئاً يتدفق من ذاك الوجه النحيل، الحاد التقاطيع، برعم ابتهاج لم يكن قد رآه منذ أيامهما معاً في فترة الفتوة: ابتسامة تكاد تكون حيية وفيها خوف، ومضت حول تينك العينين، الزاخرتين بالإرادة وبالذكاء، ابتسامة حب لا ينضب، خفقة نور، وكأن كبرياءها وعزلتها قد كسرا في تلك

اللحظة، ولم يبق غير القلب، بما يملأه من حب، مرثياً.

قال نرسيس، برقة متناهية، وكان حتى عندئذ يزن كلامه: "غولدموند لا يمكن أن تطلب مني فجأة أن أصبح ناقداً للتمائيل، فأنا لست كذلك، كما تعرف جيداً. لا يسعني أن أدلي بأي شيء حول فنك، دون أن يبدو من قبيل الثرثرة بالنسبة إليك. ولكن فلأقل شيئاً واحداً - لقد أدركت منذ النظرة الأولى أن هذا الإنجيلي يعمل صورة الأب الرئيس دانييل، ليس فقط كما كان، وإنما بكل ما يمثله بالنسبة إلينا في تلك الأيام، جلاله ورقته، وبساطته. وكما كان الأب الرئيس دانييل المتوفى يمثل أمام عيوننا وتوقيعنا الفني، كذلك أراه هنا من جديد، ومعه كل ما كان قدسياً بالنسبة إلينا في تلك الأيام، كل ما جعل ذاك الزمان ذكرى لا تنسى. لقد قدرت صداقتي بأئمن تقدير يا غولدموند فأنت لم تكتف بأن أعدت إلي الأب الرئيس دانييل، بل وكشفت لي عن دخیلتك كاملة ولأول مرة، الآن، لقد رأيتك كما أنت. كفانا كلاماً عن هذا - لا أجرؤ على قول المزيد. آه، يا غولدموند، ما أحلى هذه الساعة التي عادت إلينا".

شمل الغرفة سكون عميق. ولاحظ غولدموند مدى عمق فرح صديقه. غير أن ثمة شيئاً خنق إجابته.

قال باختصار: "نعم، أنا سعيد بهذا، أما الآن فقد حان وقت ذهابك إلى قاعة الطعام".

الفصل التاسع عشر

استغرق هذا العمل من غولدموند سنتين، وبدءاً من الثانية أصبح يتخذ من إريش مساعداً له طوال اليوم. وعلى الدرايزين الخشبي لببت سلميه زرع جنة صغيرة أخرى، وكان ينقش وهو سعيد برية بسيطة مؤلفة من جذوع أشجار كثيفة الأوراق وأعشاب مخضلة، وعصافير تقف على الأفنان، ورؤوس وأجسام لحيوانات كامنة تتلصص من كل مكان من خلال السويقات. ووسط هذه الحديقة الوادعة، النامية، وضع مشاهد من حياة البطارقة. وكانت تمر عليه أيام يجد خلالها من المستحيل عليه أن ينقش أي شيء، وذلك عندما كان قلق العقل وإرهاقه يبعدانه عن الورشة. وخلال تلك النوبات كان يוכל إلى إريش مهمة تستغرق منه اليوم بأكمله، ويخرج هو يهيم على وجهه بين الحقول، أحياناً على صهوة جواد، ليتذوق قليلاً من التشرّد والحرية، ليجدّ في ملاحقة ابنة أحد الفلاحين في إحدى القرى، لیتصيد، أو ليستلقي طوال ساعات وسط العشب الباسق، يحدق عالياً إلى قناطر الغابة. من خلال غاب من السرخس والرتم. بعد ذلك كان يعود إلى العمل بحماس جديد، ينقش بفرح مزرعته من الأعشاب والأشجار، مستدرجاً برقة وجوه الرجال

كفي تبرز من الخشب، فيحفر فماً يوضع ضربات صارمة، أو خط عين، أو لحية كثة. وخلافاً لإريش لم يكن أحد يشاهد هذا العمل إلا نرسييس، وكان غالباً ما يأتي إلى الورشة، التي كانت أحياناً تبدو أنها غرفته المفضلة في الدير.

هنا كان يجلس ويراقب كل شيء، مذهولاً ومبتهجاً. ها هي، أخيراً، كل الأشياء التي طالما أخفاها صدقه في قلبه الطفل، الجريء، المرتاب، مزدهرة في عمله. إنها تزهر هنا في كل ركن - إبداع، عالم صغير، يخرج براعم، لعلها لعبة، لكنها دون شك ليست أسوأ من لعبة القواعد اللغوية، والمنطق، واللاهوت - وذات يوم قال بذهن شارد:

"إنني أتعلم الكثير منك يا غولدموند. بدأت أفهم ما يفعله الفنانون. وحتى الآن لم يكن قد تبدى لي قط أن فنهم، بالمقارنة مع فكري وعلمي، يجب أخذه بعين الجدية الكاملة. كنت أفكر بشكل أو بآخر على النحو التالي: بما أن الإنسان هو قبل أي شيء خليط ملتبس من المادة والروح، وبما أن روحه يمكن أن تقوده إلى معرفة الأبديّة، في حين أن المادة لا تجره إلا إلى الأسفل نحو الموت، ونفسه مغلوطة إلى كل ما هو فان، فعليه أن يكافح ليتعد عن الحسيات إلى الروح، وبهذا يمجّد حياته، ويضفي عليها معنى. الآن فقط بدأت أدرك كم هناك من دروب تؤدي بنا إلى المعرفة، وأن الدراسة ليست الدرب الوحيد المؤدي إليها، ولعلها ليست الأفضل في ذلك. هي دون شك دربي أنا، ويجب أن ألتزم بها، إلا أنني أراك تتخذ الدرب المقابلة، تلك التي تقود عبر الأحاسيس، وتوصل عميقاً إلى المعرفة بقدر ما يحققه أغلب المفكرين في الوصول إلى جوهر وجودنا وسره، وبأسلوب أكثر حياة بكثير".

قال غولدموند: "ها أنت تفهم الآن لماذا لا أتوصل إلى إدراك أي فكرة بدون تخيلها".

"لقد أدركت هذا منذ زمن بعيد. إن الفكر هو تبسيط أبدي - هو الوصول إلى النتائج، بعيداً عما تراه العين، محاولة بناء عالم من الفكر

الصرف. أما أنتم أيها الحرفيون فتضمون أشد الأشياء قابلية للفناء إلى قلوبكم، ومن قلب فنائها وفسادها تعلنون معنى الحياة. إنكم لا تنظرون أبعد من ذلك أو فوقه، بل تكرسون أنفسكم له، ولكن من خلال تكريسكم ترفعونه إلى أعلى الذرى، حتى يبدو كصورة مصغرة عن الأبدية. إننا نحن المفكرون نكافح لنصل إلى ربنا بإبعاد العالم من أمام وجهه. إنك تأتي إليه، تحب خلقه، وتعيد تشكيله من جديد. وكلا الإثنين هما عملاقان إنسانيان ناقصان، ولكن من بين الإثنين الفن هو الأكثر براءة".

"لا أستطيع أن أقول هذا يا نرسييس. ولكن يبدو أنكم معشر المفكرين واللاهوتيين يمكنكم أن تنجحوا أفضل مني بكثير في الإطاحة بالحياة، وتحضنون اليأس بملء أذرعكم. إنني منذ زمن بعيد كففت عن حسدك على علمك، يا صديقي، لكني أحسدك على هدوئك، على سكينتك، وتوازن طبعك".

"ليس لدي ما أحسدُ عليه يا غولدموند. ليست هناك سكينه بالمعنى الذي ذكرته. لاشك في أن هناك سكينه، لكن ليست تلك السكينه التي تقيم فينا، ولا تفارقنا. على الأرض هناك فقط تلك السكينه التي يجب أن نقهرها مرة بعد مرة، من يوم إلى يوم، بهجمات وانتصارات متجددة دائماً. إنك لم ترني قط أهاجم. لا تعرف شيئاً عن شكوكي أثناء دراسي، وعذاباتي في صومعتي عند تلاوة صلواتي. من حسن حظك أنك لا تتعرض إلى هذا. إن كل ما تستطيع أن تراه هو أنني أقل عرضة لتقلبات المزاج منك، فتظن أنني ولا شك في حالة سكينه. ولكن كما هو الحال في كل حياة حقيقية، كلها صراع وتضحية. مثل حياتك أنت أيضاً، amicé".

"لا حاجة بنا إلى التشاجر حول هذا. ولكنك مع ذلك فأنت لا ترى كل صراع يجري في قلبي. ولا أدري إن كنت تفهم شعوري عندما

أعتقد أن عملي سوف يكتمل قريباً. سوف يُنقل ويُصَب، وسوف يقرضني الناس عليه، وبعد ذلك سوف أعود إلى ورشتي الخاوية، يعتصرني الحزن لكل ما فيها من نواقص، وللأشياء الكثيرة التي لا يستطيع الآخرون أن يروها، وقلبي فارغ ومتوحد مثل المكان".

قال نرسييس: "لعل هذا صحيح، ولن يتمكن أي منا من فهم الآخر فهماً تاماً. غير أن كل أصحاب النوايا الطيبة يشتركون في هذا - في إحساسنا بأن أعمالنا في نهاية المطاف تجلب لنا العار، وأن علينا دائماً أن نباشر تلك الأعمال من جديد، وتتجدد تضحيتنا دائماً وأبداً".

بعد بضعة أسابيع من ذلك أصبح عمل غولدmond جاهزاً، ونُصِب. وقد حدث كل شيء الآن كما كان قد حدث قبل سنين. وأصبح العمل ملكاً لأناس آخرين، شوهد، وقُيِّم، ومُدِّح، وتلقى صاحبه التشريف. لكن قلبه وورشته ظلاً مخدولين، ولم يعد يدري إن كان كل ما بذله من جهد مقابل أي شيء له قيمة. وفي يوم رفع الستارة عنه تناول الطعام في قاعة طعام الأب الرئيس. وأقيمت وليمة، وقُدِّمَ فيها أعتق خمر في الدير. وأكل غولدmond السمك اللذيذ ولحم الطرائد. أما ما أشاع فيه الدفاء والمرح أكثر من الخمر المعتق النادر فكان سرور نرسييس، الذي شرفه، وهلل لعمله.

للتو بدأ بتصميم عمل آخر، نزولاً عند أمر الأب الرئيس ورغبته، وأعد رسوماته، وهو مذهب لكنيسة السيدة في نوزل، وهي كنيسة - دير، يخدمها أب من الدير. ولهذا المذهب، قرر إعداد تمثال لأُم الرب، كان سيستخدمها لينقذ وإلى الأبد ذكرى لا تنسى من أيام شبابه، ابنة الفارس، الحبيبة، الحلوة، ليديا. أما باقي العمل فلم يكن يعني له إلا أقل القليل. وإن بدت فرصة طيبة لترك إريش يجرب يده كعامل ماهر. فإذا نجح الفتى فسوف يكون لديه عامل جيد يخلقه، يمكنه أن يحمل محله ويحرره ليتفرغ لتلك الأعمال التي لا شيء غيرها أثر على قلبه. وخرج

مع إريش لجميع الخشب لصنع المذبح، وليدعه يعده لذلك. وكان غولدموند كثيراً ما يتركه يعمل وحده، وينطلق هو على مدى يوم كامل في الغابة. وكان قد بدأ يهيم على وجهه بعيداً عن الدير، وذات مرة، وكان قد غاب عن الدير على مدى عدة أيام، أخبر إريش رئيس الدير بغيبابه، فخشى أن يكون قد فر من جديد وإلى الأبد. ثم رجع، وعمل مدة أسبوع على صورة ليديا - مادونا، ومن ثم عاد يهيم على وجهه.

لقد كان قلقاً. كانت حياته، منذ أن انتهى من العمل العظيم، قد عادت تتخبط في الفوضى القديمة. ولم يعد يهتم بحضور قداس الصباح الباكر، وكان ضجراً متبرماً إلى أقصى حد. وكثيراً ما كان يفكر في المعلم نيقولاس، ويتساءل إن لم يكن هو أيضاً سيصبح قريباً مثله تماماً، مشغولاً، فظاً، ومامراً، لكنه سيكون عبداً، قلبه خالياً من الشباب. ومر بتجربة جديدة شغلت باله. فذات يوم، وهو في الغابة قابل قروية صغيرة، اسمها فرانشيسكا، أشاعت السرور فيه إلى درجة أنه بذل ما بوسعه للفت نظرها، مستخدماً كل حيلة لجعلها عشيقته. وأنصتت الحسناء إلى كل حكاياه، وضحكت من كل قلبها على نكاته، غير أنها رفضت حبه، وهكذا ولأول مرة في حياته أدرك أنه بدا للفتاة الصغيرة رجلاً عجوزاً. ولم يعد إلى مقابلتها، ولم ينس الأمر. لقد كانت فرانشيسكا على حق، لقد تغير هو نفسه يشعر بذلك، والسبب الحقيقي لهذا لم يكن ما ظهر لديه من بضع شعرات شائبة، وقبل أوانها، ولا هي التجاعيد الصغيرة التي أحاطت بعينه - بل كان شيئاً أعمق، شيئاً كامناً في عقله وفي روحه. لقد شعر أنه عجوز، وأصبح يشبه إلى حد غريب المعلم نيقولاس، وراح يتأمل نفسه بكآبة في المرأة، وهز كفيه أمام ما رأى. لقد أصبح آمناً ومدجناً ككل المواطنين، ولم يعد الآن أرناباً برياً أو نسرأ، بل كلباً منزلياً. وكلما تجول في الحقول، وجد نفسه يفتش عن ذكريات قديمة، وكان ذهنه يمتلىء بأفكار عن مغامرات ماضية بدل أن يعمر بسعادة جديدة، وبالحرية - يصبح مرتاباً

ومتلهفاً ككلب اشتتم رائحة. وكان قضاء يوم أو يومين من المرح بعيداً عن الدير كافياً لجعله يشعر أنه متهرب من آداء واجبه، متذكراً أن الخشب ينتظر مستعداً في ورشته - وشعر بمسؤولية قلقة عن المذبح، وعن إريش، عامله الماهر. إنه لم يعد حراً، ولم يعد شاباً.

بناءً على هذا اتخذ قراراً راسخاً. فعند انتهاء العمل في هذا التمثال لليديا - مادونا سوف يخرج ليهم على الطرقات للمرة الثالثة. لقد كان العيش بين الناس مطولاً أمراً سيئاً. إن تبادل الحديث مع الناس أمر طيب، ولا شك، فهم يفهمون بشكل جيد عمل الحرفي، ويفكرون بخداقة فيه. أما في كل ما عدا ذلك، في الرقة والبهجة، في المرح والثرثرة، والاستمتاع دون حاجة إلى التفكير - من أجل هذه الأشياء يلزم الأمر نساء وتشرد، والدروب وما تحمله من تغيرات ومغامرة، ولا يمكن تحقيق أي من هذا بالقرب من الدير. إن كل شيء هنا، وكل المناطق المحاورة للدير قد زاد من كآبة قلبه ورصانته، من ذكورته وثقل همه، ولوثته وتغلغل في دمه.

بث فكرة الانطلاق في رحلة أخرى البشر في نفسه. وانكب مجد على عمله، ليتحرر منه في أقرب فرصة، ومع ظهور الشكل العام لليديا بالتدريج من الخشب - وهو ينقش التضاعيف الطويلة للرداء بخطوط مستقيمة بدءاً من ركبتيها الرقيقتين وإلى أسفل - تدفقت فيه سعادة عميقة تهز الكيان، وتضان حزين لصورتها، هذا الشكل المتناسك، الرعديد لحسناء شابة، وكل ما استحضرتة من ذكريات عنها، عن عهد شبابه، وحبه الأول، وبهجته الأولى. وعمل ببطء شديد وعناية، شاعراً أن هذا الشكل متحد مع كل ما يعمر به قلبه من سرور، ومع فرحه وأعذب ذكرياته. وكان تشكيل انعطافة جيدها، وابتسامتها، والفم الحزين، ويديها الجميلتين، والأصابع الطويلة، وكؤوس أظافر منحنية جميلة، شيئاً رائعاً. وإريش أيضاً كان كلما أتيج له يتأمل التمثال في حيرة ممتعة.

عندما اقترب من إنهاء عرض تمثال ليديا على الأب الرئيس.

قال نرسييس:

"هذا أجمل عمل لك يا غولدموند. ليس لدينا ما يجاريه هنا في الدير. ويجب أن أقول لك أنني خلال الأشهر الأخيرة كنت شديد القلق حول سعادتك. لاحظت أنك مضطرب جداً وتتلوى من الألم، وعندما خرجت وغبت أكثر من يوم، خشيت أن لا تعود إلينا أبداً. وها أنت الآن قد صنعت لنا هذا التمثال الجميل. أنا شديد الفخر بك يا صديقي وسعيد".

أجابه غولدموند: "نعم، لقد كان التمثال في النهاية جيداً. ولكن إسمع يا نرسييس." إن صنع ذلك التمثال استهلك مني كل شبابي، استلزم كل تشردي وعلاقاتي الغرامية، وكل امرأة عرفتھا. هذا هو مصدر عملي، وقريباً سينضب المعين، لأن قلبي يذوي باضطراد. سوف أنهي تمثال ماريا هذا، بعد ذلك سوف أطلب إجازة طويلة - لا أستطيع أن أقول لك كم ستطول. يجب أن أرحل من جديد، وأفتش عن شبابي، عن كل ما جعل الحياة عزيزة علي. هل تفهم؟ حسن، أنت تعلم أنني ضيفك. ولم ألتق قط أي أجر على عملي".

هتف نرسييس: "لقد عرضت عليك كثيراً".

"نعم، والآن قررت أن آخذه. سوف أطلب صنع ملابس جديدة لي، وعندما تصبح جاهزة سأحضر إليك وأطلب منك جواداً، لأنطلق من جديد، وبضع تاليرات ذهبية لتكاليف الرحلة. لا تعترض يا نرسييس، ولا تحزن! هذا لا يعني أنني لم أكن سعيداً هنا - فما كنت لأجد قط حياة أفضل - بل هو شيء آخر. فهلا لبيت لي طليبي؟".

لم يضيف شيئاً على هذا. وطلب غولدموند تفصيل ستره بسيطة له وحذاء ركوب، ومع اقتراب الصيف أنهى تصويره لمادونا، وكأنه كان آخر عمل يقوم به. وبينما هو يضع اللمسات الأخيرة الدقيقة على

شعرها ويديها، وعلى وجهها الحزين، كان يفعل ذلك وكأنه يعمل على تأخير رحيله، وكأنه يؤجله مراراً وتكراراً من أجل إلقاء النظرة المرفهة الأخيرة على جمال ليليا. وممرت الأيام تبعاً، وظل أمامه إجراء هذا التحسين أو ذاك. وكان نرسييس، على الرغم من أن رحيله كان يسبب له الأسى، كثيراً ما كان يتنسم أمام حمام غولدموند، الذي بدا أنه يشده بقوة إلى أم الرب ذاتها.

ثم كان يوم أدهشه غولدموند بزيارته مفاجئة، ليستأذنه بالرحيل. وكان قد قرّر قراره بين ليلة وضحاها. جاءه مرتدياً سترته الجديدة، والخذاء، والقلنسوة، طالباً مباركة رئيس الدير. وكان قبل ذلك بقليل قد اعترف، وتلقى القربان المقدس. لقد كان هذا الفراق يثمن ثقيلاً عليهما معاً، على الرغم من أن غولدموند تظاهر باللامبالاة المتكررة أكثر مما كان يشعر.

سأله نرسييس: "ألن أراك مرة أخرى؟"

"أه نعم، ستراني حتماً - إلا إذا أسر حصانك عنقي. والآن لم يعد هناك ما يستدعي مناداتك بـ "نرسييس" وإزعاج رأسك. سوف تراني مرة أخرى، لا تخف. لا تنس مع ذلك أن تعني بإريش ولا تدع أحداً يمد يده إلى تمثالي الجديد. يجب أن يظل قائماً في غرفتي، كما قلت لك، ولا تسلم المفتاح قط لأي كان."

"هل أنت سعيد لأنك راحل؟"

ضيق غولدموند عينيه.

"حسن، لا أنكر أنني أحب التفكير في هذا. أما الآن وأنا مززع على الرحيل لا أجدُه أمراً جيداً جداً كما كنت آمل. سوف تضحك مني وتقول إنني أحمق، لكنني لا أجد من السهل علي البتة أن أغادرك، بيد أن هذا الاتكال عليك يكدرني. وكأنه مرض. إن الشبان الأصحاء، لا

يتصرفون هكذا. غير أن المعلم نيقولاس تصرف هكذا. آه، لم نسرف في هدر الكلمات. باركني يا نرسييس. أريد أن أذهب." وانطلق.

لم يكف نرسييس عن التفكير في صديقه، لقد كان يخشى عليه، ومع ذلك اشتاق إلى عودته. هل سيعود الطائر الذهبي، الشارد، أبداً إلى يده؟ ليحفظه الله ويعيده سالماً إلى موطنه. كم سبب له هذا الفتى ذو الشعر الأشقر من هموم كثيرة، وكان يتذمر طوال الوقت من أنه يصبح عجوزاً، ومع ذلك يرنو إليه بتيئك العينين البريئتين. كم هو خائف عليه الآن. هذا الفراشة وقد سار في دربه المتعرج، نحو الخطر ربما، إلى الموت أو إلى سجن جديد، وسرت فيه الرعدة، إلا أنه فرح. امتلاً في أعماق دخليته بالبهجة لأن الطفل المبكر النضج صعب المراس، ولأن نزواته كثيرة ولا شيء يكبح جماحه.

في كل يوم، في ساعة أو في أخرى، كانت أفكار الأب الرئيس تعود إلى غولدموند، قلقاً واشتياقاً، حباً، وامتناناً، وأحياناً ينتابه الشك، وتأنيب الضمير. أما كان عليه ربما أن يبدي دلالات خارجية أكثر على حبه، أن يبين لغولدموند أنه لا يريده أن يكون غير ما كان عليه، وإلى أي مدى عمل هو ونقشه على إغنائه؟ لقد كان قليل الكلام، وربما شحيحاً جداً، في هذا المجال. من يدري ربما كان نجح في الاحتفاظ به.

غير أن غولدموند لم يعمل فقط على إغناء حياته، بل جعله أيضاً أشد فقراً وأكثر ضعفاً، ولا شك في أنه كان من الأفضل أن يحتفظ بهذا السر. وهذا العالم الذي فيه بيته، هذا الدير، وثقافته ومنصبه، وكامل بناء فكره الراسخ المتين - ألم يتزعزع من أساسه، وكاد يفقد إيمانه به، بتأثير حياته مع غولدموند؟ لا شك في أنه، لدى النظر إلى أساليبه من موقعه في الدير، وسط يقين العقل، والأخلاق، تبدو أفضل، وأكثر عدالة بكثير: إن

أيامه المنظّمة بالخدمة الصارمة، وتفضيحه المتجددة دائماً، وسعيه الخيبي الدائم وراء الوضوح، وما يجلبه من عدالة عظمى: تشكل حياة أفضل من أي حياة يمكن لهذا المتشرد أن يفخّر بها، هذا الفنان والفاقد.

ولكن عند النظر من على - من وجهة نظر الله - فهل يعتبر هذا النظام والأخلاقية المنسقين، هذا التحلي عن العالم، وعن المتع الحسية، هذا الانسحاب المتحفظ من الدم والوحل إلى الصلاة والفلسفة، أفضل؟ أحقاً خلق الناس لكي يعيشوا حياة منظّمة، تؤدي فعالياتها وواجباتها على قرع الناقوس؟ هل خلق الإنسان لكي يدرس مؤلفات أرسطو والـ summa⁽¹⁾، ويعرف اللغة اليونانية، وأن يخضع أحاسيسه ويتجنب العالم؟ ألم يخلق الله الإنسان مع شهواته وكبرياته، وقلب من الدم والظلام، ومع الحرية في أن يأثم، ويتجرب ويبأس؟ كان نرسييس كلما فكر في غولدموند تكون مثل هذه الأسئلة أول ما يخطر بباله.

نعم، وربما ليس فقط من الأيسر والأشهر إنسانية أن نعيش نمط حياة غولدموند في العالم، ربما في نهاية المطاف سيكون من الأكثر بسالة، وأعظم في نظر الله، أن نواجه تيارات الواقع، والإثم ونقبل بعاقبة الإثم المرة، بدل أن نتنحى جانباً، بيدس نظيفتين تماماً، نعيش في أمان رزين، هادىء، نزرع حديقة جميلة من الأفكار الحكيمة الترتيب، ومن ثم نتمشى بين مساكب شمعية من جنة صغيرة، في جهل لا تشوبه شائبة، وربما من الأصعب ويحتاج إلى قلب أكثر ثباتاً اختراق فرح الغابة بخذاء ممزق، وقطع الطرقات بخلفي متعبة، ومعاناة المطر والثلج، والفاقة، والقحط، والاشتراك في الألعاب الحسية، ودفع من كل خسارة نفتقها بألم مبرح.

على الأقل هذا ما بينه له غولدموند - أن الإنسان الذي خلق ليعيش حياة نبيلة يمكن أن يغوص إلى عمق سمح في بحر الدماء والشبق الذي

(1) summa أو summa theologiae، الإلهي، وهو كتاب الوالي في اللاهوت.

يسميه البشر العيش. ويرشش نفسه برذاذ من الوحل والدم، ولكن دون أن يتشوه أو يتقزم، ودون أن يقتل فكرته عن الله، وعلى الرغم من أنه يتجول على مدى سنين طويلة خلال أحلك ظلام، فإنه يظل يحمل الشعلة التي جعلت منه مبدعاً، دون أن يخشى أن تنطفئ.

لقد اكتشف نرسييس بصيرة عميقة داخل روح صديقه المتقلبة، ولم يضعف احترامه أو حبه بأي حال بتأثير ما رأى. آه، كلا - ومنذ أن تابع مولد كل تلك الروائع الجامدة، ولكن المفعم بالحياة، ولكل شكل قانونه الداخلي وكماله، وتلك الوجوه الموقرة ذات العيون الغائرة، التي تشع منها الروح بكل بهائها، وتلك الأيدي المتضرعة أو المانحة الغفران، وكل تلك الصور الواضحة المعالم أو الرقيقة، المتكررة أو الوريعة، أدرك بحق كم من النور ومن نعمة الرب أضاء قلب هذا المتشرد الفاسق.

لقد وجد أنه من الأسهل كثيراً أن يبدو أكثر حكمة من غولدموند أثناء تبادلهما الأحاديث، وأمام حماس صديقه يبرز الوضوح المنظم لعقله. ولكن ألم تكن كل إيماءة في هذه التماثيل، كل عين أو فم، كل حائق، أو ورقة نبات، أو ثوب مثنى، أكثر واقعية، أكثر حياة، ولا غنى عنه أكثر من كل ما يمكن لأي مفكر أن ينتجه؟ ألم يبدع هذا المتشرد، المتزع قلبه بالحاجة وبالتناقض، للأبدية ولكل البشر، رموز حاجتنا الإنسانية، في أشكال يتوجه إليها كلُّ تواق وبهجة، ومخاوف وآمال أعداد لا تحصى من البشر، بحثاً عن السلوى، والقوة والأمان؟.

ابتسم نرسييس مع أنه كان مفعماً بالأسى، وهو يتذكر كل ما مر به في عهد فتوتهما، عندما بدا أنه يرشد غولدموند ويسدي إليه النصيح. وكان غولدموند ينصت إلى دروسه بامتنان، ولم يحتج مرة واحدة، أو يشور غضباً لاتخاذ السهل لموقع القيادة والسلطة. والآن ها هي هذه الأعمال، ابتدعها بكل هدوء، كنتيجة لكل عواتي وآلام هذه الحياة المنهكة - بلا كلمات، بلا مواعظ، بلا إسداء نصائح، بل هي الحياة

ذاتها، شائعة وجيلية. كم بدا مجدداً إلى جانبها جميعاً، بعلمه، ومنطقه، وأخلاقيته كراهب.

هذه هي الأفكار التي ظلت تلح عليه. وكما كان، قبل سنين عديدة، قد وضع يدين شذرتين على شباب غولدموند، وهز عزمه منبهاً، ووضع له حياته في اتجاه جديد، هكذا الآن عاد صديقه ليعكر صفو روحه، ويدفعه إلى الرّيب ومساءلة الذات. إن غولدموند هو نده، إنه لم يأخذ أي شيء من نرسييس دون أن يعيده إليه مئة ضعف.

هذا الصديق الغائب منحه فسحة من الوقت ليفكر خلالها، ومرت أسابيع طويلة، وكانت شجرة الجوز قد أزهرت منذ زمن طويل، وخضرة براعمها الصافية، الوديعه، قد تفتت وأضحت سمراء داكنة منذ ربح بعيد. وكانت طيور اللقلاق الجاثمة فوق أبراج البوابة قد أخرجت صغارها منذ وقت طويل، وعلمتهم الطيران. وكلما توانى غولدموند أكثر في عودته أدرك نرسييس بحدة أشد مبلغ خسارته جراء غيابه. لقد كان لديه عادة آباء مثقفين كضيق في السار، أحدهم ضليع في أفلاطون، وآخر نحويّ شديد، وإثنان من اللاهوت اللامعين. وبين رهبانه كان هناك واحد أو إثنان من ذوي الأرواح المؤمنة الصالحة، الذين يعني لهم نداءهم الباطن أمراً جليلاً. ولكن لا أحد من أولئك كان ناهلاً، لا أحد منهم كان في إمكانه حقاً أن يباري روحه. لقد كان غولدموند يتمتع بمثل هذه الموهبة التي لا تعوض، والآبات من الصعب الاستغناء عنها. كم يشاق إلى صديقه!

كان كثيراً ما يتوجه إلى الورشة، ليشجع الحرفي الماهر إريش، الذي كان ما يزال يواصل العمل على قطعة المذبح، وكان أيضاً شديد الشوق إلى رؤية معلمه ثانية. ومن ثم كان يفتح غرفة نوم غولدموند، التي يقوم فيها تمثال "أم الرب" الجديد، ويرفع عنها قطعة القماش، التي تغطيها بعناية، ويجلس بعض الوقت يتأمل صورتها. لم يكن يعرف أي شيء عن

مصدر إلهامها. فلم يكن غولدموند قد أخبره بقصة ليديا. غير أنه كان يشعر بما وراءها وفهم أن قسمات هذه الفتاة قد سكنت ولسنوات عديدة قلب صديقه. لعله قبل زمن بعيد، أغواها، وخيب أملها، ومن ثم رحل. ولكنه ظل يحمل صورتها في قلبه، وصانها، كأصدق ما يفعله أفضل الأزواج، إلى أن عمل في آخر الأمر، ربما بعد مرور سنوات عديدة، لم يرها قط خلالها، على صنع تمثال هذه الفتاة الغضة الرقيقة، السمحة، ووضع في وجهها، وفي هيئتها، وفي يديها، كل ما كان يتسم به جبهما من رقة وروعة، وبهجة وشوق.

التماثيل القائمة حول مقراً قاعة الطعام كانت تحوي أيضاً، بالنسبة إلى نرسييس، الكثير من قصة حياة غولدموند - قصة حياة فاسق متشرد، بلا مأوى، ولا إيمان، جواب الدروب، لكن كل ما تركه منها، هناك في الخشب، كان جميلاً، وحقيقياً، ومفعماً بالحب النابض. كم يمكن أن تكون الحياة غريبة، وما أشد حلكة السيل وتخبطه، وما أنقى وأجمل ما تبقى معنا.

خاض نرسييس صراعاً ضارياً مع نفسه. وانتصر وظل وفيماً للطريق التي اختارها، ولم يخفف قط مثقال ذرة من خدمته الصارمة. بيد أنه تكبد خسارة صديقه، وغالى أيضاً من إدراكه مدى المساحة الهائلة التي احتلها ذاك الصديق في قلبه، في حين أن عليه أن يتكسر بكليته لله ولأداء واجبه.

على الأرض، ورفس حذاءه، واستلقى على السرير. وفي الزاوية البعيدة المظلمة من الغرفة استطاع أن يرى تمثاله للمادونا. ماثراً بقماش مشمع. فأوماً إليها لكنه لم يقترب منها ليزيل عنها أغطيتها، أو ليحييها. وبإدراك ذلك زحف نحو النافذة الصغيرة، التي كان إريش القلق ما يزال واقفاً خارجها، وهتف:

"إريش، لا تخبر أحداً أنني عادت. أنا مفرد التعب. هناك وقت حتى الصباح".

ثماد دون أن يخلع ملابسه. غير أنه، لما لم يجد إلى النوم سبيلاً، سرعان ما نهض واقفاً من جديد، وجرد قدميه بشاقل إلى الجدار، ليمعن النظر في المرأة المعلقة هناك. حادق بتسعين إلى الغولدموند الذي بادله التحديق من خلال دائرة المرأة، العجوز، المتعب، الذائبي، تتخلل لحيته خطوط بيضاء ناصعة. لقد كان الشخص الذي بادله التحديق من الدائرة الصغيرة الباهتة عجوز أشعث، بوجه ليس وجهه، على الرغم من أنه تعرف عليه، وجه شخص غريب. وجه لم يشعر أنه موجود فعلاً، لأنه لم يكن يشبهه في شيء. وقد ذكره وجهه بوجوه أخرى كثيرة، ذكره قلباً بالمعلم نيك لاس، وقلباً بالقديس جيمس في الكنيسة - القديس جيمس، العجوز الملتحي، الذي بدا شيخاً عجوزاً متهاماً أبيض الشعر يستقل بقبعة الحج الواسعة، إلا أنه عجوز لطيف، طيب القلب.

تمعن في وجهه بانتياد شديد، وكأنه يتوق إلى معرفة كل ما يمكنه هذا العجوز الغريب الأطوار. ثم أوماً برأسه، وتعرف عليه ثانية كغولدموند. نعم، إنه هو، وهو يتطابق مع إحساسه بنفسه. عجوز منهك، فائر النشاط. حائد من رحلة طويلة، شيخ هاديء، وعلى الرغم من أنه لم يعد ينفع لشيء. لم يكن يحسن له أي ضغينة، بل وجد أن من السهل التعاطف معه. هذا الشيخ المتهالك في وجهه شيء كان غولدموند الآخر الوسيم ينتقده. فعلى الرغم مما تحمله هاتين العينين من إرهاق فئسة نظرة رضا فيهما - أو لأمالاة. وهيفه برفه. وراقب الشكل الباهت يردد القهقهة. شيء جعله أن يعود إلى الحب ورحلة هذا الشيخ الرائع! لقد تركه وحده الصغير المستعبد نطقاً بالياء، وما هو الآن بلا

حصان، وبلا حقيبة سفر، وبكيس دراهم خال من القطع الذهبية. وفوق كل هذا، لقد خلف وراءه قوته وشبابه، وثقته بنفسه، وتورده وجنتيه، وبريق عينيه. غير أن الصورة مع ذلك سرته: فهذا الشيخ الضعيف الذي يطل عليه من المرأة هو أفضل كرفيق من الغولدموند الذي عاش معه رداً مديداً من الزمن. إنه واهن، يثير الشفقة، لكنه أكثر مسالمة بكثير، وأكثر رضا. ومن الأسهل قضاء حياة هادئة معه. وضحك وغمز بأحد جفني عينيه المتغضن. ومن ثم تمدد على السرير، واستغرق في النوم.

في اليوم التالي جاء نرسييس لزيارته وكان قد جلس، يحاول أن يرسم قليلاً، منحنيًا أكثر فوق طاولة ورشة العمل. وتوقف رئيس المدير عند ممر الباب.

هتف: "الحمد لله! لقد أخبروني للتو أنك عدت. إن سعادتي غامرة. وبما أنك لم تسأل عني جئت أنا. هل أعيق عملك؟".

اقترب منه، وانتصب غولدموند قائماً عن رسمه، ومد يده. وعلى الرغم من أن إريش كان قد حذره مسبقاً فإن قلب نرسييس كاد يتوقف عن الوجيب لدى مرأى صديقه. وبش غولدموند في وجهه قائلاً: "مرحباً بك يا نرسييس. منذ مدة طويلة لم يشاهد أحداً الآخر. سامحي لأني لم أبادر إلى زيارتك".

نظر نرسييس في عينيه مباشرة. هو أيضاً نفذ أعمق مما بدا على هذا الوجه من إرهاق مهلك، يبعث على الشفقة، ورأى تلك النظرة الهادئة بشكل غريب، التي تنم عن قناعة داخلية - عن إذعان رجل عجوز يثير الشفقة. ولكونه خبيراً في استشفاف الوجوه الإنسانية، أدرك على الفور أن هذا الغولدموند، المذلل، الغريب الشكل لم يعد بحق صديقه، الذي عاد ليرحب به - فإما أن روحه قد انفصلت عن الواقع وراحت تهيم على وجهها على درب أحلام نائية، أو أنها وقفت عند البوابة التي تؤدي إلى خارج الحياة. سأله برقة: "أأنت مريض؟".

"آه نعم. أنا مريض أيضاً. لقد مرضت منذ الأيام الأولى لترحالي. لكنني لم أرغب أن تضحك مني، وهكذا كما ترى لم أستطع أن أعود أدراسي. كنت ستضحك وأنت تنظر إلى عودتي السريعة، ثم وأنا أخلع بهدوء حذاء ركوبي. لا - لم أكن أحتمل ذلك. وهكذا تابعت طريقي، وتحولت لفترة من الوقت هنا وهناك، كان بخجلي التفكير في أن رحلتي قد أخفقت. ولم أحسب حساباً لمضيقي، وهكذا، كما ترى، شعرت أنني أحمق. آه حسن، أنت إنسان حكيم، وقادر على الفهم. آه، سألتي - ماذا سألتني؟ لعلي سألتي، لأنني صرت أنسى على الدوام كل ما يقال لي. إنها تلك المشكلة مع أمي، يا نرسييس! لقد أحسنت معالجة الأمر، في الحقيقة. لقد آذاني ذلك كثيراً عندئذٍ، ولكن -".

ختم ببرته بابتسامة.

"سوف نعتني بك يا غولدموند، سوف نحصل على كل شيء. ولكن، آه - لماذا لم تعد. حالما بدأت الأمور تسوء معك؟ صدقاً ما كنا أبدأ لنعيك. كان يجب أن تأخذ الحمام حسانك".

ضحك غولدموند. وقال -

"آه، نعم - الآن تكشفني لي الأمور! إنني لم أثق من نفسي حتى في العودة ببساطة إلى هنا. كان ذلك سيفضعني في موضع خيز. ولكني الآن عدت. أنا على ما برام ثانية الآن".

"هل عانيت ألماً مبرحاً؟"

"ألم؟ آه نعم، عانيت ما يكفي من الألم. ولكن اسمع - إن ألمي ألم جيد. لقد أعادني إلى صوابي، ولم أعد أشعر بالخزي - حتى وأنا معك. وعندما أتيت إلى السجن لتتخذ حياتي... كان يجب أن أعقد عزمي عندئذٍ يا نرسييس، لقد شعرت بالعار الفادح عندما رأيتني هناك. أما الآن فسيان عندي".

وضع نرسييس يده على ذراعه، فصمتت على الفور، وأغمضت عينيه ورسم ابتسامة. وذهب رئيس الدبر مسرعاً، والخوف يملأ قلبه، ليستدعي

طبيب الدير، الأب أنطون، ليفحص الرجل المريض. وعندما عاد غولدموند قد استغرق في النوم، وهو جالس على طاولة الرسم. فوضعاها في سريره. وبقي الطبيب ملازمه.

اتضح بعد ذلك أن مرضه مستعصياً، فنقل على وجه السرعة إلى أحد أجنحة الدير. وأصبح إريش حارسه ليل نهار.

لم يتوصل أحد قط إلى معرفة كامل قصة المغامرة الأخيرة لغولدموند على الطرقات. وقد روى بعضها، وترك معظمها للتخمين. وكان كثيراً ما ترتفع درجة حرارته، وهو مستلق في شبه غيبوبة، ويبدأ بالهذيان. أحياناً يكون كلامه واضحاً، ومن ثم، وفي كل مرة، كان يتم استدعاء نرسييس، الذي احتفظ بمخزون كبير من ذاك الكلام الأخير.

دوّن نرسييس بعض مقاطع من قصة غولدموند ومن أفكاره، والبعض الآخر دونه إريش.

"متى بدأت آلامي؟ حدث ذلك قرابة بداية رحلتي. كنت أشق طريقي خلال الغابة، فإذا بالفرس الهرم يتعثر ويوقعني فسقطت في جدول، وبقيت ملقى طوال الليل في المياه الباردة، ومنذ ذلك الحين وأنا أشعر هنا في الداخل، حيث أضلعي مكسورة بالألم. وعندما وقع لي هذا لم أكن بعيداً عن هنا، فلم أستطع أن أدع هذا الأمر يعيدني أدراجي. لقد كنت أشبه بطفل أحمق، يخشى أن يبدو أحمق. فتابعت المسير، ولما عجزت عن مواصلة الطريق بسبب الألم بت الفرس الهرم، ولزمت النزل لفترة طويلة. وها أنا قد عدت إلى الأبد يا نرسييس: لا ركوب خيل بعد الآن، ولا تجوال على الطرقات، ولا رقص مع النساء. آه، لو لم يحدث ما حدث لكنت بقيت هائماً فترة أطول بكثير، لسنين أكثر. لكنني حين أدركت وأنا هناك، أنه لم يبق لي مسرات أقطعها، فكرت قائلاً: "أريد أن أرسم قليلاً قبل أن أوارى الثرى، وأن أنحت بعض التماثيل". إن على

الإنسان أن يحصل على نوع من المتعة".

عندئذ أجابه نرسييس .

"إن مما يبهيجني أن تعود وتنضم إليّ. لقد افتقدتك كثيراً، وكنت أفكر فيك كل يوم. وكثيراً ما كان يتتابني الخوف من أن لا تعود أبداً." هز غولد. موند رأسه :

"آه، حسن، ما كنت لشخصير الكثير".

مال نرسييس فوق صديقته، وبركان من الحب والأسى يمور في قلبه، وفعل ما لم يكن قد فعله قط قبل الآن، خلال كل سنوات صداقتهم الطويلة: قبل جبين غولد. موند، وشعره. للوهلة الأولى ذهل غولد. موند، ومن ثم كان كالماصور، واعتبر فعله شيئاً استثنائياً.

همس له رئيس الدبر: "سأعني يا غولد. موند. لأنني لم أتمكن من قولها قط من قبل. كان يجب أن أقولها في ذاك اليوم في مدينة الأسقف، عندما أتيت لأحررك من السجن، أو هنا عندما عرضت عليّ أول ثمائليك، أو في أي وقت آخر أتيح لي ذلك. دعني أقولها الآن، وأعبر لك عن مبلغ حبي لك، وكم كانت حياتك دائماً تعني لي الكثير، وكم أغنيت كياني. إن هذا لن يعني لك شيئاً. أنت اعتدت على أن تحب، وبالنسبة إليك هو ليس بالأمر غير العادي، فقد ضمتك الكثير من النساء بين أذرعهن، وتعلقن بك. أما بالنسبة إليّ فالأمر مختلف. لقد فاتني الأفضل، وكانت حياتي فقيرة بالحب. لقد أنحرنني أبونا الرئيس دانييل أبيّ، وبدو أنه شقّ فيما قال. وهذا لا يعني أنني غير منصف مع الرجال. لقد كافحت بعزيمة قوية كي أكون عادلاً معهم وصبوراً. بيد أنني لم أحبهم قط. ومن بين اثنين من الرهبان المثقفين في الدبر، كان الأكثر ثقافة بينهما هو الأقرب إلى قلبي. إنني لم أحب قط فقيهاً سيئاً على الرغم من ضعفه، ومع ذلك، وعلى الرغم من كل هذا، فأنا أعرف ما هو الحب، والفضل يعود إليك. إنه أنت من أحببت، وأنت وحدك، من بين كل البشر. لن تسكن أبداً

من سبر عمق ما يعنيه هذا لي. إنه أشبه بنبع في قلب الصحراء، بشجرة مزهرة وحيدة في قلب البرية. لك وحدك الشكر لأن قلبي لم ينضب معينه ويفنى، لأنه ما زال لدي شيء يمكن أن يتأثر بالجمال".

ابتسم غولدموند بسعادة ولكن بقلق. وقال بصوت ساعات صفائه، الخفيض، الهادىء:

"بعد أن حررتني. وانطلقنا معاً عائدين إلى الوطن، سألتك عن أخبار فرسي "بليس"، فأبلغتني بموته. ثم أدركت كيف أنك كنت ترعى فرسي الصغير "بليس" وأنت الذي لم يكن ينتبه إلى وجود أي حصان آخر في الدير. لقد فرحت كثيراً، لأنك فعلت ذلك إكراماً لي الآن بت أفهم أنني كنت كما اعتقدت نفسي، وأعرف بحق أنك تحبني. ولطالما أحبتك يا نرسييس. ونصف حياتي كانت سعيًا حثيثاً لكسب حبك. كنت أعلم أنك طالما راعيتني، لكنني لم أمل قط في أنك سوف تبوح لي بذلك - أنت أيها الأبى! لقد قتلها الآن، بعد أن لم يتبق لي أحد غيرك، لا حياة ولا حرية في العالم، والنساء أدرن ظهورهن لي. إنني أقبل حبك، وأشكرك عليه".

كانت ليديا مادونا تراقبهما من موقعها في زاوية الغرفة.

سأله نرسييس: "أما زلت تفكر في الموت؟".

"آه، نعم، أفكر في الموت. وأفكر كيف تشكلت حياتي. حين كنت فتى، وكنت أنت ما تزال طالبَ فقه، كنت أود أن أصبح حكيماً مثلك. وبينت لي كيف أنني لا أنفع لذلك. ومن ثم اتخذت المنحى الآخر للحياة، وتبعت أحاسيسي، وسهلت النساء لي السبيل للعثور على المتعة في ذلك، كن جميعاً ذوات رغبة عارمة، وشبق. ولكن لا أريد أن أبدو وكأني أحتقرهن، أو أن أقول في حقهن أي كلام فاسق. لقد كنت أعيش حياة جسدية غاية في السعادة، ونلت نعيم معرفة أن الجسد يمكن أحياناً أن

يكون هو الروح. وهذا يخلق الحرفي. أما الآن، فقد خبا اللهب كله، لقد فقدت متعة الأنداء والشوق إليها. ولن أتمكن اليوم من الحصول عليها، حتى ولو رغبت النساء بي من جديد. ولم أعد أرغب في نخت مزيد من التماثيل. لقد أبخرت ما يكفي. ما أهمية عدد التماثيل التي يخلّفها الحرفي؟ وقد حان وقت الموت. وأنا راغب فيه كل الرغبة. بل إنني أصبو إلى بيبه".

سأله نرسييس: "لماذا تصبو إليه".

"أعتقد أنك تغلّني أحمق - ومع ذلك فأنا أصبو إلى الموت. وليس إلى الحياة الأبدية يا نرسييس، فهذه لا تهمني أبداً، وبعبارة أوضح أقول أنني لم أعد أؤمن بها. لا وجود لما يسمى بالحياة الأبدية. إن شجرة ذابلة هي ميتة إلى الأبد، وعصفور متجمد لن يعود أبداً إلى تحريك جناحيه. فلم يجب أن تكون جثة الإنسان في حال أفضل؟ قد يفلل ذروه على ذكره لبعض الوقت، ولكن بما أنه قد رحل فإن ذلك لن يستمر طويلاً. لا، إنني أصبو إلى الموت لأنني لا أزال أؤمن، أو أحلم، بأنني عائد إلى أحضان أمي، لأنني آمل في أن يكون موتي سعادة عظمى - عظمى مثل تلك التي حصلت عليها من حبيبي الأولى. لا أستطيع أبداً أن أخلص من التفكير في أنه ليس الموت من سيأخذني بمنجله، وإنما أمي هي التي ستضميني إلى حضنها، وتقودني في عودة إلى العدم والبراءة".

في إحدى تلك الزيارات الأخيرة، حين كانت قد مرت عدة أيام لم يتكلم خلالها غولد-موند، وجده نرسييس مستيقظاً، وتوافقاً إلى الكلام.

"يقول الأب أنطون أنك لا بد تعاني آلاماً مبرحة. كيف تستطيع أن تتحملها بكل هذا المدة يا غولد-موند؟ أعتقد أنك حققت سلامك أخيراً".

"تقصّد سلامي مع الله؟ لا، لم أعثر على هذا. إنني لا أبغي سلاماً مع الله. لقد خلق العالم شريعراً جداً، ولا مبرر لدينا لاحترام هذا العالم،

ولن يأبه الله سواء أمدحته أو ذمته. كم خلق العالم بشكل سيء! لكنك بحق في قولك أنني حققت السلام مع آلام أضلعي وفي وقت من الأوقات كان يصعب علي كثيراً أن أتحمّل الألم، وعلي الرغم من أنني كنت أعتقد أن من السهل أن أموت، لكنني كنت مخطئاً. وفي تلك الليلة حين بدا الموت قريباً وأنا في سجن الكونت هاينريش، أدركت ذلك. فلم أقبل الموت، هكذا ببساطة! لقد كنت من القوة والجموح بحيث رفضت الموت عندئذ: كان عليهم أن يقتلوا كل عضو بي مرتين. وكل هذا تبدل الآن".

كان الكلام يرهقه وأضحى صوته واهناً. فناشده نرسييس كي يرحم نفسه.

قال: "لا، أريدك أن تسمعي. وفي وقت من الأوقات كنت أنجمل من مصارحتك. حتى الآن سوف تسخر مني - ولكن اسمع. في ذاك اليوم حين امتطيت صهوة جوادي وغادرتك، لم يكن ذلك سعيّاً وراء أي مغامرة قد أصادفها. لكنني كنت قد سمعت إشاعة مفادها أن الكونت هاينريش قد عاد إلى هذه النواحي ثانية، ومعه عشيقته، السيدة أغنس. طبعاً، هذا لا يعني لك أي شيء، واليوم لم يعد يعني حتى لي شيئاً. لكنني حين سمعت ذلك التهبت عواطفني حتى أنني لم أعد أفكر في أي شيء آخر غير أغنس. لقد كانت أعذب من ضاجعتهن، وهكذا تفت إلى ملاقاتها ثانية. رغبت في تذوق طعم السعادة معها من جديد. وانطلقت، وخلال أسبوع من الزمن عثرت عليها. كانت ما تزال جميلة، ونجحت في التحدث إليها، واستعراض نفسي. ولكن تصور يا نرسييس - لقد رفضت أن تلقي علي نظرة. قالت إنني عجوز جداً، وإنني لست جميلاً أو شاباً، أو مفعماً بالحياة بحيث أناسبها. والآن لم تعد تأمل في الحصول على أي متعة معي. عندئذ كانت رحلتي قد انتهت فعلاً، ومع ذلك واصلت المسير. في الواقع لم أتمكن من العودة خشية أن تعنفي. ولكن حتى عندئذ، بينما كنت أتابع الانطلاق، لا بد أن قوتي، وشبابي

وجاذبتي، كانت قد تغلّت عني، لأنني سقطت في أخلدود مع حصاني، داخل جدول وتكررت أضلعي، وانطرحت في المياه طوال الليل. وكانت تلك أول آلام مبرحة أشعر بها. وفي لحظة سقوطي نفسها شعرت بشيء ينكسر في صدري، لحظ الانكسار بدا لي أشبه بالمتعة. لقد كنت سعيداً. أحسست به مصحوباً بهجة. وهكذا استلقيت هناك في المياه وعرفت أنني يجب أن أموت. غداً، لم يعد لدي أي اعتراض عليه. لم يبد الموت بالسوء الذي كان يبدو عليه وأنا في السجن. فأحسست بتلك الآلام المبرحة نفسها تحت أضلعي والتي كثيراً ما أحس بها منذ ذلك الحين، وهي التي جعلتني أرى حليماً، أو رؤياً - سمه ما شئت، في أول الأمر بدا الألم كالسع النار، واستلقيت هناك، ورحمت أصرخ، وأكافحه بالمقاومة، إلى أن سمعت فجأة صوتاً، يضحك معي - كان صوتاً اعتدت أن أسمعهُ وأنا صغير. لقد كان صوت أمي، صوت امرأة، رخيماً، عميقاً مفعماً بالحب، وبالفسق. وعندما أدركت أنه صوت أمي، لقد كانت معي، تضميني في حجرها، ثم أحاطت ثقباً في صدري، وأدخلت أصابعها عميقاً بين أضلعي، لتفك قاي من مكانه وتخرجه. وعندما عملت ذلك، لم يعد ما أشعر به ألماً والان، عندما تعاودني الآلام، لا تكون ألماً - ليست أعداء. إنها أصابع أمي، تخرج قلبي. إنها منهمكة في هذا العمل. وأحياناً تزيل الأنين بالضغط، وكأنها تعاني من لواعج الحب. أحياناً كانت تضحك وتندندن فوقى. وكثيراً ما كانت ترتفع إلى عنان السماء، وأرى وجهها من بين السحب كبيراً نحيم غيمة، يحوم هناك، ويتسمم ابتسامة حزينة لي. وتقترب ابتسامتها الحزينة من قلبي، وتنتزعهُ.

أخذ يتكلم عنها وبعد الكلام.

في أحد أيامه الأخيرة سأله: "أتدري إلى أي حد كنت قد نسيت أمي قبل أن تنهضها، وتبداها إلي؟ حتى ذلك كان يسبب لي ألماً مبرحاً. وكان رؤوس حيوانات تنهش أحشائي. نعم إننا كنا ما نزال ولدين يا نرسييس - ولدين

رائعين، نحن الإثنين، في تلك الأيام. ولكن حتى في ذلك الوقت كانت أمي تناديني. وتبعتها. لقد كانت موجودة في كل مكان. كانت هي ليزا الغجرية، والمادونا الحزينة التي صنعها المعلم نيقولاس. كانت هي الحياة والمجون، والخرف والجوع، والحب، والآن هي الموت، وقد أدخلت أصابعها داخل صدري".
توسل نرسييس إليه: "لا تكثر الكلام يا صديقي، انتظر حتى الصباح".

وجه غولدموند ابتسامة عالياً إلى عينيه، ومع الابتسامة الجديدة كان قد عاد إلى البيت من أسفاره، الابتسامة التي بدت غاية في البشاشة والعجز، وأحياناً متلبسة وبلهاء، بيد أنها نمت عن طيبة صافية وحكمة صرف.

همس: "يا عزيزي، لا أستطيع أن أنتظر حتى الصباح. يجب أن أرحل، وأخبرك بكل شيء أثناء رحيلي. اسمعني بضع دقائق أخرى. أريد أن أخبرك عن أمي، وكيف أبقت أصابعها محيطة بقلبي. منذ سنين وأنا أتمنى أن أصنع تمثالاً لأمي، وكان ذلك أروع أحلامي كلها. كان سيكون أفضل أعمال قاطبة، لأنها كانت دائماً ماثلة في مخيلتي، في شكل مفعم بالحب، وبالسرية. وحتى قبل فترة وجيزة كنت أشعر أن من الصعب علي أن أموت دون أن أنقش صورة أمي. كانت حياتي ستبدو عقيمة. أما الآن أنظر إلى أي حد نجحت في عملها. فبدل أن تشكل يداي صورتها، قامت هي بتشكيل صورتي، ونفخت في الحياة. وأحاطت قلبي بأصابعها، وحلته عن مكانه، وأفرغتني. ثم قادتني إلى الموت، ومات حلمي معي - التمثال الذي صنعت له لواء، من الخشب، أم البشر جميعاً. لا أزال أراه، وسوف أحته، إذا تبقت أي قوة في يدي. لكنها لن تسمح بذلك. لن تسمح أبداً بكشف سرها. وسوف تقتلني قبلها. ومع ذلك يسعدني أن أموت، إنها تسهل الأمر علي".

استمع نر سسيس إلى هذه الكلمات الأخيرة وهو مكروب. وكان عليه لكي يميزها أن ينحني إلى أسفل مقترباً من وجه غولد موند. والكثير منها لم يسمعه إلا جزئياً، وسمع الكثير منها، لكن ظل معناها مغلقاً عليه. ثم فتح المريض عينيه مرة أخرى. عشان يغيبهما الموت. وهمس، مع إيماءة صغيرة، ودأماً يكافح ليهز رأسه :

"ولكن كيف يمكن أن تموت أنت يا نر سسيس؟ أنت لا تعرف لك أمأ. كيف يمكن أن نحب دون أم؟ إننا بدون أم لا نستطيع أن نموت".

بقية الكلمات التي غسغسها لم تكن واضحة. وظل نر سسيس يلازم سريريه طوال اليومين الأخيرين والليتين، وهو يراقب النور ينطفئ من وجهه، وكلمات غولد موند الأخيرة ما تزال تلفح قلبه كألسنة اللهب.

من اصدارات الدار

١. معنى الحياة والسعادة والأخلاق
٢. مولير (مسرح)
٣. على دروب الثقافة الديمقراطية
٤. عطر اللوز (شعر)
٥. أزهار الغضب (شعر)
٦. الشعر النبطي في حوران
٧. قراصنة وأباطرة
٨. المعري والشيرازي
٩. رسالة عارف المتلوف (قصص)
- ترجمة يوسف الجهماني
- ترجمة يوسف الجهماني
- بوعلي ياسين
- يوسف صياصنة
- منصور الزعبي
- علي المصري
- نوعام تشومسكي
- علي مخلوف
- زكريا شريقي

سيصدر قريباً

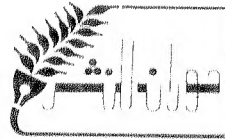
- | | |
|-----------------------------|----------------------|
| ١. حواران مع التاريخ | د. حليل مقداد |
| ٢. الفهرس التاريخي الأثري | د. حليل مقداد |
| ٣. الصراع السياسي في تركيا | ترجمة: يوسف الجهماني |
| ٤. درعا - مدينة الأتليبولوس | د. حليل مقداد |
| ٥. كاليغولا (مهمحة) | ترجمة: يوسف الجهماني |
| ٦. علم أخلاق السعادة | ترجمة: يوسف الجهماني |

نرسييس وغولدموند

نرسييس معلم صارم في دير ألماني يعود إلى القرون الوسطى، إلا أنه يتمتع بفلسفة ثابتة منفتحة، ترى العالم ملوناً، تعج فيه حيوات مختلفة شكلاً وذوقاً ومنها صديقه غولدموند، تلميذه الذي استحوذ على مجمل مشاعره. غولدموند ذلك الفتى الذي تأثر تأثيراً شديداً بطباع أمه، التي كانت تهرب، دائماً، إلى الحرية. تخلص غولدموند من سجن الدير وأخذ يمارس التجوال والإنغماس في بحر الشهوات المتكشفة، التي كانت لا تمر أحياناً إلا عبر مخاطرات وأقمطة الوباء والعاصفة والجريمة. كان غولدموند راهباً دنيوياً تعلم سر السعادة من أمه الحقيقية وفتن بأمه الطبيعة وسار في شعابها الجميلة والقيحة.

فهل كان هرمان هسه (١٨٧٧ - ١٩٦٢) هو هذا الغولدموند أم ذلك النرسييس، أم أنه كان تارةً هذا وأخرى ذاك؟

الناشر



دار حوران للطباعة والترجمة والنشر
سوريا - دمشق - ص . ب : ٣٢١٠٥
أشرفية صحنابا - هاتف : ٦٧١٣٠٧٩

تصميم الغلاف : طالب الداود